الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية
Universidad Internacional de América Latina

Universidad Internacional de América Latina
الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية
Universidad Internacional de América Latina

تاريخ الدولة الإسلامية

(١)

البرنامج العربي

شعبة الدراسات الإسلامية والعربية

التصميم التعليمي والإعداد
لجنة المناهج

الجامعة الدولية بأمريكا اللاتينية

تاريخ الدولة الإسلامية

(١)

التصميم التعليمي والإعداد
لجنة المناهج

الطبعة الأولى
١٤٢٨ - ٢٠٠٧
رقم الإيداع
٢٠٠٧/٧٥٥٢


بسم الله الرحمن الرحيم

مرحباً بطالب العلم

كلمة قالها رسول الله ﷺ[1] منذ أربعة عشر قرناً من الزمان، ولا تزال منقوشة على صدور ورثته من بعده وفي قلوبهم! يستقبلون بها طلبة العلم من مشرق أو من مغرب، يبشون بها في وجوههم ويفسحون لهم في مجالسهم، ويقدرون توجههم لطلب العلم وانقطاعهم لتحصيله.

وعلوم الشريعة - أيها الدارس الكريم- هي ميراث النبوة، فإن الأنبياء لم يورثوا درهماً ولا ديناراً وإنما ورثوا هذا العلم، وعلى قدر حظ الناس منه يكون حظهم من وراثة النبي ﷺ.

ولهذا كان طلب العلم أغلى ما أنفقت فيه أعمار البشر وأموالهم، وإن لحظة ينفقها الإنسان في عمره لا يستفيد فيها علماً، ولا يقصد فيها إلى طاعة، لجديرة بأن تطول عليها حسرته!

... هذا، وإنَّ الجامعة الدولية وهي تدرج أولى خطواتها في نشر العلم والمعرفة في أرض الله الواسعة باسم الله وعلى سنة رسول الله، متخذة من أمريكا اللاتينية نقطة انطلاق لها، مرتادة بذلك آفاق قارة مهجورة منسية، لم يعبأ بها كثير من العاملين للإسلام، ولم تتجه إليها همة كثير من مؤسساتهم، فإنها تود أن تكون بذلك على خطى الرعيل الأول من صحابة النبي ﷺ الذين خرجوا من

(١) من حديث أخرجه الطبراني في المعجم الكبير (٨/ ٥٤) عن صفوان بن عسال المرادي، وقال الهيثمي في مجمع الزوائد: رجاله رجال الصحيح (١/ ١٣١)

مدينة الرسول ﷺ ينشرون علمه وهديه، ويوطئون لرسالته مهاداً في مشارق الأرض ومغاربها، واختاروا ذلك على البقاء في مدينة الرسول ﷺ ومجاورة مسجده الشريف، حيث الصلاة المضاعفة الأجر، والتي يزيد أجرها ألف مرة على ما سواها من الصلوات في بقية المساجد.

وبعد: فهذه نصيحة لطالب العلم وهو في بداية الطريق:

احرص على تجريد القصد لله، ولا تشب هذا الطلب الشريف بشائبة من حظوظ النفس وأغراضها، فإن من تعلم علماً مما يبتغى به وجه الله - لا يتعلمه إلا ليصيب عرضاً من الدنيا لم يجد عَرْف الجنة يوم القيامة!

وحسبك هذا الحديث الشريف: «**إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى!**» (١)

واعلم أن الأصل في طلب علوم الشريعة هو المشافهة والتلقي المباشر، فهو الذي تخرج عليه علماء الأمة عبر القرون، فلا ينبغي أن يعدل عن هذا الأصل ما امتهد سبيل إلى ذلك.

ومن كان شيخه كتابه فاق خطؤه صوابه! فاحرص على المحاضرات التي تقدمها الجامعة سواء من خلال أساتذتها الزائرين، أو من خلال ما تبثه إليك عبر وسائط التقنية التي يتم فيها التواصل صوتاً وصورة بينك وبين المحاضرين أينما كانوا، مهما تناءت الأقطار وتباعدت المسافات.

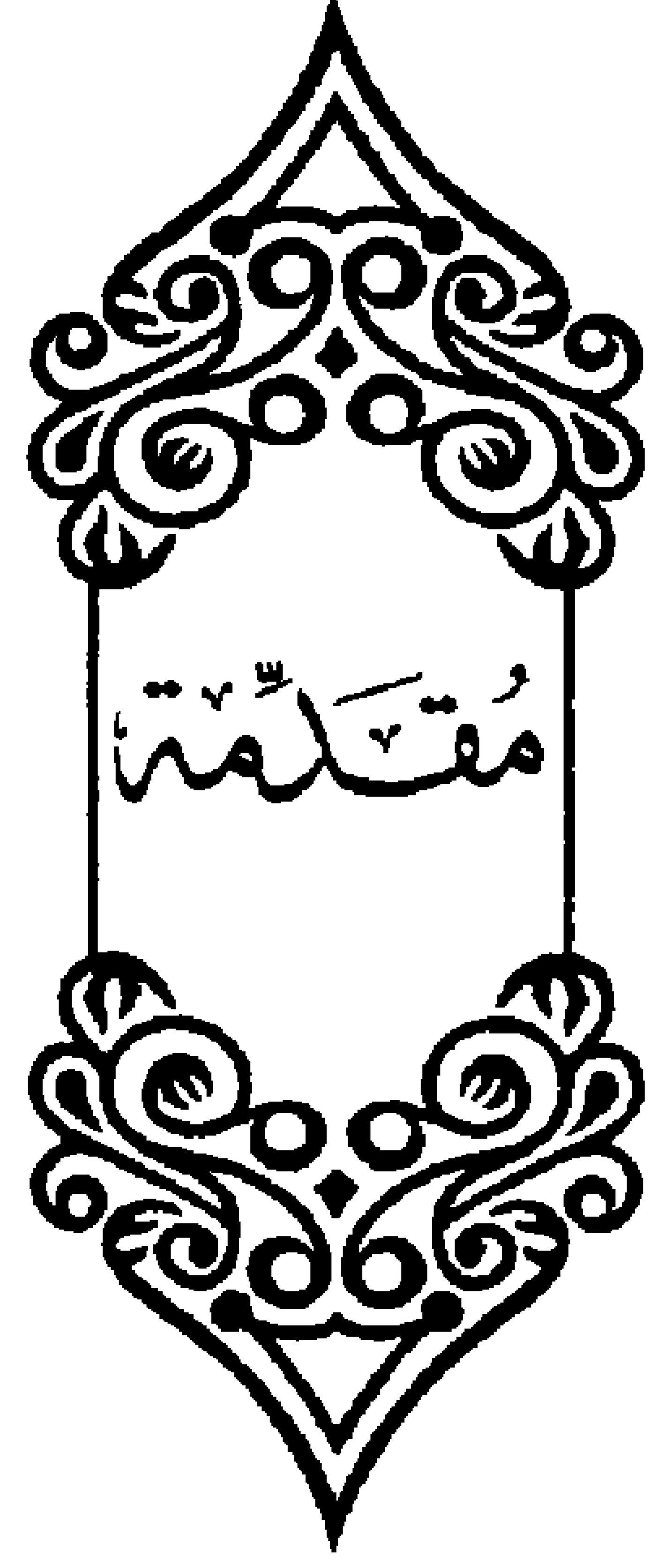
---

(١) متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب ﷺ، البخاري في كتاب بدء الوحي: باب بدء الوحي، ح:١، ومسلم في كتاب الإمارة باب قوله ﷺ: «إنما الأعمال بالنية»، ح: ١٩٠٧

واحــرص عــلى الجــد في الاســتذكار والتحصــيل، واعــتن بالأنشــطة والاختبارات الملحقة في نهاية كل وحدة دراسية.

مع أطيب تمنيات الجامعة الدوليـة لـك بـالتوفيق والسـداد، والله مـن وراء القصد وهو الهادي إلى سواء السبيل.

أ. د./ صلاح الصاوي
رئيس الجامعة



الحمد لله الذي قال في محكم التنزيل: ﴿لَقَدْ كَانَ فِي قَصَصِهِمْ عِبْرَةٌ لِأُولِي الْأَلْبَابِ﴾[(١)]؛ والصلاة والسلام على أستاذ البشرية ومعلمها محمد بن عبد الله ﷺ.

أما بعد ...

فإن المسلم الذي لا يعي تجاربه الخاصة ويتعلم منها كيف تُجتنب المزالق ويتقي الخصوم مسلم قصير النظر ضعيف الإيمان؛ لأنه لم يعِ قول الرسول ﷺ: «لَا يُلْدَغُ الْمُؤْمِنُ مِنْ جُحْرٍ وَاحِدٍ مَرَّتَيْنِ»[(٢)]، والأمة التي سلخت من عمرها المديد من هذه القرون وخرجت بثروة هائلة من الأحداث الجسام والواقعات العظام؛ يجب أن تضع أمام أعينها الدروس التي تلقتها خلال هذه القرون الطويلة؛ حتى لا تقع في ذات الحفر التي وقعت فيها من قبل، أو تلدغ من الجحر القديم نفسه.

إن تاريخ الأمة الإسلامية أبعد خطراً من أي تاريخ أمة أخرى، فالتاريخ الإسلامي هو التطبيق العملي للإسلام على مر العصور؛ ووعي الأمة بهذا التاريخ ورجوعها إلى أحداثه ووقائعه واستلهام العبر منه يأتي في الدرجة الثانية لرجوعها إلى أصول الدين قرآنا وسنة.

فالتاريخ الإسلامي هو عقل الأمة الإسلامية ووعيها، وهو تجربتها في

(١) يوسف: ١١١.

(٢) البخاري: ح٦١٣٣، ومسلم: ح٢٩٩٨.

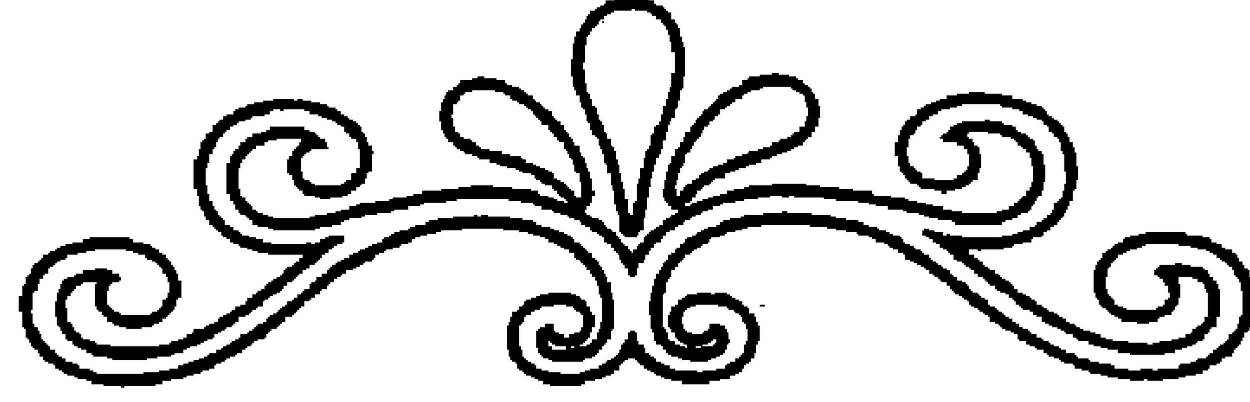
التعامل مع السنن الإلهية في الكون والحياة والإنسان، وهو خبرة الحياة في كيفية تداول الأيام بين الناس بالتمكين تارة، والتأخر عنها في مرحلة القصعة والغثائية بفعل تداعي الأمم على الأمة الإسلامية كتداعي الأكلة على قصعتها كما أخبرنا الحديث النبوي تارة أخرى وهو كذلك معين العطاء الإسلامي في شتى مناحي الحياة، وقد أينعته صالحاً- هذه الأمة- حال استمدادها هويتها من إسلامها، ثم أينعته فاسدا حال اشتقاقها هويتها من غيره، وهو أخيرا النتاج الحقيقي لتفاعل الإنسان المسلم مع عقيدته وشريعته عبر أجيال متواصلة، وحقب متلاحقة، إن في تعانقه معهما أو في انفصامه عنهما.

فالحقيقة أن المسلم- حالياً- قاصر عن الفقه الصحيح بالتاريخ، وهو عاجز عن الإحاطة بعصوره، والوقوف عند محطاته الكبرى ومعالمه البارزة، بل إن حصيلة المسلمين من التاريخ تكاد تكون صفرا.

وفي هذا الكتاب سوف نستعرض تاريخ الدولة الإسلامية في العهدين الأموي والعباسي عندما كانت الدولة الإسلامية مهابة من الجميع وتعمل لها الأمم الأخرى ألف حساب، فقد كانت الدولة الإسلامية دولة ذات كيان واحد رغم اختلاف طبيعة الشعوب- جنساً وعقيدة- التي تحت سيطرتها، ولكن عندما ضاعت الوحدة الإسلامية وضعفت الدولة العباسية وظهرت الكيانات الإسلامية المستقلة- رغم ما كان لهذه الكيانات من دور بارز في نشر الإسلام والإسهام في تطور الحضارة- شعر المسلمون باليتم لفقدان الوحدة، وتجرأت عليهم شعوب أخرى كالتتار والصليبين.

وإننا إذ نختم سطور هذه المقدمة الموجزة لنؤكد على أن دارسة التاريخ ليست

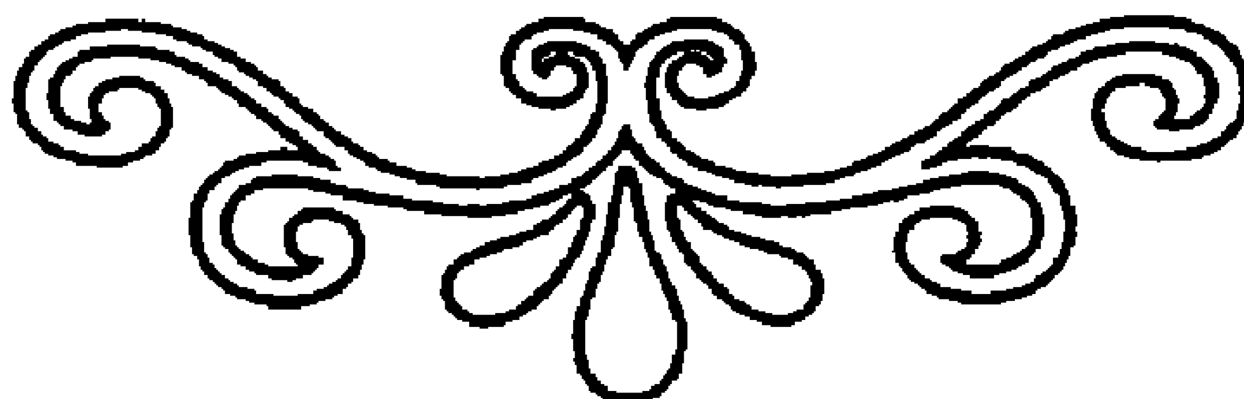
نافلة يتطوع بأدائها من يشاء؛ بل هي ضرورة دينية واجتماعية تقوم بها الأمم الحية، ولو أن مؤسسة تجارية غفلت عن حساب الأرباح والخسائر، وارتجلت أعمالها، ذاهلة عن ماضيها وتجاربها لأغلقت أبوابها على عجل، وانسحبت من الأسواق لتكون ذكرى.



الأهداف العامة من دراسة المقرر

تتركز الأهداف العامة من دراسة المقرر في النقاط الآتية:

- أن يعرف الباحث النقلة النوعية من نظام الخلافة الراشدة إلى نظام الخلافة الأموية.
- أن يُدرك كيفية انتقال السلطة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني.
- أن يُبين أن الثورة العباسية تعد نهاية الثورات ضد بني أمية.
- أن يوضح كيفية استيلاء الأتراك على الحكم.
- أن يحلل أسباب سيطرة البويهيين على الخلافة العباسية.
- أن يعرف أن قيام الدولة الأموية في الأندلس وتوحيدها سياسيًا أنقذها من السقوط المبكر.
- أن يعلم أن عصر الطوائف يُعد البداية الحقيقية لضعف الأندلس سياسيًا وحضاريًا.
- أن يوضح أن المرابطين والموحدين مالوا إلى إنقاذ الأندلس من الإنهيار.
- أن يبين أن الحمدانيين كان لهم دور في جهاد الروم ونهضة الحضارة.
- أن يُناقش أسباب عدم اتفاق المؤرخين على صحة نسب الفاطميين.
- أن يوضح كيفية نشر الفاطميين لمذهبهم.
- أن يوضح أحداث استرداد صلاح الدين لبيت المقدس وفضله في تقليص التواجد الصليبي في الشام.
- أن يناقش فضل المماليك في إنهاء الوجود الصليبي في الشام.
- أن تتضح للدارسين هذه الحقبة من التاريخ بما لها وما عليها.



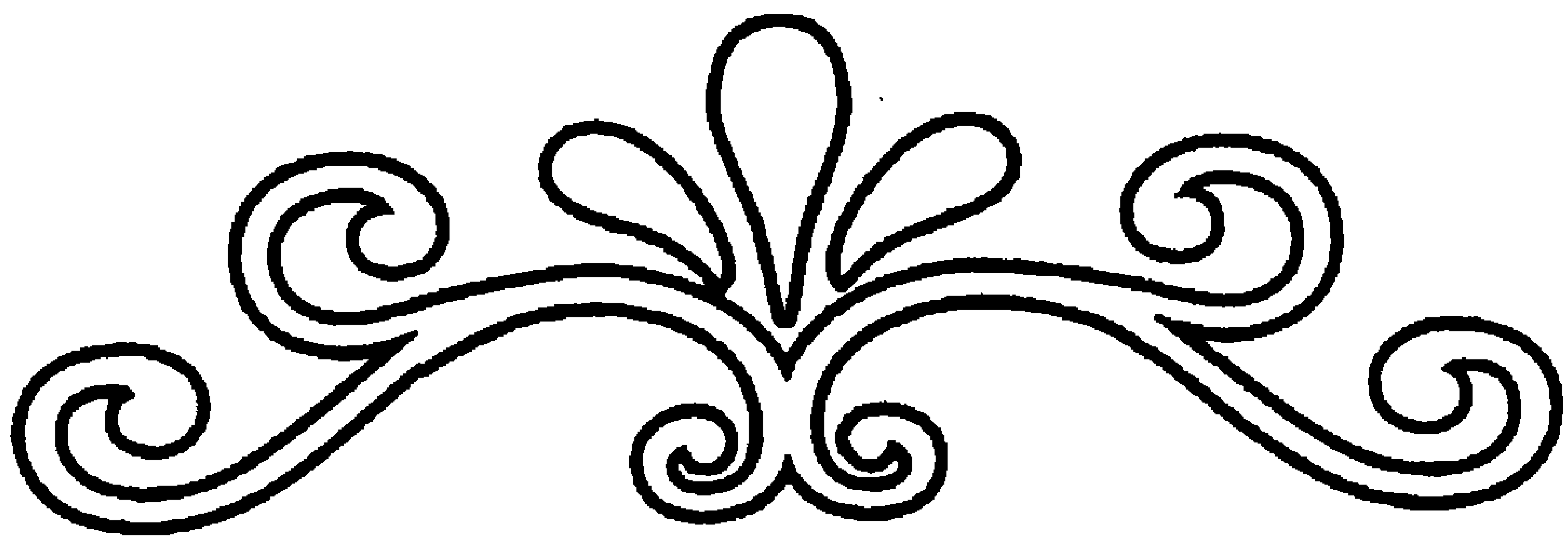
محتويات الكتاب

تنقسم الدراسة في موضوعات الكتاب إلى المحاضرات الآتية:

دولة الخلافة الإسلامية في العصر الأموي

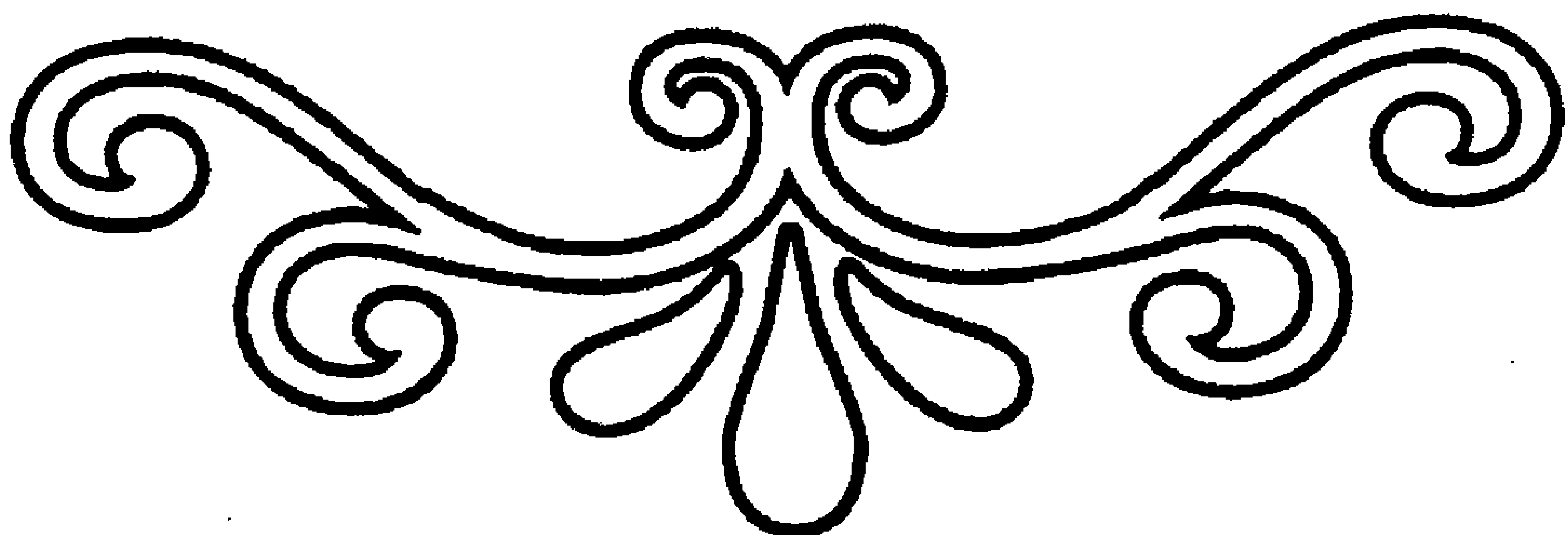
الدولة العباسية

الدول الإسلامية المستقلة في مصر والشام



الوحدة الأولى

دولة الخلافة الإسلامية في العصر الأموي (الفرع السفياني)



محتويات الوحدة الأولى

(١) الفرع السفياني:

- معاوية بن أبي سفيان.
- يزيد بن معاوية.
- معاوية بن يزيد.

أهمية دراسة الوحدة:



تنسب الدولة الأموية إلى معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية، فهو الذي أسس تلك الدولة التي استمرت طويلاً حيث كانت سياسته حكيمة، وسمي العام الذي تم فيه الصلح بينه وبين الحسن بن علي عام الصلح وعام الجماعة، وفيما يلي سنوضح ذلك كما سنبين عدداً من إسهامات بعض خلفاء هذه الدولة.



الأهداف التعليمية:

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١ - تبُين النقلة النوعية من نظام الخلافة الراشدة إلى الخلافة الأموية.

٢ - تُحلل شخصية معاوية بن أبي سفيان ودوره في تأسيس الدولة الأموية.

٣- تفهم أبعاد المعارضة التي ظهرت في خلافة الفرع السفياني.

معاوية بن أبي سفيان وتأسيس الدولة الأموية

تنسب الدولة الأموية إلى معاوية بن أبي سفيان بن حرب بـن أميـة، أسـلم معاوية يوم فتح مكة ٨ هـ/ ٦٢٩م، وأصبح مـن كتـاب الرسـول الكـريم ﷺ، وروى عن الرسول الكريم عدة أحاديث، وشارك معاوية في غزوات النبـي ﷺ الأخيرة، كما اشترك في حروب الردة وفتوح الشام، وعينه عمر بن الخطاب والياً على جند دمشق، ثم عهد إليه عثمان بن عفان بولاية الشام كلها(١).

فكانت سياسته في أهل الشام سياسة حكيمة، فقد سار فـيهم بالعـدل، وبـذل لهم الأموال، ووضع لهم النظم الإدارية والحكومية التي تمتاز بالكفاءة حتى صـاروا أطوع له من بنانه، ولما ذُمَّ معاوية عند عمر بن الخطـاب قـال: «دعونـا مـن ذم فتـى قريش، من يضحك في الغضب، ولا ينال ما عنده إلا عـلى الرضـا، ولا يؤخـذ مـا فوق رأسه إلا من تحت قدميه» (٢).

وهكذا استحق معاوية أن يظل على ولاية الشام، فأقره الخليفـة عـثمان بـن عفان ﷺ حتى أصبحت الشام في عهد عثمان دولة مستقلة، يقوم واليهـا بتعيـين العمال على أقسامها بنفسه دون الرجوع إلى الخليفة.

بعد استشهاد عثمان بن عفان الأموي النسب وثالـث الخلفـاء الراشـدين، أصبح معاوية زعـيم بنـي أميـة والمطالـب بمعاقبـة قتلـة عـثمان والمشـتركين في حصاره حفاظاً على مكانة بني أمية بين بيوتات قريش والعرب.

أضف إلى ذلك أنه لما ولي علي بن أبي طالب الخلافة أراد أن يعزل كـل ولاة

(١) ابن سعد: الطبقات الكبرى ٧/ ٤٠٦، بيروت ١٩٥٧.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ١٣٩، دار الفكر، بيروت ١٩٨٧.

عثمان ورفض أن يتألفهم أو يستجيب لهم، فيقتص من قتلة عثمان حتى يسلموا له، فنشأ الخلاف وقام أناس يسعون إلى الفتنة، ويحرضون عليها، حتى تمكنوا من إشعالها وظلوا يتأججون أوراها بتدبير المكائد، حتى ظن أن المشاركة فيها واجب ديني[١].

ولما استشهد الإمام علي تولى ابنه الحسن الخلافة، فعزم على الصلح مع معاوية منذ اللحظة الأولى، وجعل من شروط قبوله الخلافة أن يسالم الناس من سالم، ويحاربوا من حارب، وكان معاوية يعلم أنه أكره الناس للفتنة فأرسل إليه من يطلب الصلح، فتلاقت الرغبتان، وتم الصلح في عام الجماعة (٤١ هـ/ ٦٦١م) في ليلة ما أغرها من ليلة من ليالي العمر، بل ما أحسنها من ليلة تفضل العمر فقد وُلي الخلاف وأغمدت الأسياف وتآلف الناس، كما بايع أهل بلاد الشام معاوية أميرا للمؤمنين، وخليفة جديداً للمسلمين، وذلك في إيلياء (القدس) لمكانتها الإسلامية، وبدأت بذلك الخلافة الأموية التي استمرت حتى عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م[٢].

لكن تولي معاوية الخلافة عن طريق القوة والاستيلاء، وليس عن طريق الشورى بين المسلمين، أدى إلى تعميق المنافسة بين البيوتات القرشية الأخرى على الخلافة وأسفرت هذه المنافسة فيما بعد عن مواجهة زعماء تلك البيوتات للخلافة الأموية وتصديهم لمعظم خلفائها، وهو ما نتحدث عنه في موضع آخر.

---

(١) ابن العربى: العواصم من القواصم، ص ١٣٣ وما بعدها، مكتبة السنة ط ٦، ١٩٩٢.

(٢) ابن عساكر: تاريخ دمشق١٦/ ٧١٧ مصور، دار البشير، بدون تاريخ.

سياسة معاوية في تأسيس الدولة الأموية

أولاً: نقل عاصمة الخلافة من المدينة إلى دمشق:

كان من الطبيعي بعد تولي معاوية بن أبي سفيان الخلافة، أن ينتقل مركز الثقل السياسي في الدولة الإسلامية إلى بلاد الشام، فقد عرف الأمويون مع القرشيين بلاد الشام قبل الإسلام فكانت قوافل قريش التجارية تتردد بكثرة على تلك البلاد، ويقيم فيها بعضهم أحيانا، وقد كان لأبي سفيان صخر بن حرب والد معاوية، ضيعة في البلقاء جنوب بلاد الشام تدعى بقنس[١]. وأقبل الأمويون بشكل ملحوظ على الاشتراك في فتوح الشام في عهد الخليفتين أبي بكر الصديق وعمر بن الخطاب. وفي خلافة أبي بكر الصديق عين يزيد بن أبي سفيان على منطقة دمشق[٢]، حتى إذا توفي يزيد عهد عمر بن الخطاب إلى معاوية أخيه ولاية جند دمشق، ولما وُليَّ عثمان بن عفان الخلافة جمع الشام كله في يد معاوية[٣].

وخلال ولاية معاوية على بلاد الشام توافد عليه عدد غير قليل من بني أمية وساعدت سياسته الحكيمة في ضبط بلاد الشام والرفق بأهلها على تمسكهم به فأحبوه وأطاعوه، وبادروا إثر اغتيال علي بن أبي طالب في الكوفة عام ٤٠هـ/ ٦٦٠م إلى تزكيته للخلافة التي تقلدها بعد صلحه مع الحسن بن علي بن أبي طالب الذي تنازل عن هذا المنصب[٤].

---

(١) المقريزي: النزاع والتخاصم فيما بين بني أمية و بني هاشم،ص٣٠، المكتبة الحيدرية، النجف ١٩٦٦م.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ١٥٦، مكتبة المصرية القاهرة ١٩٥٦م.

(٣) الزبيري: نسب قريش ص١٢٥ – ١٢٦، دار المعارف بمصر ١٩٥٣م.

(٤) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٤١، بيروت ١٩٧٣م.

كل ذلك ساعد على اتخاذ بلاد الشام مركزا للدولة الإسلامية في خلافة بني أمية وأصبحت دمشق عاصمة هذه الدولة في عهد الفرع السفياني الأموي وبعض خلفاء الفرع المرواني لهذه الأسرة. وصار الخلفاء الأمويون يعتمدون على أهل الشام بالدرجة الأولى في تثبيت دعائم خلافتهم، ومواجهة أعدائهم، وفي ذلك أوصى معاوية بن أبي سفيان ابنه يزيد بأن يهتم بأهل الشام، وأن يجعلهم أعوانه وموضع ثقته، واعتماده وحصنه وقال له: «فمن رابك أمره فارمه بهم»[(١)].

وقد أثبت عرب بلاد الشام أنهم أهل لهذه الثقة، وأنقذوا الخلافة من كثير من الأخطار التي تعرضت لها طوال حكمها (٤١ - ١٣٢هـ/ ٦٦١-٧٥٠م).

ويمكن القول أن انتقال مركز الثقل السياسي إلى بلاد الشام في خلافة بني أمية كانت له آثاره التي من أهمها:

١ - ازدياد مركز بلاد الشام السياسي، حيث أصبح الخلفاء الأمويون يعتمدون على أهلها في مواجهة أعدائهم.

٢ - ساعد موقع بلاد الشام المتوسط في الدولة الإسلامية المترامية الأطراف على سيطرة الخلافة الأموية على جميع أقاليم هذه الدولة في المشرق والمغرب.

٣- ازدادت أهمية بلاد الشام، فصارت موارد خراج الدولة الإسلامية، وجزية أهل الذمة فيها تذهب إلى دمشق، بالإضافة إلى خمس غنائم الفتح.

٤- رأى أهل الكوفة في العراق أن انتصار الأمويين لم يكن انتصارا لأهل

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤/ ١٣٢، دار التعاون، بيروت، ١٩٧٧.

الشام عليهم فحسب، بل شمل أيضا نقل مركز الحكم من الكوفة إلى دمشق، مما سلب منهم قيادة المسلمين، وجردهم من امتيازات سياسية واجتماعية كبيرة بالإضافة إلى شعورهم بأن وارد السواد، الذي يأخذه أهل الشام، هو سلب لحقهم الذي كانوا يتمتعون به، مما جعلهم يمجدون عهد خلافة علي بن أبي طالب الذي اتخذ الكوفة عاصمة للدولة الإسلامية، مما جعل العراق عامة ومنطقة الكوفة خاصة بؤرة للثورات ضد الحكم الأموي[1].

٥- أصبح إقليم الحجاز مركزاً دينياً فقط يضم المراكز الإسلامية المقدسة، ولم يعد كما كان في عهد الرسول الكريم ﷺ والخلفاء الراشدين الثلاثة الأول مركزاً دينياً وسياسياً معاً، مما جعل أهل المدينة خاصة والحجاز عامة ينقمون على نقل مركز الدولة إلى الأمصار، سواء في الكوفة أو دمشق مما جعل الحجاز بؤرة أخرى للثورات ضد بني أمية.

ثانياً: حسن اختيار الرجال و الأعوان:

إن تأسيس الدولة العظيمة دائما يقوم على أكتاف الرجال الأكفاء، وقد وفق معاوية في اختيار أعوانه من الرجال الموثوق بولائهم وخبرتهم الإدارية، مع حكمتهم ودهائهم، أمثال عمرو بن العاص، والمغيرة بن شعبة، وزياد بن أبيه، وعبيد الله بن زياد، والمهلب بن أبي صفرة وعقبة بن نافع الفهري، وجنادة بن أمية الأزدي، وآخرين. وكان عمرو بن العاص يقول: «أَنَا لِلْبَدِيهَةِ، وَمُعَاوِيَةُ لِلْأَنَاةِ،

(١) محمد عبد الحي شعبان: خلافة بني أمية، ص ٥٣، الأهلية للنشر والتوزيع، بيروت ١٩٦٨.

وَالْمُغِيرَةُ لِلْمُعْضِلَاتِ، وَزِيَادٌ لِصِغَارِ الْأُمُورِ وَكِبَارِهَا »[١].

وقد أسهم هؤلاء في إدارة الدولة وإنجاز فتوحاتها والتصدي لأعدائها، فكان لهم دور كبير متميز في ترسيخ دعائم الخلافة الأموية.

ثالثاً: استخدام المال في تأكيد ولاء الأعوان:

استخدم معاوية بن أبي سفيان المال في تأكيد وتأليف قلوب منافسي بني أمية على الخلافة من القرشيين، وبخاصة بني هاشم وغيرهم من رجال القبائل، وقد اعتبر معاوية لذلك من أجود العرب؛ لأنه استمال القلوب بالبذل والعطاء[٢].

رابعاً: اتباع سياسة الشدة واللين في ضبط الأمور:

اتبع معاوية بن أبي سفيان سياسة الشدة واللين- في الوقت نفسه حسب الظروف والأحوال - في ضبط الأمور، وظهرت هذه السياسة بشكل واضح بعد توطيد دعائم الخلافة الأموية، وقد كتب معاوية إلى زياد بن أبيه في ذلك يقول: «إنه لا يصلح أن أسوس وتسوس الناس سياسة واحدة، إننا إن نشتد جميعا نهلك الناس ونحرجهم، وإن نلن جميعا نبطرهم، ولكن تلين وأشتد، وتشتد وألين »[٣].

خامساً: السرية التامة في سياسته:

استخدم معاوية بن أبي سفيان في سياسته السرية التامة حتى لا يطلع علها

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٤ قسم/ ١١٠.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤ قسم ١/ ٤٣،٦٩ والمسعودي: مروج الذهب٣/ ٤٥.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف، ٤ قسم ١/ ٦٨.

أعداؤه فيفسدون عليه تخطيطه، وفي ذلك يقول: «من كتم سره كان الخيار له، ومن أفشاه كان الخيار عليه»[١].

سادساً: الدعاية السياسية لبنى أمية وخلافتهم:

استعمل معاوية بن أبي سفيان أسلوب الدعاية السياسية لبني أمية وخلافتهم وجعل الناس يميلون إليهم، وكان معاوية بن أبي سفيان يقول: «أحب الناس إليَّ أشدهم تحبيباً لي إلى الناس»، وقد استمال الخلفاء الأمويون الرعية، وأغدقوا عليهم الأموال، فأشادوا بهم وبحقهم في الخلافة و صلاحيتهم لها، ووجوب طاعتهم ونصرهم[٢].

سابعاً: الاهتمام بالبريد:

اهتم معاوية بتطور البريد حتى تصل الأخبار الرسمية إليه بسرعة، بالإضافة إلى إيصال رسائل الناس إليه والتي كان عماله يرسلونها إليه بالبريد[٣]. وكان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ ديوان الخاتم، وهي إدارة لضبط الرسائل التي ترسل من المركز، وحفظ نسخة منها فيه[٤].

وكان معاوية يجلس في المسجد، فيقوم إليه الضعيف والأعرابي والمرأة ومن لا أحد ينظر في أمرهم.

وكان يخصص وقتاً لأشراف الناس الذين يرفعون إليه حوائج من لا يستطيع الوصول إلى الخليفة.

---

(١) المصدر السابق: ١/ ١٤،٢٠.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٣٦، دار سويدان، بيروت.

(٣) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص١٠٦، القاهرة ١٩٦٢م.

(٤) حتى: تاريخ العرب، ص٢٥٥، دار إحياء العلوم، بيروت، ١٩٨٦.

كما عين رجلاً على حوائج الناس[١].

وأوصى معاوية أن يُرَد نصف ماله إلى بيت المال، ويعلق راوية المدائن على هذه الخطوة بقوله: «كأنه أراد أن يطيب له الباقي؛ لأن عمر قاسم عماله»[٢].

وفي الجملة لقد أثبت معاوية بن أبي سفيان أنه رجل سياسي قدير، أسس دولة ووحد معظم المسلمين في عصر كان من الصعب على رجل غيره أن ينجح في ذلك.

توفي معاوية بن أبي سفيان عام ٦٠هـ/ ٦٧٩م عن عمر يقارب الثمانين. وقد حزن عليه كثير من رجالات العصر أمثال: عبد الله بن الزبير، وعبد الله بن عمر، وعبد الله بن عباس، وغيرهم كثير ومثلهم من الفقهاء والمؤرخين، أمثال: ابن حزم، وابن تيمية، وابن عساكر، والذهبي، وابن كثير، وغيرهم[٣].

ظل معاوية- رضي الله عنه- مجاهداً، لتكون كلمة الله هي العليا حتى مات عام ٦٠هـ/ ٦٧٩م وخلف دولة عظيمة ورجالاً عظاماً وعلماء كراماً وسياسات جديدة مبتكرة في الإدارة و الحكم. وقال ابن خلدون: «إن دولة معاوية وأخبارها كان ينبغي أن تلحق بدول الخلفاء الراشدين وأخبارهم، فهو تاليهم في الفضل والعدالة والصحبة»[٤].

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٣٩.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤ قسم ١/ ٢٢، ١٣١.

(٣) ابن حزم: جوامع السيرة، ص٣٦٥- ٣٦٦، دار المعارف بمصر ١٩٥٠م.

(٤) ابن خلدون: المقدمة ص٤٥٨، دار الكتب، بيروت، ١٩٨٧.

الفتوح في خلافة معاوية

استمرت الفتوح في خلافة معاوية بن أبي سفيان للعوامل المعروفة في حركة الفتوح، والتي يدخل فيها كسر الحواجز البشرية الطاغية المانعة لنشر الدعوة الإسلامية وتأمين حدود الدولة وذلك بالحفاظ على مناطق موالية لها غير معادية لدولة المسلمين، وتطلع الفاتحين إلى أربعة أخماس الغنائم الشرعية المخصصة لهم، وحاجة الدولة باستمرار إلى أموال خمس الغنائم والخراج والجزية، حتى تستطيع دفع العطاء السنوي للمسلمين والإنفاق على شؤون الدفاع والإدارة. وشملت هذه الفتوح ثلاث جبهات: هي جبهة للروم البيزنطيين، وجبهة بلاد المشرق، وجبهة بلاد المغرب[1].

١- جبهة الروم:

كانت غزوات المسلمين في بلاد الروم برية و بحرية.

أما البرية فقد كانت تشن سنويا تقريبا في خلافة معاوية فيما عرف بالصوائف والشواتي، أي: الغزوات التي تشن صيفا وشتاء ضد الروم، وقد وصلت إحدى الحملات ضد الروم عام ٥٠هـ/ ٦٧٠م إلى أسوار القسطنطينية عاصمتهم، وكان فيها عدد من الصحابة المشهورين، بينهم أبو أيوب الأنصاري الذي استشهد في هذه الحملة، ودفن قرب أسوار القسطنطينية، وضريحه ما زال قائما هناك، كما استطاع المسلمون في عهد معاوية أن يستعيدوا أرمينية من الروم[2].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ١٩٥.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان ص ١٥١، ١٧٥، ١٩٢، ١٩٣، ٢٧٨، ٢٧٩.

أما الحملات البحرية التي قام بها المسلمون ضد الروم فأهمها:

حملة جنادة بن أمية الأزدي، التي فتح خلالها جزيرة رودس عام ٥٣ هـ/ ٦٧٢م كما فتح في السنة التالية شبه جزيرة كيزيقوس على البر الآسيوي من بحر مرمرة؛ لتكون قاعدة برية للمسلمين؛ لشن حملاتهم على القسطنطينية، وقد أطلقوا عليها اسم أرواد. وقد أسكن معاوية جماعات من المسلمين في رودس وكوس، كما أغاروا على جزيرة كريت، وأنشأ معاوية داراً للصناعة في ميناء عكا لصناعة السفن البحرية، مما يؤكد عزمه على حماية سواحل الدولة من هجمات الروم والتعرض لقوات الروم البحرية لمنعها من مهاجمة السواحل الشامية والمصرية[١].

٢- جبهة الفرس:

واصل معاوية بن أبي سفيان توجيه الحملات الإسلامية إلى تلك الجبهة عن طريق ولاته في العراق، وأهمهم: عبد الله بن عامر والي البصرة، وزياد بن أبيه والي العراق والمشرق، ثم عبيد الله بن زياد واليه على خراسان ثم العراق، وجاوزت تلك الحملات خراسان وكرمان، ففتحت سجستان والقيقان والبوقان حتى وصلت طلائعها إلى لاهور، كما فتحت زابلستان وخوارزم، واجتاز عبد الله بن زياد نهر جيحون، وفتح بخارى وسمرقند وترمذ وبيكند[٢].

٣- جبهة المغرب:

يقصد بها الأقاليم الواقعة غرب ولاية مصر، وذلك للتخلص من خطر

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢٤٠- ٢٣٩٢، حتى: تاريخ العرب ٢٦٢.

(٢)الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ١٧٢، ٢٨٩ـ٢٩٧.

الروم الذي كان ماثلا في إفريقية -تونس- وفي جزيرة صقلية. وفي خلافة معاوية وجه عمرو بن العاص واليه على مصر عام ٤١هـ/ ٦٦١م عقبة بن نافع الفهري على رأس قوة من المسلمين لفتح برقة وودان، ففتح في السنة التالية غدامس جنوب تونس الحالية.

وتوجه معاوية بن حديج الكندي والي مصر عام ٤٥هـ/ ٦٦٥م إلى إفريقية وهزم الروم عند حصن الأجم، وشن غارة بحرية على جزيرة صقلية، فكان أول من حاول فتحها من المسلمين.

ثم قاد عقبة بن نافع عام ٥٠هـ/ ٦٧٠م حملة أخرى على إفريقية، ضمت عشرة آلاف مجاهد، واستطاع عقبة أن يستولي على المدن الساحلية من بلاد الروم، وأن ينشيء للمسلمين في القيروان قاعدة عسكرية لتكون قاعدة لفتوحاتهم في المغرب، وتلاه أبو المهاجر بن دينار الأنصاري الذي أقام في إفريقية مع عقبة واستشهدا معاً[١].

خلافة يزيد بن معاوية (٦٠-٦٤هـ/ ٦٨٠- ٦٨٣م):

فكر معاوية بن أبي سفيان في السنوات الأخيرة من حياته أن يعهد إلى ابنه يزيد بالخلافة من بعده لتخوفه من انقسام المسلمين من بعد وفاته، خاصة وأن التجربة السابقة أظهرت بروز النزاعات والمنافسات على منصب الخلافة واقتتال المسلمين فيها في وقت تتربص بهم الأعداء. وروي أن معاوية أعرب عن ذلك لعبد الله بن عمر، وقال: «إني أرهب أن أدع أمة محمد بعدي كالضأن لا راعي لها»[٢].

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٢٠٩، دار الكتاب اللبناني بيروت ط٣/ ١٩٨٣.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٥/ ٣٠٤.

الواقع أن عدم توصل المسلمين إلى معالم واضحة لاختيار الخليفة، وطريقة محاسبته، والاتفاق على من يختاره، ربما جعلت وراثة الحكم أسلم طريقة لتجنب الانقسام بين المسلمين، وهو ما فعلته معظم الدول الإسلامية فيما بعد[١].

ومهما يكن من أمر فقد وافق المسلمون على مبايعة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان بعد معاوية، ولم يعارض هذه الخطوة بشكل جاد سوى الخوارج، وشخصيتين بارزتين هما الحسين بن علي بن أبي طالب وعبد الله بن الزبير بن العوام[٢].

وقد تولى يزيد الخلافة بعد وفاة أبيه معاوية، وكان عمر يزيد آنذاك أربعة وثلاثين عاما، و كان قويا شجاعا ذا رأي وحزم وفطنة وفصاحة يحضر مجالس والده، ويتعلم منه سياسة الدولة وإدارتها، وأشركه والده في غزو الروم، وذلك في الحملة البرية التي قادها عام ٥٠هـ/ ٦٧٠م ووصلت إلى القسطنطينية[٣].

سياسة يزيد وإنجازاته:

أوضح يزيد بن معاوية معالم سياسته العامة في خلافته في خطاب وجهه إلى الناس بعد توليه الخلافة، وأهم هذه المعالم:

١- عدم إرسال حملات بحرية ضد الروم.

٢- عدم جعل المجاهدين المسلمين يقضون الشتاء في أرض الروم؛ لأنه لمس فيما يبدو أثناء حملته على القسطنطينية المشاق التي يعانيها

(١) محمد عبد الحي شعبان: خلافة بني أمية، ص ٩٣.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٢٢- ٣٢٣.

(٣) ابن كثير: البداية والنهاية ٨/ ١٤٦، وحتى: تاريخ العرب ٢٥٥- ٢٥٦.

المجاهدون في أرض الـروم في الشـتاء، وإعـادة المجاهـدين المسـلمين المرابطين في قواعدهم البحرية مثـل قـبرص ورودس، وأمـرهم بهـدم الحصون التي أقاموها، وهذا إجراء غير سليم، فقد كانت هذه القواعد تحول دون إغارة سفن الروم على السواحل الإسلامية.

٣- دفع عطاء المسلمين كله دفعة واحدة، بعد أن كان معاوية يوزعـه عـلى ثلاث دفعات لاستمالة أصحابه إليه[١].

الفتوح في عهد يزيد:

واصل يزيد بن معاوية الفتوح في المشرق والمغرب، ففي المشرق عين سلم بـن زياد على خراسان، واستطاع سلم وجيشه أن يفتح خوارزم، وأن يهزموا قوات مملكـة بخارى وحليفتها مملكة الصغد.

أما في المغرب فقد أعاد يزيد عقبة بن نافع واليا على إفريقية عام ٦٢هـ/ ٦٨١م وقام على رأس حملة كبيرة واجه فيها جموع الروم والبربر معاً وانـتصر علـيهم، وسـار من القيروان إلى تاهرت حتـى وصـل طنجـة، وبلـغ سـاحل الأطـلسي قـرب ميـناء أغادير، حيث دخل بحصانه مياهه وقال: «يا رب لـو لا هـذا البحـر لمضـيت في هـذه البلاد مجاهدا في سبيلك»، ثم سلك طريق العودة مجتازا بلاد المغـرب يقـيم في طريقـه المساجد، فلما أصبح على مسيرة ثمانية أيام من القيروان أمر قواته بأن يتقـدموا أفواجـاً حتى لم يبق معه سوى نفر يسير حاصره الأعداء عند عودته، فقاتلوا، فقاتل ومن معـه حتى استشهدوا جميعا، وأقيم له ضريح هناك[٢].

---

(١) البلاذري: فتوح البلدان ٢٧٩- ٢٨٠ فلهوزن: تاريخ الدولة العربية ص١٦٥، لجنـة التـأليف والترجمة والنشر، القاهرة، ١٩٦٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٣/ ٣٠٨-٣٠٩، حسين مؤنس: أطلس تاريخ الإسلام، ص٣٥، الزهراء للإعلام العربي، القاهرة، ١٩٨٧.

وقد أورد بعض المؤرخين أن يزيد بن معاوية كان سكيرا يشرب الخمر، وقد نفى محمد بن علي بن أبي طالب المعروف بابن الحنفية هذا الاتهام، وقال لمروجيه من بعض أهل الحجاز: «ما رأيت منه ما تذكرون، وقد حضرته وأقمت عنده فرأيته مواظبا على الصلاة، متحريا للخير، يسأل عن الفقه، ملازما للسنة، وسألهم أفأطلعكم يزيد على ذلك؟ إنكم لشركاؤه، وإن لم يكن أطلعكم فما يحل أن تشهدوا بما لم تعلموا»، ويقول القاضي ابن العربي: «إن هذا الاتهام لا يحل إلا بشاهدين»[١].

المعارضة ضد الخلافة الأموية في العهد السفياني:

تعود المعارضة في تلك الفترة إلى عدم قبول بعض الناس للطريقة التي تولى بها الأمويون الخلافة، فقد اعتبروها خلافة استيلاء بالقوة تتنافي مع طريقة الشورى بين المسلمين لاختيار خليفتهم، فيما كان العلويون يعتقدون بأن الخلافة حق لآل علي بن أبي طالب دون غيرهم.

وكان من بين هؤلاء حُجر بن عدي الكندي وأصحابه، ودأبوا على الرد على والي معاوية على الكوفة المغيرة بن شعبة، ومن بعده زياد بن أبيه الذي أرسلهم إلى معاوية فأمر بقتل حجر بن عدي وعدد من أصحابه[٢].

ثورات الخوارج:

كان الخوارج من أنصار علي بن أبي طالب، ثم انفصلوا عنه بعد التحكيم في وقعة صفين، وينتمي معظم هؤلاء إلى القبائل العربية، وكانوا يعارضون

---

(١) ابن العربي: العواصم من القوا صم ٢٢٧، ٢٣٣، مكتبة أسامة بن زيد، بيروت ١٩٧٩.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ص ص٢٥٥، ٢٧٧.

استئثار قريش بالخلافة، ويرون أنها حق لكل عربي مسلم مؤهل لهـذا المنصـب، كما عارضوا الوراثة في الخلافة، واعتقدوا بضرورة تنفيـذ أحكـام الله الواضـحة الواردة في القرآن الكريم، دون اللجوء إلى تحكيم الناس فيها، وهذا هو المقصود بشعارهم «لا حكم إلا لله».

وقد واجهوا علي بن أبي طالب في عدة مواقع على شكل جماعي، مما جعـل خسائرهم كبيرة جداً.

فلما بدأت الخلافة الأموية أخذوا يواجهون معاقلهـا عـلى شـكل غـارات مفاجئة وسريعة، وهـي أشـبه مـا تكـون بحـرب العصـابات، وقـد أوقعـوا في صفوف القوات الأمويـة خسـائر فادحـة، وإن لم يكتـب لهـم الـنصر في معظـم الهجمات[١].

استشهاد الحسين بن علي في كربلاء (٦١ هـ/ ٦٨٠م):

عنـدما تـوفي معاويـة بـن أبي سـفيان ظهـر تنـافس بـين رجـال قـريش لشغل منصب الخلافة وقد امتنـع الحسـين بـن عـلي بـن أبي طالـب، وعبـد الله بن الزبير عن مبايعة يزيد بـن معاويـة بالخلافـة، وتوجهـا مـن المدينـة إلى مكـة واعتصما فيها فأمضى الحسين بن علي في مكة حوالي أربعة أشهر؛ راسله فيها كبار الموالين للعلويين في الكوفة وحثوه على القدوم إليهم ونصرتـه إذا جـاء وأرسـل إليها ابن عمه مسلم بن عقيل بـن أبي طالـب؛ للتأكـد مـن صـدق تأييـد شـيعة العلويين فيها له، فأرسل إليه مسلم بن عقيل مؤكداً صحة ذلـك التأييـد وحثـه على القدوم إليها[٢].

(١) البلاذري: أنساب الأشراف٤ قسم ١/ ١٣٨-١٨٣.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف،١٥٧- ١٦٠، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٤٧- ٣٥٥.

عزم الحسين بن علي على مغادرة مكة إلى الكوفة مع أهله وذوي مسلم بـن عقيل فأقبل عليه أخوه محمد ابن الحنفية، وعبد الله بن عباس وغيرهما ينصحونه بعدم التوجه إلى الكوفة والبقاء في مكة المكرمة؛ لأن مؤيديه في الكوفة كانت لهم مواقف سلبية سابقة خذلوا فيها والده علي بن أبي طالب وأخاه الحسن بن علي، كما أن الحكم في الكوفة كـان للأمـويين أقـوى، وقـد علمـوا بخـروج الحسـين فاستعدوا له[١].

ولم يقبل الحسين بن علي النصح، وغادر مكة يرافقه حوالي ثمانين من أهلـه وخاصته في أوائل ذي الحجة عام ٦٠/ سبتمبر ٦٧٩ م[٢].

قبض عبيد الله بن زياد على مسلم بـن عقيـل في الكوفـة وقتلـه فلـما أدرك مسلم مصيره بعث من يطلب من الحسين بن عـلي الرجـوع إلى مكـة، ولكنـه لم يستجب للنصيحة ووصل إلى كربلاء.

أرسل عبيد الله بن زياد إلى كربلاء قوة كبيرة بقيادة عمر بـن سـعد بـن أبي وقاص تضم أربعة آلاف مقاتل، وجرت بين الجانبين مفاوضـات عـرض فيهـا الحسين بن علي أن يقبل عمر بن سعد منه بواحدة من اختيارات ثلاثة، هي:

أ - أن يرجع إلى مكة.

ب - أن يذهب إلى يزيد بن معاوية ليرى رأيه فيه.

ج - أن يرابط في ثغر من ثغور المسلمين.

وبعث عمر بن سعد بن أبي وقاص بهذه الاختيارات إلى عبيد الله بن زياد الـذي

(١) ابن كثير: البداية و النهاية ٨/ ١٦٥.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف، ١٦١ـ ١٦٤، والطبري: تاريخ الرسل والملوك ٥/ ٣٤٧.

أراد قبولها، إلا أن شمر بن ذي الجوشن الكلابي أثناه عن ذلك، وأقنعه أن قبولها ضعف وعجز فرفضها، وأصر على أن يستسلم له الحسين أولا ويأتي إليه، فأبى الحسين بن علي ذلك، فكان القتال الذي انتهى باستشهاده مع اثنين وسبعين من أصحابه في ١٠ محرم ٦١هـ/ ١٠ أكتوبر ٦٨٠م.

فلما بلغ يزيد مقتله لام عبيد الله بن زياد على ذلك وقال: «لقد كنت أرضى بطاعتكم بدون قتل الحسين، أما والله لو كنت أنا صاحبه لعفوت عنه، وما سألني خصلة أبداً إلا أعطيتها إياه، ولدفعت الحتف عنه بكل ما أستطيع، ولو بهلاك بعض ولدي»[١].

وهكذا يتضح أن عبيد الله بن زياد، وشمر بن ذي الجوشن هما المجرمان المسئولان عن دم الحسين بالدرجة الأولى، ويأتي يزيد في الدرجة الثانية.

ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز:

أتاح استشهاد الحسين بن علي المجال لعبد الله بن الزبير لتزعم المعارضة ضد خلافة يزيد بن معاوية، وبدأ بالدعوة لنفسه سرا بالخلافة[٢].

وعندما بلغ يزيد بن معاوية أمر ابن الزبير أمر واليه على المدينة بإرسال جيش للقضاء على ابن الزبير، فوجه إليه جيشا بقيادة عمرو بن الزبير أخيه الذي كان يخالفه إلا أن قوات عبد الله بن الزبير هزمت هذا الجيش، وأسرت قائده عمرو بن الزبير فحبس، فارتفعت منزلة عبد الله بن الزبير بمكة، وكاتبه أهل المدينة، وحثوه على الثورة على يزيد، فاجتمع أهل الحجاز على عبد الله بن

(١) البلاذري: سيرة الحسن و الحسين، ص١٨٢ – ١٨٣، ٢٠٥، دار التعاون بيروت ١٩٧٧.

(٢) أبو الفرج الأصفهاني: مقاتل الطالبيين، ص ١٠٩، دار المعرفة بيروت بدون تاريخ.

الزبير وأطاعوه، وأخذ عبد الله بن مطيع العدوي البيعة له على أهل المدينة[١].

وعندما علم يزيد بهزيمة جيش عمرو بن الزبير، وإظهار أهل المدينة العداوة له حاول تهدأتهم والوقوف على رأيهم، واستمالتهم، وطلب من واليه على المدينة أن يرسل إليه وفدا منهم فوصلهم وأكرمهم، إلا أنهم بعد عودتهم إلى المدينة أخذوا يتهمون يزيد بشرب الخمر والفجور، وخلعوه وولوا أمرهم عبد الله بن حنظلة.

فبعث يزيد إليهم النعمان بن بشير الأنصاري يحمل معه إنذارا أخيرا منه إليهم ويتهددهم بحرب مبيدة إذا استمروا على موقفهم المعادي نحوه، إلا أن أهل المدينة رفضوا التحذير، وأقدموا على إخراج واليه من المدينة، وحاصروه مع بني أمية ومواليهم في دار مروان بن الحكم، وكان عددهم حوالي ألف رجل، فغضب يزيد لذلك غضباً شديداً.

ثم أوفد إلى المدينة جيشاً قوامه اثنا عشر ألف مقاتل من أهل الشام بقيادة مسلم ابن عقبة المري، فانتصر على قوات أهل المدينة، وقتل منهم عددا كبيرا، وأخذ ممن بقي من أهل المدينة البيعة ليزيد، ومن رفض قتله، وذلك في أواخر عام ٦٣هـ/ ٦٨٢م[٢].

وواصل مسلم بن عقبة المري المسير على رأس جيشه، لقتال عبد الله بن الزبير في مكة التي تحصن فيها، إلا أنه توفي في الطريق إلى مكة، فتسلم القيادة بعده حصين بن نمر السكوني، كما خطط لذلك يزيد، فحاصر ابن الزبير حوالي شهرين، كان خلالها يقاتل قواته، ثم استعمل المنجنيقات ورمى بقذائف

(١) البلاذري:أنساب الأشراف ٤ قسم ١/ ٢٤- ٣٠.
(٢) البلاذري:أنساب الأشراف،١/ ٣٣- ٤٠.

الحجارة الكبيرة قوات ابن الزبير داخل الحرم المكي، فأصابت بعض هذه القذائف مبنى الكعبة، وتصدع منها ثلاثة مواضع، ثم انطلقت شرارة من قوات ابن الزبير فأحرقت أستار الكعبة وخشبها، واشتد الأمر على أهل مكة وابن الزبير، ولم يتوقف الحصار والرمي إلا عندما توفي يزيد ٦٤ هـ/ ٦٨٣م فانسحبت قوات الأمويين على إثر ذلك إلى دمشق[١].

خلافة معاوية بن يزيد (٦٤هـ/٦٨٣م):

كان يزيد بن معاوية بن أبي سفيان قد عهد بالخلافة من بعده إلى ابنه معاوية الذي سمي على اسم جده مؤسس دولة بني أمية، وقيل إن عمر معاوية الثاني عندما تولى الخلافة كان حوالي عشرين عاما، إلا أنه لم يكن يتمتع بصحة جيدة، وكان صالحا متدينا.

واختلف الرواة في مدة خلافته فمنهم من قال: إنها أربعون يوما، ومن قال: ثلاثة أشهر، وبعضهم قال: إنها أربعة أشهر، وخلال خلافته القصيرة لم يمارس عملا، وإنما كان منطويا على نفسه غير راغب في الحكم والسلطان، فلما عزم على التخلي عن الخلافة اقترح على مروان بن الحكم أن يلجأ إلى الشورى كما فعل عمر بن الخطاب فرفض وقال: من لي برجال مثل رجال عمر، كما رفض العهد بالخلافة إلى أخيه خالد بن يزيد لأنه لم يرد أن يتحمل مسؤولية ذلك بعد موته، واعتزل الناس حتى توفي ٦٤هـ/ ٦٨٣م منهيا بذلك خلافة الفرع السفياني في خلافة بني أمية، واستغرقت مدة خلافة هذا الفرع حوالي ثلاثة وعشرين عاما ٤١- ٦٤هـ/ ٦٦١- ٦٨٣م[٢].

---

(١) ابن كثير: البداية و النهاية ٨/ ٢٣٣.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٤ قسم ٢/ ٦٢- ٦٥.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

١- تنسب الدولة الأموية إلى معاوية بن أبي سفيان بن حرب بن أمية، والذي أسلم يوم فتح مكة، وتوفى رسول الله ﷺ وهو راضٍ عنه.

٢- تولى ولاية الشام في عهد عثمان وكانت سياسته حكيمة حيث سار بالعدل وبذل الأموال للناس.

٣- بعد استشهاد علي بن أبي طالب تولى ابنه الحسن الخلافة، وعزم على الصلح مع معاوية حيث تم ذلك، وعرف العام بعام الجماعة ٤١هـ.

٤- كانت هناك عدة عوامل ساعدت على اتخاذ بلاد الشام مركزاً للدولة الإسلامية، حيث اعتمد خلفاء بني أمية على أهل الشام في تثبيت دعائم خلافتهم ومواجهة أعدائهم.

٥- من سياسات معاوية رضي الله عنه في الخلافة ما يلي:
- اتباع سياسة الشدة واللين والسرية في ضبط الأمور.
- أحسن اختيار الرجال والأعوان.
- استخدم المال في تأكيد ولائهم والدعوة لبني أمية.

٦- الاهتمام بالبريد.

٧- تمت في عهد معاوية عدة فتوحات في جبهة الروم وجبهة الفرس وجبهة المغرب.

٨- تولى يزيد بن معاوية الخلافة بعد أن عهد إليه أبوه بها خوفاً من انقسام المسلمين من بعده.

٩- كانت سياسة يزيد تتسم بعدم إرسال حملات بحرية ضد الروم، لكنه واصل الفتوح في المشرق والمغرب.

١٠- ظهرت في عهده ثورات الخوارج، وقد قتل الحسين بن علي في عهده في كربلاء، كما ظهرت ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز.

١١- عهد يزيد قبل وفاته إلى ابنه معاوية بالخلافة، إلا إنه كان زاهداً في الخلافة، وتولى فترة قصيرة اختلف في تحديدها المؤرخون ما بين أربعين يوماً إلى أربعة أشهر.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

أجب عما يأتي:

س١: اذكر الأسباب التي ساعدت معاوية بن أبي سفيان على تولى الخلافة مع التوضيح.

س٢: ما هي أسباب نقل دار الخلافة من المدينة إلى دمشق؟ مع توضيح الآثار التي ترتبت على ذلك.

س٣: اشرح الفتوح الإسلامية التي حدثت في العهد السفياني.

س٤: اذكر الخطوات التي قام بها معاوية في ترسيخ خلافة بني أمية.

س٥: ما هي أهم الأعمال التي قام بها معاوية بن أبي سفيان في خلافته؟

س٦: اذكر الأسباب التي أدت إلى خروج الحسين بن علي مع التوضيح.

س٧: اشرح وقائع استشهاد الحسين بن علي رضي الله عنهما في موقعة كربلاء، مع التوضيح.

س٨: اكتب ما تعرفه عن ثورة عبد الله بن الزبير في عهد يزيد بن معاوية.

س٩: اذكر ما تعرفه عن الخليفة معاوية الثاني تفصيلاً.

س١٠: اكتب ما تعرفه عن ثورات الخوارج في عهد يزيد بن معاوية.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- قامت الدولة الأموية سنة ٤٠هـ/ ٦٦٠م. ( )

٢- توفي معاوية بن أبي سفيان عام ٦٠هـ/ ٦٧٩م. ( )

٣- الخوارج سموا بهذا الاسم لخروجهم على معاية بن أبي سفيان. ( )

٤- اتبع معاوية سياسة اللين في إدارة الدولة. ( )

٥- دامت خلافة يزيد بن معاوية ثلاث سنوات. ( )

٦- دفع يزيد بن معاوية عطاء المسلمين دفعة واحدة. ( )

٧- استشهد الحسن بن علي في كربلاء عام ٦٣هـ. ( )

٨- كان معاوية بن أبي سفيان أول من اتخذ ديوان الخاتم. ( )

٩- كان يزيد أكثر من أبيه في إرسال الحملات لغزو بلاد الروم. ( )

١٠- كان معاوية موفقاً في حسن اختيار عماله. ( )

١١- أسلم معاوية يوم فتح مكة في سنة ٩هـ. ( )

١٢- كانت دمشق هي عاصمة الخلافة الإسلامية في العهد السفياني. ( )

١٣- استخدم معاوية السرية التامة في سياسته. ( )

١٤- استشهد عقبة بن نافع في إفريقية في عهد يزيد. ( )

١٥- تم فتح بخارى وسمرقند في عهد معاوية. ( )

١٦- تولى معاوية الثاني الخلافة لمدة ثلاث سنوات. ( )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- يعرف عام .... بعام الجماعة لاجتماع المسلمين على خليفة واحد. [(٤٠/ ٦٦٠م)- (٤١هـ/ ٦٦١م)- (٤٢هـ/ ٦٦٣م)]

٢- توفي معاوية بن أبي سفيان سنة [٦٠هـ ٩٧٦م- ٦١هـ/ ٦٨٠م- ٦٢هـ/ ٦٨١م].

٣- استشهد الحسين بن علي سنة [٦١هـ- ٦٢هـ- ٦٣هـ].

٤- فتحت رودس في عهد معاوية عام ٥٣ على يدي [موسى بن نصير- جنادة بن أمية- حسان بن ثابت].

٥- استشهد الصحابي.......... ودفن قرب أسوار القسطنطينية.[طارق بن زياد- أبو أيوب الأنصاري- جندب بن أمية].

٦- تم فتح بخارى وسمرقند في عهد معاوية على يدي [أبو أيوب الأنصار- عبد الله بن عامر- عبد الله بن زياد]

٧- أورد بعض المؤرخين أن يزيد بن معاوية كان سكيراً يشرب الخمر، وقد نفى هذا الاتهام [عبد الله بن الزبير- عبد الملك بن مروان- محمد بن علي بن أبي طالب]

٨- قاد معركة كربلاء التي استشهد الحسين بن علي [عقبة بن نافع- عبيد الله بن زياد- خالد بن يزيد].

٩- قام بإخماد ثورة عبد الله بن الزبير في الحجاز [عبد الله بن زياد- خالد بن يزيد- عمرو بن الزبير].

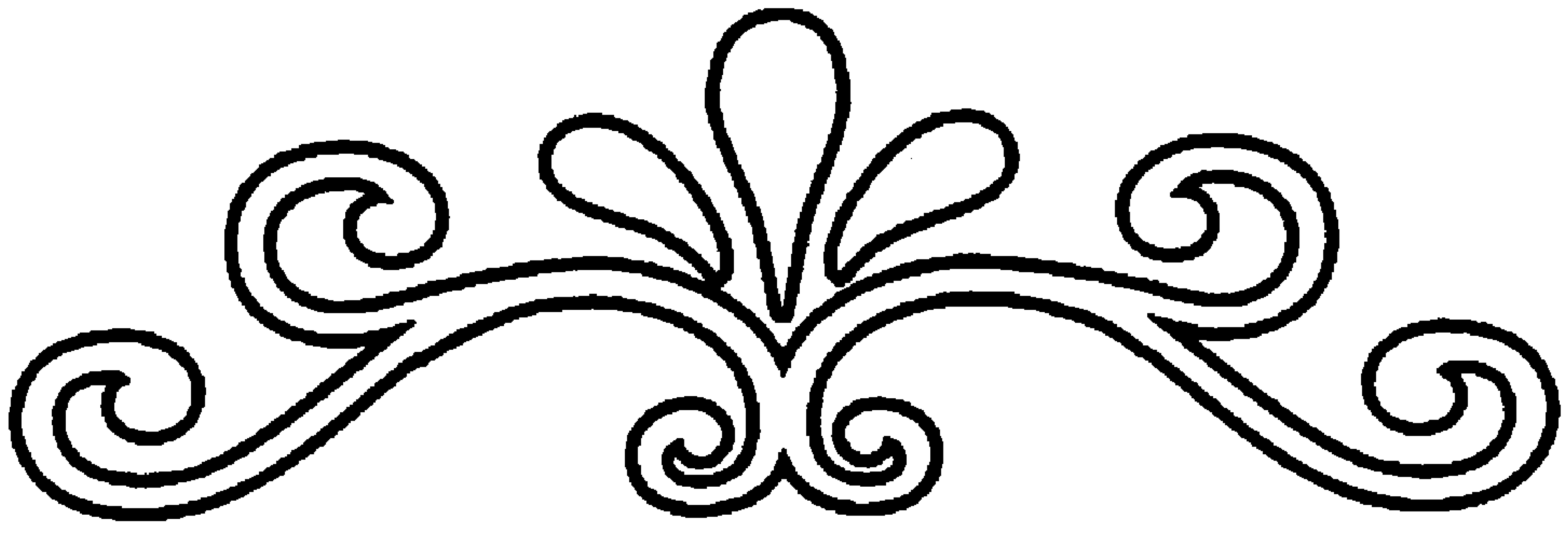
١٠- استغرقت مدة خلافة الفرع السفياني [ثلاثة وعشرين عاماً- أربعة وعشرين عاماً- خمسة وعشرين عاماً].

النشاط التعليمي للوحدة الأولى

عزيزي الدارس:

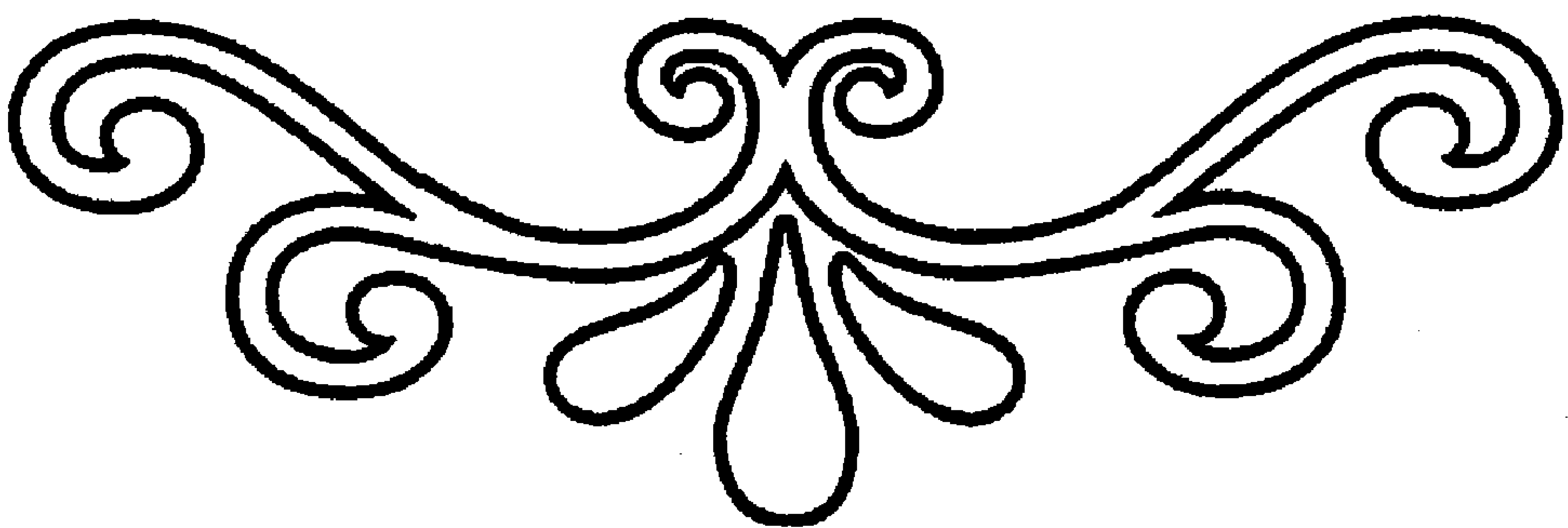
حتى تكتسب المزيد من المعلومات المتعلقة بموضوع هذه الوحدة نقترح عليك إنجاز النشاط التعليمي التالي:

- اكتب بحثاً تاريخياً موثقاً عن أحد الموضوعين الآتيين:
  ١- الفتوحات في عهد معاوية.
  ٢- الفتوحات في عهد يزيد.



الوحدة الثانية

دولة الخلافة الإسلامية في العصر الأموي (الفرع المرواني)



محتويات الوحدة الثانيـة

(٢) الفرع المرواني:

- مروان بن الحكم.
- عبد الملك بن مروان.
- الوليد بن عبد الملك، سليمان بن عبد الملك.
- عمر بن عبد العزيز.
- يزيد بن عبد الملك، هشام بن عبد الملك.
- الوليد بن يزيد بن عبد الملك.
- عوامل سقوط الدولة الأموية.

أهمية دراسة الوحدة:



انتقلت الخلافة في الدولة الأموية من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني بعد أن اتفق الجميع على استبعاد خالد بن يزيد لصغر سنه، فكان مروان بن الحكم هو أول من تولى خلافة هذا الفرع، ومن هذه المحاضرة سنوضح خلفاء تلك الحقبة والإنجازات التي حدثت أثناء خلافتهم.

الأهداف التعليمية:



يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١ - تُبيّن كيفية انتقال السلطة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني.

٢- تُوضح لماذا يعتبر عبد الملك بن مروان المؤسس الثاني للدولة الأموية.

٣- تُحدد التحديات المختلفة التي واجهت عبد الملك بن مروان على جبهتي الحجاز والعراق.

٤- تُوضح دور الحجاج بن يوسف الثقفي في توطيد الخلافة الأموية وفي الفتوحات الإسلامية.

٥- تشرح إصلاحات عمر بن العزيز في خلافته.

٦- تُبيّن دور خلفاء الفرع المرواني في مجال الحضارة.

٧- أن تذكر عوامل ضعف الدولة الأموية.

خلافة مروان بن الحكم (٦٤ — ٦٥ هـ/ ٦٨٣ — ٦٨٤ م)

بموت معاوية بن يزيد أصبح الطريق ممهدا أمام مروان بن الحكم الذي أصبح من أبرز المرشحين لمنصب الخلافة، إذ وجد الدعم والمساعدة من أهل الشام، واتفقت جميع الفئات على استبعاد خالد بن يزيد عن الخلافة؛ لأنه حدث السن، وبهذه الدعاية قرر مجلس أشراف الشام أخذ البيعة لمروان بن الحكم، بشرط أن تكون البيعة من بعده لخالد بن يزيد، ثم لعمرو بن سعيد(١).

والعجيب أن عرب الشام انقسموا إلى فريقين يؤيدون مروان، أما العرب القيسية وعلى رأسهم الضحاك بن قيس، فقد راحوا يؤيدون عبد الله بن الزبير(٢).

وهنا يتجلى دور مروان بن الحكم؛ فقد جمع أنصاره، وسار أولاً إلى الضحاك واقتتل الفريقان بـ (مرج راهط) بغوطة دمشق وكان ذلك في المحرم سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م، وانتصر مروان بن الحكم، ودخل دمشق بعد أن قضى على الفتنة، ونزل بدار معاوية بن أبي سفيان وبايعه الناس بالخلافة، فكان ذلك أول فتح للأمويين(٣).

مصر في حوزة الأمويين:

وبعد أن استقرت الأمور في دمشق توجه مروان إلى مصر على رأس جيش

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٥/ ١٣٤.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٥/ ٥٣٧.
(٣) ابن عبد البر: الاستيعاب ٢/ ٢٠٦.

قوي، ودخلها سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م وكان عليها عبد الرحمن بن جحدم القرشي عاملاً لابن الزبير، وولى ابنه عبد العزيز بن مروان على مصر، وأمده بموسى بن نصير؛ ليكون وزيراً له ومشيراً، وعادت مصر للأمويين مرة أخرى بعد انفصال دام تسعة أشهر تحت قيادة أنصار ابن الزبير، وبقي الحجاز والعراق في يد ابن الزبير بعد أن دانت الشام ومصر للأمويين(١).

لقد كانت مصر على اتصال بالحجاز في عهد عبد الله بن الزبير، تمده بما يحتاج إليه من الغلال، فلما خضعت ثانية للأمويين حرم الحجاز مما كانت مصر تمده به، وتأثر موقف ابن الزبير في الحجاز بهذا الوضع الاقتصادي، وفي هذا الوقت كان مروان بن الحكم يعمل على تنفيذ خطوات محسوبة بدقة وإحكام، فقد أعد جيشين:

أحدهما: إلى الحجاز للقضاء على عبد الله بن الزبير.

أما الجيش الآخر: فقد سيره إلى العراق للقضاء على مصعب بن الزبير شقيق عبد الله وواليه هناك.

ويشاء الله أن تحل الهزيمة بجيش الحجاز، وأن لا يقوم جيش العراق بشيء يذكر في حياة مروان الذي عاجلته المنية سنة ٦٥هـ/ ٦٨٤م بعد أن عهد بالخلافة لابنه عبد الملك، ثم عبد العزيز فتخلى بذلك عن كل الشروط التي شرطها في الجابية(٢).

---

(١) الكندي: الولاة والقضاة، ص٤٤- ٤٦، دار صادر بيروت ١٩٨٧م.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٥/ ٥٤١، ٥٤٢.

خلافة عبد الملك بن مروان (٦٥- ٨٦هـ/ ٦٨٤- ٧٠٥م)

باتت الدولة الإسلامية عقب وفاة مروان بن الحكم تتقاسمها خلافتان:

الأولى: عليها عبد الله بن الزبير، وتضم الحجاز والعراق.

والثانية: يتولاها عبد الملك بن مروان الذي تولى عقب وفاة أبيه، ولم تعد تضم إلا الشام ومصر[1].

فكان على عبد الملك أن يواجه الأمور الداخلية و الخارجية بحزم وبسرعة لإعادة تحقيق وحدة الدولة.

١- التحديات القبلية:

أفرزت معركة مرج راهط حدثاً جديداً له أهميته في التيارات القبلية المختلفة، فقيس هزمت هزيمة قاسية أمام اليمانية، ولم يكن هذا النصر هينا على قيس، مما أثار لديهم فكرة الثأر، واشتدت حدة الصراع القبلي، ودخلت قبائل عديدة حلبة الصراع مثل تغلب، وكثرت الغارات، عندئذ أدرك عبد الملك أنه لا بد من وضع حد لذلك فقام وبعث إلى كلب يحذرهم من أخذ الثأر[2].

٢- ثورة عمرو بن سعيد (الأشدق):

لما خرج عبد الملك بن مروان إلى العراق وواجهه ابن الزبير؛ أبقى عمرو بن سعيد بن العاص الملقب بالأشدق على دمشق، ولكنه ثار عليه وتحصن بها، وقد ساعده على ذلك بعض رجالات كلب؛ أكبر القبائل في الشام، ولما علم

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٥/ ١٣٧، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، ط٣، ١٩٦٥م.

(٢) ابن عبد ربه: العقد الفريد، ٥/ ١٣٧.

عبـد الملـك بحركـة الأشـدق عـاد مسرعـا إلى دمشـق وحاصرهـا، ودارت مفاوضات بين الفريقين أسفرت عن فتح أبواب دمشق بعد أن أحس عمرو بن سعيد بتخلي بعض رجالات كلب عنه، وبعد دخول دمشق استخدم عبد الملـك الحيلة في استدراج عمرو بن سعيد إلى قصره، وأمـر بقتلـه؛ ليكـون عـبرة لكـل إنسان تحدثه نفسه بالخروج على عبد الملك[١].

٣- حركة التوابين:

بدأ أهل الكوفة بعد قتل الحسـين بن عـلي في كـربلاء يتبـادلون التهـم في خذلانهم للحسين، وعدم قيامهم بطلب دمه، وظهر على أثر ذلك حركـة أطلـق على أصحابها اسم (التوابين) وهي أول حركة تنبثق من داخـل العـراق، وتـولى زعامتها سليمان بن صرد الخزاعي، وقد ساعد على ازدياد أمر هذه الحركة موت يزيد بن معاوية، وتغير الأوضاع في البصرة والكوفة وبعض الأمصار الأخرى.

اتجهت حركة التـوابين إلى جمـع المـوالين لآل البيـت في المـدائن والـبصرة، واتفقوا على الخروج إلى النخيلة، فتجمـع لهـم سـتة عشر ألفـا، وقبـل الخـروج لمواجهة جيش الشام حدث انشقاق في صفوف التوابين بسبب تباين الموقـف في أمر قتلة الحسين، فقد رأت جماعة منهم ملاحقة القتلة من أهل الكوفة، بينما رأى سليمان بن صرد تأجيل ذلك؛ خوفا من تخلي بعض القبائل عن حركتهم[٢].

وبسبب هذا الانقسام تخلى عن سـليمان حـوالي عشرة آلاف، ورغـم ذلـك فقد صمم التوابون على الخروج، وكانت نهاية حركـة التـوابين في معركـة عـين

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٤/ ٣٢٩.

(٢) البلاذري: أنساب الأشراف ٥/ ٢٠٩.

الوردة (سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦م) مأساوية، إذ قتل معظم التوابين، وعلى رأسهم سليمان بن صرد الخزاعي.

٤- حركة المختار بن أبي عبيد الثقفي:

عادت فلول التوابين إلى الكوفة، إلا أن هذا لم يزدهم إلا عداوة وحقد على أهل الشام والأمويين؛ فاستغل المختار بن أبي عبيد الثقفي هذا الموقف، وتزعم حركة الشيعة بالدعوة بالثأر لآل البيت.

قرر المختار الخروج على والي الكوفة عبد الله بن مطيع، والاستيلاء على الكوفة في ربيع الأول سنة٦٦هـ/ ٦٨٥م، وقبل بيعة أهل الكوفة(١)، وبعد ذلك أرسل ولاته إلى أرمينيا وأذربيجان والمدائن والموصل(٢).

قام المختار بمواجهة الأمويين، وأوكل هذه المهمة إلى قائده إبراهيم بن الأشتر النخعي، فالتقى مع جيش الأمويين بقيادة عبيد الله بن زياد في خازر سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦م، وتحدثت الروايات عن تواطؤ عمير بن الحباب مع ابن الأشتر ثأرا منه لقتلى قيس في مرج راهط(٣)، وكانت النتيجة هزيمة عبيد الله بن زياد وقتله، وشتت جيشاً قوامه أربعين ألفاً، واستولى على الموصل، وراح يدعو لمحمد ابن الحنفية ابن الإمام علي رضي الله عنه، ويناديه بالإمام المهدي، (يقصد المهدي المنتظر)؛ ليستفيد هو والشيعة من هذه النسبة في اكتساب مزيد من المؤيدين الناقمين على بني أمية والثائرين من أجل المطالبة بدم الحسين وآله.

---

(١) البلاذري: أنساب الأشراف ٥/ ٢٢٨.

(٢) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٣٢.

(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ٥/ ٢٤٨.

والمعروف أن محمد ابن الحنفية كان عالماً زاهداً، فقد رفض أن يبايع لأحد من الخليفتين عبد الله بن الزبير وعبد الملك بن مروان، ولم يكن له مطمع في الخلافة، أو هدم البيت الأموي أو القضاء على ابن الزبير.

ولقد أغضبت الدعوة باسم محمد ابن الحنفية عبد الله بن الزبير، فأرسل أخاه مصعب بن الزبير؛ ليكون أميراً على العراق وأمره بالقضاء على المختار الثقفي، والتقى جيش مصعب بن الزبير بجيش المختار في معركة (المدار) سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦م، انتهت بهزيمة جيش المختار وتراجعه نحو الكوفة، إلى أن قتل سنة ٦٧هـ/ ٦٨٦م[١].

٥- السيطرة على العراق:

كان الصراع قد دخل بين عبد الملك بن مروان وعبد الله بن الزبير مرحلة جديدة بمقتل المختار، فقد تمكن مصعب بن الزبير من السيطرة على العراق، وتمكن عبد الملك من السيطرة على الشام.

ووجه مصعب بن الزبير بعد أن سمع بخروج عبد الملك نداءً للعراقيين، إلا أنه لم يجد الحماس القوي لديهم، لكنه صمم على الخروج، فتوجه إلى دير الجاثليق سنة ٧١هـ/ ٦٩٠م، وفي اللحظة الحرجة اعتزلت قبيلة ربيعة القتال، وكانت في ميمنة مصعب، ورفضت قبيلة تميم التقدم إلى ساحة المعركة، وبذلك هزم مصعب، ولم يقبل الأمان الذي بذله له عبد الملك، وفضل أن يقف وحيدا، ومعه ابنه عيسى يصارع قدره المحتوم، حتى لا تتحدث نساء قريش بأنه فر من المعركة لغدر ربيعة به[٢].

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص٣٠٢، القاهرة ١٩٦٠م.

(٢)المسعودي: مروج الذهب، ٣/ ١١٤.

وبمقتل مصعب خضع العراق لعبد الملك، وبايعه أهله، وعين عليهم أخاه بشر ابن مروان.

ومن العوامل التي أدت إلى فشل الزبيريين في السيطرة على العراق مايلي:

١- أن أهل العراق لم يخلصوا النية لابن الزبير، فلقد بايعوا لابن الزبير؛ لأنه أخف الضررين عليهم.

٢- وجود عناصر مختلفة الهوى في العراق، فالشيعة تدعو لآل البيت، والموالي ساخطون على العرب، والخوارج ساخطون على الجميع.

٣- سياسة مصعب بن الزبير القاسية تجاه العراقيين بعد مقتل المختار، وقتله لعدد كبير من أهل الكوفة.

٤- اشتداد حركة العصبية القبلية بين قبائل العراق[1].

٦- عبد الملك والحجاز:

بعد بيعة أهل العراق لعبد الملك بن مروان توجهت أنظاره إلى الحجاز، حيث عبد الله بن الزبير، فوجه إليه جيشا بقيادة الحجاج بن يوسف الثقفي، فلم يعرض للمدينة، وسلك طريق العراق، وعسكر بالطائف، ومن هناك كان يبعث خيله لقتال ابن الزبير، وتعود للطائف[2]، وبعد أن تمكن الحجاج من إحكام الحصار وقطع الإمدادات، أصبح الحجاز في ضنك شديد، غير أن ابن الزبير لم يستسلم ولاذ بالكعبة؛ فطلب الحجاج من عبد الملك أن يأذن له بضرب مكة بالمنجنيق فأذن له فضربها الحجاج، وفي أثناء ذلك حرقت الكعبة وتهدمت

---

(١) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٢٩٩- ٣٠٠.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٦/ ١٧٤.

بعـض جـدرانها وحاصرهـا بجنـده[1]، ازداد موقـف لبـن للـزبير حرجـا بعـد إحكام الحصار عليه، ثم نظر حوله فلم يجد غير قريش، فاستشـارهم في الأمـر، فأشاروا عليه بالخروج إلى الحجاج، وأخذ الأمان من عبد الملـك، لكنـه لم يقبـل بهـذا الـرأي، وأصرّ عـلى القتـال فقتـل وصـلب عـلى جـدران الكعبـة سنة ٧٢هـ/ ٦٩١م [2].

كان ابن الزبير أحد فضلاء الناس ديناً وشجاعة، إلا أنه لم يكتب له النجاح في صراعه مع عبد الملك، ويرجع ذلك إلى ما يلي:

أ) اعتصام ابن الزبير في الحجاز، والحجاز كما هو معروف غـير قـادر عـلى تقديم الجند، ولا على كفاية نفسه من الناحية التموينية.

ب) سياسة عبد الملك بن مـروان في اسـتقطاب رجـال العـراق والحجـاز وعدم قدرة ابن الزبير على ذلك.

٧- عبد الملك والروم:

لقد تركـت الفتنـة التـي دامـت ثـمان سـنوات آثـارا سـلبية عـلى الدولـة الإسلامية، فقد انعكست هذه الآثار على المجال الخارجي؛ إذ تعرضـت الدولـة الإسلامية إلى خطر هجمات الروم في شمال سورية وثغر مرعش، حتـى إن عبـد الملك اضطر إلى مصالحتهم، ودفع الأموال الكثيرة إليهـم[3]، وانتفضت أرمينيـا، ولم تعد إلى حظيرة الدولة الإسلامية، إلا بعد أن انتهت الفتن على يد محمـد بـن مروان[4].

---

(١) المصدر السابق، ٦/ ١٩٠.

(٢) المصدر السابق، ٦/ ١٩١.

(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبى ١/ ١٦.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٠٧.

وبعد القضاء على الحركات الداخلية أسند عبد الملك إلى أخيه محمد بن مروان ولاية الجزيرة وأرمينية، فدخل محمد أرمينية سنة ٧٣ هـ/ ٦٩٢م ؛ وفي الوقت ذاته عادت حملات الشواتي والصوائف السنوية إلى مناطق الثغور، فاستولت على بعض الحصون لا سيما حصن المصيصة[١].

٨- ثورة ابن الأشعث في العراق سنة (٨١هـ/ ٧٠٠م):

كان عبد الرحمن بن محمد بن الأشعث بن قيس الكندي عاملا للحجاج على سجستان المجاور لثغر الهند. وجد ابن الأشعث في هذا الأمر مجالا لطموحه، فهو يعرف أهل العراق، ويعرف كرههم للحجاج وللأمويين، فأشاع بين جنده أن الحجاج يريد أن يسيرهم لحرب (رتبيل) أحد ملوك الترك، فإن قتلوا فقد تخلص منهم، وإن انتصروا كان النصر للحجاج، فما أن سمع أهل العراق ذلك حتى تنادى الجند بخلع الحجاج، ولم يتعرضوا لعبد الملك في البداية[٢]، ولما رأى موافقة أهل العراق له، وادع (رتبيل)، وكتب بينه وبينه كتابا، وعاهده أن لا يسأله خراجا أبدا، وإن قوي عليه الحجاج لجأ ومن معه إليه.

تقدم ابن الأشعث نحو كرمان، وطرد عامل الحجاج عليها، ثم توجه إلى فارس فبايعه أهلها بعد أن خلعوا عبد الملك، وسمى نفسه ناصر الدين، وتقدم بعد ذلك نحو البصرة.

ولما تقدم الحجاج نحو البصرة هزمه ابن الأشعث في بداية الأمر، حتى إن

---

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٤/ ٣١، ٧٨.

جيش ابن الأشعث دخل معسكره وبلغ بيت ماله[١]، إلا أن ثبات الحجاج أعاد الأمل لجيش الشام، فعادوا يقاتلون حتى تم له النصر على ابن الأشعث؛ فغادر ابن الأشعث البصرة متوجهاً إلى الكوفة[٢].

جمع ابن الأشعث جيشا قوامه مائة ألف، ومثلهم من الموالي، وسار بهم إلى دير الجماجم لملاقاة الحجاج هناك، وأمام تعاظم قوة ابن الأشعث تدارس عبد الملك الأمر مع رؤوس قريش وأهل الشام، فاتفقوا إن كانت الثورة ضد الحجاج فليعزل؛ لأن عزله أيسر من حرب أهل العراق، فأرسل عبد الملك أخاه محمد بن مروان وابنه عبد الله بن عبد الملك لمقابلة ابن الأشعث، وعرض عليه الأمور التالية:

أ) عزل الحجاج بن يوسف الثقفي.

ب) مساواة أهل العراق مع أهل الشام في الأعطيات.

ج) الأمان والولاية لابن الأشعث مادام عبد الملك حيا[٣].

ولما عرضت على ابن الأشعث اقتراحات عبد الملك كاد ابن الأشعث أن يقبلها، إلا أن أهل العراق رفضوا ذلك اعتقادا منهم أن النصر سيكون حليفهم. وأمام هذا الرفض كان لا بد من خوض القتال، وجرى بين الفريقين ما يزيد على إحدى وثمانين وقعة كان الفوز فيها لابن الأشعث، إلا ما كان في آخر وقعة فكانت عليه، وانهزم إلى مسكن فلحقته قوات الحجاج، إلا أنه تمكن من الهرب

---

(١) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٣٤٢.

(٢) اليعقوبى: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٣- ٢٤.

(٣) الطبرى: تاريخ الرسل والملوك، ٦/ ٣١٨.

إلى (رتبيل)، حتى كانت نهايته سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م [١].

وبانتهاء ثورة ابـن الأشـعث زال أمـل العـراقيين في اسـتعادة الخلافـة إلى ديارهم، بل ظهر أن العراق غير قـادر عـلى مواجهـة الشـام، ولـيس أمامـه إلا الخضوع؛ خصوصا وأن هناك قوة شامية رابضة في واسط القريبة مـن الكوفـة، إلى جانب والٍ يتمتع بصلاحيات واسعة.

٩- تعريب الدواوين:

عند الفتح الإسلامي، وإنشاء الدواوين في عهد عمر بن الخطـاب؛ اعتمـد المسلمون على أهالي البلاد المفتوحة في تسيير أمور الدولة المالية؛ فكانـت تكتـب بعض الدواوين بلغات أهل البلاد المحليـة، وهـي اللغـة القبطيـة واليونانيـة في مصر، واليونانية في بلاد الشام، والفارسية في العراق وخراسان.

أمر عبد الملك بن مـروان بالبـدء في تعريـب هـذه الـدواوين و نقلهـا مـن اللغات المحلية إلى اللغة العربية. ويبدو أن بداية التعريب كانت في ديوان خراج الشام. إذ يذكر[٢] أن عبد الملك بن مروان في سنة ٨١ هـ/ ٧٠٠م أمر بنقل هـذا الديوان إلى العربية، وأوكلت هذه المهمة إلى الكاتب سليمان بـن سـعد؛ بعـد أن أعطاه خراج الأردن سنة كاملة، وتمكن سليمان بن سعد من إنهائه في مدة سـنة، ولما جاء سليمان بن سعد بالديوان معرباً إلى عبد الملك، قام عبـد الملـك بعرضـه على كاتبه سرجون، فغمه ذلك، فخرج من عنده كئيبـا، فلقيـه قـوم مـن كتـاب الروم: فقال: «اطلبوا المعيشة من غير هذه الصناعة، فقد قطعها الله عنكم».

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٦/ ٣٣٩- ٣٥٩.

(٢) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٩٦.

وفي عهد عبد الملك أيضا بدأت عملية نقل ديوان مصر إلى العربيـة، إلا أن نقله تأخر إلى أوائل خلافة الوليد بن عبد الملك.

أما ديوان خراسان فقد بقي إلى خلافة هشام بن عبد الملك، حيث تم نقلـه إلى العربية[١].

١٠- سك النقود:

لقد بدأت عملية سك النقود باللغة العربية قبل تعريب الـدواوين، فحتـى سنة٧٥هـ/ ٦٩٤م كانت العملـة المتداولـة في الدولـة الإسـلامية هـي الـدنانير البيزنطية والدراهم الفارسية.

وقد بدأ المسلمون بإضافة بعض الكلمات إلى الدنانير منـذ عهـد عمـر بـن الخطاب، عندما أمر بنقش كلمة جائز عـلى الـدنانير؛ للدلالـة عـلى أنهـا دنـانير جديدة، ولما تولى معاوية الخلافة ذكر أنه سك درهما باسمه[٢].

كما قام مصعب بن الزبير سنة ٧٠ هـ/ ٦٨٩م بسك دنانير ودراهم جديدة بأمر من أخيه عبد الله بن الزبير[٣]؛ لكن عبـد الملـك بـن مـروان كـان أول مـن ضرب الدنانير وسكها سنة ٧٤هـ/ ٦٩٣م أو٧٥هـ/ ٦٩٤م أو٧٦ هـ/ ٦٩٥م.

ويـذكر الـبلاذري[٤] السـبب في ضرب العملـة فيقـول: «إن القـراطيس الإسلامية كانت تدخل بلاد الروم عن طريق مصر، ويأخذ العرب مقابل ذلـك الدنانير الرومية، ولما أمر عبد الملك بن مروان بكتابة بعض الآيات القرآنية عـلى

(١) البلاذري: فتوح البلدان، ص ١٩٧.

(٢) المقريزي: إغاثة الأمة بكشف الغمة، ص ٥٢، القاهرة ١٩٥٧.

(٣) المقريزي: إغاثة الأمة ص ٥٣.

(٤) البلاذري: فتوح البلدان ص ٢٤١-٢٤٢.

رؤوس (القراطيس) كتب إليه ملك الروم أنكم أحدثتم في قراطيسكم كتاباً نكرهه، فإن تركتموه وإلا أتاكم في الدنانير ما تكرهونه، فكبر ذلك في صدر عبد الملك وكره أن يدع سنة سنها، فأرسل إلى خالد بن يزيد بن معاوية، واستشاره في الأمر، فعرض عليه خالد أن يسك نقودا جديدة، ولا يتعامل بالدنانير الرومية، فوافق عبد الملك على ذلك».

خلافة الوليد بن عبد الملك (٨٦- ٩٦هـ/ ٧٠٥- ٧١٤م):

توفي أمير المؤمنين عبد الملك بن مروان سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥م وخلفه ابنه الوليد، وكان أبوه قد عهد إليه بالخلافة، وبويع له بها يوم وفاة أبيه[1].

١- فتح المغرب وشمال إفريقية:

وكان عهده عهد فتح ويسر وخير للمسلمين، لقد اتسعت في أيامه رقعة الدولة الأموية شرقا وغربا، فعندما تولى الوليد الحكم استعمل عمه عبد الله بن مروان على إفريقية، فعزل حساناً واستعمل بدلاً منه موسى بن نصير عام ٨٩ هـ/ ٧٠٧م، فكان شديداً وصارماً على البربر الذين طمعوا في إفريقية بعد مسير حسان عنها، فوجه إليهم ابنه عبد الله، فقتل وسبى منهم خلقا كثيرا، وتوجه إلى جزيرة (مايورقة) فاقتحمها وسبى أهلها، وتوجه إلى طائفة أخرى من البربر فأكثر فيهم القتل والسبي، حتى بلغ السبي خمساً وستين ألفاً؛ فلم يكن أعظم من ذلك.

ثم خرج غازياً طنجة يريد من بها من البربر، فانهزموا خوفاً منه، فتبعهم وقتلهم، واستأمن من بقي منهم، ودخلوا في طاعته، وترك عليهم وعلى طنجة

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٢٦.

مولاه طارق بن زياد وأبقى معه جيشاً أكثره من البربر، وتـرك معهـم مـن يعلمهـم القرآن الكريم والفرائض وحينئذ لم يبقَ له في إفريقية من ينازعه[1].

ورأى الوليد أن أهم ما يجب عمله تقوية الأسطول الإسلامي، وضرب قواعد الروم في صقلية وغيرها من جزر البحر المتوسط المقابلة لإفريقيـة، حتـى يستقر الوضع للمسلمين في الشمال الإفريقي الـذي أصبح جـزءاً مـن الدولـة الإسلامية.

لقد دخلت الفتوح الأموية في شمال إفريقيـة مرحلتهـا الخاتمـة سـنة ٨٩ هـ/ ٧٠٧م بتولي إمارة القيروان موسى بن نصير خلفا لحسان بن النعمان، فلقـد أجـاد التنسـيق بـين الأساطيل الإسلامية في غـرب البحـر المتوسـط، وبـين قواته البرية، وفتح الأجزاء النائية -كما رأينا- وهي التي تعـرف باسـم المغـرب الأقصى، وطـرد البيـزنطيين مـن قواعـدهم البحريـة القريبـة مـن سـواحل إفريقية (تونس)، وعندئذ أصبح شمال إفريقية الجناح الأيسر للدولة الإسلامية في عهد الأمويين، وأصبح أهلها دعاة للإسلام يسهمون في نشره فيما جاورهم من بلاد[2].

وقد عَهِد موسى بن نصير إلى طارق بن زياد بالقيادة العليا للقـوات الإسـلامية، وهو من أبناء البربر في مدينة (طنجة)، وجاءت هذه الخطوة مـن جانـب موسـى بـن نصير دليلاً على حنكته كقائد، وعلمه بمعادن الرجال، وليدل على سمو وعلـو مبـدأ المساواة في الإسلام، فقد رأى البربر واحداً من أبناء القبائل البربرية وقد صـار القائـد العام لجبهة المغرب الأقصى.

---

(١) ابن عبد ربه: العقد الفريد ٥/ ١٦٠.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٤/ ٧٠- ٧١.

وكان من نتيجة هذا العمل أن ضخ للدين الإسلامي الحنيف دماءً جديدة، هيأت له الانطلاق إلى الأندلس، ونشر نوره على أرجاء هامة من غرب أوروبا[١].

٢- فتح الأندلس:

في سنة ٩١هـ/ ٧١٠م استشار موسى بن نصير الخليفة الوليد بن عبد الملك في فتح الأندلس (أسبانيا)، وبعد موافقة الخليفة أرسل موسى سرية استطلاعية بقيادة طريف بن مالك البربري، فشن غارة على جنوب أسبانيا، ومعه أربعمائة مقاتل ومائة فارس واستطاع أن يتوغل بهم في الجزيرة الخضراء، ويعود إلى ساحل إفريقية حاملا كثيراً من الغنائم، وكان ذلك في رمضان سنة ٩١هـ/ ٧٠٩م، وقد تأكد له قصور وسائل الدفاع في أسبانيا بل انعدامها.

ولقد شجع نجاح طريف في تلك الغزوة القائد الأعلى موسى بن نصير على التقدم لفتح الأندلس (أسبانيا)، ووقع اختياره على والي طنجة ووالي جيشه طارق بن زياد ليتولى مهمة هذا الفتح العظيم، وفي شهر رجب سنة ٩٢هـ/ ٧١٠م قام طارق بن زياد ومعه جيش مكون من سبعة آلاف مقاتل بعبور المضيق الذي سمي باسمه، ونجحت عملية العبور عند الصخرة من جنوب البلاد وهي التي نسبت إليه وعرفت باسم جبل طارق، وها هوذا يندفع بقواته كالسهم، لا يتوقف في طريقه شيء، ولقد حاول ملك أسبانيا (لوذريق) أن يوقف هذا الزحف بجيش جرار قوامه مائة ألف، ولكن طارق بن زياد قد طلب المدد من موسى بن نصير فأمده بخمسة آلاف حتى أصبح جنده اثني عشر ألفاً[٢].

---

(١) أحمد بدر: دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، ص ١٤٧، دمشق ١٩٦٠م.

(٢) المرجع السابق، ص ١٤٩ـ ١٥١.

واندفع طارق بكل إيمانه زاحفا على القوط -حكام شبه جزيرة إيبيريا- وأنزل بهم هزيمة فادحة في موقعة شذونة، وهي موقعة رمضانية على نهر لكة (وادي لكة) بمقاطعة (شذونة)، وراح يواصل فتوحاته بعد أن قتل (لذريق)، فأوقع بالقوط الهزيمة الثانية عند مدينة (استجة)، فألقى الله الرعب في قلوب أعدائه، ففزعوا منه فزعا شديدا، وظنوا أنه سيفعل بهم فعل سلفه «طريف بن مالك»، وكان طريف قد أوهمهم أنه سيأكلهم هو ومن معه، فهربوا منه إلى طليطلة.

وتحت راية الإسلام تقدم جيش طارق وتوغل وتساقطت مدن الأندلس واحدة بعد الأخرى في يد المسلمين.

وها هم أولاء جنود الإسلام ينتشرون، ثم قرر طارق وهو في مدينة استجة أن يفرق جيشه ويوجهه إلى جهات شتى، فهذه شعبة تتوجه إلى (قرطبة)، فتدخلها وتستولي عليها، وتلك شعب من الجيش تقتحم مدينة (تدمير) فيضطر أهلها إلى مصالحتها، وسار طارق و معه معظم الجيش إلى مدينة (جيان) يريد (طليطلة)؛ فهرب أهلها وتركوا له المدينة خالية، ويواصل المنتصرون ملاحقة الفلول المنهزمة، حتى (جليقية) في أقصى الشمال الغربي من الأندلس، ثم عاد من هناك، وعادت جيوشه إلى طليطلة في سنة ٩٣هـ/ ٧١١م.

وهنا خشي موسى بن نصير أن تقطع على الجيش خطوط المواصلات، ويحال بينه وبين قواعده التي انطلق منها، ويقوم العدو بالانقضاض عليه ومحاصرته والقضاء عليه، فأسرع بإصدار أوامره إلى طارق أن ينتظر في طليطلة حتى يسعى إليه بنفسه هو، ويؤمن خطوطه الخلفية ويلحق به[1].

---

(١) أحمد بدر: دراسات في تاريخ الأندلس وحضارتها، ص١٥٠.

وعبر موسى بقواته إلى الأنـدلس مسـتعداً لتطهـير الجيـوب التـي خلفهـا طارق وراءه، وكان على موسى أن يقوم بتأمين مؤخرة الجيش الفـاتح؛ فـافتتح مدناً وحصوناً كان بقاؤها بين الأسبان خطراً عـلى الوجـود الإسـلامي الجديـد بشبه الجزيرة، حتى وصل إلى طليطلة، وهناك التقى بجيش طارق بن زياد، وقد استغرق ذلك من موسى جهداً ووقتاً حتى وصل إليه، وهناك في طليطلة التقـى القائدان طارق وموسى، وراحا يقتسـمان الفتـوح الباقيـة بـبلاد الأنـدلس فـيما بينهما(١)، وسارا معاً حتى بلغا (سرقسطة) على نهر الأبرو، ومن هناك سار طارق إلى الشمال حتى بلغ جبال (ألبرت) أي الأبواب، وهي التي تعرف باسم جبـال (البرتات) البرانس، ووقف على أبـواب فرنسـا، وكـان ذلـك فتحـاً عظـيماً؛ إذ رفرفت راية الإسلام على أبواب فرنسا في أقل من مائة عام من هجـرة الرسـول ﷺ، وبينما كان طارق بن زياد يقف على أبواب فرنسا كـان موسـى يتجـه غربـا حتى دخل ذلك الإقليم الذي يطل على خليج (بسـكاية) ويسـمى أشـتوريس، وتوقفت الفتوحات أخيراً على ساحل بسكاية، واستدعى الخليفة الوليد كلا من موسى وطارق إلى دمشق سنة ٩٥هـ/ ٧١٣م. ولا يفوتنا هنا أن نذكر أن موسى بن نصير أرسل الأسطول الإسلامي لفتح جزيرة سردينيا، فافتتحهـا المسـلمون عنوة وعادوا بالسبايا والغنائم سنة٩٢هـ/ ٧١٠م.

وتابع ولاة الأنـدلس مـن بعـد موسـى الفتـوح، فقـام ابنـه عبـد العزيـز باستكمال فتح شرق الأندلس وغربه وجعل عاصمته أشبيلية(٢).

---

(١) أحمد بدر: دراسات في تاريخ الأندلس و حضارتها ص ١٥١- ١٥٢.

(٢) المرجع السابق: ص١٤٩ وما بعدها.

٣- فتح بلاد ما وراء النهر:

ونتقل من جبهة إلى جبهة لنتابع تقدم الراية الظافرة في أرجاء الأرض، وإذا كنا قد تركناها وهي ترفرف على أبواب فرنسا فها نحن نعود لنتابعها وهي ترفرف على أبواب الصين، كل ذلك كان في عهد الوليد بن عبد الملك الذي كان عهده خيرا وبركة على الإسلام والمسلمين.

فعندما تولى قتيبة بن مسلم خراسان سنة ٨٦ هـ/ ٧٠٥ م اتخذ من (مرو) قاعدة له، ثم فتح بلاد النهر – المعروف بنهر جيحون- ودخل المسلمون بلاداً عديدة، سرعان ما دخلت في دين الله، ودافعت عنه مثل (الصغد) و(طخارستان) و(الشاش) و(فرغانة) في نحو عشرين سنة.

وأخيراً أنهى أعماله الحربية بفتح (كاشغر) في (التركستان) (الصينية) سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م، وصارت الدولة الإسلامية بذلك تجاور حدود الصين[١].

٤- فتح الهند:

لقد فتح المسلمون بلاد فارس وخراسان وسجستان، وكانت غايتهم نشر الإسلام وحماية الحدود الجنوبية للدولة الإسلامية، ولم يبق إلا الهند.

وفي عهد الوليد بن عبد الملك كلف الحجاج بن يوسف الثقفي ابن أخيه وصهره الشاب محمد بن القاسم بمهمة غزو بلاد الهند، وسار محمد بن القاسم إلى الهند سنة ٨٩هـ/ ٧٠٧م وفتح ثغر الديبل، ثم سار عنه وجعل لا يمر بمدينة إلا فتحها حتى عبر النهر فصالحه أهل (سربيدس) وفتح (سهبان).

---

(١) عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين، ص ١٤٠- ١٤٦، الطبعة الرابعة، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، ١٩٧١.

ثم سار إلى لقاء (داهر) ملك السند والهند، وكان لقاءً فريداً فكان داهر وجنوده يقاتلون على ظهور الفيلة، ودارت معركة حامية كتب الله النصر فيها لراية الإسلام وهزم داهر وقتل، وراح محمد بن القاسم يتقدم، ويمد فتوحاته في كافة أرجاء بلاد السند، حتى وصل إلى الملتان ودخلها وغنم مغانم كثيرة[١].

ولقد لقي الوليد ربه سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م بعد أن رفعت راية الإسلام في عهده على حدود فرنسا والصين وخراسان وسجستان والسند والهند.

خلافة سليمان بن عبد الملك (٩٦-٩٩هـ/٧١٤- ٧١٧م):

لما مات الوليد بن عبد الملك تسلم الخلافة من بعده سليمان بن عبد الملك سنة ٩٦هـ/ ٧١٤م، بعد أن أخذ له البيعة في دمشق عمر بن عبد العزيز، وكان سليمان يتخذ من مدينة الرملة في فلسطين مقراً له، وأنشأ بها جامعاً وقصر إمارة، وانتقل الناس إليها.

وفي أثناء خلافة الوليد جرت محاولة لإقصاء سليمان عن الخلافة وتعيين ابنه عبد العزيز بن الوليد بدلاً منه، وقد أدت هذه المحاولة إلى نقمة سليمان على بعض ولاة الوليد الذين أيدوه في فكرة إقصاء سليمان، فلما تولى الخلافة سليمان عزل يزيد بن أبي مسلم مولى الحجاج عن العراق، وعين بدلاً منه يزيد بن المهلب، ثم قام بعزل محمد بن القاسم الثقفي صاحب فتوحات الهند، وبارك سليمان ثورة أهل خراسان على قتيبة بن مسلم ورأى فيها خلاصاً من أحد أتباع الحجاج[٢].

---

(١)عبد المنعم ماجد: التاريخ السياسي للدولة العربية عصر الخلفاء الأمويين، ص ١٧٠- ١٧٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٦/ ٥٠٦.

الفتوحات في عهد سليمان بن عبد الملك:

وعلى الرغم مما اتخذه سليمان من سياسة الإقصاء لبعض الولاة، فقد كانت الدولة مستتبة، ولم تظهر فيها الفتن، فساعده ذلك على التوجه نحو الفتوحات، ففي الشرق أوكل مهمة الفتح إلى يزيد بن المهلب الذي تمكن من فتح قوهستان في الهضبة الإيرانية جنوب شرق بحر قزوين[١].

أما جبهة الروم فقد فتح حصن الحدود عام ٩٦هـ/ ٧١٤م، وفي العام التالي أرسل الخليفة ابنه داود في صائفة فتحت حصن المرأة على الحدود الإسلامية الرومية، وفي نهاية نفس العام مهد الخليفة لعمله الكبير في محاولة فتح القسطنطينية، وجهز سليمان جيشاً برياً قوامه ١٢٠ ألفاً بقيادة أخيه مسلمة أفضل قادته، كما جهز سليمان أسطولي الشام ومصر لغزو سواحل الروم ومعاونة الجيش البري في حصار القسطنطينية من البحر[٢].

وطال حصار القسطنطينية، وجاء الشتاء وكان البرد شديداً، ولم يكن باستطاعة الخليفة إرسال النجدات، كما استخدم الروم النار الإغريقية، وساعدت العواصف في إحراق بعض المراكب واستمر الحصار طيلة فترة حكم سليمان الذي توفي في ٩٩هـ/ ٧١٧م[٣].

ولما جاء عمر بن عبد العزيز أمر بالانسحاب سنة ٩٩هـ/ ٧١٧م بعد أن زود المسلمين بالمؤن والإمدادات.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٤/ ١٤٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٥/ ١٧- ١٩.

(٣) خليفة: تاريخ خليفة بن الخياط القسم الأول، ص٤٣٢. ومؤلف مجهول: العيون والحدائق، ص٣٣- ٣٩.

وقد أسدى سليمان يداً عظيمة للأمة الإسلامية بجعله ولاية العهد من بعده لعمر بن عبد العزيز- خامس الخلفاء الراشدين.

خلافة عمر بن عبد العزيز (٩٩ — ١٠١ هـ/ ٧١٧- ٧١٩):

لم يصل عمر بن عبد العزيز إلى منصب الخلافة وصولاً عادياً، فقد أراد سليمان أن يجعل الخلافة من بعده لابنه أيوب و قام بالبيعة له[١]، ولم يجد معارضاً في ذلك، إلا أن المنية عاجلته قبل وفاة أبيه.

وبعد وفاة أيوب أراد البيعة لابنه داود عندما شعر بالمرض في مرج دابق، وكان داود مشاركاً في حملة القسطنطينية، الظاهر أن سليمان لم يشأ إتمام الترشيح له لكون أمه غير عربية[٢]، فاتجهت الأنظار نحو عمر بن عبد العزيز فاستشار سليمان مجموعة من العلماء الأفاضل حوله، فزينوا له تولية عمر بن عبد العزيز وعلى رأسهم رجاء بن حيوة العالم العامل.

كتب سليمان وصيته وهو على فراش المرض، وجاء فيها: هذا الكتاب من عبد الله سليمان بن عبد الملك لعمر بن عبد العزيز: «أن قد وليته الخلافة من بعدي، ومن بعده يزيد بن عبد الملك، فاسمعوا له وأطيعوا، واتقوا الله، ولا تختلفوا، فيطمع فيكم عدوكم» وختم الكتاب[٣].

سياسة عمر بن عبد العزيز في تسيير الدولة وإصلاحاته:

لما تسلم عمر بن عبد العزيز الخلافة أراد أن يبني سياسته على مبادئ الحق

(١) ابن قتيبة، المعارف ص ٣٦١، طبعة مصر ١٩٦٩.

(٢) السجستاني: المعمرون ص ١٦٦، دار الكتب العربية، القاهرة ١٩٦١.

(٣) الطبري: تاريخ ٤/ ٥٩- ٦٠.

والعدل والمساواة، ولقد قام بتنفيذ هذه السياسة على أربعة أركان[(١)].

١- الخليفة: لقد بدأ عمر حياته السياسية بالتشديد على الأمويين، وانتزع الكثير مما بأيديهم، وسماها المظالم[(٢)].

ولما بدأ بنو أمية بالاحتجاج على هذه السياسة هددهم بقوله: لئن عدتم لمثل هذا المجلس لأشدن ركابي، ثم لأقدمن المدينة ولأجعلنها أو أصيرها شورى[(٣)].

ولم تقتصر هذه السياسة على الأمويين، بل شملت كل جوانب حياته وأسرته من مأكل ومشرب وملبس وما إلى ذلك.

٢- الوالي: أعطى عمر ولاته صلاحيات كبيرة باستثناء ما يتعلق بالقطع والقتل والصلب، فاشترط موافقة الخليفة على ذلك، وعلى الرغم من حرصه على اختيار الولاة المناسبين إلا أنه لم يترك لهم الحبل على الغارب، بل كان يشدد الرقابة عليهم، ويعين الرقباء عليهم لتزويده بالأخبار كافة عن سلوك هؤلاء الولاة[(٤)].

٣- القاضي: أجمل عمر بن عبد العزيز صفات القاضي الذي يريده بقوله: إذا كان في القاضي خمس خصال فقد كمل: علم بما كان قبله، ونزاهة عن الطمع، وحلم عن الخصم، واقتداء بالأئمة، ومشاورة أهل العلم والرأي[(٥)].

---

(١) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٣/ ٤٦، المسعودي مروج الذهب ج ٣ ص ١٩٣.
(٢) الدينوري: الأخبار الطوال، ص ٣٣١.
(٣) البلاذري: أنساب الأشراف ق ٤ ج١ ص ٤٥٥.
(٤) بحشل: تاريخ واسط ص ١٤١.
(٥) الجاحظ: البيان والتبيين ج ٢ ص ١٥٠،، مكتبة الخانجي، القاهرة ١٣٩٥هـ.

٤- صاحب بيت المال: اشترط فيه عمر أن يكون عفيفا، أمينا، يأخذ بالحق، وهكذا نجح كل ركن من هذه الأركان بوظيفته- عملياً- على خير وجه.

وقد ساعد على هذا النجاح قيام عمر بعدد من الإصلاحات الكبرى كان لها الأثر الأكبر في نجاح سياسته ومنفذيها في مهمتهم، وهذه الإصلاحات هي:

أ. لقد اتبع عمر سياسة مالية على نفسه وأهل بيته جاعلاً من نفسه قدوة لغيره من الناس[1].

ب. حاول رد القطائع من الأراضي التي استولى عليها الأمويون؛ وتنفيذا لهذه القاعدة بدأ نفسه برد القطائع التي آلت إليه من قبل أبيه.

ج. شجع على امتلاك الأرض الموات، والقيام باستصلاحها[2].

د. أصدر قرارا يمنع شراء الأرض الخراجية بعد سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨م، بعد أن لاحظ الخسارة التي تعرض لها ديوان الخراج بعد تحول الأرض إلى أرض عشرية.

هـ. رفع الجزية عن من أسلم من أهل الذمة[3]، ولم يقتصر على رفع الجزية بل وزع عليهم بعض الأموال لاستصلاح الأراضي، وإذا كبر الرجل منهم، وليس له مال كان ينفق عليه حتى يموت[4].

---

(١) ابن الجوزي (أبو الفرج عبد الرحمن بن علي): سيرة عمر بن العزيز، ص ١٨٦، القاهرة ١٣٣١هـ.

(٢) أبو عبيد: الأموال ص ٣٦٩.

(٣) المقريزي: الخطط ج١ ص ٧٨.

(٤) ابن عبد الحكم: سيرة عمر ص ٦٨.

ولم ينس عمر مجال الرعاية الاجتماعية، فطلب إلى ولاته العناية بالأمور التالية:

١- كفالة حقوق الموتى والغائبين.

٢- العناية بالأسرى والمساجين[1].

٣- محاربة أهل العصبية القبلية ومعاقبة مثيريها.

وفي مجال سياسته تجاه الفرق الإسلامية يعد عمر أول من أقام جسور الحوار الفكري مع هذه الفرق، لا سيما الخوارج، وقد استطاع أن يقنع الكثيرين بآرائه مما أدى إلى وقف نشاطهم إلى حد كبير في فترة حكمه.

وبهذه السياسة تمكن عمر من تحقيق الرخاء ونشر الإسلام في مناطق عجز السيف عن نشره فيها، إلا أن هذه السياسة- للأسف الشديد- لم تدم إلا سنتين وخمسة أشهر فقد توفي-رحمه الله- في رجب من سنة ١٠١هـ/ ٧١٩م، وكانت هذه الفترة القصيرة من خلافته نقطة مضيئة في دولة بني أمية.

خلافة يزيد بن عبد الملك (١٠١- ١٠٥هـ/٧١٩- ٧٢٣م):

تولى يزيد بن عبد الملك بن مروان الخلافة عقب وفاة الخليفة العادل عمر بن عبد العزيز وظل في الحكم خمس سنوات من سنة ١٠١هـ/ ٧١٩م إلى سنة ١٠٥هـ/ ٧٢٣م.

وقد حاول السير في طريق عمر بن عبد العزيز، ولكنه سرعان ما انحرف عن الطريق.

وإذا كانت قوة الخليفة ضرورية للدولة، فإن الدولة الإسلامية قد انتابها

(١) ابن سعد: محمد بن سعد، الطبقات ٥/ ٣٤٨.

الضعف بعد أن تولى أمرها خلفاء ضعفاء، فهان على الأعداء أمرهم، وانتشرت الفتن والاضطرابات في الداخل.

أما في الخارج فقد كانت قبائل التركمان تضغط في الشمال، بينما كان دعاة بني العباس يسعون بنشاط في تدبيرهم السري لتقويض دعائم الحكم الأموي في الشرق[1]، لقد أعلن «شوذب الخارجي» الثورة على الأمويين، وهزمهم في عدة معارك، حتى استطاع «مسلمة بن عبد الملك» والي الكوفة القضاء عليه وعلى الخارجين على الدولة معه وتشتيت شملهم.

ثم يخرج «يزيد بن المهلب بن أبي صفرة» على الخليفة مع الخارجين عليه، ويسير إلى البصرة، ثم يواصل السير إلى الكوفة، ولكن الخليفة «يزيد بن عبد الملك بن مروان» يرسل إليه أخاه «مسلمة» بجيش قوي يقضي به على الفتنة، ويظفر به[2].

خلافة هشام بن عبد الملك (١٠٥- ١٢٥هـ/ ٧٢٣- ٧٤٢م):

ولا يطول الأجل بالخليفة يزيد بن عبد الملك بن مروان فيلقى ربه، ويخلفه من بعده هشام بن عبد الملك ١٠٥ – ١٢٥هـ/ ٧٢٣- ٧٤٢م، وقد جاء هشام ليواجه «ثواراً» و «خوارج» خلال حكمه الذي استمر قرابة عشرين سنة.

ثار الحارث بن سريج (بخراسان) بتشجيع وتأييد من التركمان (الأتراك) على الخليفة هشام بسبب «الضرائب» التي فرضها على الموالي من الفرس، وعسف بعض الولاة، وسرعان ما انضم إليه في ثورته هذه خلق كثير من العرب وغيرهم، وراح يستولي على المدن الواقعة على ضفاف نهر سيحون.

---

(١) ابن الأثير: الكامل ٤/ ١٩١.

(٢) الدينوري: الأخبار الطوال ٢٦٨ـ ٢٧٠.

ويصدر الخليفة الأمر إلى «أسد بـن عبـد الله الـقسري» بتـولي أمـر هـذه الـبلاد ومواجهة الخارجين وعلى رأسهم الحارث بن سريج[١]، وأخذ الحارث يتراجـع أمـام «أسد بن عبد الله» الذي أمره الخليفة أن يطرده ويسترد منه البلاد التي اسـتولى عليهـا، فانسحب الحارث إلى (طخارستان)، وضمها إلى بلاد (ما وراء النهر) حيث انضم إلى الأتراك ضد الدولة الأموية.

وكان من الخارجين أيضاً على الدولة في عهد «هشـام» «زيـد بـن عـلي بـن الحسين» وأنصاره، وقد تمكن الأمويون من القضاء على حركته.

ولكن عهد هشام يعتبر حداً فاصلاً بين عهد ازدهار الدولة الأموية وعلـو شأنها، وبين عهد اضمحلالها، وانتشار العوامل الفتاكة في جسمها.

إن الخليفة «هشام» يمثـل سـادس الخلفـاء الأمـويين الأقويـاء الكبـار بعـد «معاوية بن أبي سفيان» و «عبد الملك بن مـروان »، و «الوليـد بـن عبـد الملـك»، و«سليمان بن عبد الملك»، و«عمر بن عبـد العزيـز». لقـد اسـتطاع أن يسـير عـلى نهجهم في القبض على شئون الدولة بحزم وعزم وقـوة، إلا أنـه لم يكـن في عـدل عمر بن عبد العزيز ولا في سيرته، لكنه اعتمد على القوة في كبت جميع الفتن التـي سبق أن أظهرت عداءها، وأطلت برأسها[٢]؛ ترى من يخلفه بعـد أن قـاد السـفينة الأموية لتصل إلى عام ١٢٥هـ/ ٧٤٢م؟

خلافة الوليد بن يزيد بن عبد الملك (١٢٥- ١٢٦هـ/٧٤٢-٧٤٣م):

توفي هشام سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٢م وبناء على وصـية يزيـد بـن عبـد الملـك،

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٧/ ٢٦.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي ٢/ ٣٩٢.

أعقبه في الخلافة الوليد، وتشير الروايات إلى أن هشاماً لم يكن راضياً عن سيرة الوليد، ومن هنا حاول خلع الوليد من ولاية العهد، إلا أنه لم يستطع ذلك أمام قوة المؤيدين للوليد.

ولما آلت الخلافة إلى الوليد صب جام غضبه على أبناء هشام بن عبد الملك، وفي عهد الوليد حدث أمران كان لهما أثر كبير في خلافته، وهما: خروج يحيى بن زيد بن علي ابن الحسين، ومقتل خالد بن عبد الله القسري.

أما يحيى فقد هرب بعد فشل أبيه زيد في الكوفة إلى خراسان، وأعلن الثورة على الأمويين من هناك، ولكن ثورته باءت بالفشل.

وأما خالد القسري فقد نقم عليه الوليد لرفضه البيعة لابني الخليفة، فدفعه الوليد إلى عدوه القديم يوسف بن عمر، وطالبه ببقايا خراج العراق، فاشتراه يوسف بن عمر ببعض الأموال وبدأ بتعذيبه حتى مات في سجنه، فكان موت خالد القسري بمثابة برميل البارود الذي أشعل نار الثورة على الوليد، وقد التقت اليمانية التي قتل سيدها والأسرة الأموية التي رأت في بيعة الوليد لابنيه الصغيرين بمثابة الإقصاء النهائي عن الخلافة؛ فالتقتا في الثورة على الوليد، ولم تجد اليمانية أفضل من يزيد بن الوليد بن عبد الملك لعاملين:

الأول: لأن زوجته كلبية.

والثاني: لأنه كان يظهر التدين[1].

واستطاع يزيد دخول دمشق دون إراقة نقطة دم[2]، ثم انتقل إلى محاربة

(١) مجهول: العيون والحدائق ص ١٣٩.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٧ ص ٣٢٨.

الوليد في حصنه بالبخراء، فحاصره يزيد في حصنه إلى أن قتل، وتمت البيعة ليزيد سنة ١٢٦هـ/ ٧٤٣م.

وبمقتل الوليد أشرفت الدولة الأموية على السقوط بخطى سريعة؛ فالانقسامات بين الأسرة الحاكمة تعمقت، وكثرت الثورات، وتلاحقت في كل مكان، فلا عجب أن يكون مصرع الوليد إيذاناً بالقضاء على الأمويين.

ضعف الدولة الأموية وسقوطها:

زاد بمقتل الوليد بن يزيد اضطراب حبل بني أمية، وهاجت الفتن، فوثب سليمان بن هشام- وكان محبوسا في عمان- على بيت المال، فأخذه واتجه إلى دمشق[(١)].

وحبس عبد العزيز بن الحجاج ابني الوليد الحكم وعثمان بحبس الخضراء في دمشق[(٢)].

وفي حمص قام أهلها بهدم دار العباس بن الوليد، وولوا عليهم معاوية بن يزيد بن الحصين، وكاتبوا أجناد الشام ودعوهم للطلب بدم الوليد.

وفي فلسطين قام سعيد بن روح بن زنباع، وكتب إلى يزيد بن سليمان ليتولى أمرهم.

وفي الأردن ولوا عليهم محمد بن عبد الملك.

وفي الجزيرة جاء مروان بن محمد قادما من أرمينيا يطلب دم الوليد.

وفي العراق كان يوسف بن عمر يحاول جمع أهله حوله، إلا أنه لم يجد

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ١٦٢.

(٢) نفس المصدر ٧ ص ١٦٦.

عندهم النصرة، فما أن قام منصور بن جمهور الكلبي يحمل كتاباً بتولية العراق حتى هرب يوسف بن عمر، وتوجه إلى البلقاء.

ولسوء حظ الأمويين أن يزيدا مات بعد ستة أشهر من خلافته، فزادت الفتن في الدولة بعد بيعة أخيه إبراهيم بن الوليد، وفي هذه المرة تزعم الأمر مروان بن محمد، فتحرك من الجزيرة متوجهاً إلى دمشق ثائراً للوليد بن يزيد[١].

اتجه مروان إلى حمص في طريقه إلى دمشق وكان عبد العزيز بن الحجاج يحاصر حمص لامتناعها عن بيعة إبراهيم بن الوليد، فلما أحس عبد العزيز بمجيئه ترك حمص فخرج أهلها يبايعون ابن الوليد بن يزيد.

ولما رأى إبراهيم ذلك جمع جيشاً تحت قيادة سليمان بن هشام، والتقى بمروان في عين الجر قرب حمص، فهزم سليمان، مما مهد الطريق أمام مروان بن محمد لدخول دمشق[٢].

ولما رأى أهل دمشق انتصار مروان عمدوا إلى سجن الخضراء فقتلوا ابني الوليد ويوسف بن عمر، فقامت القيسية، وقتلت عبد العزيز بن الحجاج، وأخرجوا محمد السفياني من السجن، فاستقبل مروان، وعزاه في ابني الوليد وسلم عليه بالخلافة[٣].

وبهذا النصر السريع شعر مروان كأن عهد الصراع قد انتهى فأرسل عماله إلى الأمصار، وكان معظمهم من اليمانية، ثم اتجه إلى حران، وهناك جاء إبراهيم

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٢٥٢..

(٢) على الخربوطلي: غروب الخلافة الإسلامية، ص١٣١، القاهرة (د. ت).

(٣) عبد الحليم عويس: بنو أمية، ص٤٧ - ٤٩، دار الوفاء، المنصورة ١٩٨٧م.

بن الوليد وسليمان وبايعاه على الخلافة[١].

واعتقد مروان أن الأمر استتب له، وأقام حفلاً دعا إليه الأمويين وقريشاً ورؤوس العرب، وتمت فيه البيعة لابنيه عبيد وعبد الله، وزوجهما من ابنتي هشام تأكيداً لوحدة البيت، إلا أن الفتن لم تتوقف، واشتعلت في جميع الأمصار، ورافقها تأييد من بعض الأمويين، فكان على الخليفة الجديد أن يهيئ نفسه لصراع طويل، وقد شبت الفتن في الشام والعراق وخراسان والجزيرة والأندلس، حتى أنه ما إن تنتهي ثورة حتى تتفجر أخرى[٢].

على أية حال تولى مروان بن محمد الخلافة في صفر سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٤م؛ ليشهد عهداً من الفتن والاضطرابات، وفي عهده اضطربت الأمور في البلاد، وخرج البعض على الطاعة.

وانتهز العباسيون هذا التفكك والتصدع، فراحوا يعملون على إسقاط دولة بني أمية لتقوم مكانها دولة العباسيين. لقد حمل لواء الدعوة للعباسيين أبو مسلم الخراساني، واستطاع الاستيلاء على خراسان ووطد سلطانه فيها.

وفي الثالث من شهر ربيع الأول سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، استولى أبو مسلم على نيسابور، وراح يعلن الدعوة لأبي العباس السفاح أول خلفاء بني العباس؛ فماذا فعل مروان؟ وكيف واجه هذا التيار الزاحف؟ لقد أعد جيشا للقضاء على العباسيين، وكان اللقاء على نهر الزاب، ولكن دارت الدائرة على مروان وجيشه ففر

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٢٢٤.

(٢) عبد الجبار منسي العبيدي: قراءة جديدة في أسباب سقوط الدولة الأموية، مقال بمجلة عالم الفكر، مجلد ٢١٥، ع٣، أكتوبر ١٩٨٤م، الكويت، ص ٢٧٠- ٢٧١.

هارباً إلى مصر، ولم ينته الأمر عند هذا الحد بل دارت معركة أخيرة حاسمة بينه وبينهم على ضفة النيل الغربي عند بلدة (أبو صير) وقتل مروان، وبمقتله انتهت دولة الأمويين التي استمرت قرابة إحدى وتسعين سنة؛ ليشهد العالم مولد دولة جديدة تحمل راية الإسلام هي دولة بني العباس.

عوامل سقوط الدولة الأموية:

في عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م سقطت الدولة الأموية، واعتلى الخلافة بنو العباس بعد أن قاموا بثورتهم ضد بني أمية التي آزرها- وإن لم ينضموا لهم- جميع الفرق الإسلامية من خوارج وشيعة وغيرها، وكذلك الموالي واليمانية والمضرية؛ حتى وجد الأمويون أنفسهم وحيدين أمام الرايات السوداء القادمة من المشرق، بل إن بعض الأمويين قد أعان على إسقاط الدولة الأموية، وعلى الإجمال هذه هي أهم الأسباب:

١ - السياسة الداخلية لبعض الخلفاء الأمويين أدت إلى بعث روح العصبية القبلية بين اليمانية والقيسية مما جعلها تنخر في جسم الدولة الأموية وتفتك بها إلى إن تمكنت من القضاء عليها. لقد انتهت سياسة المصالحة والتقريب بين القبائل والأحزاب بموت عمر بن عبد العزيز، وظهرت بدلاً منها سياسة التحزب والعصبية القبلية، وبأشد مما كانت عليه، وزاد من فداحة الأمر أن رجال الدولة منذ عهد يزيد بن عبد الملك هبطوا من مكانهم السامي، فقد أصبحوا وكأنهم رؤساء أحزاب بدلاً من رؤساء دول[1]. وبهذه السياسة أقحم الخلفاء أنفسهم في خضم النزاع القبلي، فمعاوية وعبد الملك ومن بعدهم وضعوا أنفسهم فوق الخصومات القبلية، لكن الخلفاء الجدد لم يسيروا على هذه

---

(١) الدوري: مقدمة في تاريخ صدر الإسلام ص ٦٥.

السياسة، بل اتخذ كل منهم جانبا معينا، واندفع معهم ولاتهم يحملون هذه العصبية، وأصبحت الأمصار جميعا متحيزة إلى القيسية واليمانية.

٢- كثرة ظهور الفتن الداخلية مثل حركة يزيد بن المهلب في زمن يزيد بن عبد الملك، وثورة زيد بن علي أيام هشام بن عبد الملك، التي أعادت الصراع بين الهاشميين والأمويين، وازدياد حركة المعارضة للأمويين من قبل أحزاب الخوارج والشيعة، وقد تجلى ذلك في كثرة الثورات التي قامت بها هذه الأحزاب خلال الفترة الأموية.

٣- عدم اتخاذ سياسة ثابتة تجاه من يعتنق الإسلام من أهل الذمة، ففي حين أعلن عمر بن عبد العزيز إسقاط الجزية عن هؤلاء إلا أن يزيد بن عبد الملك ألغى هذا القرار، مما فتح أعين الناس على خطأ السياسة التي ينتهجها بعض الخلفاء.

٤- اتساع الدولة الأموية وصعوبة السيطرة على أطرافها البعيدة، فعلى سبيل المثال انغمست الأندلس في منازعات داخلية، حتى إن أهل الأندلس ولّوا على أنفسهم عبد الملك بن قطن الفهري سنة ١٢٢هـ/ ٧٣٩م، وعجز الخليفة هشام أن يقدم شيئا، ولم يجد عرب الأندلس أمامهم إلا الاستنجاد بوالي المغرب من قبل هشام الذي أرسل لهم أبا الخطار حسام بن ضرار الكلبي سنة ١٢٥هـ/ ٧٤٢م.

٥- تفاقم الخطر الخارجي وتعدد جهاته، ورافق ذلك توقف الفتوحات، وزاد من حرج الموقف وفاة مسلمة بن عبد الملك الذي كان له دور بارز في مواجهة الخطر الرومي سنة ١٢١هـ/ ٧٣٨م[1].

---

(١) رجعنا في موضوع سقوط الدولة الأموية إلى البحث القيم الذي كتبه الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس: بنو أمية بين الضربات الخارجية والانهيار الداخلي، رابطة الجامعات الإسلامية، فجر للطباعة والنشر، القاهرة ١٩٨٧م.

خلاصة تقويمية لتاريخ الدولة الأموية:

١- تنازل الحسين بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان؛ لأنه كان ينظر بفكر ثاقب إلى انعكاسات الأمور، وإلى عواقبها السيئة على حاضر الإسلام ومستقبله.

٢- كانت ثورة الحسين بن علي على يزيد حركة يثبت بها وجوده، ويجدد بها حياته، ويرضي بها ربه؛ بل إن هذه الحركة كانت لإعطاء المثل الرفيعة طاقة تسير بها، إلا أنها لم تخضع لتخطيط سليم يجنبها المزالق التي كانت مؤكدة أو شبه مؤكدة.

٣- على الرغم من أن تاريخ بني أميه تكتنفه كثير من المزالق إلا إن الصفة الإسلامية لم تنزع عنه، لقد حدث هبوط لا شك فيه عن الذروة التي كانت على عهد رسول الله ﷺ وعهد الخلفاء الراشدين من بعده، وهذا الهبوط هو الذي أوهم كثيراً من الناس أن تاريخ المسلمين قد انحرف منذ ذلك الحين.

٤- لقد كان التأثير المباشر لشخصية الرسول ﷺ ذا أثر بالغ في بناء تلك النفوس التي أحاطت به وأحبته وتربت على عينه ﷺ ونهلت من ينابيعه واتخذته الأسوة الحسنة والقدوة الطيبة بطرق الصحبة والرؤية والسماع، كما أن أثر النشأة الجديدة كان عاملاً مهما في جعل الجيل الأول منفرداً، فقد كان أنشط حيوية وأكثر فاعلية والتزاماً وارتفاعاً إلى قمة الإسلام الشاهقة، وكان ذلك تطوعاً لا تكليفاً.

٥- صحيح أن شكل الحكم أيام معاوية بن أبي سفيان تغير من خلافة راشدة إلى

ملك عضود، عـلى أن هـذا التغير في الشـكل السياسي لا يعنـي تغـيراً مـا في الإسلام- عقائده وشرائعه كتابه وسـنته- بـل إن الخلفـاء الجـدد بـالرغم مـن كونهم ليسوا نماذج مبرأة من أي نقد في تقواهم وحكمهم- حاشا عمر بن عبـد العزيز ﷺ الذي لقب بخامس الخلفاء الراشدين- فإن شعار الدولة في عهـدهم كان هو الإسلام، وما رفعوا إلا رايته وما ارتضوا إلا كتابـه، قـاتلوا في الميـادين نفسها التي قاتلت فيها الخلافة الراشدة، وعمل معهـم جنـد كثيـف مـن أهـل التجرد والإخلاص الذين يبتغون الآخرة ولا تهمهم مناصبهم في الدنيا.

إن الخلافة الأموية وإن تحولت عن أصل الشورى إلى الوراثة، فإن معانيها أو مقاصدها أو حقيقتها بقيت، وإذا كان قد حدث خلاف أو انقسام مـن حـين لآخر، فإن الدولة في شكل ما استقرت في سيرها، وأحكام الشريعـة الإسـلامية ظلـت منفـذة والإسـلام محتفظ بعزتـه وقوتـه، وهـو ينـتشر ويعتنقـه الأفـراد والجماعات في جميع الأنحاء لما تشعر به الشعوب من العدالـة والمسـاواة وحفـظ الكرامة بدلاً من الظلم والقهر والطغيان الذي كانوا يحكمون به مـن قبـل دول الفرس والروم وغيرهم، وكان الخلفاء في جملتهم رجالاً أكفـاء أقويـاء مـدركين لمسئولياتهم مخلصين لله والإسـلام، وأثبتـوا تفوقـاً في الإدارة والسياسـة، ولـذا ظلت الدولة الإسلامية والخلافة تسمو إلى مراقي القوة والمجد وساد الأمـن في عهودهم.

فالفتح الإسلامي ما اتسع مشرقاً ومغربـاً إلا في أيـام بنـي أميـة، فالخلفـاء الأمويون كانوا هم قادة الجيش، وأئمة الصلاة، ورؤساء الوفود إلى الحج، وكان من هؤلاء الخلفاء من هو أشد حرصاً على تطبيق شرع الله، فلا يُجحد فرضاً، ولا

يُستهان بشعيرة، والإسلام هو دين الفرد والمجتمع والدولة.

وفي ظل الأمويون أخذت الأجهزة الدوارة في الكيان الإسلامي تعمل عملها في تنشأة أجيال مسلمة لحماً ودماً، وهو عمل لا ينكره إلا قاصر. فإن سقوط الروم والفرس أعقبه وجود كتل من الشباب والأولاد والأحفاد تلقفهم أتباع سيدنا محمد ﷺ بالتعليم المنظم والتهذيب، فلم تمضِ خمسون سنة على الفتح الإسلامي حتى كانت المدن مليئة بالمساجد والمدارس، وحتى كانت شعائر الإسلام بارزة، وتقاليده موطدة وأحكامه مطبقة في الشام والعراق ومصر واليمن وأقطار أخرى كثيرة..

قامت طبقة الموالي بالمساهمة في تلك الجهود المباركة، فتم بناء الحضارة الإسلامية، وشاركت في إعلاء راية الإسلام في ميادين الإدارة والثقافة والعلوم، بل أصبحوا فيها أئمة.

تقويم تاريخ الدولة الأموية:

١. عاشت الدولة الأموية وبداخلها حزبان كبيران أولهما: الشيعة الذين يعتقدون أن الخلافة حق طبيعي مقرر لعلي بن أبي طالب وأولاده، وأن من عداهم مغتصب، ليس له حق الطاعة.

والثاني: الخوارج الذين يعتقدون أن الخلافة حق لكل مسلم كفء مهما يكن جنسه، إذا اختير لها وقام بعبئها... وقد عانت الدولة من الحزبين كليهما عناءً كبيراً.

٢. وضعت القيادة الأموية على الحريات العامة قيوداً لم تعرف في عهد الخلفاء الراشدين. لقد استكثر رجل أن يقول مسلم لأمير المؤمنين عمر بن الخطاب

اتقِ الله.... ولكن أمير المؤمنين رده قائلا: دعـه يقولهـا، لا خـير فـيكم إن لم تقولوها، ولا خير فينا إن لم نسمعها.

أما عبد الملك بن مروان فقال: من قال لنا أمام الناس اتقِ الله قطعت عنقه.

ولعل عبد الملك كان يعرف أن من يقولها لـه يقولهـا ريـاءً وابتغـاء الفتنـة، وتقليب الأمور، وأن الخلفاء الراشدين الثلاثة قتلوا في أشباه هذه الفتن.

٣. بدأ الفهم الخاطئ للعقيدة الإسلامية يظهر عن طريق بـروز الجـدل، فهنـاك مرجئة يرون العمل كمالاً في الإيمان، وهناك معتزلة يرون العاصي فاسـقاً لا هو مؤمن ولا هو كافر، وهناك خوارج يـرون العصـيان كفـراً، كـما ثـارت خلافات ساذجة وعقيمة في قضايا دينية أخرى، نمتها مجالس الجـدل التـي قلما يطلب فيها الحق، وإنما تخدم بها الأهواء والأحـزاب، ولم تكـن العقيـدة الأموية على مستوى وضع حد لهذه القضايا فتركوها دون قيد، فكانت مـن أهم أسباب سقوط الدولة الأموية.

٤. كان التعريب للعملة والدواوين ظاهرة سياسـية وحضـارية ينسـب فضـلها للخلافة الأموية، واللغة العربية هي اللغة الرسمية في العالم الذي انتشر فيـه الإسلام، وهذا تصرف لا شائبة فيه، بل لا بد مـن اسـتدامته إحيـاءً وإبقـاءً للغة القرآن الكريم.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

١- تولى مروان بن الحكم الخلافة، وذلك بعد موت معاوية الثاني واستبعاد خالد ابن يزيد لصغر سنه.

٢- قضى مروان بن الحكم على فتنة الضحاك ودخل دمشق بعد انتصاره في موقعة (مرج راهط).

٣- باتت الدولة الإسلامية عقب وفاة مروان بن الحكم تتقاسمها خلافتان هما: خلافة عبد الله بن الزبير في الحجاز والعراق، وخلافة عبد الملك على الشام ومصر.

٤- قام عبد الملك بالقضاء على التحديات القبلية التي أفرزتها موقعة مرج راهط والقضاء على حركة التوابين، وثورة الأشدق، وحركة المختار الثقفي.

٥- تخلى أنصار مصعب بن الزبير في العراق عنه فانهزم أمام عبد الملك وقتل وبذلك تمت سيطرة عبد الملك على العراق.

٦- لم يكتب النجاح لعبد الله بن الزبير أمام عبد الملك، وقتل في الكعبة على يد الحجاج بن يوسف الثقفي، وبذلك تمت سيطرة عبد الملك على الحجاز، كما انتصر الحجاج كذلك على ثورة ابن الأشعث في العراق.

٧- عربت الدواوين في عهد عبد الملك وسكت النقود بالعربية.

٨- تولى الوليد بن عبد الملك الخلافة وكان عهده فتحاً وخيراً للمسلمين.

٩- تم في عهد الوليد فتح المغرب وشمال إفريقية وفتح الأندلس، وكذلك بلاد ما وراء النهر، وبلاد الهند.

١٠- تولى سليمان بن عبد الملك بعد أخيه، واتخذ من الرملة في فلسطين مركزاً لخلافته، وتمت في عهده بعض الفتوحات في الشرق.

١١- أوصى سليمان لابن عمه عمر بن عبد العزيز بالخلافة بعد استشارته لمجموعة من العلماء والأفاضل.

١٢- أقام عمر بن عبد العزيز خلافته على الحق والعدل والمساواة، فكانت خلافة راشدة دامت لمدة عامين، قام فيها برد الحقوق وتحقيق الرخاء ونشر الإسلام.

١٣- تولى يزيد بن عبد الملك الخلافة بعد وفاة عمر بن عبد العزيز، وفي خلافته بدأ ضعف الدولة الأموية وانتشار الفتن في الداخل والخارج.

١٤- تولى هشام بن عبد الملك الخلافة التي استمرت قرابة عشرين سنة، واجه فيها الفتن والاضطرابات، وكان قوياً قابضاً على شئون الدولة، ويعتبر عهده حداً فاصلاً بين عهد ازدهار الدولة الأموية وعهد اضمحلالها.

١٥- تولى بعد هشام الوليد بن يزيد، وقامت في عهده خلافات وفتن كبرى أهمها: خروج يحيى بن زيد بن علي بن الحسين، ومقتل خالد بن عبد الله القسري.

١٦- تنازع بنو أمية على الخلافة حتى سقطت دولتهم في عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، واعتلى الخلافة بنو العباس.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

أجب عما يأتي:

س١: اشرح بالتفصيل كيفية انتقال الخلافة من الفرع السفياني إلى الفرع المرواني.

س٢: علل لما يأتي:

- لم تحدث فتوحات في عهد عبد الملك بن مروان.
- تولي مروان بن الحكم للخلافة.
- تولي عمر بن عبد العزيز للخلافة.
- الخلافات التي حدثت في عهد الوليد بن يزيد.

س٣: تكلم عن الفتوحات الإسلامية في العهد المرواني مع التوضيح.

س٤: ما هي أهم تنظيمات عبد الملك بن مروان الإدارية؟

س٥: وضح سياسة عبد الملك بن مروان في الأقاليم الإسلامية.

س٦: ما هي أهم التنظيمات الإدارية والاجتماعية التي قام بها عمر بن عبد العزيز؟

س٧: تحدث عن دور الحجاج بن يوسف في توطيد الحكم المرواني في كلٍ من العراق والحجاز.

س٨: اذكر نبذة عن كل من:

حركة التوابين- حركة المختار بن أبي عبيد

س٩: وضح بالتفصيل وقائع حركة ابن الأشعث.

س١٠: تحدث عن خلافة كل من:

- سليمان بن عبد الملك.
- هشام بن عبد الملك.
- يزيد بن عبد الملك.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- مروان بن الحكم هو الذي عرب الدواوين. (   )

٢- عبد الملك بن مروان هو أول من ضرب عملة إسلامية عربية. (   )

٣- فتح طارق بن زياد الأندلس سنة ٩٥هـ/ ٧١٣م. (   )

٤- طالت فترة حكم الخليفة يزيد بن الوليد عن سبع سنوات. (   )

٥- لم يسبب موت خالد القسري قلقاً للخليفة الوليد بن عبد الملك. (   )

٦- سقطت الدولة الأموية في عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م. (   )

٧- عهد الوليد بن عبد الملك إلى عمر بن عبد العزيز بالخلافة. (   )

٨- يمثل هشام بن عبد الملك سادس الخلفاء الأمويين الأقوياء. (   )

٩- تم فتح بلاد ما وراء النهر على يدي قتيبة بن مسلم. (   )

١٠- فتحت الهند في عهد الخليفة الوليد على يدي موسى بن نصير. (   )

١١- اتخذ سليمان بن عبد الملك من الكوفة مقراً لخلافته. (   )

١٢- لم تدم خلافة عمر بن عبد العزيز سوى سنتين وخمسة أشهر. ( )

١٣- استمر حكم هشام بن عبد الملك قرابة عشرين عاماً. ( )

١٤- كان عهد الوليد بن يزيد هو الفاصل بين ازدهار الدولة الأموية واضمحلالها. ( )

١٥- أوكل عبد الملك بن مروان أمر تعريب الدواوين إلى كاتبه سليمان بن سعد. ( )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- أول حملة إسلامية على أرض الأندلس كانت بقيادة [طارق بن زياد- طريف بن مالك- مغيث الرومي].

٢- كان الفضل في فتوح الهند والسند للقائد [محمد بن القاسم- الحجاج بن يوسف- مسلمة بن مخلد]

٣- أوصى سليمان بن عبد الملك بالخلافة لعمر بن عبد العزيز [قبل وفاة ابنه أيوب- بعد وفاة ابنه أيوب- وهو على فراش الموت].

٤- سقطت الدولة الأموية سنة [١٣١هـ- ١٣٢هـ- ١٣٣هـ].

٥- تم تعريب الدواوين في عهد [مروان بن الحكم- عبد الملك بن مروان- الوليد ابن عبد الملك].

٦- تم فتح بلاد ما وراء النهر على يدي القائد [موسى بن نصير- طارق بن زياد- قتيبة بن مسلم].

٧- كان عبد الملك بن مروان أول من سك الدنانير بالعربية، وكان ذلك في

عام [٧٠هـ- ٧٢هـ- ٧٤هـ].

٨- أمر عبد الملك بتعريب الدواوين وأسند ذلك إلى [سليمان بـن سـعد- الحجاج ابن يوسف- الوليد بن عبد الملك].

٩- قامت ثورة ابن الأشعث في العراق عام [٨٠هـ- ٨١هـ- ٨٢هـ].

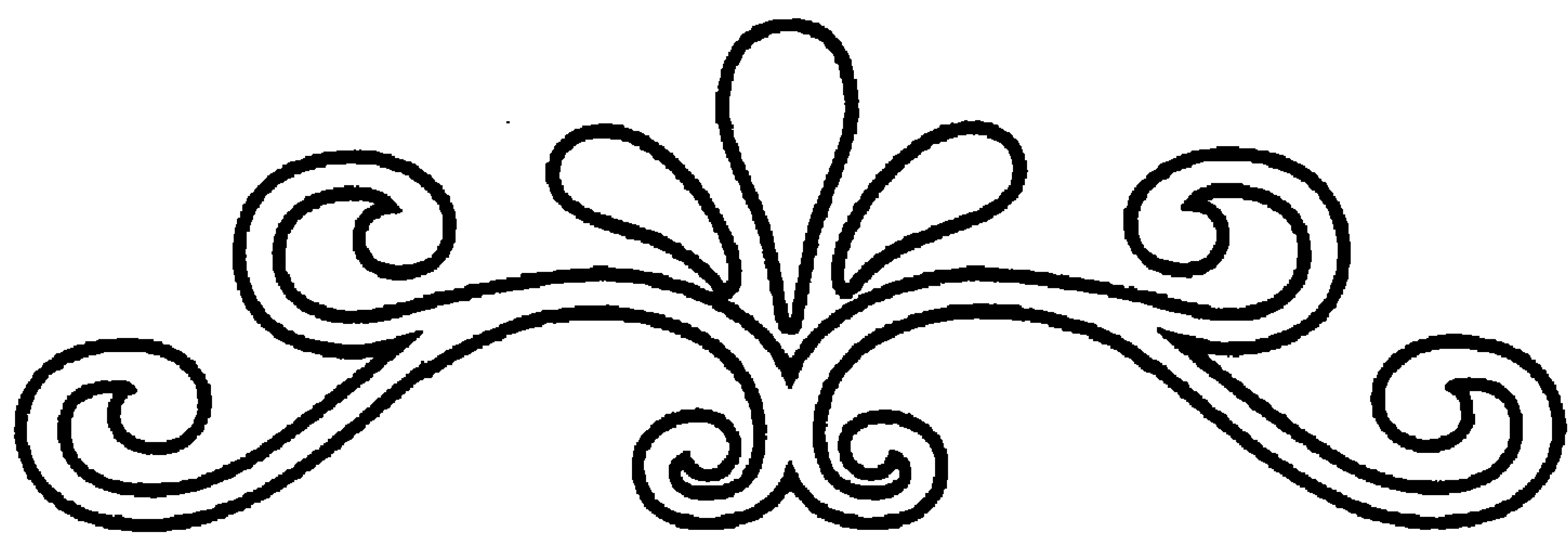
١٠- استولى عبد الملك بن مروان على الحجاز بعد قتل عبد الله بـن الـزبير وذلك في عام [٧٠هـ- ٧١هـ- ٧٢هـ].

النشاط التعليمي للوحدة الثانية

عزيزي الدارس:

حتى تكتسب المزيد من المعلومات المتعلقة بموضوع هذه الوحدة نقترح عليك إنجاز النشاط التعليمي التالي:

- اكتب ما تعرفه عن كلٍ من الموضوعين الآتيين:
  ١- الفتوحات في عهد الوليد بن عبد الملك.
  ٢- الثورات في عهد عبد الملك بن مروان.

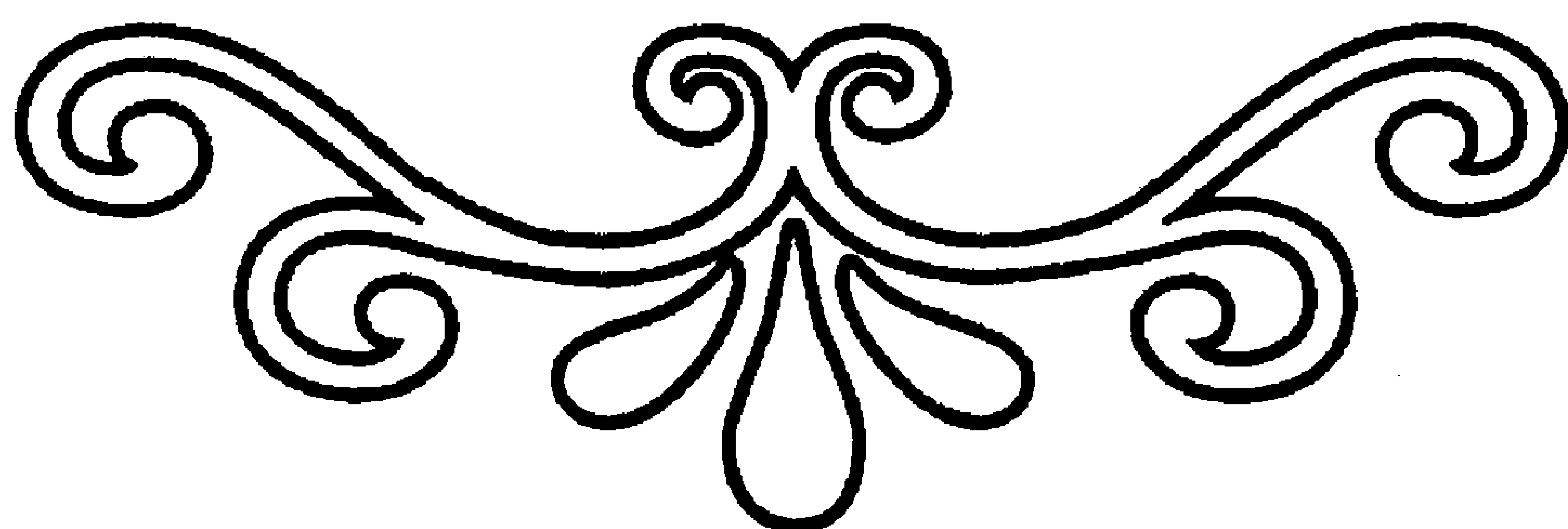


الوحدة الثالثة

الدولة العباسية

(١٣٢- ٦٥٦هـ/ ٧٥٠- ١٢٥٨م)

العصر العباسي الأول



محتويات الوحدة الثالثة

العصر العباسي الأول:

١- الدعوة العباسية.

٢- مرحلة التأسيس.

- أبو العباس السفاح.
- أبو جعفر المنصور.

٣- مرحلة الاستقرار.

- محمد المهدي.
- موسى الهادي.
- هارون الرشيد.
- محمد الأمين.
- المأمون.
- المعتصم بالله.

٤- مرحلة القلق.

- هارون الواثق بالله.

أهمية دراسة الوحدة:



معرفة الأسباب التي أدت إلى انهيار الدولة الأموية وقيام الدعوة العباسية والتي قامت على أكتاف الموالي الفرس.

وكذلك التعرف على أهم خلفاء العصر العباسي الأول، والإنجازات التي قدموها للإسلام والمسلمين والتي حدثت في أثناء خلافتهم.



الأهداف التعليمية:

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١ - تُبيّن أن الثورة العباسية تعد نهاية الثورات الكثيرة التي تثبت ضد بني أمية.

٢- تُحلل تنكر العباسيين لقادتهم من الموالي.

٣- تُوضح أن أبا جعفر المنصور يعد المؤسس الحقيقي للدولة العباسية.

٤- تشرح الإنجازات التي حدثت في عهدي هارون الرشيد والمأمون.

الدعوة العباسية

كان العباس بن عبد المطلب من المؤيدين لعلي بن أبي طالب، وأحد المطالبين بأمر الخلافة بعد وفاة الرسول ﷺ وقبله، فقد قال لعلي: اذهب بنا إلى رسول الله، فإن كان هذا الأمر فينا، وإن لم يكن فينا أوصى بنا الناس.

ولم يبد العباس وابنه طموحا نحو الخلافة، وكذلك علي بن عبد الله بن العباس ولم يظهر طموح بني العباس إلا على يد محمد بن علي، عندما جاء أبو هاشم عبد الله بن محمد ابن الحنفية، وأوصى له بالأمر عندما شعر بدنو أجله، وبعد وفاة محمد بن علي أوصى لابنه إبراهيم الذي عرف بالإمام.

وتأخذ الدعوة العباسية صورة أخرى غير التي كانت عليها قبل ذلك، فهي لم تكن منظمة، أما الآن فقد صار لها نظام وقادة معلمون من أمثال أبي سلمة الخلال على الكوفة، وأبي مسلم الخراساني على خراسان.

لقد أقام بنو العباس في قرية الحميمة في جنوب الأردن، ومن هذه القرية قامت أقوى الدعوات وأكثرها إيجابية وتنظيماً، فقد انتهجت هذه الدعوة سبيل السر والكتمان من جهة، وإرسال الدعاة وجمع الزكاة ليتم الوثوب من جهة أخرى.

لقد حاول الدعاة العباسيون منذ سنة ١٠٠هـ/ ٧١٨م استمالة الشيعة والموالي إلى جانبهم، وأعلنوا أنهم يسعون إلى إسقاط الدولة الأموية، والدعوة للرضا من آل محمد، ورأى الدعاة العباسيون أن ينشروا دعوتهم بين عرب خراسان لعدم ثقتهم بعرب العراق ومواليهم[1].

---

(١) فاروق عمر: طبيعة الدعوة العباسية ١/ ٣٩ بيروت ١٩٧٠م.

لقد زاد نشاط الدعوة في أواخر الدولة الأموية، واستغل الدعاة التجارة وسيلة لنقل المعلومات[١]، وكان على رأس هؤلاء فضالة بن معاوية بن عبد الله عريف في ديوان بني هاشم، كان ينزل دمشق، وكل من يقدم ينزل عليه[٢].

وما تكاد سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٦م تقبل حتى يصدر أمر الإمام إبراهيم بن محمد أن يكون أبو مسلم الخراساني رئيساً للدعاة جميعاً في خراسان وما حولها، وكلفه أن يجهر بالدعوة للعباسيين علناً، وأن يعمل على جعل خراسان قاعدة للانطلاق بقواته ضد البيت الأموي، وفي هذا الوقت كان أبو مسلم قد دخل (مرو) وكاد أن يستولي عليها إلا أنه لم يتمكن من ذلك هذه المرة، وهنا أسرع الوالي على خراسان من قبل بني أمية وهو «نصر بن سيار» يستغيث بمروان بن محمد يطلب منه مدداً، ولم يهتم بنو أمية بهذا الأمر بسبب انشغالهم بصراعات أنصارهم القدماء بالشام، وانشقاق زعماء الأمويين على أنفسهم، ولم يمدوا مواليهم على خراسان بشيء.

فأدرك أبو مسلم الخراساني أن الوالي الأموي لن يصبر طويلاً وأن (مرو) ستفتح يوماً ما قريباً، فأخذ يجمع العرب من حوله، ثم انقض بهم على (مرو) ففتحت له وهرب واليها «نصر بن سيار» وكان ذلك سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٧م.

وواصل أبو مسلم الخراساني فتوحاته، فدانت له (بلخ) و(سمرقند) و(طخارستان) وغيرها، وتمكن من بسط سيطرته ونفوذه على خراسان جميعا، وراح يتطلع إلى غيرها، وكان كلما فتح مكانا أخذ البيعة من أهله على كتاب الله

(١) مجهول: العيون والحدائق في أخبار الحقائق، ص٢٠١.
(٢) مجهول: أخبار الدولة العباسية ص ١٧٩- ١٨٠.

ﷻ وسنة نبيه ﷺ، «والرضا من آل محمد» أي: يبايعون إماماً مرضياً عنه من آل البيت من بني العباس بن عبد المطلب».

وفي سنة ١٢٩هـ/ ٧٤٦م كان مروان بن محمد قد تمكن من الاطلاع على بعض الرسائل المتبادلة بين إبراهيم الإمام وأعوانه، فطلب مروان من والي دمشق أخذ إبراهيم الإمام من الحميمة، فأرسل إبراهيم إلى حران حيث لقي حتفه في سجنها عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م، ولما علم إبراهيم بالمصير الذي ينتظره، وعلم أن أنصاره ومؤيديه واصلوا انتصاراتهم، وأن الكوفة قد دانت لهم وصارت في قبضتهم أوصى لأخيه (أبي العباس) بالإمامة طالباً منه أن يرحل إلى الكوفة أهل بيته لينزل على داعي العباسيين بها (أبي سلمة الخلال)، فهناك يكون في مأمن من رقابة الأمويين فخرج إليها أبو العباس ومعه أبو جعفر المنصور ومعظم العباسيين[1].

وهكذا يمكن القول إن جميع الجهود الأموية في مراقبة العباسيين في الحميمة وتضييق الخناق عليهم لم تفلح في كشف الدعوة العباسية قبل استفحال أمرها.

ثم كان اللقاء الحاسم بين الأمويين والعباسيين على أحد فروع دجلة بالقرب من الموصل وهو (نهر الزاب الأعلى) وكان جيش العباسيين يقوده عم الخليفة، وهو «عبد الله بن علي» بينما يقود جيش الأمويين الخليفة نفسه «مروان بن محمد» الذي لم يجد إلا أن يفر إلى (دمشق) أمام مطاردة «عبد الله بن علي» وجحافل العباسيين.

---

(١) حسن عطوان: الدعوة العباسية- تاريخ وتطور، ص٤٨١- ٤٨٢، بيروت ١٩٨٤م.

لقد راح عبد الله بن علي يطارد آخر خلفاء بني أمية، فاستولى على دمشق، واستولى على مدن الشام واحدة بعد الأخرى، وكان استسلام دمشق معناه سقوط بني أمية وانتهاء عهدها كعاصمة للدولة الإسلامية، لكن مروان قد فر إلى مصر وتوجه إلى صعيدها، وقرب الفيوم عند قرية (أبو صير) ألقي القبض عليه، وقتل بعدما ظل هارباً شهراً يفر من مكان إلى مكان.

وهكذا مضى عهد وأقبل عهد جديد؛ وسيظل عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م فاصلاً بين عهدين[1]، وكانت الثورة العباسية تؤتي أكلها في مرحلتها النهائية، وظل أبو العباس في مخبئه حتى صباح يوم الجمعة ١٢ ربيع الأول من عام ١٣٢هـ/ ٧٥٠م حين خرج بحفل رسمي حضره القواد والأمراء وجماعة من أفراد الأسرة العباسية ودخل مسجد الكوفة[2] وارتقى المنبر، فاشرأبت له الأعناق وأصغت إليه الآذان فإذا هو يحتج بآيات القرآن على أن آل بيته العباسي أحق بالخلافة من بيت العلويين وحمل على الظلم الأموي وبين أن الثورة إنما كانت على هذا الظلم وانتقاماً للناس، ووعد بالحكم وفق كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتملق أهل الكوفة بالمدح والوعد بأن تكون الكوفة حاضرة العباسيين، ثم أخذت له البيعة.

ويبدو أن لقب السفاح لم يكن لقباً رسمياً بل كان لقباً شعبياً أطلقه الناس على أبي العباس عبد الله؛ لقوله في خطبة بيعته: «أنا السفاح المبيح»، وهو يعني

---

(١) فاروق عمر: طبيعة الدولة العباسية ١/ ٤٠٠، وحسن عطوان: الدعوة العباسية- تاريخ وتطوير ص٤٨٤- ٤٨٥.

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٢، ص٤١.

بقوله المعطاء لكن مناهضي العباسيين أرادوا تشويه سمعة أول خلفاء بني العباس فجعلوه سفاحاً لا معطاء.

بدأت الدولة الجديدة سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م وقد بلغ عدد خلفائها نحو سبعة وثلاثين خليفة، تعاقبوا على التوالي حكم هذه الدولة التي طال عمرها واختلفت عصورها وامتدت حتى سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م حيث سقطت على أيدي التتار بعد أن عاشت خمسة قرون وربع القرن، اختلفت فيها العصور قوة وضعفاً، واعتاد كثير من المؤرخين على تقسيم الخلافة العباسية إلى عصرين رئيسين يطول آخرهما عن أولهما بأكثر من ثلاثة أمثاله، فبينما لم يزد العصر العباسي الأول عن قرن من الزمان؛ إذ امتد من سنة ١٣٢هـ/ ٧٥٠م إلى ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م، فقد بلغ العصر العباسي الثاني نحو أربعة قرون وربع القرن؛ إذ امتد من سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م إلى ٦٥٦هـ-١٢٥٨م.

و الاعتبارات الفاصلة في هذا التقسيم تستند إلى ثلاثة عوامل أساسية:

سلطة الخلفاء.

ووحدة الدولة الإسلامية.

ونفوذ العناصر العرقية في إدارة الدولة العباسية.

العصر العباسي الأول (١٣٢ — ٢٣٢ هـ/ ٧٥٠ — ٨٤٦ م)

اشتمل العصر العباسي الأول على عهود تسعة خلفاء، وانتهى بتاسع الخلفاء العباسيين وهو الواثق سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م.

يعد العصر العباسي الأول هو عصر الخلفاء الأقوياء الذين قبضوا على زمام الأمور في الدولة الموحدة التي ورثها العباسيون عن الأمويين، ولم يخرج عنها إلا الأندلس التي تمكن الأموي عبد الرحمن بن معاوية الداخل أن يحيي فيها مجد الأمويين، إلا أن هذا العصر شهد تزايدا في نفوذ العناصر الفارسية، وتراجع النفوذ العربي عما كان عليه في ظل الأمويين.

أما العصر العباسي الثاني فقد تميز على امتداده الطويل بضعف سلطة الخلفاء العباسيين وتقلص سلطانهم لصالح الترك تارة، ولصالح البويهيين تارة أخرى وتقلص سلطان الخلافة حتى تحول إلى مجرد نفوذ ديني، بل نازع العباسيين الخلافة كل من الفاطميين في شمال إفريقية ومصر، والأمويين في الأندلس، وأصبح في العالم الإسلامي ثلاث خلفاء:

عباسي في بغداد.

وفاطمي في القاهرة.

وأموي في الأندلس.

وفي العصر العباسي الثاني انفرط عقد الدول الإسلامية وانقسمت إلى دويلات مستقلة، وينقسم العصر العباسي الأول إلى ثلاثة مراحل هي:

مرحلة التأسيس: تمثلها خلافة السفاح وخلافة المنصور.

وتمتد مرحلة الاستقرار من خلافة المهدي إلى خلافة المعتصم.

ثم مرحلة **القلق** في خلافة الواثق التي انتهى العصر العباسي الأول بنهايتها ليبدأ العصر العباسي الثاني بخلافة المتوكل على الله.

لكننا نجد كثيرًا من قضايا العصر العباسي الأول ممتدة من مرحلة لأخرى، ومن ثم تتداخل المراحل الثلاث بعضها في بعض ويصعب الفصل بينهما فصلاً حاسماً.

مرحلة التأسيس

أبو العباس السفاح (١٣٢ - ١٣٦هـ/ ٧٥٠-٧٥٣م):

هو أبو العباس عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس والذي عمل على تثبيت دعائم الدولة العباسية بالضرب على أيدي أعدائها، وبخاصة الذين وقفوا في وجهها منذ البداية؛ لأنه كان يعلم أن أي تراخ أو تسامح مع خصومها قد يقضي عليها في المهد، لذلك نراه يتهدد ويتوعد في أول خطبة له بالكوفة حين قال: «يا أهل الكوفة أنتم أهل محبتنا ومنزل مودتنا.. فاستعدوا، فأنا السفاح المبيح والثائر المبير»[1].

وانطلاقاً من هذا عمل أبو العباس على تصفية بقايا الأمويين ومطاردتهم في كل مكان للقضاء عليهم بقسوة بالغة، وقتلهم ونبش قبور الأمويين، ولما رأى جسد هشام ابن عبد الملك بن مروان سليماً ضربه بالسياط ثم صلبه وحرقه وذرى رماده في الهواء[2].

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٤٣٦.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٤/ ٣٣٣.

هذه الحياة المليئة بسفك الدماء، ألصقت بأبي العباس لقب "السفاح" وإن كان بعض المؤرخين قد قال: بأن لقب السفاح إنما قصد به عمه عبد الله بن علي وليس الخليفة[١]، ومهما يكن الأمر ماذا حقق أبو العباس للخلافة العباسية؟

أ- القضاء على الثورات:

فما أن استراح الخليفة من القضاء على الأمويين حتى واجهته عدة ثورات منها ثورة حبيب بن مرة في فلسطين، وثورة أبي الورد بالشام، وثورة إسحاق بن مسلم في شمال العراق، ولما كانت هذه الثورات متفرقة ولم يكن هناك رابط بينها، أو تنظيم يجمعها، ظل خطرها قليلاً، وبالتالي سهل على العباسيين ضرب كل منها على حدة والقضاء عليها جميعاً[٢].

ب- الفتوحات:

لم تهدأ الأمور للعباسيين بالقضاء على الأمويين في المشرق العربي، ذلك أن عبد الرحمن بن معاوية بن هشام بن عبد الملك كان قد هرب إلى الأندلس؛ ليضع هناك أسس الدولة الأموية، الأمر الذي خسرت معه الدولة الإسلامية الجديدة الأندلس[٣].

وفي الشمال وفي عام ١٣٤هـ/ ٧٥١م أرسل السفاح صائفتين:

الأولى: إلى ملطية التي خرب أسوارها.

والثانية: إلى طوانة.

---

(١) ابن قتيبة: الإمامة والسياسة، ٢/ ٢٣٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٤٤٣- ٤٤٧. وابن الأثير: الكامل، ٤/ ٣٣٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٤٤٨.

كما وجه في نهاية نفس العام حملة بحرية أغارت على صقلية وسردينيا[1].

أما في المشرق فإن أبا مسلم الخراساني قد استطاع أن يحافظ على انتصاراته التي أحرزها على الجيوش الصينية عندما هددت أطراف الدولة من ناحية الشرق سنة ١٣٤هـ/ ٧٥١م[2].

مكث أبو العباس عبد الله السفاح في الخلافة نحو أربع سنوات وتسعة أشهر عبر فيها بالدولة العباسية إلى بر الأمان والاستقرار، حتى إنها لم تنتقل على يده فقط من طور الثورة إلى طور الشرعية؛ بل مكنت لنفسها أيضا وظهرت دلائل سلطانها[3]، حتى توفي من الجدري في ذي الحجة ١٣٦هـ/ ٧٥٣م بهاشمية الأنبار[4]، وترك استكمال ما بدأه من مهام لولي عهده أبي جعفر المنصور.

وقد التزم أبو العباس السفاح في تولية العهد بالتوريث العائلي على نحو ما فعله أخوه إبراهيم الإمام، وعهد السفاح لأخيه عبد الله الأكبر بن محمد الذي كان يكبره بعدة سنوات[5]؛ لكن أبا العباس سبق إلى الخلافة؛ لأن أمه كانت عربية حارثية، بينما كانت أم أبي جعفر سلامة بنت بشير بن يزيد بربرية[6].

(١) خليفة بن الخياط: تاريخ خليفة بن الخياط، القسم الثاني، ص٦٢٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل، ٤/ ٤٤٦.
(٣) موسكاتي: ابو العباس السفاح، دائرة المعارف الإسلامية جـ١ ص ٥٢٨.
(٤) ابن الأثير: الكامل، ٤/ ٣٣٤.
(٥) ابن الجوزي: المنتظم، جـ٧ ص ٣٣٤.
(٦) النويري: نهاية الأرب، ٢٢/ ٦٦، وهي عند ابن أيبك الدواداري تدعي كوثر، انظر: كنز الدرر ٥/ ١٦.

التخلص من أبي سلمة الخلال:

كان أبو سلمة حفص بن سليمان الخلال وزير آل محمد، وواحد من أهم الشخصيات العباسية، وقد اتهم بالميل إلى العلويين ومحاولة نقل الخلافة إليهم بعد مقتل إبراهيم الإمام.

وكان أبو العباس قد تظاهر بالعفو عنه وتغاضى عن فعلته أول الأمر، فقد كان ذلك إلى حين، وقد حان حين الخلاص منه بعد أن نزل أبو العباس الهاشمية[1]، فقد أوكل أبو العباس السفاح مهمة التخلص من أبي سلمة إلى أبي مسلم الخراساني، ولعله كان يرى في أبي سلمة منافساً قوياً له، إذ كان أبو سلمة يدعى وزير آل محمد، بينما كان أبو مسلم يدعى أمير آل محمد[2]، فأراد أبو مسلم إن يزيح من أمامه منافساً قوياً، وأوفد من يتربص بأبي سلمة وقتله، وأعلن للناس أن الخوارج قتلوه، إبعادا للتهمة عن العباسيين.

أبو جعفر المنصور (١٣٦-١٥٨هـ/ ٧٥٣-٧٧٤م):

أبو جعفر عبد الله بن محمد بن علي بن عبد الله بن العباس بويع له بالخلافة بيعة غيابية، إذ كان حين وفاة أبي العباس غائباً بمكة للحج، فأخذ البيعة له ابن أخيه عيسى ابن موسى بن محمد عامل أبي العباس على الكوفة وقتئذ.

سياسته الداخلية:

التخلص من عمه عبد الله بن علي: كان لعبد الله بن علي فضل كبير في إقامة

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٢ ص ٥٤.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٨٥.

الدولـة العباسـية، إذ استأصـل شـأفة الأمـويين في بـلاد الشـام ووطـد أقـدام العباسيين في أشد الأمصار معارضة للحكم العباسي، ودوره في بـلاد الشـام لا يقل أهمية عن دور أبي مسلم في خراسان، إلا أنه تطلع لانتزاع الخلافة مـن بنـي أخيه، ولم يكن البيت العباسي قد نظم قواعد توريث الخلافة حتى ذلـك الحـين، فلما رأى عبد الله بن علي أبناء أخيه يتوارثون الخلافـة فـيها بيـنهم، وأنـه لا يقـل عنهم أحقية فيها، رفض البيعة لأبي جعفر المنصور وأعلن أن أبا العباس كان قد أعلن بأن ولاية عهده لمن يتصدى لقتال مروان ابن محمد، وأنـه هـو الـذي قـام بذلك، وشهد بعض الشهود بصحة كلام عبد الله بن علي فبايعه من كان معه من الجند وأهل الشام والجزيرة[١]، لكن أبناء محمـد بـن عـلي العبـاسي عضـوا عـلى الخلافة بالنواجذ، وانتدب أبو جعفر المنصور أبا مسـلم الخراسـاني لقتـال عمـه عبد الله بن علي، وبذلك وضع أبو جعفـر المنصـور عدويـه في مواجهـة داميـة، وكان هلاك أيهما مكسباً كبيراً، وانهزم عبد الله بن علي واستأمن له أخوه سـليمان من المنصور، لكن المنصور حبسه في بيت واحتال في تقويضه عليه فمات[٢].

التخلص من أبي مسلم الخراساني: وأخيراً جاء دور الخلاص من أبي مسلم الخراساني، وكان أبو جعفر المنصور يرى فيـه دائـما خطـراً محـدقاً عـلى سـلطان الخلافة وكثيراً ما حرض أخاه أبا العباس على قتله[٣]، ويبدو أن أبا العبـاس قـد تأثر برأي أبي جعفر، فاحتال لإخراج أبي مسلم من عرينـه في خراسـان[٤]، إذ لم

(١) الطبري: جـ٧ ص ص ٤٧٤-٤٧٥. والنويري: جـ٢٢ ص ٦٧.

(٢) شاكر مصطفي: دولة بني العباس ١/ ٢٥٠- ٢٥١.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٧/ ٤٥٠- ٤٦٨.

(٤) ابن قتيبة: جـ٢ ص ١٥٨.

يكن للنيل منه هناك من سبيل، فقدم أبو مسلم للحج، وحرص أبو العباس على أن يخرج أبو مسلم في أقل قوة ممكنة، فلم يسمح لـه بالقـدوم عليـه إلا في ألـف رجل من أصحابه فقط[1]، وقدَّم أبو العباس أخاه أبـا جعفـر للحـج بالنـاس في هذه السنة حتى لا يجد أبو مسلم سبيلاً للارتقاء إلى هذه المكانة، وعقب انقضاء موسم الحج جاء خبر موت أبي العباس واستخلافه أبا جعفر المنصـور، وخـرج عبد الله بن علي على المنصور الذي سـلط عليـه أبـا مسـلم حتـى يـتخلص مـن أحدهما فيفرغ للآخر- كما أشرنا- وانتصر أبو مسلم فبذل أبو جعفـر جهـده في التضييق عليه، وعدم تمكينه من العودة إلى خراسان حتى لا يفلت منـه وتضـيع هذه الفرصة الذهبية للخلاص منه، فصرفـه عـن ولايـة خراسـان وعهـد إليـه بمصر والشام، لكن أبا مسلم فطن إلى ما يراد به، فخرج يريـد خراسـان، لكـن المنصور نجح بذكائه وحسن تدبيره في إقناع أبي مسلم بالقدوم عليه، وقد رضخ أبو مسلم لذلك بعد أن سد أبو جعفر في وجهه طريق العودة إلى خراسان، بـأن عهد إلى أبي داود بولاية خراسان، وكان أبو مسلم قد أنابه عليها حـين خروجـه للحج، فكتب أبو داود إلى أبي مسلم ينصحه بألا يخالف إمامـه، وألا يرجـع إلى خراسان إلا بإذنه، فأسقط في يد أبي مسلم، وقـدم للقـاء أبي جعفـر الـذي دبـر لاغتياله في خطة محكمة بعد أن عدد له سقطاته واستذله لحظة وفاته[2].

ولم تنته المشاكل بنهاية أبي مسلم الخراساني الذي كان قد قضى عـلى أعـداء الدولة العباسية، الواحد تلو الآخر، ثم دفع في النهاية ثمن ما حققه لنفسـه مـن مجد.

---

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٣٤ .

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص١٣٤ .

فكانت نتيجة ذلك ظهور فرق دينية غريبة عن الإسلام، وكان أصحابها يظهرون الإسلام ويبطنون دياناتهم المجوسية القديمة، إذ حينما قتل أبو مسلم الخراساني أعلنوا الثورة في وجه الدولة العباسية؛ لقتلها رمز حركاتهم الدينية، ومن أمثلة هذه الحركات:

١- **المسلمية**: وتعرف بهذا الاسم نسبة إلى أبي مسلم، وتزعم هذه الحركة رجل من أتباع أبي مسلم يدعى سنباد الذي بدأ ثورة من نيسابور سنة ١٣٧هـ/ ٧٥٤م، ونادى بإمامة أبي مسلم، وقال: بأنه لم يمت ولن يموت حتى يظهر ويملأ الأرض عدلاً ورحمةً، ويعيد دولة المجوس ويزيل ملك العرب، لكن المنصور أرسل إليه جيشاً كبيراً تمكن من هزيمته[1].

٢- **الراوندية**: ظهرت عقب وفاة أبي مسلم، وتنسب إلى قرية (راوند) بالقرب من أصفهان، ويعتقدون بتناسخ الأرواح، وأن روح الله حلت في أبي جعفر المنصور وقد انتقل بعضهم من خراسان إلى هاشمية الأنبار سنة ١٤١هـ/ ٧٥٨م، وأخذوا يطوفون بقصر الخليفة وينادون المنصور بقولهم: «أنت أنت»؛ أي: أنت ربنا، وقد حاربهم المنصور بشدة، واتخذ لنفسه من ذلك الوقت حرساً خاصاً من سلاح الفرسان لحراسة القصر ليلاً ونهاراً[2].

وهكذا تم تصفية الحرس القديم للثورة العباسية، وانفرد الخليفة العباسي بالسلطة دون منازع.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٣/ ٢٩٣- ٢٩٤.

(٢) الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص١٧١.

وكان أبو جعفر المنصور من بناة الدولة العباسية الـذين لا يتورعـون عـن الشدة لضبط أحوال دولتهم، لا يبالي أن يحرس ملكه بهلاك غيره[١]، وكان يأخذ نفسه بنظام صارم في إدارة شئون دولته، فكـان يشـتغل في صـدر نهـاره بـالأمر والنهي والنظر في الخراج والنفقات ومصالح الرعية، فإذا صـلى الـعصر جلـس لأهل بيته، فإذا جلس بعد المغرب نظر في كتب ولاة البريد التـي تـأتي بـها كـان ذلك اليوم عن الأسعار وأحوال القضاة، فإذا صلى العشاء نظـر فـيها ورد عليـه من كتب الثغور والأطراف، وشاور سمّاره، فإذا مضى ثلث الليل قام إلى فراشـه وانصرف سماره، فإذا مضى الثلث الباقي قام من فراشه فأسبغ الوضوء ووقـف في محرابه حتى يطلع الفجر[٢].

بناء بغداد:

وكان من أسباب بناء أبي جعفـر المنصـور لمدينتـه بغـداد رغبتـه في توطيـد سلطانه؛ فقد عزف عن هاشمية الكوفة بعد ثورة الراوندية عليه فيها، وكـان لا يأمن أهل الكوفة على نفسه ويتخوف منهم[٣].

وبنى الرصافة أيضاً لتدعيم سلطانه، إذ أشار عليه قثم بن العباس بن عبيد الله بن العباس أن يبني قصراً لابنه محمد المهدي على الضفة المقابلـة لبغـداد مـن نهر دجلة، وأن يجعل معـه جيشـاً، فيصـير ذلـك بلـداً وهـذا بلـداً؛ فـإذا فسـد عليه أهل هذا الجانب ضربهم بأهل ذلك الجانب، فقبل المنصور رأيه «فاسـتوى له ملكه»[٤].

---

(١) المسعودي: التنبيه والإشراف، ص ٣١٢.

(٢) ابن الجوزي: المنتظم، ج ٧، ص ٣٤٢.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ج ٧ ص ٦١٧.

(٤) الطبري: المصدر السابق ج ٨ ص ٣٩.

وكان المنصور يعد نفسه سلطان الله في أرضه؛ فقد خطب الناس في بغـداد في يوم عرفة: «أيها الناس إنما أنا سلطان الله في أرضه، أسوسكم بتوفيقه وتسديده، وأنا خازنه على فيئه، أعمل بمشيئته وأقسمه وأعطيه بإذنه، قد جعلني الله عليكم قفلاً، إذا شاء أن يفتحني لأعطياتكم وقسم نبتكم وأرزاقكم فتحني، وإن شاء أن يقفلني أقفلني»(١)، وبذلك أحدث المنصور في الخلافة نقلة نوعية تخطت بها ما كان عليه مفهوم الخلافة في العصر الراشدي والعصر الأموي.

وكان مما أحدثه المنصور من تغييرات في الخلافة أنه كان أول خليفة لقب نفسه، ولعله أقدم على ذلك بعد خروج محمد بن عبد الله بن الحسن المعروف بالنفس الزكية، فقد لقب النفس الزكية نفسه بالمهدي، فتلقب أبو جعفر بالمنصور، ولقب ابنه محمداً بالمهدي؛ دحضاً للقب المهدي الذي اتخذه ذو النفس الزكية العلوي، وصار اتخاذ الألقاب سنة للخلفاء العباسيين(٢).

سياسته الخارجية:

استغل الروم فرصة انشغال المنصور في قمع الفتن الداخلية وهاجموا ملطية عام ١٣٨هـ/ ٧٥٥م، فأرسل المنصور جيشاً لغزو الروم، وتمكن من إبعادهم من الثغور الإسلامية، ثم تكررت الغزوات براً وبحراً في صوائف متعددة، فلجأ الروم إلى طلب الصلح مقابل جزية يؤدونها للمسلمين.

---

(١) نفس المصدر السابق ج ٨ ص ٨٩.

(٢) شاكر مصطفي: دولة بني العباس، ج ١ ص ١٩٢.

أما المغرب فلم يشأ المنصور أن يترك المغرب ينسلخ عن نفوذه، لذلك أرسل الحملات العسكرية بإمرة محمد بن الأشعث -والي مصر العباسي- الذي لم يتمكن إلا من استرداد المغرب الأدنى عندما دخل إلى القيروان، بينما بقي المغرب الأقصى والأندلس في منأى عن الخلافة العباسية[١].

وامتدت خلافة أبي جعفر المنصور اثنتين وعشرين سنة، حتى توفي في خروجه للحج مع طلوع فجر ليلة السبت لست خلون من ذي الحجة سنة ١٥٨هـ/ ٧٧٤م من داء بالمعدة[٢].

مرحلة الاستقرار

محمد المهدي (١٥٨-١٦٩هـ/ ٧٧٤-٧٨٥م):

كان ثالث خلفاء بني العباس أبو عبد الله محمد بن أبي جعفر عبد الله المنصور، ولد سنة ١٢٧هـ/ ٧٤٤م بأيزج -و هي كورة بلد بين خوزستان و أصبهان- وأمه أم موسى أروى بنت منصور الحميري، كان أبوه المنصور يعده منذ الصغر لخلافته، فعني بتربيته واتخذ له المفضل الضبي مؤدباً، وأخرجه وهو في الخامسة عشرة من عمره مع خازم بن خزيمة إلى خراسان وطبرستان؛ ليتعلم منه كيف يقود الجيوش ويخوض المعارك[٣].

وقد بويع المهدي البيعة الخاصة في مكة، والبيعة العامة في بغداد، حيث

---

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص٤١- ٤٣ مكتبة المدرسة، بيروت، لبنان ١٩٨٩م.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٨، ص ٦٩- ٦٠.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٣٤.

كان مقيماً عند وفاة أبيه، وذلك في ذي الحجة ١٥٨هـ/ ٧٧٤م[١].

وكانت خلافة المهدي وكأنها بداية جديدة للدولة العباسية، فقد أقام المهدي حق العباسيين في الخلافة على أساس جديد، إذ كان العباسيون يستندون إلى وصية عبد الله ابن محمد ابن الحنفية حتى كان زمن المهدي، فردهم المهدي إلى إثبات الإمامة للعباس ابن عبد المطلب، وقال لهم: إن الإمامة كانت للعباس عم النبي ﷺ، فإنه كان أولى الناس به وأقربهم إليه، ثم من بعده عبد الله بن العباس، ثم من بعده علي بن عبد الله، ثم من بعده محمد بن علي، ثم من بعده إبراهيم بن محمد، ثم من بعده أبو العباس، ثم أبو جعفر، ثم المهدي، ثم مدها إلى ولد المهدي[٢].

ومع أن إرهاصة هذه المقولة قد ظهرت في كتاب المنصور لذي النفس الزكية، إلا أن المهدي هو أول من صاغها في صيغة واضحة.

وقد كان للمهدي السبق في كثير من أمور الدولة؛ فكان أول من أمر بتصنيف كتب الجدل في الرد على الزنادقة، وأفنى منهم خلقاً كثيراً، وكان أول من مُشي بين يديه بالسيوف المستلة والقسي والنشاب[٣]، وأول من وضع دواوين الأزمّة، وكسى الكعبة بالقباطي، وخلقها بالمسك والعنبر كلها من أعلاها إلى أسفلها، ووسع المسجد الحرام من حولها حتى يجعلها في وسطه.

وبادر المهدي أول تولية الخلافة إلى إنصاف المظلومين، واتخذ بيتاً له شباك من

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٦١.

(٢) مؤلف مجهول: أخبار الدولة العباسية ص ١٦٥.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ٢٢/ ١٢١.

حديد تطرح فيه القصص (رقاع الشكايا)، وتجمع بعد ذلك؛ لئلا يكـون ثمـة مجـال لإخفاء الشكايا أو تأخيرها. بهذه الطريقة حمى الرعية من تعدي الـولاة وجـورهم، ومن جوره هو أيضاً خاصة في قضـايا الضرائـب والأراضي، وكـف المعتـدي عـن القتل، وأمن الخائف، وأنصف المظلوم، وبسط يده في إعطـاء الأمـوال حتـى أنفـق جميع ما ادخره المنصور سوى ما جباه هو في خلافته، ومن ثم كان محبباً إلى العـام و الخاص طيلة خلافته التي امتدت عشر سنين ونيفاً، حتـى أدركتـه المنيـة في المحـرم ١٦٩هـ/ ٧٨٥م[١].

سياسة المهدي الخارجية:

اتسمت سياسة المهدي الخارجية بالعداء نحو الروم أولاً، وباستعادة النفوذ على الأندلس ثانياً.

فبالنسبة للروم فقد واصل المهدي غزواته لأراضي الروم، وقبل القدوم على هذا العمل حرص على تحصين ثغوره المتاخمة لهم، ثم وجه أساطيله البحرية وجيشه البري في غزوات صيفية وشتوية، وخرج المهدي بنفسه على رأس صائفة عام ١٦٣هـ/ ٧٧٩م، فتح فيها حصن سمالا بعد حصار طويل، وسار ابنه هارون سنة ١٦٥هـ/ ٧٨١م على رأس صائفة وصل بها البسفور، واضطرت الإمبراطورة إيريني إلى طلب الصلح لمدة ثلاث سنوات، وتعهدت بمقتضاه بدفع جزية سنوية كبيرة للعباسين، ونقض الروم الهدنة، وهاجموا الأراضي

(١) ابن الجوزي: المنتظم جـ ٨ ص ٣١٦.

الإسلامية سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م، إلا أن الجيوش الإسلامية المرابطة في الثغور الشمالية ردتهم على أعقابهم[١].

أما بالنسبة للأندلس فقد ظلت تؤرق بال العباسيين، فإن جل ما استطاع المهدي أن يفعله تجاه استعادتها إلى نفوذ العباسيين، أن لجأ إلى تدبير مؤامرة ضد عبد الرحمن الداخل للإطاحة به، واشترك في حبك أطراف المؤامرة ثلاث قوى: المهدي العباسي، وشارلمان ملك الفرنجة في فرنسا، وعبد الرحمن بن حبيب الفهري الوالي في المغرب، لكن المؤامرة لم يقدر لها النجاح، ولم تنته إلى ما كان يأمله كل طرف، وذلك لعدم إعلان الحرب على العدو المشترك في وقت واحد[٢].

موسى الهادي (١٦٩-١٧٠هـ/ ٧٨٥-٧٨٦م):

هو أبو محمد موسى الهادي بن محمد المهدي، ولد بالري سنة ١٤٧هـ/ ٧٦٤م في نفس العام الذي بويع فيه لأبيه بولاية العهد، أمه أم ولد بربرية من مولدات المدينة تسمى الخيزران[٣]، أعتقها المهدي وتزوجها بعد توليه الخلافة في سنة ١٥٩هـ/ ٧٧٥م[٤].

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ١٤٤- ١٤٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ٦٠ وما بعدها.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٤٩.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٨/ ١٢١.

وقد عني المهدي بتربية ابنه موسى تربية عسكرية[١]. وقد توفي المهدي في الوقت الذي كان فيه ابنه الهادي في برجان مقيماً على حرب أهل طبرستان منذ أن أخرجه أبوه لمحاربتهم قبل عامين، وكان الرشيد بصحبة المهدي فدفنه حيث توفي، وكتم وفاته عن الجند، ومنحهم أموالاً تشغلهم، وأذن لهم بالعودة إلى بغداد، وأرسل صاحب البريد إلى الهادي بالخاتم والقضيب ليهنأه وليعزيه، ولما وصل الجند بغداد وعلموا بوفاة المهدي شغبوا وطالبوا بالأرزاق، فوزع علهم عطاء سنتين تسكيناً لهم، وأخذ الرشيد البيعة في بغداد للهادي ولنفسه بولاية العهد من بعده، وحفظ أمر بغداد[٢] حتى قدم الهادي إليها في صفر ١٦٩هـ/ ٧٨٥م[٣].

وقد كان الهادي يقظاً غيوراً شجاعاً شديد البطش[٤]، اشتد في طلب الزناديق، وقتل كثيراً منهم[٥]، وقد شارك أباه بغضه للخوارج، ولكنه خالفه في موقفه من الأمويين الذين كان يبغضهم دون مواربة، كما خالفه في موقفه من العلويين (الطالبيين)؛ فقد جد في طلبهم وأخافهم خوفاً شديداً، وقطع ما كان المهدي يجري لهم من الأرزاق والأعطيات، وتصرفه هذا أثار عليه الحسين بن علي بن الحسين بن الحسين، وإذا كان الهادي قد استطاع أن ينكل به وبجماعة من أنصاره في واقعة «فخ»، وهي أخت كربلاء، فإنه من رحم هذه الواقعة خرجت

---

(١) الطبري: المصدر السابق جـ٨، صـ٢١٩.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل و الملوك ٨/ ١٨٨.
(٣) المصدر السابق ج٨ ص ١٨٩، وابن ايبك: كنز الدرر ص ١٠٤.
(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ص ١٥٢.
(٥) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٢ ص ١٢١.

دولة الأدارسة التي اجتزأت المغرب الأقصى من الدولة العباسية[١].

لم تـدم خلافــة الهــادي أكثـر مــن سـنة وبضــعة أشـهر، فتــوفي في ربيــع الأول ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، وقد اختلف في سبب وفـاة الهـادي، فقيـل كانـت وفاتـه من قرحة كانت في جوفه[٢]، وقيل كانت وفاته بتدبير أمـه الخيـزران التـي غضـبت منه لعدة أسباب، منها:

أنه منعها من التدخل في شئون الخلافة، وكانت الخيزران قد اعتادت هذا منـذ خلافة المهدي، وفي الأربعة أشهر الأولى من خلافـة الهـادي، فلـما تمـادت في ذلـك نهرها الهادي وأمرها أن لا تتـدخل في شـئون الحكـم، وأن تلـزم صـلاتها وتبتلهـا، وتوعدها فلم تتدخل بعد ذلك في شيء[٣]، ولم تكلمه حتى توفي[٤].

وازداد حنق الخيزران على ولدها الهادي لعزمه عـلى خلـع أخيـه الرشـيد مـن ولاية العهد والبيعة لابنه جعفر[٥].

وحاول الهادي قتل أمه الخيزران، فأرسـل إليهـا بـأرزة مسـمومة فلـم تأكـل منها[٦]، ثم وقع الهـادي مريضـاً، فـانتهزت الخيـزران الفرصـة، ودسـت إليـه مـن جواريها من خنقه وهو نائم، وأرسلت إلى يحيى بن خالـد البرمكـي بوفـاة الهـادي، وأمرته أن يجد في أخذ البيعة للرشيد[٧] في ربيع الأول سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م، وهـي

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ٤٤٩.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٢٠٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل، ٥/ ٧٩.
(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٢١٢.
(٥) ابن الأثير: الكامل، ٥/ ٧٩، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٢١٢.
(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٢٠٦.
(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٢٠٦.

الليلة التي مات فيها خليفة، وولد فيها خليفة (المأمون)، وجلس خليفة وهو الرشيد.

هارون الرشيد (١٧٠ - ١٩٣هـ/ ٧٨٦-٨٠٨م):

هو أبو محمد - وقيل أبو جعفر - هارون بن محمد المهدي، ولد بالري في سنة ١٤٨هـ/ ٧٦٥م أو ١٤٩هـ/ ٧٦٦م[١]، وأمه الخيزران الملقبة بأم الخلفاء[٢]، وقد بويع لهارون الرشيد وهو ابن أربع وعشرين سنة؛ ليكون خامس خلفاء بني العباس ليلة توفي أخيه الهادي.

نال الرشيد ثناء معظم المؤرخين، فمنهم من ذهب إلى أنه في أيامه كملت الخلافة بكرمه وعدله وتواضعه وزياراته للعلماء في مواضعهم[٣].

ومنهم من قال: كانت خلافته في غاية من العظمة والفخامة، حتى يحكى أنه كان يستلقي على قفاه وينظر إلى السحابة الحاملة للمطر ويقول: «اذهبي حيث شئت سيأتيني خراجك»[٤].

وقال غيره: «كانت أيام الرشيد كلها خيراً كأنها من حسنها أعراس»[٥].

ووصف البعض تقواه بأنه كان يصلي في خلافته في كل يوم مائة ركعة إلى أن

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٥٣، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ ٨ ص ٢٣٠. وابن الجوزي: المنتظم جـ٨ ص ٣١٨، وابن عبد ربه: العقد الفريد جـ٥ ص ٣٧٣.

(٢) قال فيها الشاعر مروان بن أبي حفصة (من بحر الوافر)

يا خيزران هناك ثم هناك أمسى العباد يوسوس هم ابناك

انظر: السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٥٣، و ابن أيبك: كنز الدرر جـ٥ ص ١٠٦.

(٣) وابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص١٠٠.

(٤) القلقشندي: مآثر الأناقة، جـ١/ ١٩٤.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ٤٥٦.

مات، لا يتركها إلا لعلة، ويتصدق من صلب ماله كل يوم بألف درهم.

وكان يحب العلم وأهله، ويُعظم حُرمات الإسلام، ويبغض المراء في الدين والكلام في معارضة النص[١].

وذهبوا إلى أنه كان يحج سنة ويغزو أخرى، فحج تسع حجج وغزا ثمان غزوات[٢]، ونعت بالمظفر والموفق والمؤيد، ولقب نفسه الغازي والحاج، وكتب ذلك على قلنسوة له[٣].

نكبة البرامكة:

ينتسب البرامكة إلى برمك، وهو لقب كان يطلق على كبير سدنة معبد النوبهار ببلخ. كان أول من نبغ من البرامكة في ظل العباسيين، خالد بن برمك الذي استخدمه- من خلفاء بني العباس- أبو العباس، وأبو جعفر، والمهدي حتى توفي خالد سنة ١٦٣هـ/ ٧٧٩م، فصلى عليه هارون بن المهدي، ونبغ يحيى بن خالد في حياة أبيه وبعد وفاته وكان له فضل كبير في تولي هارون الرشيد الخلافة، ومعارضة رغبة الهادي في خلعه وتقليد ابنه جعفر بدلاً منه؛ فحملها له الرشيد واستوزره وزارة تفويض، فوض إليه فيها كافة شئون الدولة، وقال هارون الرشيد ليحيي بن خالد البرمكي: «قلدتك أمر الرعية، وأخرجته من عنقي إليك؛ فاحكم بما ترى، واستعمل من شئت، واعزل من رأيت، وافرض لمن رأيت، وأسقط لمن رأيت، فإني

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ٤٥١، وابن الأثير: الكامل: ٥/ ١٣١.

(٢) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة ٢/ ٣١٨.

(٣) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٥/ ١٠٦.

غير ناظر معك في شيء»[١].

أسباب ارتفاع مكانة البرامكة:

إن وصول البرامكة إلى هذه المكانة السامية لظاهرة جديرة بتقصي أسبابها؛ والتي منها:

١- كانت الصحوة الفارسية بوجه عام عاملاً كامناً وراء تقدم البرامكة الذي لم يكن إلا جزءاً من هذه اليقظة.

٢- كفاءة البرامكة الإدارية وسيرتهم الذاتية[٢].

٣- عقد يحيى البرمكي تحالفاً قوياً مع الخيزران أم الرشيد التي كانت قوية الشخصية واسعة النفوذ[٣].

٤- اتخاذ البرامكة جيشا من الأتباع، وجيشا من الجند في خراسان يدينون بالولاء لهم خاصة[٤].

امتدت دولة البرامكة نحو تسعة عشر عاماً منذ أن استوزر الرشيد يحيى البرمكي سنة ١٧٠هـ/ ٧٨٦م حتى نكبهم الرشيد سنة ١٨٧هـ/ ٨٠٢م، فأوقع بالبرامكة جميعاً إلا محمد ابن خالد وولده فإنه استثناهم، وقد حار المؤرخون القدامى والمحدثون على السواء في تعليل نكبة البرامكة، وقالوا فيها أقوالاً كثيرة، ويمكن أن نجمل الاتهامات التي وجهت إليهم على النحو التالي:

(١) الجهشياري: الوزراء و الكتاب، ص١٧٧.

(٢) المصدر السابق، ص٨٩.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٣٣٤.

(٤) المصدر السابق، ٨/ ٢٥٧.

١- اتهم البرامكة فيما اتهموا به بالزندقة[١]، وأنهم كانوا يبطنون المجوسية، وقيل في التدليل على ذلك أنهم زينوا للرشيد اتخاذ المجامر للبخور في الكعبة لولا أن الرشيد فطن لما في ذلك من مجوسية فلم يفعله[٢].

٢- اتهم البرامكة بالتسلط على الأموال والاستبداد بها، دون الرشيد حتى إنهم كانوا يقترون على الرشيد فكان يطلب اليسير من المال فلا يصل إليه[٣].

٣- قصة علاقة العباسة أخت هارون الرشيد بجعفر بن يحيى البرمكي- إن صحت- كانت مما لاكته الألسنة وجعلت منه سبباً قوياً لنكبة البرامكة، خصوصاً وأن الرشيد لم يعلن عن أسباب هذه النكبة وترك الناس يرجفون الأقوال فيها[٤].

٤- استبداد البرامكة بشئون الدولة العباسية من دون الرشيد[٥]. فروي أنه نظر- أول أمره- اعتراك الخيول وتزاحم الناس على باب يحيى بن خالد فقال: «جزى الله يحيى خيراً، تصدى للأمور وأراحني من الكد»، فلما تغيرت نفسه عليهم قال حينما رأى المنظر نفسه: «استبد على غير رأيي، فالخلافة له على الحقيقة، فليس لي منها إلا اسمها»[٦].

---

(١) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٠ ص ١٦٩.

(٢) الجهيشاري: الوزراء والكتاب ص ٢٥٤.

(٣) المسعودي: مروج الذهب: جـ٣ ص ٣٧٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٢٩٤.

(٥) المصدر السابق، ٨/ ٢٩٤.

(٦) الجهيشاري: الوزراء والكتاب، ص ١٢٥.

٥- كما اتهم البرامكة بالتشيع، فقد قام جعفر بن يحيى البرمكي بتسريح يحيى بن عبد الله العلوي من السجن دون علم الرشيد، كما حمل يحيى البرمكي الأموال للثائرين من العلويين؛ ليتقووا بها على حرب العباسيين[١]، واتهم البرامكة بالتعصب القومي، أو الميل إلى العجمة[٢]، وواقع حالهم يبرئهم من هذا الاتهام. فقد كان مسلك الفضل بن يحيى في خراسان وتكوينه فيها جيشا لا يدين بالولاء إلا له قرينة على ذلك، كما كانت مناهضة البرامكة للعرب وإقصاؤهم عن مناصب الدولة قرينة أخرى[٣].

٦. كان من أسباب نكبة البرامكة حسادهم وأعداؤهم مثل محمد بن الليث، والفضل ابن الربيع، الذين ألبوا الرشيد عليهم، وأخذوا يذكرون له استبدادهم بالملك واحتجابهم للأموال حتى أوغروا صدره[٤].

لتلك الأسباب تغيرت نفس الرشيد على البرامكة، وعزم على الخلاص منهم؛ لكنه لم يفصح عن نواياه لأحد، ومع ذلك فقد أحس البرامكة بتغيره عليهم، فقد دلت على ذلك شواهد كثيرة، منها: استياؤه من دخول يحيى البرمكي عليه بغير إذن، وكان يقبل ذلك منه فيما مضى[٥]، وأنه أمر الغلمان ألا يقوموا احتراماً ليحيى إذا دخل القصر[٦]، وغير ذلك من الشواهد الكثيرة.

---

(١) الجهيشاري: الوزراء والكتاب، ص ١٢٥.

(٢) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٩.

(٣) جمال الدين سرور: مرجع سابق، ص٢١٩- ٢٢٠.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري، ص١٦٩.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٢٨٧.

(٦) المصدر السابق: ٨/ ٢٨٨.

انتاب البرامكة القلق على نحو ما تظهر الروايات، ويبدو أنهم تآمروا على الإيقاع بالرشيد وتولية عبد الملك بن صالح بن علي العباسي بدلاً منه، فعجل الرشيد ونكبهم قبل أن يضعوا مؤامراتهم موضع التنفيذ[١].

السياسة الداخلية:

مر حكم هارون الرشيد بثلاث مراحل:

المرحلة الأولى (١٧٠- ١٧٤هـ/ ٧٨٦- ٧٩٠م): تولى هارون الرشيد الخلافة ليجد أمه الخيزران صاحبة الكلمة المسموعة، فكان يحيى البرمكي يعرض عليها الأمور، ويصدر تعليماته بعد أخذ رأيها، وهكذا حتى كانت وفاتها سنة ١٧٤هـ/ ٧٩٠م.

المرحلة الثانية (١٧٤- ١٨٧هـ/ ٧٩٠- ٨٠٢م): وفيها كان هارون يملك- إن صح التعبير- ولا يحكم، بل يحكم من ينوب عنه، وقد جعل هارون الرشيد في أول خلافته الوزارة ليحيى بن خالد البرمكي، امتناناً لدوره في أخذ البيعة للرشيد من ناحية ولكفاءته الإدارية من ناحية أخرى.

المرحلة الثالثة (١٨٧- ١٩٣هـ/ ٨٠٢- ٨٠٨م): تولى الرشيد في هذه المرحلة أمور الحكم بنفسه، فنراه يتنقل في أرجاء دولته ويتجول بين الناس في الأسواق متستراً يستمع إلى شكاوى الشاكين ويتفقد ما هم في حاجة إليه، كما قاد الجيوش ضد الثائرين وقام بالغزوات[٢]. ومهما يكن من أمر فقد واجهت الرشيد- كأسلافه في خلافة العباسيين- متاعب كثيرة منها:

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٣٠٥.

(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص٦٦- ٦٧.

١- خروج يحيى بن عبد الله بن الحسن الذي نجا من موقعة (فخ) على عهد الهادي، فذهب إلى بلاد الديلم وهناك كثر أنصاره وقصده كثيرون، فاشتدت شوكته وأعلن خروجه- معلناً أحقيتهم في الخلافة- على الرشيد الذي استعمل مع يحيى أسلوب التهديد والترغيب، حتى قبل يحيى الصلح، ولكن وقعت وشاية تدين العلويين فغير الرشيد سياسته تجاههم، فأنزل بهم أشد العقوبات، وأخذ موسى بن جعفر الصادق المعروف بـ«الكاظم» إلى بغداد فأقام فيها حتى مات(١).

٢- خروج الخوارج: خرج الوليد بن طريف الشاري الشيباني سنة ١٧٨هـ/ ٧٩٤م، وبعد عدة معارك انتصرت عليه جيوش الرشيد وقتلته في معركة الحديقة قرب الأنبار(٢).

٣- **ثورة رافع بن ليث بن نصر بن سيار ضد علي بن عيسى بن ماهان عامل الرشيد على خراسان**، حيث ضجر الناس من سياسته الظالمة، فما كان من الرشيد إلا أن أمر بعزل علي بن عيسى، فخلص الناس من ظلمه، ولكن الرشيد لم يتمكن من القضاء على رافع بن ليث بالرغم من خروج الرشيد إليه بنفسه؛ لأنه مات وهو في الطريق إليه(٣).

السياسة الخارجية:

تمثلت سياسة الرشيد الخارجية بالاعتراف بالأمر الواقع فيما يخص دولة

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٢٤٢- ٢٤٣.
(٢) ابن الأثير: الكامل، ٥/ ٩٧.
(٣) ابن خلدون: تاريخ ابن خلدون، ٢/ ٢٢٨- ٢٢٩.

بني أمية بالأندلس، وحتى يمنع توسع دولة الأدارسة العلويين في المغرب لجأ إلى إقامة وتأييد دولة الأغالبة في تونس؛ لتكون حاجزاً بين الدولة العباسية ودولة الأدارسة.

أما بالنسبة إلى الفرنجة في فرنسا فقد قامت على أساس من الصداقة وتبادل الهدايا والسفارات بسبب العداء المشترك بينهما وبين الروم من جهة، وبينهما وبين الأمويين في الأندلس من جهة ثانية.

فانصرف الرشيد إلى تأمين حدود دولته مع الروم بالعرض العسكري من ناحية؛ لإرهابهم، وبالغزو لكسب شرف الجهاد وثوابه من ناحية أخرى.

وكان من قوة الرشيد أن أجبر الإمبراطورة «إيريني»- التي كانت تحكم باسم ابنها الصغير- بدفع الجزية للرشيد مقابل عدم الاعتداء على أراضيها[1]، ولكن حدث أن نقض العهد الإمبراطور نقفور الأول- الذي استولى على الحكم من الإمبراطورة إيريني وابنها- سنة ١٨٦هـ/ ٨٠٢م، وامتنع عن دفع الجزية، وأرسل رسالة إلى الرشيد جاء فيها:

«من نقفور ملك الروم إلى هارون ملك العرب... أما بعد: فإن الملِكة التي كانت تحكم قبلي أقامتك مقام الرخ، وأقامت نفسها مكان البيدق، فحملت إليك من أموالها ما كنت حقيقاً بحمل أمثاله إليها، لكن ذاك ضعف النساء وحمقهن، فإذا قرأت كتابي فاردد ما حصل قبلك من أموالها، وافتد نفسك بما يقع به المصادرة لك، وإلا فالسيف بيننا وبينك»[2].

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٨٨.
(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٢٦٨.

فلما قرأ الرشيد الكتاب، استشاط غضباً، وكتب له جواباً جاء فيه:

«بسم الله الرحمن الرحيم...

من هارون أمير المؤمنين إلى نقفور كلب الروم.. قد قرأت كتابك، والجواب ما تراه دون أن تسمعه. والسلام»(١).

ثم انطلق الرشيد على رأس جيش كبير بلغ عدده أكثر من ١٣٠ ألفاً، توغل به في ممتلكات الروم حتى وصل إلى مدينة (هرقلة)، فاستولى عليها بالقوة سنة ١٩٠هـ/ ٨٠٥م(٢)، واستمرت بعد ذلك الغزوات الصائفة بقيادة كبار قادته أمثال شرحبيل بن معن بن زائدة، ويزيد بن مخلد، وداود بن عيسى، حتى اضطر الإمبراطور نقفور في نهاية الأمر إلى طلب الصلح بدفع الجزية، والتعهد بعدم ترميم الحصون التي دمرها الرشيد(٣).

ومكث الرشيد في الخلافة نيفاً وثلاثاً وعشرين سنة، إلى أن كانت وفاته بطوس غرة جمادى الآخرة سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٨م.

محمد الأمين (١٩٣ - ١٩٨ هـ/ ٨٠٨-٨١٣م):

هو أبو عبد الله محمد بن هارون الرشيد، كان أصغر من أخيه المأمون، لكنه تقدم عليه؛ لأن أمه هاشمية هي زبيدة بنت جعفر بن أبي جعفر المنصور، ويعرف الأمين بالمخلوع، ولقب بالمترف والمؤنث لشدة انغماسه في الترف، ولقبه أخوه المأمون حين خلعه بالناكث والخالع، وكان الأمين من أحسن الشباب صورة، وله

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ١١٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ١١٨.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٢٨٨.

قوة مفرطة وبطش وشجاعة، لكنه كان سيئ التدبير، كثير التبذير، ضعيف الرأي أرعن لا يصلح للخلافة.

كان محمد الأمين قد علم بمرض والده الرشيد وشدة علته وما ألم به، فأرسل بكر ابن المعتمر إلى عسكر الرشيد بطوس بكتب وأمره ألا يظهرها إلا بعد وفاة الرشيد. وفيها كان الأمين يعزي إخوته ويأمرهم ببيعته ويأخذ البيعة له على أجنادهم وخواصهم وعوامهم، فلما توفي الرشيد أظهر بكر بن المعتمر هذه الكتب ووجهها إلى إخوة الأمين: المأمون والمؤتمن وصالح الذي كان أكبر من حضر وفاة الرشيد من ولده[١]، وبويع الأمين بيعة الخاصة بطوس- أخذها له الفضل بن الربيع[٢] على يد صالح بن هارون الرشيد[٣].

وذهب المأمون إلى أخيه الأمين معزياً ومهنئاً مع رجاء الخادم، وأرسل معه الخاتم والقضيب والبردة[٤]، فانتقل الأمين من قصره بالخلد إلى قصر الخلافة، وصلى بالناس الجمعة، ثم صعد المنبر فنعى الرشيد وعزى نفسه والناس، ووعدهم وآمن الأبيض والأسود، وفرّق في الجند الذين في بغداد رزق سنتين، ودعا إلى بيعته فبويع بيعة عامة سنة ١٩٣هـ/ ٨٠٨م[٥].

وقد بدأ الأمين خلافته بداية طيبة فقد أخرج كل من كان في حبس

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٣٦٥- ٣٦٧.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، ٢/ ٤٣٣.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٢/ ٣٦٨.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٥/ ١٣٤.

(٥) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ٢/ ٤٣٣.

الرشيد[١]، وأقر أخاه القاسم المؤتمن على ما كان ولاه أبوه الرشيد، لكن الأمـين ما لبث أن ساءت سياسته في العام التالي من خلافته، وانشـغل بـاللهو واللعـب عن تدبير شئون الدولة[٢]، مع أنه أقحم نفسه فيما لا يجـب الانشـغال عنـه؛ وفي السنة التالية لتوليه الخلافة فكر في خلع أخويه ونقـض مـا توثقـت بـه العهـود؛ فعزل أخاه المؤتمن عما بيديه، وحدثته نفسه بخلع أخيه المأمون، والـدعوة لابنـه موسى، ولقبه الناطق بالحق؛ متجاهلاً ترتيـب أبيـه الرشـيد ففـتح بـاب الفتنـة بينه وبين أخيه المأمون وهي الفتنة التي انتهت بخلع الأمين ثـم قتلـه في المحـرم من سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م.

المأمون (١٩٨ - ٢١٨هـ/ ٨١٣-٨٣٣م):

هو عبد الله بن هارون الرشيد ولد في ربيع الأول سنة ١٧٠هـــ/ ٧٨٦م في الليلة التي مات فيها الخليفة (الهادي)، وتولى فيها الخليفة (الرشيد)، وولد فيهـا الخليفة (المأمون)، وأمه أم ولـد تـدعى مراجـل، أهـداها عيسـى بـن ماهـان[٣] للرشيد، فولدت له عبد الله المأمون وماتت، فسلمه الرشيد إلى سعيد الجـوهري فتربى في حجره.

وكان منذ الصغر فطنـاً ذكيـاً[٤]، قـرأ العلـم في صـغره، وقـام عـلى تربيتـه

(١) ابن أكثم الكوفي: الفتوح جـ٨/ ٢٨٦.
(٢) نفس المصدر ج٨/ ٢٨٨، وابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص١٧١.
(٣) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ ٢/ ٤٤٤، وابن أيبك: كنز الدرر، جـ٥ ص/ ١٧٠.
(٤) ابن الجوزي: المنتظم، جـ ١٠/ ٤٩.

وتأديبه من يشار إليهم بالعلو في ذلك؛ كأبي محمد اليزيدي وغيره[١]، فبرع في العربية، وفي الفقه، وأيام الناس، وكان فصيحاً مفوهاً، وقيل: لم يل الخلافة من بني العباس أعلم منه[٢]، ونعته المقريزي[٣] بالإمام العالم المحدث النحوي، ولما كبر عني بالفلسفة وعلوم الأوائل، فجره ذلك إلى القول بخلق القرآن [٤]، كان الرشيد قد رتب ولاية العهد للمأمون بعد الأمين، فلما نقض الأمين العهد وخلع المأمون- على نحو ما ذكرنا- تسمى المأمون بإمام الهدى، وكتب بذلك[٥]. وقيل تسمى بإمام المؤمنين[٦]، ونودي لأول مرة بالخلافة في جند طاهر بن الحسين[٧]، فلما أوقع طاهر بن الحسين بعلي بن عيسى بن ماهان قائد جيش الأمين، سلم أهل خراسان على المأمون بالخلافة، وأُعلن خلع الأمين، ودُعي للمأمون بالخلافة في جميع كور خراسان وما يليها سنة ١٩٥هـ/ ٨١٠م[٨]، وامتدت دعوته إلى نواحي كثيرة، ودعي له بالخلافة في موسم حج سنة ١٩٦هـ/ ٨١١م[٩]، واقتصرت دعوة الأمين على بغداد[١٠].

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ص٥٠١، ٧٨٩، والمقريزي: المقفى الكبير، جـ٤/ ٢٩١.
(٢) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، ٢/ ٣٣٩.
(٣) المقريزي: المقفى الكبير، جـ٤/ ٢٩١.
(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٨٩.
(٥) الطبري: تاريخه، جـ ٨ ص ٣٨٩.
(٦) ابن الجوزي: المنتظم، ١٠ / ١١، والسيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٤٧٥.
(٧) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٨ ص ٣٩٢.
(٨) خليفة بن خياط: تاريخ خليفة، ص ٤٦٦، والطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٨ ص ص٤١١، ٤١٥.
(٩) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٨ ص ٤٤٤.
(١٠) المسعودي: مروج الذهب جـ٧ص٢.

لكن النويري يرى أنه لم تكن للمأمون خلافة مع بقاء الأمين[١]، وما لبث الأمين أن قتل، وبويع المأمون بيعة عامة في بغداد وهو بمرو في المحرم سنة١٩٨هـ/ ٨١٣م[٢]، ولم يدخل المأمون بغداد إلا بعد ست سنوات من بيعته في منتصف صفر سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م[٣]، واجتمع الناس في المشرق والمغرب على طاعته والانقياد لخلافته.

استوزر المأمون الفضل بن سهل، وكان الفضل من أصول مجوسية من قرية (صابر نيثا)[٤]، وكان من علية القوم، جذبه يحيى بن خالد البر مكي إلى الإسلام وأدخله إلى المأمون فأسلم على يديه، ولم يزل ملازماً للبرامكة حتى نكبوا، فلزم المأمون[٥]، وقد استمر بنو سهل: الفضل بن سهل وأخوه الحسن في السير على نهج البرامكة، ومن ثم انحاز بنو سهل إلى أعجميتهم وعملوا على الاستئثار بالسلطة دون العباسيين. فقد روي أن الفضل بن سهل صرح بأنه ما صحب المأمون ليكتسب منه مالاً قل أو كثر، وإنما صحبه ليصبح حكمه نافذاً في الدولة العباسية من مشرقها حتى مغربها[٦].

وعندما وقعت الفتنه بين الأخوين الأمين والمأمون نجحت خطت الفضل بن سهل في الدعاية بالخلافة للمأمون، وتشويه صورة الأمين أمام الرعية وحصاره في بغداد، واستطاع جند المأمون بقيادة طاهر بن الحسين أن يدخلوا

(١) نهاية الأرب، جـ٢٢ ص ١٨٨.

(٢) اليعقوبي: تاريخ اليعقوبي، جـ٢٢ص ١٨٨.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٨ ص ٥٧٤.

(٤) ياقوت: معجم البلدان، جـ ٣ ص ٣٨٧.

(٥) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص٢٣٠- ٢٣١.

(٦)الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٨ ص ٢٨٠.

بغداد ويقتلوا محمد الأمين في المحرم سنة ١٩٨هـ/ ٨١٣م، فبويع للمأمون بالخلافة بيعة عامة في بغداد.

لكن المأمون أقام في خراسان، ووجه الحسن بن سهل ليلي أمر العراق وضم إليه فارس والأهواز والحجاز واليمن[١]، وكان المأمون قبل ذلك بعامين قد رفع منزلة الفضل بن سهل وأسماه ذا الرياستين: رياسة (السيف) ورياسة تدبير (القلم)، وعقد له على المشرق[٢]، وبذلك بسط بنو سهل سلطانهم على دولة المأمون.

وكتب المأمون لذي الرياستين الفضل بن سهل في حيثيات تأميره: «جعلت لك مرتبة من يقول في كل شيء فيسمع منه، ولا تتقدمك مرتبة أحد ما لزمت ما أمرتك به[٣]». ونستطيع أن تتبين أسباب نكبة بني سهل أو بالأحرى الفضل بن سهل، فلم يعطِ المأمون للفضل بن سهل تفويضاً كاملاً كالذي أعطاه الرشيد ليحيى البرمكي ولكن الفضل بن سهل عمل على الاستبداد بأمور الدولة، وأراد أن يعيد سيرة البرامكة، فاستحق أن يلقى مثل نكبتهم، وفعلاً تخلص المأمون منه سنة ٢٠٢هـ/ ٨١٧م، وسرعان ما لحق به أخوه الحسن فقد أصيب بمرض السوداء واعتزل الوزارة.

ويمكن أن نوجز تلك الأسباب فيما يلي:

١ - استبداده بالأمور دون المأمون ومحاولته فرض الوصاية عليه[٤].

٢- سياسة الفضل الفارسية التي أظهرها[١].

---

(١) ابن الأثير: الكامل، جـ٦ ص ١٢٢.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٤٢٤.

(٣) الجهشياري: الوزراء والكتاب، ص ٣٠٦.

(٤) النويري: نهاية الأرب جـ٢٢ ص ٢٠٩.

٣- إدخال المراسيم والتقاليد الساسانية في بلاط المأمون وجلوسه على كرسي مجنح كما كان يفعل الوزراء الأكاسرة[٢].

٤- استبقاء المأمون في خراسان؛ ليضمن السلطان للفرس.

٥- ارتداء الخضرة لباس الأكاسرة والمجوس[٣].

٦- اتُهم الفضل بالتشيع والعمل على نقل الخلافة للعلويين.

٧- حجبه أخبار العراق واضطراب أحوال بغداد عن المأمون، ومكيدته لقتل هرثمة بن أعين الذي جاء للخليفة ناصحاً له ولإبلاغه حقيقة الأمور.

٨- اتهامه بالعمل على إزالة خلافة بني العباس وتحويلها ملكاً كسرويا فارسيا.

ويبدو أن المأمون قد أحس بالخطر من تصرفات الفضل بن سهل، وأحس باختلال التوازن الذي حرصت عليه الخلافة دائماً بين سلطتها وسلطة الوزراء، ففعل المأمون ما فعله أبوه من قبل، ونكب بنو سهل.

وهكذا كانت الخلافة العباسية تستخدم العناصر الفارسية طوال العصر العباسي الأول، وتطلق لها من السلطان السياسي ما لا يخل بالتوازن، فإذا اختل هذا التوازن، لم تتوان عن الفتك والتنكيل بهم، حدث هذا مع أبي سلمة، ومع أبي مسلم، ومع البرامكة، وبني سهل.

أثنى كثير من المؤرخين على الخليفة المأمون لحسن دراسته من ناحية،

---

(١) شاكر مصطفي: دولة بني العباس، جـ١ ص ٤٩٣.

(٢) الجهشياري: الوزراء والكتاب ص ٣٠٦.

(٣) نفس المصدر السابق، ص ٣١٣.

واهتمامه ورعايته للعلوم بمختلف فروعها النقلية والعقلية والطبيعية من ناحية أخرى:

فمن حيث سياسته: وصف بأنه «كان جليل القدر كامل العقل بارع الفضل عظيم العفو حسن التدبير»(١). ووصف أيضاً بأنه كان" أفضل الناس وأغزرهم مروءة، وأكثرهم ذكاء، وأتمهم رئاسة»(٢). وقيل : إنه كان يحضر مع الناس على الطعام، ويخرج في جوف الليل يطوف في عسكره، وكان يجبي أخبار الناس، فما كان يخفى عنه شيء من أمور الناس ظاهراً وباطناً، وكان لا ينام كل ليلة حتى يقف على جميعها(٣)، وقد أظهرت الوقائع حنكة المأمون السياسية التي قد يصفها البعض بالمكيافيلية، لكن المكيافيلية غير أخلاقية، وكان للمأمون من مكارم الأخلاق ما يمنعه عن التوسل بالمقبوحات التي لا تبررها إلا الغايات، وتدل أقوال المأمون وأفعاله بعد قدومه إلى بغداد على حنكته، فقد كان من رأيه أن أهل بغداد حين قدم عليهم كانوا ثلاث فئات: ظالم يتوقع عفوه، ومظلوم ينتظر إنصافه، ومن ليس بظالم ولا مظلوم يسعه بيته(٤)، وكان لا يقبل من أتباعه أن يوافقوه على رأيه هيبة له بغير حق، ويرى أن شر الملوك من رضي بقول صدق الأمير(٥).

ولم يقبل المأمون تنصيب رجل لحوائج الناس كي لا يضيق على الرعية، ولا تخفى عليه أمورهم، ويماطلون ويتأمر عليهم غيره(٦)، وكان يجلس للمظالم بنفسه وينتصف من الظالم ولو كان ابنه، وكان يرى أن يبدأ بالعدل في بطانته، ثم

---

(١) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٧ ص ٥٧٤.

(٢) نفس المصدر السابق، جـ ٥ ص ١٨٦.

(٣) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، ج٢ ص ٣٤٠.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٨ ص ٥٧٥.

(٥) المقريزي: المقفي الكبير جـ٤ ص ٣١٧.

(٦) نفس المصدر السابق، ٤/ ٣١٨.

الذين يلونهم، حتى يبلغ الطبقة السفلى[1]، واعترف منتقدوه في بعض المسائل كقوله بخلق القرآن بأنه: كان يتوخى العدل، ويتولى بنفسه الحكم بين الناس والفصل[2].

اهتم المأمون بكثير من العلوم النقلية كعلوم القرآن، وضرب به المثل في حفظ القرآن[3]، وكان شغوفاً بالحديث، وتمنى لو يجلس فيحدث[4]، وكان فقيهاً وعالماً بالفرائض، وله كتاب في الرد على ملك البرغر فيما سأل عنه من أمور الإسلام في أكثر من مائة ورقة[5]، وكان بصيراً بالشعر والنحو وعلوم العربية[6]، وفي العلوم العقلية كان للمأمون اهتمام بالفلسفة وعلم الكلام، وقد روى المؤرخون جانباً من المناظرات تدل على براعته في ذلك[7].

أما في العلوم الطبيعية، فقد أشار المؤرخون إلى اهتمامه بعلوم الأوائل وتعريبها[8]، وقد أرجع ابن النديم عناية المأمون بعلوم الأوائل وترجمة كتبها إلى رؤيته لأرسطو في المنام[9]. وقد نال المأمون تقدير المؤرخين لعنايته بهذه العلوم؛ حتى عده بعضهم واسطة الدولة العباسية إذ قيل: «لبني العباس فاتحة هو المنصور وواسطة هو المأمون وغالقة هو المعتصم»؛ لأن هؤلاء الخلفاء الثلاثة طمحت بهم أنفسهم الشريفة إلى درك العلوم الشريفة؛ فدل ذلك على علوهم

(١) المقريزي: المقفي الكبير، جـ٤/ ٣٢٤.
(٢) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٠/ ٢٧٧.
(٣) ابن الجوزي: المنتظم، جـ١٠/ ٥٢.
(٤) المقريزي: المقفي الكبير، جـ٤/ ٣٠٠.
(٥) نفس المصدر السابق، جـ٤ ص/ ٣٤٢.
(٦) ابن كثير: البداية والنهاية، جـ١٠/ ٢٧٥.
(٧) المقريزي: المقفي الكبير، جـ٤ .
(٨) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص٤٨٩.
(٩) ابن النديم: الفهرست، ص٢٣٩.

وسمو مقاصدهم[١]. ولم يقتصر اهتمام المأمون بهذه العلوم على رعايته لها، بل كانت له مشاركة في بعضها كالطب والنجوم، ولم يكن نفاقاً أن شبهه يحيى بن أكثم بجالينوس في معرفته بالطب، وبهرمس في النجوم[٢].

السياسة الخارجية:

لم يحدث أي تغيير يذكر في سياسة المأمون الخارجية عما كانت عليه في عهد أبيه الرشيد، واستمرت العلاقات السياسية مع الفرنجة على حالها من تبادل السفارات والهدايا، إذ أرسل التي تؤكد حسن العلاقات الدبلوماسية بين الطرفين[٣].

أما بالنسبة إلى سياسة المأمون تجاه الروم فتتلخص في مواصلة الجهاد. فنرى الخليفة المأمون يستغل فرصة الثورة الداخلية التي تزعمها توماس الصقلي ضد الإمبراطور الرومي ميخائيل الثامن سنة ٢٠٦هـ/ ٨٢١م، وأخذ يمد تلك الحركة بالمال والسلاح كي يساعده على الاستيلاء على القسطنطينية، لكن الإمبراطور كشف أخبار تلك الاتصالات فعمل على إنهاء الثورة وقتل زعيمها على أبواب القسطنطينية ٢٠٨هـ/ ٨٢٣م[٤].

وفي سنة ٢١٥هـ/ ٨٣٠م خرج المأمون على رأس حملة لغزو الروم، ففتح الحصون وأسر منهم خلقاً كثيراً، وتكررت غزواته

---

(١) ابن أيبك: كنز الدرر، جـ٥/ ١٧١- ١٧٣.

(٢) المقريزى: المقفى الكبير، ج٤/ ٣٠١.

(٣) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص٨٧.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٦٢٣- ٦٢٥.

سنة ٢١٦- ٢١٧هـ/ ٨٣١- ٨٣٢م[١]، حتى طلب الإمبراطور الهدنة فقبلها المأمون. وأخيراً خرج المأمون سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م لغزو الروم عن طريق طرسوس فأصيب بالحمى وتوفي هناك[٢].

ويبدو أن ولاية العهد كانت تؤرق المأمون بعد الفتنة التي وقع الخلاف بسببها بينه وبين أخيه الأمين، فقام بخلع أخاه المؤتمن من ولاية العهد سنة ٢٠١هـ/ ٨١٦م وعهد بها إلى علي بن موسى الكاظم، ولقبه الرضا من آل محمد في شهر رمضان سنة ٢٠١هـ/ ٨١٦م، ودعا له على المنابر وضرب السكة باسمه، وأمر بطرح لباس السواد واتخاذ الخضرة[٣].

وقد غضب بنو العباس في بغداد[٤] لاتخاذ المأمون علوياً لولاية عهده، فأعلنوا خلع المأمون وبايعوا إبراهيم بن المهدي المعروف بابن شكلة بالخلافة، فقدم المأمون من مرو إلى بغداد[٥] وتخلص في طريقه إليها من وزيره المستبد بأموره الفضل بن سهل، ثم توفي علي الرضا وكتب المأمون إلى بني العباس وأهل بغداد بخبر وفاته، لكنهم ظلوا على خلافهم حتى قدم إليهم المأمون، فاستقر في بغداد في منتصف صفر ٢٠٤هـ/ ٨١٩م، واختفى ابن شكلة خوفاً من المأمون، وبعد أن استقر ببغداد بنحو أسبوع طرح المأمون لباس الخضرة، وعاد إلى السواد لسبع باقين من صفر سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩م[٦]. ولم يتخذ المأمون

(١) المسعودي: مروج الذهب، ٣/ ٤٥٦- ٤٥٨.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٥/ ١٨٤- ١٨٥.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٥٥٤.

(٤) كان بنو العباس قد أحصوا يومئذ فباغوا ثلاثة و ثلاثين ألف نسمة.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٥٥٥.

(٦) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٨/ ٥٧٥.

بعد وفاة علي الرضا ولياً للعهد حتى حضرته الوفاة بالبذندون(*)، إبان خروجه لغزو الروم، فعهد بالخلافة إلى أخيه أبي إسحاق المعتصم في منتصف رجب ٢١٨هـ/ ٨٣٣م[١].

المعتصم بالله (٢١٨- ٢٢٧هـ/ ٨٣٣-٨٤١م):

هو أبو إسحاق محمد بن هارون الرشيد، ولد سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م، كانت أمه ماردة بنت شبيب أمَّ ولد من مولدات الكوفة، كانت أمها صغدية، ونشأ أبوها بالبنديجين. وقيل إنها تركية. كانت ماردة أحظى النساء لدى هارون الرشيد وماتت دون أن تدرك خلافة ولدها[٢] واتفق كثير من المؤرخين على تلقيبه بالمثمن وهي تسميه أطلقها فيما يبدو الثعالبي وتبعه فيها المؤرخون، وسمي بها؛ لأن كثيراً من أمور حياته جرت على ثمانية[٣]، وقيل إنه مثمن من اثني عشر وجهاً[٤]، منها:

أنه ولد سنة ١٨٠هـ/ ٧٩٦م.

وأنه الثامن من خلفاء بني العباس.

وأنه تولى الخلافة سنة ٢١٨هـ/ ٨٣٣م.

وولي ثمانية أعوام وثمانية أشهر.

(*) البذندون: قرية من بلاد الثغر بينها وبين طرطوس مسيرة يوم بها عين تسمى القشيرة شديدة الربوة جلس عليها المأمون فأضره بردها فأصابته حمى مات منها: انظر ياقوت: معجم البلدان مادة بذندون، وابن عبد المنعم الحميري: الروض المعطار، مادة بذندون.

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ ٢٢ ص ٢٦٠.

(٢) المقريزي: المقفى الكبير، جـ٧ ص ٣٦١.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٥٣١.

(٤) المقريزي: المقفى الكبير، جـ٧ ص ٣٦٦.

وتوفي عن ثمانين سنة، وثمان بنات.

وخلف من المال ثمانية ملايين دينار وثمانية ملايين درهم، وبنى ثمانية قصور.

وكانت له ثمانية فتوح كبرى، وهلم جرا.

وكان المعتصم أول خليفة أضيف إلى لقبه اسم الله تعالى، فتلقب بالمعتصم بالله وهو أول من لبس التاج وتزين بزي الأتراك، ورفض زي العرب، وترك سكنى بغداد وأخرج العرب من الديوان، وقطع عطاءهم، وأدخل الأتراك الديوان، وأثبت عطاءهم فيه، وآخر خليفة غزا بنفسه إلى دار الحرب[1].

وكان المعتصم قد تولي بعهد من أخيه المأمون، على الرغم من أن الرشيد قد أخرج أبا إسحاق (المعتصم) من الخلافة، فساقها الله إليه، وجعل خلفاء بني العباس من ولده[2]. استكثر المعتصم من اقتناء الغلمان الأتراك، وجعل منهم جنداً له، فضاقت بهم بغداد وأهلها وخاف المعتصم من الوقيعة بين غلمانه الأتراك وبين أهل بغداد فابتنى مدينة جديدة وسكنها هو وجنده من الأتراك والمغاربة، وقيل إنها سميت «سر من رأى»؛ لأن جنده سروا بها حين رأوها[3].

تخلص المعتصم من ابن أخيه العباس بن المأمون إبان عودته من غزوة عمورية سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م[4]، ومن ثم أقدم على جعل ولاية العهد لابنه هارون الواثق من بعده، فدفع إليه خاتم الخلافة وأقامه مقام الخلافة نيابة عنه

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٥٣١.

(٢) ابن ظافر الأزدي: أخبار الدول المنقطعة، جـ٢ ص ٣٥١.

(٣) النويري: نهاية الأرب، ٢٢/ ٢٤٦.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٩ ص ٧٧.

سنة ٢٢٤هـ/ ٨٣٨م[١].

فتح عمورية:

ولا ينسى التاريخ للمعتصم «فتح عمورية» سنة٢٢٣هـ/ ٨٣٧م يوم نادت باسمه امرأة عربية على حدود بلاد الروم اعتدى عليها فصرخت قائلة: «وامعتصماه»، فلما بلغه النداء كتب إلى ملك الروم: «من أمير المؤمنين المعتصم بالله إلى كلب الروم، أطلق سراح المرأة، وإن لم تفعل بعثت لك جيشاً أوله عندك وآخره عندي»، ثم أسرع إليها بجيش جرار قائلاً: «لبيك يا أختاه». وفي هذه السنة (٢٢٣هـ/ ٨٣٧م) غزا الروم وفتح (عمورية)، وسجل أبو تمام هذا الفتح العظيم في قصيدة رائعة.

هذا هو المعتصم رجل النجدة والشهامة العربية، كتب إليه ملك الروم كتاباً يتهدده فيه، فأمر أن يكتب جوابه، فلما قرئ عليه لم يرضه وقال للكاتب: اكتب.

«بسم الله الرحمن الرحيم... أما بعد: قد قرأت كتابك، والجواب ما ترى لا ما تسمع: ﴿وَسَيَعْلَمُ الْكُفَّارُ لِمَنْ عُقْبَى الدَّارِ﴾»[٢].

واحتجم المعتصم من علة أصابته في المحرم سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤١م لكنه لم يبرأ منها بل اشتدت علته حتى احتضر في ربيع الأول من هذه السنة فدفن في (سر من رأى)[٣] وتولى الخلافة بعده ابنه هارون.

(١) ابن الجوزي: المنتظم، جـ١١ ص ٨٨.

(٢) سورة الرعد آية ٤٢.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٩ ص ١١٨.

مرحلة القلق

هارون الواثق بالله:

هو أبو جعفر هارون بن المعتصم، ولد بطريق مكة سنة ١٩٦هـ/ ٨١١م، أمه أم ولد رومية تسمى قراطيس، أدركت خلافته وتوفيت في أول سنة منها، وقت خروجها للحج[(١)]. بويع الواثق بالله يوم وفاة أبيه المعتصم في ربيع الأول سنة ٢٢٧هـ/ ٨٤١م بعهد من أبيه فيما يبدو، إذ كان قد دفع إليه بخاتم الخلافة كما ذكرنا.

وسار الواثق على نهج المأمون في سياسته، فشغل نفسه بامتحان الناس في الدين وأفسد قلوبهم[(٢)]، وقيل إنه تاب عن القول بخلق القرآن قبل وفاته[(٣)].

وأهم حدث في سياسة الواثق الخارجية يتمثل في فداء عدد كبير من أسرى المسلمين لدى الروم[(٤)].

أما في الداخل فقد واجه بشدة ثورة القبائل القيسية، وأرسل إليهم جيشاً تمكن من الانتصار عليهم[(٥)].

وكان الواثق مهتما بالعلم والأدب حتى لقب بـ «المأمون الأصغر»؛ لأدبه وفضله. وكان شاعراً عالماً بالغناء والموسيقى، وكان أروى للشعر من المأمون،

---

(١) النويري: نهاية الأرب، جـ٢ ص ٤٨٣.

(٢) ابن الأثير: الكامل، ٥/ ٢٧٧.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٥٤٤.

(٤) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٣٦.

(٥) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٥/ ١٣٥- ١٤٠.

وقيل إن المأمون مزج بعلم العرب علوم الأوائل من النجوم والطب والمنطق، بينما كان الواثق لا يخلط بعلم العرب شيئا[١].

وكان من سياسته انتهاج العدل[٢]، فأحسن إلى العلماء وبالغ في إكرامهم، حتى لم يبق منهم فقير[٣]، وأغدق الأموال على أهل الحرمين حتى إنه لم يوجد في أيامه بالحرمين سائل، وكان يخفف عن الناس النكبات، فقسم في أهل بغداد قسماً كثيرة مرة بعد أخرى على أهل البيوت وعلى عامة الناس، وكثر الحريق ببغداد ففرق على قوم من التجار أموالاً جمة، وبنى لقوم دوراً، وأسقط ما كان يؤخذ ممن يرد في بحر الصين من العشر[٣]، وصادر الواثق بعض الكتاب ممن استغلوا مناصبهم لجمع الأموال، وكان يهدف بذلك إلى استعادة سلطان الخلافة على نهج الرشيد في نكبة البرامكة[٤].

وكان الواثق بالله أكولاً، وكان مسرفاً في التمتع بالنساء، وكان يطلب أدوية لتقوية الباه، فصنع له الأطباء دواء من لحم الأسد أسرف في تناوله فسبب له أمراضاً أصابته بعلة الاستسقاء، ومات منها في ذي الحجة سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م[٥] دون أن يعهد بالخلافة لأحد من بعده، فبويع بالخلافة أخوه جعفر بن المعتصم الذي يلقب بلقب المتوكل على الله، والذي تعد خلافته بداية العصر العباسي الثاني.

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ٥٤٥.

(٢) نفس المصدر جـ٧ ص ١٤٦.

(٣) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٩١.

(٤) ابن دقماق: الانتصار لواسطة عقد الأمصار، ص ١١٦.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

لقد بدأ العباسيون حكمهم بطرح شعارات العدل والمساواة والالتزام بكتاب الله وسنته.

استطاعت القيادة العباسية إبان عصرها الأول أن تحفظ كيان الدولة ووحدتها من التفكك والتمزق، وحافظت على رقعة الدولة الإسلامية، ما عدا الرقعة الأندلسية التي بقيت تحت سيطرة الأمويين.

مر العصر العباسي الأول بثلاث مراحل

(١) مرحلة التأسيس.

أ- أبو العباس السفاح:

- عمل على تصفية بقايا الأمويين وقضى على الثورات الداخلية.
- قام ببعض الفتوحات في الشمال والمشرق.
- تخلص من بعض أعدائه مثل أبي سلمة الخلال.

ب) أبو جعفر المنصور:

- يعتبر مؤسس الدولة العباسية في عصرها الأول، وقد قام بعد توليه الحكم بالتخلص من عمه عبد الله بن علي، وكذلك من أبي مسلم الخراساني، كما تخلص من عدة ثورات مثل المسلمية والراوندية.

بنى مدينة بغداد في العراق، وقام ببعض الفتوحات لغزو الروم والمغرب.

٢) مرحلة الاستقرار:

١ - محمد المهدي:

- واصل غزواته لأراضي الروم.

- كانت سياسته الداخلية تتميز بتوسيع المسجد الحرام والقضاء على الزنادقة، وأنصف المظلومين وبسط يده في إعطاء الأموال للرعايا.

٢- موسى الهادي:

كان يقظاً غيوراً شجاعاً، اشتد في طلب الزنادقة وقتلهم، ولم تدم خلافته طويلاً حيث قيل إن أمه دبرت لقتله؛ لأنه أراد خلع أخيه وتولية ابنه.

٣- هارون الرشيد:

كانت خلافته في غاية العظمة والفخامة، وكملت بكرمه وعدله وتواضعه وزياراته للعلماء في مواضعهم، وكان يصلى كثيراً ويتصدق كثيراً.

كان وزيره يحيى البرمكي، وقد قلده الكثير من الأمور حتى ارتفع شأن أسرته، ثم نكبّ بهم الرشيد؛ لاستبدادهم وتسلطهم، واتهمهم بالزندقة لذلك تخلص منهم.

وقد مر حكم الرشيد بثلاث مراحل:

مرحلة تولي أمه للحكم حتى ماتت، ومرحلة تولي وزيره البرمكي للحكم ومرحلة تولي الرشيد بنفسه أمور حكمه وتفقده لرعيته.

وكانت سياسته في الفتوحات تتمثل في عقد الهدنه مع الروم، حتى نقضها نقفور فأرسل إليه جيشاً جراراً قام بهدم حصونهم وهزيمتهم، ثم تعهدوا بدفع الجزية.

٤ - محمد الأمين:

لقب بالمترف لشدة انغماسه في الترف، وقد انشغل باللهو واللعب عن تدبير

شئون الدولة، فقامت فتنة انتهت بخلعه عن الخلافة.

٥- المأمون:

- كان فطناً ذكياً، قرأ العلم في صغره ونعته الناس بالعالم المحدث النحوي.
- كان وزيره الفضل بن سهل الذي أخذ البيعة له، ثم استبد بالأمور.
- كان يجلس للمظالم بنفسه، وكان يهتم بعلوم القرآن وحفظه، شغوفاً بالحديث وكذلك علوم الطب والنجوم، كما واصل الجهاد تجاه الروم.

٦- المعتصم بالله:

لقب بالمثمن وأضاف إلى لقبه اسم الله تعالى، كما لبس التاج، وترك سكنى بغداد وتزيا بزي الأتراك، وأدخل الأتراك الديوان وأثبت عطاءهم فيه، وأخرج منه العرب وقطع عطاءهم.

- تم في عهده فتح عمورية عندما استنجدت به امرأة، فقام بنجدتها وفتح الله على يديه تلك البلاد.

ج- مرحلة القلق:

هارون الواثق بالله:

- سار على نهج المأمون في سياسته، وقيل إنه تاب من القول بخلق القرآن، وأفدى كثيراً من أسرى المسلمين لدى الروم.
- أكرم العلماء، واهتم بالعلم، وانتهج العدل، ولكنه كان أكولاً يحب معاشرة النساء، فأسرف في تناول دواء من لحم الأسد أصابه بالاستسقاء فمات.
- تولى من بعده أخوه المتوكل على الله، والذي تعد خلافته بداية العصر العباسي الثاني.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

اكتب ما تعرفه عن:

١- الثورة العباسة.

٢- دور أبي مسلم الخراساني في قيام الدولة العباسية.

٣- أسباب بناء مدينة بغداد.

٤- دور البرامكة في العصر العباسي.

٥- أسباب بناء المعتصم لمدينة سامراء.

٦- أسباب نكبة البرامكة.

٧- دور الفرس في الدولة العباسية.

٨- موقف العلويين من الخلافة العباسية.

٩- دور بني سهل في العصر العباسي.

١٠- أثر الأتراك في الخلافة العباسية.

١١- أسباب الفتنة بين الأمين والمأمون.

١٢- عصر هارون الرشيد.

١٣- عصر المأمون.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- بنى السفاح مدينة بغداد. ( )

٢- بنى المنصور مدينة سامراء. ( )

٣- كان للفرس دوراً مؤثراً في قيام الدولة العباسية. ( )

٤- كافأ العباسيون أبا سلمة الخلال وأبا مسلم الخراساني. ( )

٥- عصر هارون الرشيد هو العصر الذهبي للخلافة العباسية. ( )

٦- كان الأمين مولعاً بالعلم والفقه والحديث. ( )

٧- فتح المعتصم بالله عمورية. ( )

٨- اهتم المأمون بحفظ القرآن وعلومه. ( )

٩- كان الواثق بالله أكولاً يحب النساء. ( )

١٠- قامت الخيرزان بقتل ولدها هارون الرشيد. ( )

١١- كانت نكبة البرامكة في عصر هارون الرشيد. ( )

١٢- كانت نكبة الفضل بن سهل في عصر السفاح. ( )

١٣- قضى المنصور على ثورة الراوندية. ( )

١٤- تخلص السفاح من عمه عبد الله بن علي. ( )

١٥- يعتبر المنصور هو المؤسس للدولة العباسية. ( )

١٦- كانت الأندلس في العصر العباسي تحت سيطرة الأمويين. ( )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- أشهر قواد العباسيين [أبو سلمة الخلال- أبو مسلم الخرساني- يحي البرمكي].

٢- بنيت مدينة بغداد في عهد [السفاح- المنصور- الرشيد].

٣- كان معظم الوزراء العباسيين من [العرب- الفرس- الأتراك].

٤- انتقل مركز الحكم إلى سامراء في عهد [المتوكل- الأمين- المعتصم].

٥- قام بالقضاء على الأمويين ونبش قبور أمواتهم [السفاح- المنصور- الهادي].

٦- اضطرت الإمبراطورة إيريني إلى طلب الصلح معه لمدة ثلاث سنوات، ودفع الجزية وله [المهدي- الهادي- الرشيد].

٧- كانت نكبة الفضل بن سهل في عصر [الأمين- الرشيد- المأمون].

٨- تم فتح عمورية في عهد [المعتصم- المتوكل- الرشيد].

٩- أرسل جيشاً جراراً لحرب نقفور ملك الروم وانتصر عليه [المعتصم- المنصور- الرشيد].

١٠- أفدى عدداً كبيراً من أسرى المسلمين لدى الروم [المعتصم- الرشيد- الواثق بالله].

١١- لقب بالمأمون الأصغر [المعتصم- المتوكل- الواثق].

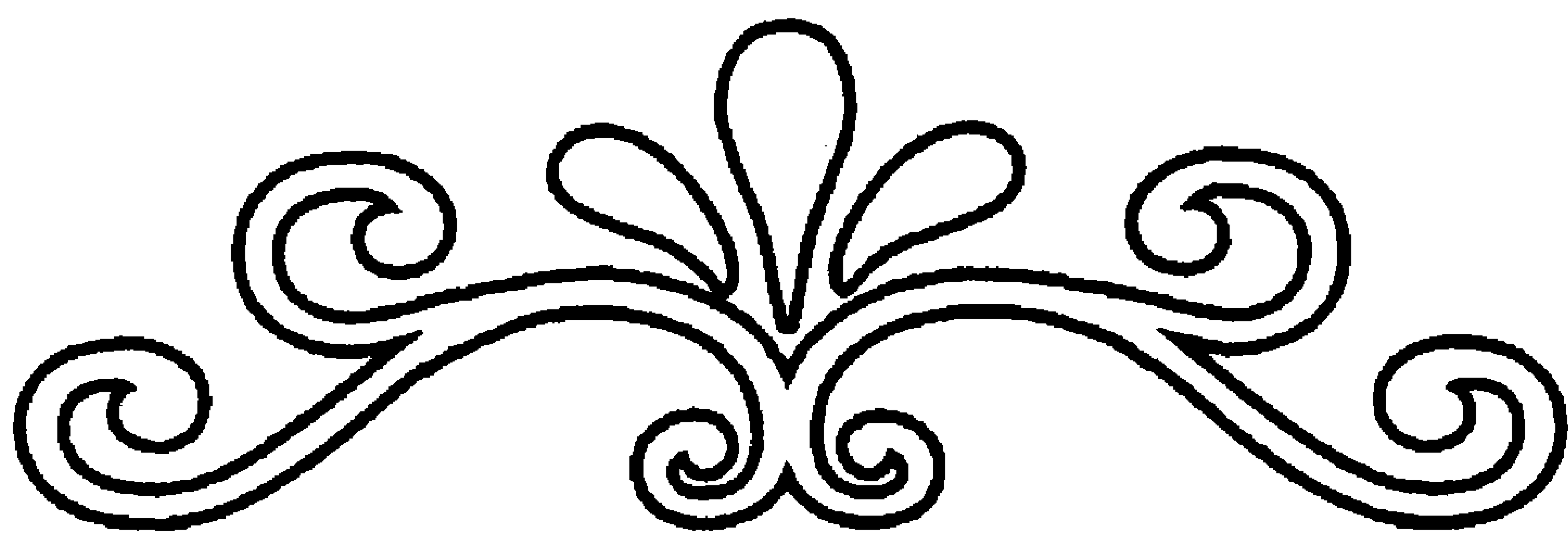
١٢- لم تدم خلافته أكثر من سنة وبضعة شهور، وقيل إن أمه تسببت في وفاته [المهدي- الهادي- الواثق].

النشاط التعليمي للوحدة الثالثة

عزيزي الدارس:

حتى تكتسب المزيد من المعلومات المتعلقة بموضوع هذه الوحدة نقترح عليك إنجاز النشاط التعليمي التالي:

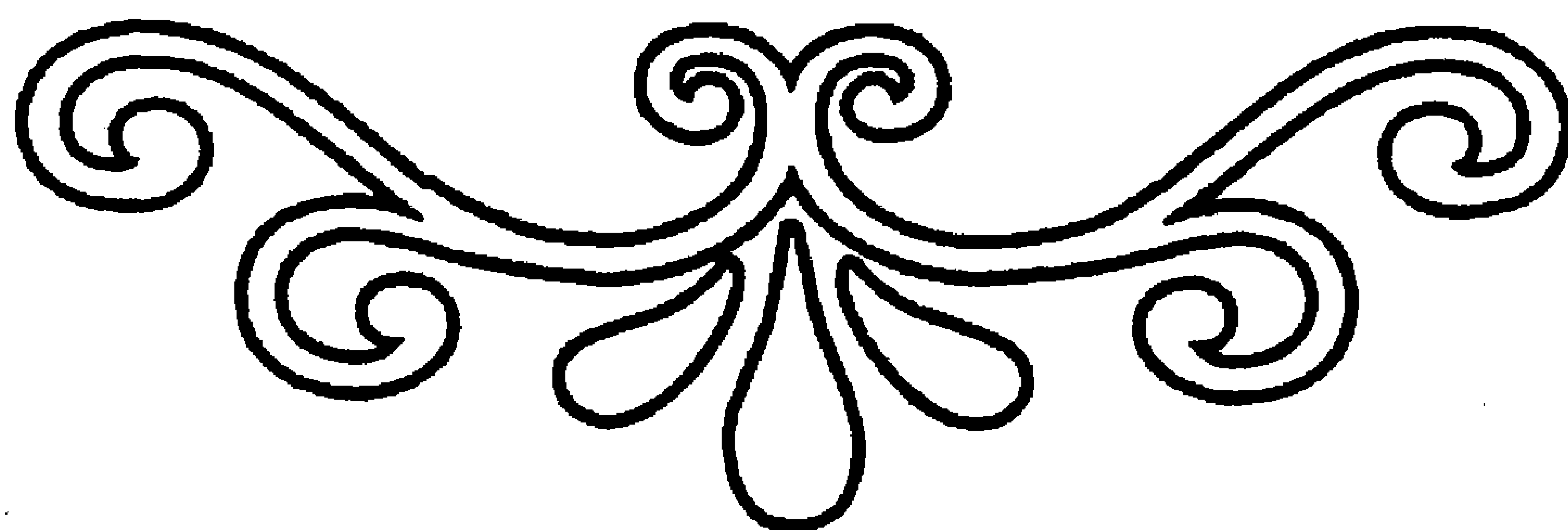
- اكتب بحثاً تاريخياً موثقاً في أحد الموضوعات التالية:
  - ١- دور الفرس في العصر العباسي الأول.
  - ٢- دور الأتراك في العصر العباسي الأول.
  - ٣- عصر هارون الرشيد.
  - ٤- عصر أبي جعفر المنصور.



الوحدة الرابعة

العصر العباسي الثاني

(٢٣٢- ٦٥٦ هـ/ ٨٤٦- ١٢٥٨م)



محتويات الوحدة الرابعة

العصر العباسي الثاني:

- المتوكل.
- المنتصر.
- المستعين.
- المعتز.
- المهتدي.
- المعتمد.
- المعتضد.
- المكتفي.
- المقتدر
- عصر الأمراء.
- انتهاء عصر الأتراك.

أهمية دراسة الوحدة:



بدأ العصر العباسي الثاني بخلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ، وقد اتسم هذا العصر بسيطرة أجناس غير عربية على السلطة دون الخلفاء، وأرغموا الخلفاء على النزول على أمرهم حتى وصل الأمر إلى التخلص منهم بالقتل والخلع.

وفي هذه الوحدة سنوضح أحداث تلك الحقبة في تاريخ الخلافة الإسلامية.



الأهداف التعليمية:

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١- تحلل أسباب التميز العنصري الذي ساد في العصر العباسي الثاني.

٢- توضح أسباب استيلاء الأتراك على الحكم.

٣- تناقش أسباب صحوة الخلافة في عهد المهتدي بالله.

٤- تذكر أسباب اضمحلال العصر التركي.

بدأ العصر العباسي الثاني بخلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م، وانتهى سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م بسقوط بغداد على أيدي المغول، وقتل الخليفة العباسي المستعصم بالله.

تميز العصر العباسي الثاني بسيطرة أجناس غير عربية على السلطة دون الخلفاء، ومن تلك الأجناس الأتراك والسلاجقة، وهم من الترك والمغاربة والديلم.

ومما لا شك فيه أن الإسلام لم يضق يوماً ما بجنس من الأجناس التي دخلت فيه وتمتعت بسماحة الإسلام واستظلت بظله، فقد دخل الفرس والروم والأتراك الإسلام في عهد الخلفاء الراشدين، وتمتعوا- جميعاً- بحياة هادئة، ظللتها شجرة الأخوة، وجنت ثمراتها اليانعة من المحبة والإيثار، وإنما كان ذلك يوم أن كان الخلفاء يعدلون في رعيتهم، ولا يفرقون بين عربي وأعجمي، ولا بين أبيض ولا أسود، وكان شعارهم "المؤمنون إخوة يسعى بذمتهم أدناهم، وهم يد للانتصار على من سواهم". أما بعد أن ضعفت سيطرة الدين على النفوس، وقرب الخلفاء أقواماً لمجرد العصبية والانتصار بهم؛ أصبحت هذه الأجناس تمثل خطراً حقيقياً على الدولة الإسلامية، حيث أخذت تتجمع في عنصرية مقيتة حرَّمها الإسلام، واعتبرها جيفة قذرة. يقول رسول الله ﷺ: «دعوها فإنها منتنة»[1].

ولأجل ضعف الوازع الديني في النفوس، ولأجل الضعف الذي أصاب المسلمين في فهم حقيقة الإسلام، ولأجل فقد الهيمنة الدينية على القلوب

(١) رواه مسلم.

أصبحت الناس لا تدرك معنى الأخوة ولا تشعر بسعادة المحبة، لأجل هذا أخذت هذه العناصر تتكتل في صورة تجمعات يكيد بعضها لبعض، ويتحين بعضها الفرصة للقضاء على الآخرين، وظهرت بالتوالي- فيما بعد المعتصم- جنسيات فرضت نفسها ليس على عامة المسلمين فحسب، ولكنها فرضت نفسها على السلطة وأرغمت الخلفاء على النزول على أمرها، حتى كانت تتخلص منهم بالقتل والخلع، ولم يكن هناك من يستطيع مقاومة هذه الموجة الطاغية. ومن هذه الأجناس الأتراك، والديلم، والسلاجقة.

لقد امتد العصر العباسي الثاني امتداداً طويلاً لنحو أربعة قرون ونصف قرن، منذ أن تولى المتوكل على الله الخلافة في ذي الحجة ٢٣٢هـ/ ٨٤٦م وحتى سقوط بغداد ومقتل المستعصم بالله آخر خلفاء بني العباس سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م. ولم تكن الخلافة العباسية في هذا العصر الطويل على حال واحدة من القوة والضعف، وإن غلب عليها الضعف في معظم فترات هذا العصر، ولذلك قسم الدارسون العصر العباسي الثاني إلى عدة فترات قد تُسمى عصوراً على سبيل المجاز، ويمكن أن نجعلها أربع فترات:

أولاً: عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢- ٣٣٤هـ/ ٨٤٦-٩٤٥م)

ثانياً: العصر البويهي (٣٣٤- ٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م)

ثالثاً: العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٩٠هـ/ ١٠٥٥-١١٩٣م)

رابعاً: انفراد الخلافة بالسلطة (٥٩٠- ٦٥٦ هـ/ ١١٩٣-١٢٥٨م)

أولاً: عصر نفوذ الأتراك (٢٣٢- ٣٣٤هـ/ ٨٤٦-٩٤٥م):

كان الموطن الأصلي للأتراك تركستان وبلاد ما وراء النهر، وقد تدرج

ظهور العنصر التركي في الدولة الإسلامية، فابتدأ ظهورهم في العصر الأمـوي، وعملوا بالخدمة في بيوت السادة مـن العـرب، إلا أن اتصـاف الأتـراك بـالقوة البدنية والشجاعة هيأ لهم السبيل إلى الجندية، فظهرت نواة بسيطة منهم في بلاط أبي جعفر المنصور[١] وكان المأمون يعمل عـلى تجنيـدهم، فيوجـه رسـلاً إلى مـن أسلم منهم فيلحقون من أراد منهم الجهاد في الديوان[٢]، وكان الأتراك يجلبـون إلى بغداد إما بطريق الأسر في الحروب أو بطريق الشراء، ومنهم مـن أُتي بـه مـع الهدايا التي كان ولاة ما وراء النهر يرسلونها إلى الخلفاء العباسيين، من ذلك مـا كان من إهداء عامل بخارى غلاماً تركيا إلى المأمون يسمى طولون ؛ كـان هـو والد أحمد بن طولون مؤسس أول إمارة مستقلة في مصر الإسلامية.

غير أن انهيار السيل التركي على الدولة العباسية لم يبدأ حقيقة إلا في خلافة المعتصم الذي اعتمد على الأتراك اعتمادا رئيسا في تكوين جيشه، وجلـبهم مـن بلاد ما وراء النهر في أعداد كبيرة؛ حتى صار جـل عسـكره مـن أهـل مـا وراء النهر، من الصغد والفراغنة والأشروسنة و أهل الشام.

تولى الخلافة بعد المعتصم ابنه الواثق سنة٢٢٧هـ/ ٨٤١م؛ فاقتدى بأبيه في الإكثار من الترك والاعتماد عليهم، وفتح الطريق أمامهم إلى الحكـم، وصـارت المناصب العليا بأيديهم، وزاد نفوذهم حتى أنه استخلف على السـلطنة أشـناس التركي، وهو أمر لم يحدث من قبل في الخلافة على حد قول السيوطي[٣]، وأقطع

(١) محمد توفيق خفاجي: أثر الأتـراك السـياسي والاجتماعـي، رسـالة ماجسـتير- كليـة الآداب- جامعـة القاهرة، ص٧.

(٢) البلاذري: مصدر سابق، ٣/ ٥٢٩.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٣٥.

الواثق كلاً من أشناس وإيتاخ معظم الدولة الإسلامية؛ لكـن أشـناس لم يغـادر سامراء فظل مقيماً بها، وأناب عنه عـمالاً عـلى الجهـات التـي شـملها إقطاعـه؛ فأحدث بذلك نظاما لحكم الولايات سوف يكون له أثر واضح في مسار الدولة العباسية لاحقاً.

خلافة المتوكل (٢٣٢- ٢٤٧هـ/ ٨٤٦-٨٦١م):

توفي الواثق في سن مبكرة دون أن يعهد بالخلافة لأحد مـن بعـده، فـانتهز الأتراك الفرصة ليمسـكوا بزمـام الأمـور، فبـايعوا المتوكـل بالخلافـة، وتزايـد نفوذهم في عهده، وهيمن إيتاخ رأس الترك وقتئذ على الجيش الذي كان يتكون من المغاربة والترك والموالي والبربر، وعلى الحجابـة، ودار الخلافـة، حتـى تـبرم المتوكل من سلطانه دون أن يستطيع له دفعاً، وبات يهذي في خلواته، وعربـد في إحداها بإيتاخ الذي هم أن يقتله لولا أن اعتذر له المتوكل اعتذاراً شديداً[١]، ولم يستطع المتوكل الخلاص من إيتاخ إلا بحيلة؛ حينما خـرج إيتـاخ للحـج فأحـل وصيفاً محله في الحجابة، ولما عاد إيتاخ من الحج أوعز إلى عامل ببغداد بقتله سـنة ٢٣٥هـ/ ٨٤٩م[٢].

لم يضعف قتل إيتاخ من شأن الأتراك وإنما أوغر صـدورهم عـلى المتوكـل فاشتدت كراهيتهم له، حتى إنه فكر في نقل حاضرة الخلافة بعيداً عن نفوذهم، وفكر في الانتقال إلى دمشق لعله يجد في عرب الشام من يعينـه عـلى الخـلاص مـن استبداد الترك[٣].

(١) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ص٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل، جـ ٧ ص٣٠.

(٣) أحمد أمين: ظهر الإسلام، ص١٠.

فرحل إلى دمشق سنة ٢٤٤هـ/ ٨٥٨م وعزم على المقام فيها[1]، وكان من شأن هذه الخطوة لو تمت أن يستعيد العرب زمام الأمور ويقصوا الأتراك عن مكان الصدارة، لكن الأتراك فطنوا لخطورة هذه الخطوة عليهم فثاروا بحجة المطالبة بأرزاقهم فأمر لهم المتوكل بما أرضاهم حتى يكمل مشروعه، إلا أن عرب الشام لم يفطنوا لما يمكن أن يعود عليهم من انتقال المتوكل فشغبوا عليه وطالبوه بالأعطيات، فعدل المتوكل عن فكرته وعاد إلى سامراء بعد ثلاثة أشهر متعللا بسوء المناخ ليحفظ ماء وجهه[2]، مع أنه لم ينزل دمشق نفسها وإنما نزل بالقرب منها[3].

ولم يعدل المتوكل عن فكرة الابتعاد عن سامراء فأمر بعد عودته ببناء مدينة جديدة تسمى المتوكلية أو الجعفرية[4]، ولكن فكرة الانتقال عن سامراء كانت كافية بقطع الشعرة الأخيرة في العلاقة بين المتوكل والأتراك، فتربص كل منهما للآخر وحيكت المؤامرات للإيقاع به[5].

شهد عهد المتوكل اضطرابات قوية في أرمينيا وأذربيجان، كما قامت في صنعاء باليمن حركة انفصالية استطاعت أن تستقل بنجد سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م وأسست دولة عرفت بالدولة اليعفرية نسبة إلى يعفر بن عبد الرحيم، واستمرت هذه الدولة قائمة حتى سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م.

---

(١) ابن مسكويه: تجارب الأمم، جـ٦ حوادث سنة ٢٤٤هـ.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٩/ ٢١٠.

(٣) المسعودي: مروج الذهب جـ٤ ص ٢١٠.

(٤) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، جـ٩ ص ٢١٢.

(٥) النويري: نهاية الأرب جـ٢٢ ص ٢٩٤.

استمرت العلاقات العدائية بين العباسيين والبيـزنطيين، فقـام العباسـيون على عادتهم بغزواتهم الصـائفة لـبلاد الـروم الـذين أغـاروا عـلى دميـاط سـنة ٢٣٨هـ/ ٨٥٢م وتواصل الفداء بين الطـرفين عـام ٢٤١هــ/ ٨٥٥م عـلى نهـر اللامس، كما تبادل الطرفان الفداء سنة ٢٤٦هـ/ ٨٦٠م[١].

كان المتوكل قد عهد بولاية العهد لأبنائه: المنتصر، فـالمعتز، فالمؤيـد[٢]، إلا أنه أراد تقديم المعتز على المنتصر لمكانة أمه قبيحة من قلبه من ناحيـة، ولقيـام آل خاقان (الفتح وأخيه عبيد الله) بالـدس عـلى المنـتصر عنـد المتوكـل مـن ناحيـة أخرى[٣]، فانتهز الأتراك الفرصة وحرضوا المنتصر على قتل أبيه المتوكل، فقتـل في مدينته المتوكلية سنة ٢٤٧هــ/ ٨٦١م[٤]؛ لتخـرب المدينـة وتتعطـل عمارتهـا وينصرف الناس عنها إلى سامراء.

كان قتل المتوكل سابقة خطيرة لم تقتصر آثارها على قتله فقط، وإنما طغـت هذه الآثار على اللاحق من تاريخ العباسيين، لقد كانـت هـذه الحادثـة الخطـيرة تعني القضاء على سلطة الخلافة، وكانت بمثابة إنذار عام وجه إلى كافـة خلفـاء بني العباس أن يرضخوا لمشيئة الأتراك، وإلا سينالوا نفس مصير المتوكل.

لقد كانت هذه الحادثة تعني مصرع الخلافة وبزوغ نجم الأتراك.

---

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٩/ ١٧٥- ١٨١.

(٢) ابن الأثير: الكامل جـ٧ ص ٢٩٤.

(٣) ابن مسكويه: تجارب الأمم، جـ٦ حوادث سنة ٢٤٤هـ.

(٤) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٥/ ٥٣.

خلافة المنتصر (٢٤٧- ٢٤٨هـ/ ٨٦١-٨٦٢م):

ما إن نجحت مؤامرة قتل المتوكل التي دبرها الأتراك بالاشـتراك مـع ابنـه محمد المنتصر حتى بويع لخلافة المنتصر سنة ٢٤٧هـ/ ٨٦١م، لكنه لم يبـق فيهـا أكثر من ستة أشهر بسبب وفاته سنة ٢٤٨هـ/ ٨٦٢م.

أمر الأتراك الخليفة المنتصر أن يخلع أخويه المعتز والمؤيد من ولايـة العهـد خشية انتقامهما إذا تولى أحدهما الخلافة، فخلعهما سنة ٢٤٨هـ/ ٨٦٢م[1].

ويبدو أن المنتصر أحس بالخطر المحدق به من ناحيتهم فحاول النيـل مـنهم وسبهم وتحرز منهم خوفاً مـن تـآمرهم عليـه، إلا أنهـم لم يقبلـوا انقلابـه علـيهم ونجحوا في الدس له وتآمروا عليه مع طبيبه ابن طيفور فأماتـه بالسـم بعـد سـتة أشهر فقط من توليه الخلافة[2]. ولم يعهـد بالخلافـة لأحـد بعـده، فـاجتمع قـواد الأتراك الذين أصبحوا وحدهم أصحاب الأمر والنهي فبايعوا المستعين بالله[3].

خلافة المستعين بالله (٢٤٨- ٢٥١هـ/ ٨٦٢-٨٦٥م):

بويع المستعين بالله بالخلافة يوم وفاة المنتصر بالله بعد أن صمم الأتراك على توليته ولم يكن له نفوذ أمام سلطة الأتراك، الذين تزايـدوا في عهـده واسـتأثروا بالسلطة دونه[4]، فتحفز المستعين ضدهم ولجـأ إلى الوقيعـة بيـنهم فَقُتِـل «بـاغر» التركي -أحد قتلة المتوكل- بأمر بغا ووصيف؛ لكـن سـلاح الوقيعـة ارتـد إلى

(١) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٩/ ٢٤٤.

(٢) نفس المصدر، ٩/ ٢٥٦.

(٣) الطبري: تاريخ الرسل والملوك، ٩/ ٢٥٦.

(٤) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، جـ٧ ص٥٢.

نحر المستعين بالله، فتآمر عليه جماعة من الأتراك فخشى غدرهم وانحدر عن سامراء إلى بغداد، وعبثاً حاول الأتراك أن يعيدوه إلى سامراء وفشلوا في استرضائه والاعتذار له، فعادوا إلى سامراء وبايعوا فيها بالخلافة المعتز بالله، ونشأ عن ذلك موقف هزلي إذ توج خليفتان من بني العباس، ووقفت بغداد في وجه سامراء، ودارت رحى الحرب بين أنصار العباسيين، حتى رأى المستعين أن يحقن الدماء فتنازل عن الخلافة في مستهل سنة ٢٥٢هـ/ ٨٦٦م، ورحل إلى واسط، لكن الأتراك لم يغفروا له ما أقدم عليه من معارضة لهم فقتلوه.

خلافة المعتز بالله (٢٥١- ٢٥٥هـ/ ٨٦٥-٨٦٨م):

بويع المعتز بالله بالخلافة عقب خلع المستعين بالله، ولم يكن في سيرته ورأيه وعقله بأس، إلا أن الأتراك رأوا أن يجنوا ثمار توليتهم له؛ فضيقوا عليه؛ لأنه عمل على الخلاص من رؤسائهم، فثاروا عليه مطالبين بأرزاقهم، فطلب من أمه «قبيحة» مالاً لينفقه فيهم فشحت نفسها عنه، واجتمع الأتراك على خلعه، فهاجموا دار الخلافة وأخرجوه منها وضربوه وأجبروه على التخلي عن الخلافة ثم قتلوه[1].

خلافة المهتدي بالله (٢٥٥-٢٥٦هـ/ ٨٦٨-٨٦٩م):

تولى الخلافة المهتدي بالله بن الواثق بعد مقتل أخيه المعتز بالله، لكن العوام في بغداد رفضوا مبايعته وأعلنوا الثورة عليه، فما كان منه إلا أن أغرى بعضهم بالمال وأخمد ثورتهم.

---

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص ١٩٧.

كان المهتدي بالله يتشبه بعمر بن عبد العزيز، فحرم الغناء والشراب ومنع أصحابه من الظلم والتعدي[١]... ولكنه لم يسلم من الأتراك، فلجأ إلى الوقيعة بينهم، وأظهر تحدياً لجبروتهم، لكنهم اجتمعوا على قتله فقاتل دونه جند الخليفة قتالاً لا بأس به، ولكن الأتراك انتصروا عليه في النهاية وأسروه وقتلوه[٢].

صحوة الخلافة (٢٥٦- ٢٩٥هـ/٨٦٩-٩٠٧م)

خلافة المعتمد (٢٥٦- ٢٧٩هـ/٨٦٩-٨٩٢م):

كانت وقفة المهتدي بالله في وجه الأتراك -رغم فشلها- بارقة أمل في أن تنهض الخلافة من كبوتها وتستعيد بعضاً من سلطانها المفقود، وقد خطت الخلافة في هذا الطريق خطوة موفقة في عهد الخليفة المعتمد على الله، ولم يكن ذلك بيد المعتمد ولكنه كان على يد أخيه أبي أحمد الموفق طلحة الذي حدَّ كثيراً من استبداد الترك وحمى الخلافة العباسية من بعض الأخطار التي أحدقت بها، مثل خطر الزنج، وانتهج سياسة عامة تهدف إلى إعلاء شأن الخلافة وتقوية سلطتها المركزية.

إلا أن الموفق طلحة ضيق على أخيه الخليفة المعتمد تضييقاً شديداً[٣]،بسبب انغماسه في الملذات،فأدى ذلك إلى كراهية الناس للمعتمد، فلما ضاق المعتمد بالله بحجر الموفق بالله عليه، عزم على الهروب من وجهه، فكاتب أحمد بن طولون حاكم مصر حينذاك ليلقاه في دمشق وليحتمي به من الموفق، لكن الموفق أفسد تلك المحاولة للهروب التي لو نجحت لأدت إلى أن تصبح مصر مقراً للخلافة

---

(١) المصدر السابق، ص١٩٩.

(٢) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٤٥.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٤٨.

العباسية، ولتغير حتماً وجه التاريخ العباسي.

خلافة المعتضد بالله (٢٧٩- ٢٨٩هـ/٨٩٢-٩٠١م):

خلف المعتمد في الخلافة ابن أخيه أبو العباس أحمد بن الموفق طلحة سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، وقد تلقب أبو العباس بالمعتضد بالله، وأكمل المعتضد سياسة أبيه الموفق طلحة في توطيد سلطة الخلافة العباسية، ونجح في ذلك نجاحاً عظيماً، وجدد ملك بني العباس بعد أن كاد يزول[1]، وسُمي المعتضد بالسفاح الثاني تشبيهاً له بعمه أبي العباس السفاح أول خلفاء الدولة العباسية.

وكان شهماً عاقلاً فاضلاً، حمدت سيرته، ولي والدنيا خراب والثغور مهملة، فقام قياماً مرضياً حتى عمرت مملكته وكثرت الأموال وضبطت الثغور.

وكان قوي السياسة شديداً على أهل الفساد، حاسماً لرد أطماع عساكره عن أذى الرعية. والواقع أن الخلافة العباسية شهدت صحوة عظيمة على يد المعتضد الذي أعاد سيرة الخلفاء العظام في العصر العباسي الأول، وزاد من قيمة هذه الصحوة أنها لم تقتصر على خلافة المعتضد للذي حكم نحو عشر سنوات ليتوفى سنة ٢٨٩هـ/ ٩٠١م وليخلفه ابنه المكتفي بالله فيسير على نهجه حتى وفاته سنة ٢٩٥هـ/ ٩٠٧م، فكأن هذه الصحوة قد استمرت أكثر من ثلث قرن منذ أن استقدم المعتمد أخاه الموفق من مكة وعهد إليه بتسيير أمور الخلافة سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م حتى وفاة المكتفي بالله.

صاحب صحوة الخلافة ضعف نفوذ الأتراك، فقد أخضع الموفق وابنه

---

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٠٧.

المعتضد بالله الأتراك، وكبح جماحهم، وجعلا منهم خداماً للدولة، كما كان شأنهم في عهد المعتصم[١].

خلافة المكتفي بالله (٢٨٩- ٢٩٥هـ/٩٠١-٩٠٧م)

لم يكن المكتفي أقل كفاءة من أبيه وجده، لكن خلافته لم تطل أكثر من ست سنوات ونصف، فمات من مرض أصابه، ولم يتخط الثالثة والثلاثين[٢]، وكان المرض قد اشتد عليه قبيل وفاته حتى أذهب عقله، وأُخِذَ خاتمه من يده وهو لا يعقل شيئاً[٣]، فتهيأت الفرصة أمام الوزير العباس بن الحسن أن يسوق الخلافة إلى صبي خوفاً من أن يتولاها رجل يباشر الأمر بنفسه فلا يحتاج إليه[٤]، فأوهم للمكتفي وهو في أشد المرض لا يعي شيئاً من حوله أن أخاه جعفر بن المعتضد بالغ راشد؛ مع أنه لم يكن قد تجاوز الثالثة عشرة من عمره، فأحضر القضاة وأشهدهم بأنه جعل إليه العهد من بعده، فتولى الخلافة وتلقب بالمقتدر بالله.

خلافة المقتدر بالله (٢٩٥- ٣٢٠هـ/٩٠٧-٩٣٢م):

عدل الأتراك عن سياسة تولية الخلافة لخلفاء أكفاء من أمثال المعتضد والمكتفي؛ لأنهم لم ينالوا معهم أدنى نفوذ، واتجهوا إلى تولية خلفاء ضعاف عديمي الكفاءة يسهل التسلط عليهم[٥]، فاختاروا المقتدر بالله غضاً غريراً

---

(١) أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي (قسم ٢ ص ٣٥٧).

(٢) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٢ ص ٢٦.

(٣) عريب بن سعد: صلة تاريخ الطبري ص ٢٦.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٣ ص ٢٤.

(٥) أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، قسم ٢ ص ٣٥٨.

فساءت أحوال الدولة في عهده وتدخلت النساء في الحكم[١]، وأصبح الأمر والنهي بيد أمه (شغب) التي كانت تسمى «السيدة»؛ لقوة سلطانها الذي بلغ حد أن عينت قهرمانتها صاحبة للمظالم، وأدى تدخل النساء في شئون الدولة إلى ضعفها واستهتار العامة بها، فانتشرت الفتن في عهد المقتدر، وخرج عليه مؤنس الخادم وخلعه سنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م، وعين بدلاً منه أخاه القاهر بالله الذي عجز عن إعطاء الجند أرزاقهم فثاروا عليه وخلعوه وأعادوا المقتدر إلى الخلافة مرة أخرى.

لكن مؤنساً عاد للثورة على المقتدر وقتله سنة ٣٢٠هـ/ ٩٣٢م بعد أن تولى الخلافة خمساً وعشرين سنة، وهي فترة لم يسبقه إليها أحد من قبل من بني العباس ويبدو أن ضعفه كان مناسباً للأتراك في الاستبداد بالسلطة فأبقوا عليه هذه المدة الطويلة، لكن الدولة العباسية لم تجن من ورائه إلا التدهور، فهوت إلى الحضيض وفقدت كثيراً من ولاياتها شرقاً وغرباً، وتلاشت هيبة الخلفاء تماماً، وفسدت أخلاق الناس وتفرقوا شيعاً وأحزاباً متطاحنة[٢].

عصر الأمراء (٣٢٢- ٣٣٤هـ/٩٣٣-٩٤٥م):

بويع بالخلافة بعد المقتدر أخوه القاهر مرة أخرى، وصفه المؤرخون بأنه كان مهيباً مقداماً على سفك الدماء، أهوج، محباً للأموال، رديء السياسة، لكنه لم يمكث أكثر من سنة ونصف؛ فشغب عليه الجند وقبضوا عليه وسملوا عينيه سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م[٣] فكان أول خليفة من بني العباس تسمل عيناه[٤]،

---

(١) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص ١٥٤.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي والديني والثقافي والاجتماعي، ص ٢٣.

(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٥٦.

(٤) النويري: نهاية الأرب، جـ٢٣ ص ١٢٠.

وأصبحت سنة ينتهجها الأتراك مع من يريدون عزله من الخلفاء.

وسمل الأعين هذه عادة أخذها المسلمون عن البيزنطيين(١).

وعينَّ الأتراك الراضي بالله، وهو الذي استحدث نظاماً جديداً في الحكم عرف بإمرة الأمراء، كان له أسوأ الأثر على الدولة العباسية(٢).

أدى ازدياد نفوذ الأتراك إلى ضعف سلطة الوزراء وتدهور شأنهم تدريجياً إلى أن أنقص الخلفاء اختصاصاتهم في أوائل القرن الرابع الهجري، وأخذوا إقطاعاتهم، وأجروا لهم أرزاقاً ثابتة تفاوتت من حين لآخر، ولم يعد للوزير دار خاصة به في قصر الخلافة، وإنما أصبح يجلس في دار الحاجب منذ عام ٣١٢هـ/ ٩٢٤م.

وانحصرت الوزارة آنذاك في أسر محدودة يتوارث أبناؤها الوزارة، وأشهر هذه الأسرات: آل خاقان، وآل الفرات، وبنو وهب، وإذا كان بعض وزراء عصر نفوذ الأتراك قد تمتعوا بكفاية إدارية، فلم يكن لأحد منهم نصيب من الكفاءة الحربية اللهم إلا الحسن بن مخلد وزير المعتضد بالله، في فترة تقلص فيها نفوذ الأتراك، إذ يبدو أن قواد الأتراك لم يسمحوا أن يتولى الوزارة أحد أرباب السيوف حتى لا يقضي على نفوذهم(٣).

استوزر المقتدر في خلافته الطويلة اثني عشر وزيراً، منهم من وزر له المرتين والثلاث، فأضعفت كثرة تغيير الوزراء من شأن الوزارة، ومع ذلك فقد ظهر في وزراء المقتدر بعض أصحاب الكفاية كأبي الحسن علي بن الفرات،

(١) آدم متز: الحضارة الإسلامية في القرن الرابع الهجري جـ١ ص ٢٦.

(٢) النويري: نهاية الأرب ٢٢/ ١٢٠.

(٣) محمد بركات البيلي: الدولة العباسية، ص ١٩٨.

كذلك ظهر فيهم قليلوا الكفاءة الذين كانوا يدفعون الأموال للخلفاء ليولـوهم الوزارة، كحامد بن العباس وأبي علي بن محمد بن مقلة الذي وزر للمقتـدر ثـم للقاهر ثم للراضي بالله[١].

تولى الراضي بالله الخلافة بعد القاهر سنة ٣٢٢هـ/ ٩٣٣م- كـما سـبق أن ذكرنا- وفي عهده عجز الوزراء عن إدارة شئون الدولة؛ لضعفهم وقلة كفايتهم من ناحية ولازدياد نفوذ قواد الأتراك من ناحية أخرى.

ولما تولى الوزارة محمد بن القاسم الكرخـي عجـز تمامـاً عـن إدارة شـئون الدولة واضطر للاختفاء حتى لا يلحق به أذى الناس، فاستوزر الراضي سليمان بن الحسن بن مخلد فعجز هو الآخر عن إدارة شئون الدولة[٢]، وبدا واضـحاً أن الوزراء لم يعودوا يقدرون على تسيير الأمور.

فرأى الراضي أن ينشئ سلطة جديدة تعلو سلطة الوزراء، ويكون صاحبها رجلاً قوياً يستطيع ضبط أمور الدولة، ووجد الراضي في محمد بن رائق الخزري أمير واسط والبصرة رجلا يصلح لهذه المهمة، فاستماله إليه وسلم إليه مقاليد الأمور، ولقبـه أمـير الأمراء، وأمر أن يخطب له على المنابر بعد اسم الخليفة [٣]، فحكـم الـبلاد وبطـل أمـر الوزراء والدواوين، وتولى هو الجميع، وكاتبه الملوك، وصـارت الأمـوال تحمـل إليـه وبطلت بيوت المال، وبقي الراضي معه صورة ولـيس لـه مـن الخلافـة إلا الاسـم[٤]

---

(١) المرجع السابق.

(٢) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ص٢٧.

(٣) ابن خلدون: المقدمة، ص٨٣٩.

(٤) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٥٧.

كذلك لم يعد للوزير من الوزارة إلا الاسم، واقتصر عمله على الحضور إلى دار الخلافة في أيام المواكب مرتدياً شعار السواد[١].

غير أن نفوذ ابن رائق ما لبث أن ضعف في سنة ٣٢٦هـ/ ٩٣٧م من جراء منافسة الأتراك له، وقد حاربه أبو عبد الله البربري ثم خرج عليه قائده بجكم التركي، وأحل الهزيمة به وحل محله في إمرة الأمراء، إلا أن بجكم ما لبث أن اغتيل على يد جماعة من الأكراد كان قد انتهب أموالهم... فولي المتقي بالله إمرة الأمراء كورتكين الديلمي[٢]، وصادر المتقي أموال بجكم وكانت تزيد على مليون دينار[٣].

إلا أن وفاة بجكم فتحت الباب على مصراعيه للتنافس على إمرة الأمراء، فقد عاد محمد بن رائق إلى بغداد، وحارب كورتكين وهزمه، فقلده المتقي إمرة الأمراء مرة أخرى[٤]... لكنه لم يهنأ بها طويلاً، إذ حاربه البريديون وهزموه، فهرب ابن رائق ومعه الخليفة المتقي إلى الموصل، واستنجد المتقي ببني حمدان[٥] فطمع الحسن بن حمدان في إمرة الأمراء، فقام باغتيال ابن رائق، ثم انحدر مع المتقي إلى بغداد؛ لقتال البريديين وطردهم من بغداد فلقبه المتقي بناصر الدولة، وولاه إمرة الأمراء، وقلد توزون شرطة بغداد[٦].

---

(١) حسن إبراهيم حسن: مرجع سابق، ص٢٨.
(٢) ابن مسكويه: تجارب الأمم، ص١٩.
(٣) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص ١٥٨.
(٤) مسكويه: تجارب الأمم، ص١٩-٢٢.
(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء، ص١٥٨.
(٦) ابن مسكويه: تجارب الأمم، جـ٦ ص٢٨.

لم تكن حال الخليفة مع بني حمدان بأحسن منها مع الأتراك، إذ ضيق ناصر الدولة الحمداني على الخليفة المتقي واستهان به واستأثر دونـه بالسـلطة، واشـتد على الناس حتى فضلوا عليه البريديين رغم سوءاتهم[1]، ويبدو أن ناصر الدولة الحمداني أحس بكراهية البغداديين له، فغادر بغداد بعد عـام واحـد، وعـاد إلى الموصـل، فـانتهز «تـوزون» الفرصـة، وبسـط سـلطانه عـلى بغـداد سـنة ٣١٣هـ/ ٩٢٥م بعد أن هزم البريـديين في واسـط فخلـع عليـه الخليفـة المتقـي وولاه إمرة الأمراء.

وسرعان ما ساءت العلاقة بين توزون والمتقي، فاستنجد المتقـي بنـاصر الدولـة الحمداني وذهب إليه ليحتمي به، لكن توزون هزم ناصر الدولة، فكاتب المتقي محمـد بن طغج الإخشيد أمير مصر مستنجداً به، وشجعه الإخشـيد عـلى أن يسـير معـه إلى مصر ليلقى فيها الحماية والاحترام.

ومرة أخـرى كـان يمكـن لمصر أن تصـبح مقـر الخلافـة العباسـية، وأن يتغـير وجه التاريخ العباسي لولا أن المتقي مال إلى مصالحة توزون وعاد إلى بغداد في المحـرم سـنة ٣٣٣هـــ/ ٩٤٤م، فقـبض عليـه تـوزون وسـمل عينيـه، وحبسـه، وخلعـه من الخلافة، وبايع بعده المستكفي بالله.

أقر المستكفي بالله توزون على إمرة الأمراء، إلا أن توزون لم يلبث أن تـوفي في سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، فخلفه في إمرة الأمراء كاتبه أبو جعفر شيرزاد الـذي لم يقل تعسفاً بالخلافة عمن سبقه ممن تقلد إمرة الأمراء، واستمال الأتـراك بزيـادة أرزاقهم، وزاد في الضرائب على الناس، وصادر الأموال، وعجزت الشرطة عن

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام السياسي، ص٣١.

الضرب على أيدي اللصوص والمفسدين فضاعت هيبة الحكومة.

وعجز ابن شيرزاد عن معالجة الأمور بعد تقلده إمرة الأمراء، فتخفى بعد أن تقلد إمرة الأمراء ثلاثة وعشرين يوماً فقط، فدعى قواد بغداد أحمد بن بويه إلى المجيء إليهم، فخرج من الأهواز قاصداً بغداد فأتاها في ١١ جمادى الأولى ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م حيث لقيه الخليفة المستكفي بحفاوة وخلع عليه وقلده إمرة الأمراء ولقبه معز الدولة.

وبايع معز الدولة البويهي المستكفي بالخلافة، ولقب الخليفة أخوي معز الدولة تكريماً لهم، فلقب علي بن بويه بعماد الدولة، ولقب الحسن بن بويه بركن الدولة، فكان ذلك فاتحة عصر جديد في التاريخ العباسي هو العصر البويهي الذي أنهى عصر نفوذ الأتراك، واستعاد الفرس زمام السلطة مرة أخرى بواسطة الديالمة، ويضمحل نفوذ الترك إلى أن يستعيد العنصر التركي مواقعه على يد السلاجقة.

وهكذا رأينا أن نظام إمرة الأمراء الذي أنشأه الراضي[1] لم يُقل الدولة العباسية من عثرتها، ولكنه ألحق بها أبلغ الضرر وأدى بها إلى الهوان والانحطاط، وعانت الخلافة من تسلط الأمراء وفقد الوزارة مكانتها فكانت الدولة في أسوأ ما يكون من أحوال.

---

(١) قيل: إن الخليفة المقتدر أول من أنشأ إمرة الأمراء، إذ ذكر ابن مسكويه أنه عَهِدَ إلى هارون بن غريب بإمرة الأمراء سنة ٣١٦هـ لكن هذا النظام لم يصبح نظاماً مؤصلاً ذا قواعد إلا في عهد خلافة الراضي بالله.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

بدأ العصر العباسي الثاني بخلافة المتوكل سنة ٢٣٢هـ، وقد بـدأت وحـدة الكيان الإسلامي تتفكك وتتمزق وغدت الدولة العباسية نفسها جزيرة منعزلة وسط بحر مضطرب من الكيانـات الإقليميـة، واسـتشرت في أطـراف الدولـة النزعة الاستقلالية عن قلبها.

وبدأت الدولة العباسية تفقد نفوذهـا كقـوة مركزيـة في التعامـل الـدولي، وأصبح موقفها هو موقف الدفاع دائماً غير قادرة على صد الضربـات المكالـة في معظم الأحيان.

وقد اتسم هذا العصر بسيطرة الأتراك الذين كانوا يجلبون إلى بغداد بطريق الأسر في الحروب، أو بطريق الشراء أو الهدايا، وقد اسـتعملهم خلفـاء الـعصر الأول في الجنديـة والخدمـة، إلا لأنـه بـدأ الاعـتماد علـيهم في خلافـة المعتصـم والواثق.

وقد ازداد نفوذهـم حتى بلغ بهم الحد إلى قتل الخلفـاء أو خلعهـم مثـل مـا حدث مع المتوكل والمنتصر والمستعين والمعتـز والمهتـدي، الـذي أحـس بخطـر الأتراك فلجأ إلى الوقيعة بينهم لكنهم أسروه ثم قتلوه.

وتأتي بعد ذلك فترة صحوة الخلافة وذلـك في خلافـة المعتمـد والمعتضـد الذي ضعف فيه نفوذ الأتراك حيث جعلهم خداماً للدولة.

ثم انتشرت الفتنة في عهد المقتدر وتدخل النسـاء في شئون الدولة حتى تـم

خلعه ثم قتله ثم تولى القاهر ثم الراضي الذي صارت الخلافة وكـذلك الـوزارة في عهده اسماً فقط، وضاعت هيبة الدولـة حتـى بـدأ الـعصر البـويهي عـلى يـد الخليفة المستكفي.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

أجب عما يأتي:

س١: اذكر أهم سمات العصر العباسي الثاني إجمالاً.

س٢: وضح كيف بدأ ظهور الأتراك في الدولة الإسلامية وتدرجهم في بلاط الخلفاء.

س٣: اذكر ما تعرفه عن:

١- خلافة المتوكل.

٢- خلافة المنتصر.

٣- خلافة المعتز.

٤- خلافة المهتدي.

٥- خلافة المعتمد.

٦- خلافة المعتضد.

٧- خلافة المستكفي.

٨- خلافة المقتدر.

٩- عصر الأمراء.

س٤: وضح كيف تم انتقال الخلافة من نفوذ الأتراك إلى نفوذ البويهيين.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- تميز العصر العباسي الثاني بسيطرة أجناس غير عربية على السلطة دون الخلفاء. ( )

٢- أول من تلقب بعد اسمه بلفظ الجلالة هو المتوكل. ( )

٣- الموطن الأصلي للأتراك هو بلاد ما وراء النهر. ( )

٤- تزايد نفوذ إيتاخ قائد الجيش على المتوكل حتى قتله بالسم. ( )

٥- رحل المتوكل إلى دمشق هرباً من الأتراك سنة ٢٤٤. ( )

٦- أسست الحركة اليعفرية في عصر المتوكل. ( )

٧- تخلص المنتصر من أبيه المتوكل بالقتل. ( )

٨- تولى الحكم بعد المنتصر المعتضد بالله. ( )

٩- تنازل المستعين عن الحكم للمعتز. ( )

١٠- يعتبر عهد المهتدي هو بداية صحوة الخلافة في العصر العباسي الثاني. ( )

١١- أحبطت محاولة المعتمد في الهروب إلى مصر. ( )

١٢- سمي المعتضد بالسفاح الثاني. ( )

١٣- شهدت الخلافة العباسية صحوة عظيمة في عهد المعتمد. ( )

١٤- تدخل النساء في الحكم في عصر المقتدر. ( )

١٥- تولى المقتدر ست سنوات فقط ثم مات. ( )

١٦- أول من سمل الأتراك عينه هو القاهر. (　　)

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- بدأ العصر العباسي الثاني بخلافة [المتوكل- المعتضد- المعتصم].

٢- في خلافة المعتمد سيطر نفوذ [الأتراك- السلاجقة- المغاربة].

٣- ساد عصر نفوذ الأتراك في الفترة من [٢٣٢/ ٣٣٤هـ- ٢٣٤/ ٣٣٥هـ- ٢٣١/ ٣٣٦هـ].

٤- تولى الخلافة ستة أشهر فقط، ثم قتله الأتراك بالسم [المتوكل- المعتمد- المنتصر].

٥- تنازل عن الخلافة لأخيه المعتز [المعتمد- المعتضد- المستعين].

٦- حمى الخلافة العباسية من خطر الزنج [المهتدي- المعتمد- المعتضد].

٧- شهد عصره صحوة عظيمة حيث كان شديد على أهل الفساد [المعتضد- المكتفي- المهتدي].

٨- تشبه بعمر بن عبد العزيز في خلافته وحرم الغناء وشرب الخمر ومنع الظلم وهو [المعتضد- المكتفي- المهتدي].

٩- كان مقداماً على سفك الدماء أهوجاً محباً للأموال ردئ السياسة [المقتدر-المكتفي-القاهر].

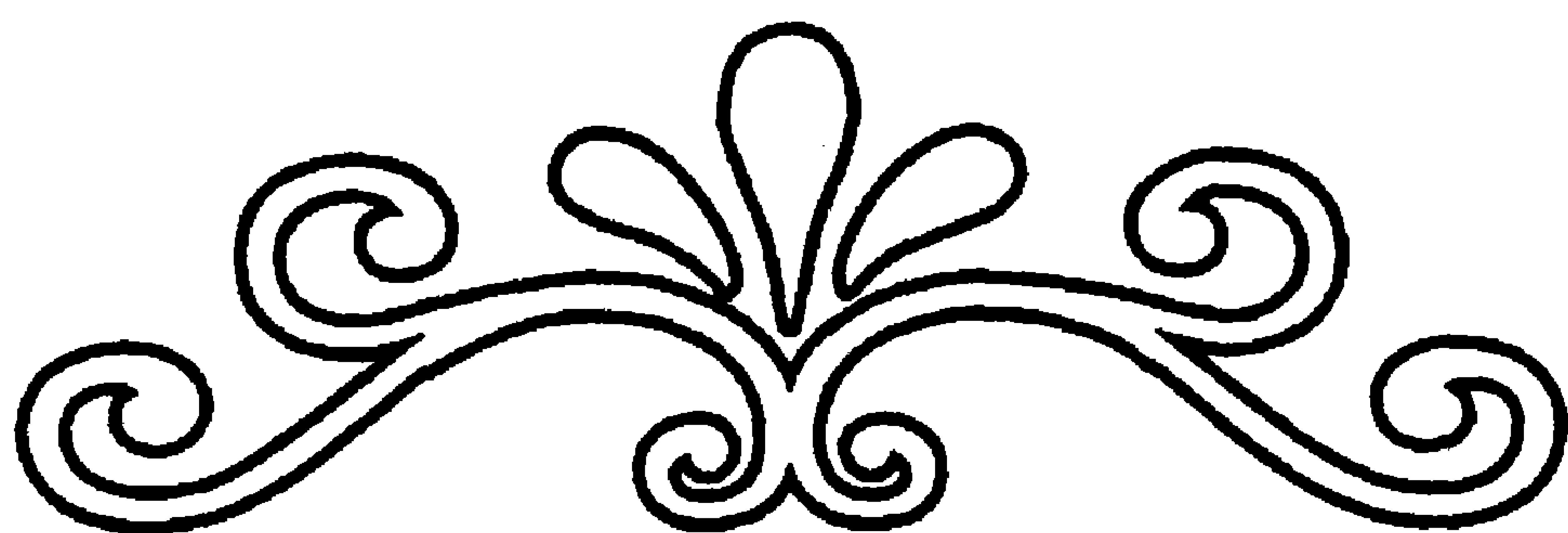
١٠- استحدث نظاماً جديداً في الحكم عرف بإمرة الأمراء وكان له أسوأ الأثر على الدولة العباسية [القاهر- الراضي- المقتدر].

النشاط التعليمي للوحدة الرابعة

عزيزي الدارس:

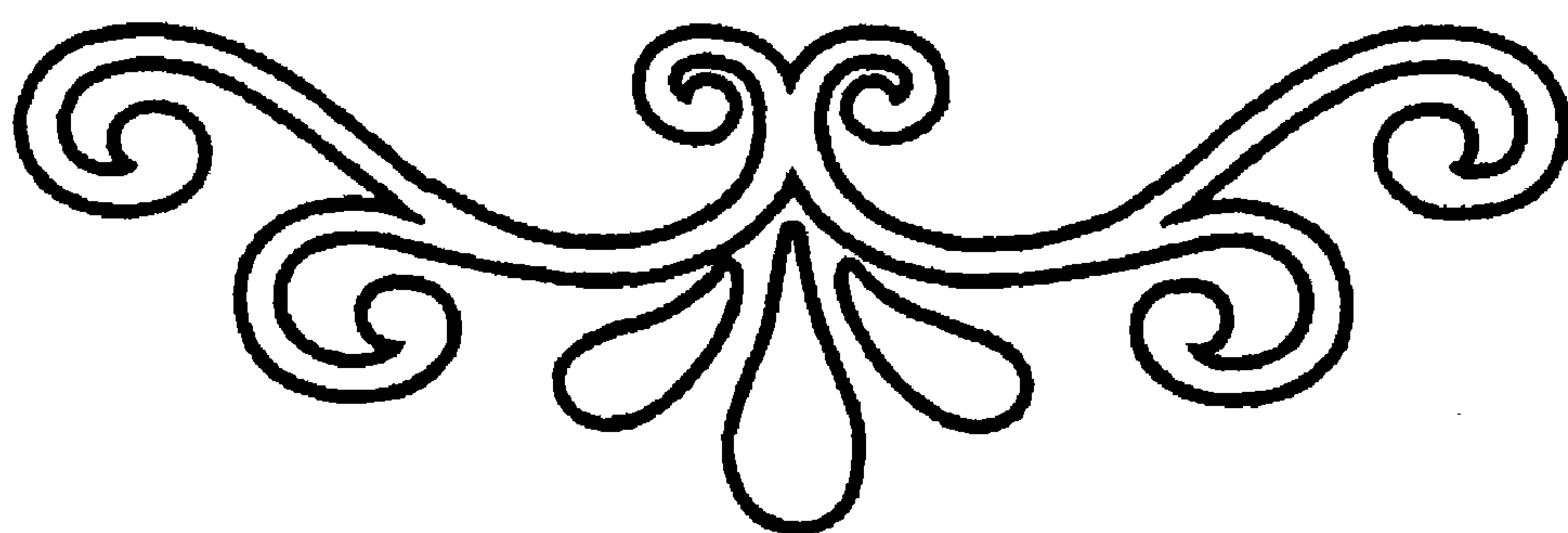
حتى تكتسب المزيد من المعلومات المتعلقة بموضوع هذه الوحدة نقترح عليك إنجاز النشاط التعليمي التالي:

- اكتب مذكرات تاريخية عن:
  - ١- عصر الأمراء.
  - ٢- عصر المعتضد.
  - ٣- عصر المتوكل.



الوحدة الخامسة

العصر البويهي والسلجوقي



محتويات الوحدة الخامسة

العصر البويهي والسلجوقي:

- العصر البويهي
- العصر السلجوقي.
- التتار وسقوط الخلافة العباسية.

أهمية دراسة الوحدة:



البويهيون نفر من الديلم الذين كان موطنهم الأصلي في الجنوب الغربي لبحر قزوين، وقد جعلتهم وعورة الجبال مقاتلين أشداء، لذلك استخدمهم الأمراء في جيوشهم.

وقد ساءت أحوالهم الاقتصادية حتى تطلعوا إلى غنى البلاد الإسلامية حيث كانوا يعملون كجنود فيها لمن يدفع أكثر حتى سادوا في عصر الأمراء، وتولى أحمد بن بويه إمرة الأمراء، ولقب بمعز الدولة، وبدأت سيطرة البويهين على الخلافة العباسية.

وفيما يلي سنوضح مظاهر تلك السيطرة كما سنوضح ظهور نفوذ الفرق الأخرى على الخلافة العباسية.



الأهداف التعليمية:

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١- تحلل أسباب سيطرة البويهيين على الخلافة العباسية.

٢- تبين أسباب قيام الدولة السلجوقية.

٣- تناقش أسباب ثورة البساسيرى.

٤- تذكر كيفية سقوط الخلافة العباسية.

ثانياً: العصر البويهي (٣٣٤- ٤٤٧هـ/٩٤٥-١٠٥٥م)

البويهيون نفر من للديلم الذين كان موطنهم الأصلي تلك المنطقة التي تنسب إليهم أو ينسبون إليها[1] والمعروفة ببلاد الديلم، وهي منطقة جبلية تقع في الجنوب الغربي لبحر قزوين[2]، الذي كان يعرف في العصر الإسلامي ببحر الخزر[3].

وقد جعلت وعورة الجبال من الديلم مقاتلين أشداء، لذلك استخدمهم أمراء تلك النواحي في جيوشهم، ويبدو أن فقر بلاد الديلم الجبلية جعل أهلها يتطلعون إلى غنى البلاد الإسلامية، وجعل كثيراً منهم يعملون كجند في خدمة من يدفع لهم، وقد كان بنو بويه من هؤلاء الديلم الذين دفعهم الفقر إلى احتراف الجندية. فقد روي عن معز الدولة البويهي أنه قال عن نفسه: «كنت أحتطب الحطب على رأسي».

وقد أدَّى هذا الدافع الاقتصادي السيئ واضطراب أحوال الديلم السياسية في بلادهم وتناحرهم مع بعضهم البعض إلى تدفقهم على العالم الإسلامي، ويتحدث بعض المؤرخين عن هجرة منظمة للديلم تدفقوا فيها على العالم الإسلامي عبر خط ينزل من مدينة الري في الشمال نحو الجنوب، إلى شرقي بلاد فارس في منطقة الحدود بين دولة الخلافة العباسية والدولة السامانية[4].

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان جـ٢ ص ٥٤٤ مادة ديلم.

(٢) الأصطخري: المسالك والممالك ص ٢٦٧.

(٣) ابن الوردي: خريدة العجائب ص ١٣٢.

(٤) أحمد إبراهيم الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٥٠١- ٥٠٣.

اعتنق الديلم الإسلام على مذهب الشيعة الزيدية، وهو الأمر الذي جعل للدول التي نجحوا في إقامتها في المشرق الإسلامي خطورة شديدة على الخلافة العباسية كالدولة الزيادية والدولة البويهية.

وقد حاولت الخلافة العباسية بالتعاون مع السامانيين أن توقف الزحف الديلمي نحو أراضيها، ولكن جهود العباسيين والساسانيين لم تمنع قيام الدولة الزيادية؛ التي أسسها مرداويج بن زياد الديلمي، والتي كانت المقدمة الحقيقية لقيام الدولة البويهية فقد عمل بنو بويه أول أمرهم في خدمة مرداويج الديلمي.

ولما قتل مرداويج بأيدي غلمانه الأتراك وجد البويهيون فرصة للتوسع فاستولوا على أصبهان والري، واستمروا في توسعهم غرباً، فاستولى أحمد بن بويه على الأهواز واستولى علي بن بويه على فارس، وكتب إلى الخليفة العباسي الراضي بالله يعرض عليه طاعته، على أن تعترف الخلافة بسلطته على الجهات التي آلت إليه، فأجابه الراضي إلى ما طلب، ووجه إليه الخلع على أن يؤدي مبلغاً من المال إلى الخلافة، لكن علي بن بويه احتال حتى أخذ الخلع دون أن يدفع المال المطلوب[١].

كان الخليفة العباسي الراضي بالله قد أنشأ نظام إمرة الأمراء ظناً منه أن هذا النظام سينهض بأعباء الدولة، وسيمكن الخلافة من التخلص من استبداد الأتراك، لكن إمرة الأمراء لم تحقق أهداف الخلافة المنشودة، وتفاقمت الأحوال سوءاً في بغداد، حتى رأى أهل بغداد أن يستقدموا أحمد بن بويه ليقر الأمور فيها، فتقدم أحمد بن بويه نحو بغداد ودخلها سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م، ولم يجد

---

(١) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص٢٢٥.

الخليفة العباسي المستكفي بالله بدأ من الحفاوة بأحمد بن بويه، وولاه إمرة الأمراء ولقبه معز الدولة، وزاد في تكريم البويهيين فلقب علي بن بويه عماد الدولة، ولقب الحسن بن بويه ركن الدولة، وهكذا دخلت الخلافة العباسية عصر النفوذ البويهي[1].

استبد معز الدولة البويهي بالسلطة دون الخليفة العباسي، بل إنه لم يتعد سياسة الأتراك ولا إمرة الأمراء في التضييق على الخليفة والإساءة إليه، فما لبث غير قليل بعد دخوله بغداد حتى اتهم المستكفي بالله بالتآمر عليه فخلعه وسمل عينيه وأقام في الخلافة بدلاً منه المطيع بالله الذي لم يكن له مع معز الدولة البويهي من الأمر شيء سوى ذكر اسمه في الخطبة، ونقش اسمه على السكة، وحدَّد له معز الدولة إقطاعات قليلة يعيش منها[2].

لم يكتف معز الدولة البويهي بإضعاف الخلافة في الدولة العباسية، بل فكر في إقصاء العباسيين عن الخلافة وتحويلها إلى العلويين تمشياً مع اعتقادات البويهيين المذهبية كأتباع للمذهب الزيدي الذي يرى أحقية العلويين دون غيرهم في الخلافة، إلا أن خواص معز الدولة حذروه مغبة الإقدام على هذه الخطوة؛ خشية إثارة البغداديين الذين اعتادوا على طاعة الخلافة العباسية. واقتضت مصلحة البويهيين أن يحكموا في ظل خليفة عباسي ضعيف يستأثرون بالأمر دونه خيراً من أن يبايعوا خليفة علوي قد لا يكون لهم معه شيء من السلطة[3]. لذلك لم يقدم معز الدولة على تنفيذ فكرته وظل يستأثر بالسلطة دون

(١) محمد بركات البيلي: الدولة العباسية، ص٢١٤- ٢١٥.

(٢) محمد بركات البيلي: الدولة العباسية، ص٢١٦.

(٣) ابن الأثير: الكامل جـ٨ ص١٤٩.

الخليفــة العبــاسي، وســار خلفــاؤه مــن البــويهيين عــلى نهجــه مــن بعــده في الاستئثار بالسلطة، وتزايد نفوذهم على النحو الذي يظهـر في ألقـابهم وألقـاب الخلفاء، ففي الوقت الذي كانت فيه ألقاب الخلفاء العباسـيين تتقـاصر وتأخـذ شكلاً يدل عـلى الضـعف كـالمطيع والطـائع، كانـت ألقـاب البـويهيين تتزايـد وتتعاظم كعضد الدولة وجلال الدولة، وأصبح لكل بويهي أكثر من لقب حتى لقبوا بشاهنشاه أو ملك الملوك[١].

ومع أن بني بويه استبدوا بالخلفاء العباسيين إلا أنهم في الحقيقـة لم يحـدثوا أمراً جديداً، بل ورثوا وضعاً كان قائماً قبلهم، ولم يكن لهـم يـد في ذلـك التـدني الـذي وصـلت إليـه الخلافـة العباسـية[٢]، ولكـنهم أفـادوا مـن هـذا الوضـع واستثمروه لصالحهم، ولم يكن ما فعلـوه مـع الخلفـاء العباسـيين مـن خلـع أو مصادرة إلا أقل بكثير مما أقدم عليـه قـواد الـترك. ويمكـن القـول أن الخلافـة العباسية قد أصبحت أحسن حالاً في ظل النفوذ البويهي، إلا أنها أبداً لم تسـتعد سلطانها المفقود[٣].

كانت الأسرة البويهية تضم ثلاثة أفرع رئيسة، وكـان التقـدم فيهـا للأكـبر سناً، فقد كان عماد الدولة علي بن بويـه عـماد البيـت البـويهي حتـى وفاتـه، ثـم انتقلت رئاسة البيت البويهى إلى ركن الدولة الحسن بن بويه الذي كان يلي أخيه علياً في السن، وقد ظل البويهيون أقوياء طالما كانوا يحرصون على تمسكهم، ولمـا تنازع أبناء عضد الدولة البويهي لم يعد للبويهيين نفس سطوتهم الأولى.

---

(١) محمد بركات البيلي: مرجع سابق، ص٢١٦.

(٢) أحمد الشريف: العالم الإسلامي في العصر العباسي، ص٥٢١.

(٣) محمد بركات البيلي: الدولة العباسية، ص٢١٧.

وإذا كـان بهـاء الدولـة بـن عضـد الدولـة قـد جمـع الأمـور في يـده مـرة أخرى، فإن الانقسام دب في صـفوف البـويهيين مـرة أخـرى في الجيـل الرابـع منهم، وبدأ البويهيون يعوضون نقص سلطانهم الفعلي بالتكالب عـلى الألقـاب حتى كان آخرهم يلقب بالملك الرحيم، وهو الذي شهد نهاية الـعصر البـويهي، ففي عهده دخل طغرلبك سلطان السلاجقة بغـداد سـنة ٤٤٧هـ وأزال عنهـا سلطان البويهيين.

ثالثاً: العصر السلجوقي (٤٤٧-٥٩٠هـ/١٠٥٥-١١٩٣م)

قيام الدولة السلجوقية:

يطلق اسم العصر السلجوقي على العصر الذي أعقب العصر البويهي، وهو يمتد من دخول السلاجقة بغداد (سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م) إلى انتهاء سلطانهم على بغداد بعد هزيمتهم على يد الخوارزمية سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م.

والسلاجقة من قبائل الغز الأتراك التي تسكن في تركستان، وكانت قبيلتهم تسمى «قنق» ثم عرفوا باسم السلاجقة نسبة إلى زعيمهم سلجوق بن دقاق الذين دخلوا الإسلام في عهده.

وبسبب الظروف الاقتصادية الصعبة نزح سلجوق بن دقاق وأتباعه إلى ناحية جند ببلاد ما وراء النهر، واتصلوا بالمسلمين في تلك النواحي، واعتنقوا الإسلام على المذهب السني الذي كان يتبعه أهل النواحي التي نزلوا بها[١]، ونشطوا في محاربة الأتراك غير المسلمين، فقد أعربوا بذلك عن حماسهم للإسلام وغيرتهم عليه في مواجهة أعدائه، وأرضوا السامانيين لدفعهم هجمات الترك عن أراضيهم، لذلك توطد مركز السلاجقة فيما وراء النهر، وأصبحت لهم قوة يخشى بأسها، وقد استمد الحكام المجاورون عونهم في حروبهم التي كانت تنشب فيما بينهم[٢].

لقد انتقلت زعامة السلاجقة بعد وفاة سلجوق إلى أكبر أبنائه (إسرائيل) الذي كان يلقب (أرسلان بيغو)[٣]، وقد أحرز عدة انتصارات، وبالتالي وجه

---

(١) حسن محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطي ص ١٧٣- ١٧٥.

(٢) محمد بركات البيلي: الدولة العباسية، ص٢١٩.

(٣) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية، ص ٢٣٤.

القرخـانيون[١] أنظـار السـلطان محمـود الغزنـوي إلى وفـرة أعـداد السـلاجقة وخطورتهم على دولته؛ فعزم على كسر شوكتهم، لكنه آثـر أن لا يحـاربهم وإنـما يأخذهم بالحيلة، فدعى لمقابلة زعيمهم إسرائيل بدعوى التفاوض بشـأن عقـد محالفة بينه وبينهم، فلما ذهب إسرائيل لمقابلة السلطان محمود في خواصه وأعيان رجاله قـبض علـيهم السـلطان محمـود الغزنـوي وأودعهـم السـجن، وأظهـر السلاجقة للسلطان محمود الخضوع حتى يسـمح لهـم بالانتقـال إلى خراسـان، حتى إذا ما وصلوا هذا الإقليم وثبتوا أقدامهم فيه انقضوا على الغزنويين وثأروا منهم لأسر زعيمهم[٢].

وظن السلطان محمود أنه كسر شوكة السلاجقة بأسره زعيمهم، ولم يشأ أن يرفض طلب السـلاجقة بالانتقال إلى خراسـان حتـى يسترضـيهم ويمحـو مـن نفوسهم الأثر السيئ لحادثـة القـبض عـلى زعـيمهم، فتناسـى الحيطـة والحـذر وسمح لهم بعبور نهر جيحون إلى خراسان، واسـتقروا هنـاك مظهـرين الطاعـة والولاء للسلطان محمود[٣]، وتولى قيادتهم في هذه المرحلة جفري بك أبو سليمان داود، وطغرلبك أبو طالب محمد فأخذوا يـدعمون قـوتهم في المنـاطق المحيطـة بهم، وتجنبوا في هذه المرحلة الهامة مـن تـاريخهم أن يحـاربوا السـلطان محمـوداً؛ لقوته وشدة بأسه.

لكن أهل (نسا وبـارود) اشـتكوا للسـلطان محمـود مـن عـدوان السـلاجقة

---

(١) القرخانيون: هم الأتراك الشرقيون كانت قاعدتهم كاشغر التي كانوا يطلقون عليها (ردوكنت) أو قاعدة السلطان.

(٢) محمد بركات البيلي: الدولة العباسية، ص٢٢٠.

(٣) المرجع السابق، ص٢٢١.

عليهم، فعهد السلطان محمود إلى والي طوس بتأديب السلاجقة؛ لكنهم انتصروا عليه، فاضطر السلطان محمود للخروج بنفسه لمحاربتهم وهزمهم عند رباط فراوة[1] سنة ٤١٩هـ/ ١٠٢٨م.

لم ييأس السلاجقة بعد هزيمتهم عند رباط فراوة، فوحدوا صفوفهم وأعادوا تنظيمها، وقد حالفهم الحظ بوفاة السلطان محمود بعد عامين في سنة ٤٢١هـ/ ١٠٣٠م، ولم يكن خلفاؤه على مثل كفاءته، وتدهور البيت الغزنوي لما دب فيه من صراع داخلي، فأخذ السلاجقة يتوسعون في خراسان واستولوا على مرو وسرخس وغيرهما من نواحي خراسان[2].

اتخذ طغرلبك مدينة الري قاعدة له، وأراد أن يستكمل شرعية دولته، فراسل الخليفة العباسي القائم بأمر الله مظهراً له ولاء السلاجقة للخلافة العباسية وتدينهم وحبهم للجهاد، وطلب طغرلبك اعتراف الخلافة بدولته وحكمه لما في حوزته، فأرسل إليه الخليفة قاضي القضاة أبا الحسن علي الماوردي بالخلع والتفويض بحكم البلاد التي بحوزته، ودعوة من الخليفة إلى طغرلبك للحضور إلى دار الخلافة ببغداد[3].

ثورة البساسيري:

لم يكن تردي الأحوال السياسية في العراق خافياً على سلطان السلاجقة

---

(١) فراوة بليده من أعمال نسا بينها وبين دهستان وخوارزم، ويقال لها رباط فراوة بناها عبد الله بن طاهر في خلافة المأمون.

(٢) ابن الأثير: الكامل ٩/ ١٧٨.

(٣) جمال الدين سرور: سياسة الفاطميين ص ١٨٥.

حينما أتاه رسول الخليفة القائم في الري، ولكن طغرلبك آثر أن لا يتقدم إلى العراق إلا بعد أن يوطد أقدامه في إيران، فلما فرغ من ذلك حوالي سنة ٤٤٦هـ/ ١٠٥٤م، كانت الخطوة التالية إلى العراق الذي كانت أحواله قد ازدادت سوءاً، وعجز الملك الرحيم- آخر أمراء البويهيين- عن ضبط الأمور، وعلا نفوذ جنده الأتراك، واستأثر رئيسهم أرسلان البساسيري بالسلطة في حاضرة الخلافة[١].

ونشأ في بغداد تنافس على السلطة بين البساسيري والوزير أبي القاسم بن المسلمة رئيس الرؤساء، وكان هذا التنافس فيما يعتقد من أسباب فتنة البساسيري وخروجه على الخلافة العباسية، فقد أفسد رئيس الرؤساء ابن المسلمة ما بين البساسيري والخليفة القائم بأمر الله العباسي، واتهم البساسيري بمشايعة الفاطميين، فطلب القائم من الملك الرحيم البويهي إبعاد البساسيري، فأبعده وانتهى به إلى المقام في الرحبة[٢].

وما إن فرغ طغرلبك من ضم كل أقاليم إيران إلى دولته وتوطيد سلطانه فيها حتى تهيأ لدخول العراق، فاضطرَّ أنه يتوجه للحج، وإصلاح طريق مكة، والسير إلى الشام ومصر لإزالة المستنصر بالله الفاطمي[٣]، ثم أرسل إلى الخليفة العباسي يستأذنه في الدخول إلى العراق للمثول بين يديه، فأذن له الخليفة القائم بأمر الله ودخل طغرلبك بأقصر طريق عبر حلوان، فأمر القائم العباسي أن

(١) محمد بركات البيلي: الدولة العباسية، ص ٢٢١.
(٢) عبد القادر المعاضيدي: واسط في العصر العباسي ص ٧٥.
(٣) ابن الأثير: الكامل جـ ٩ ص ٢٢٧.

يخطب لطغرلبك على المنابر في رمضان سنة ٤٤٧هـ/ ١٠٥٥م، ولقبة السلطان ركن الدولة أبو طالب محمد بن ميكائيل يمين أمير المؤمنين، على أن يُذكر بعده في الخطبة اسم الملك الرحيم البويهي.

وبذلك ابتدأ عصر الهيمنة السلجوقية على الخلافة العباسية خصوصاً وأن طغرلبك قضى نهائياً على البويهيين، إذ قبض على الملك الرحيم وسجنه حتى توفي بعد ثلاث سنوات في سنة ٤٥٠هـ/ ١٠٥٨م[١].

وهكذا دخلت الخلافة العباسية عصراً جديداً مغايراً لما كان عليه العصر البويهي، فقد كان سلاطين السلاجقة السنيين أكثر حرصاً على إظهار احترامهم للخلافة العباسية من البويهيين، وكان السلاجقة أبعد همة من البويهيين، فلم يكن غاية جهدهم السيطرة على الخلافة الضعيفة، وإنما دخل السلاجقة ميدان الجهاد ضد الروم، ولم يكتفوا بتلك الإغارات التقليدية التي كان العباسيون قد درجوا عليها حتى في عصرهم الأول؛ وإنما كان السلاجقة أشبه بالأمويين في حروبهم مع البيزنطيين؛ إذ كانوا يهدفون منها إلى الإطاحة بالدولة البيزنطية وامتلاك أراضيهم، وقد نجح فعلا فرع منهم يُدعى سلاجقة الروم في اقتطاع آسيا الصغرى من أملاك البيزنطيين، وأقاموا عليها دولة قوية باسمهم.

وبينما كان طغرلبك يصفي نفوذ البويهيين ويعتقل الملك الرحيم البويهي، كان البساسيري في الرحبة يعد العدة للخروج على العباسيين، فكاتب المستنصر بالله الفاطمي مظهراً طاعته وطالباً تأييده ومعونته، وانضم إليه بقايا البويهيين، فتمكن من تجهيز قوة كبيرة وأوقع الهزيمة بجند السلاجقة بقيادة قتلمش ابن

---

(١) محمد بركات البيلي: الدولة العباسية، ص ٢٢٦.

عم طغرلبك عند سنجار سنة٤٤٨هـ، ودخل الموصل وخطب فيها للمستنصر بالله الفاطمي، فتشجع بعض أمراء العراق كأمير الكوفة وأمير واسط على خلع طاعة الخليفة العباسي وخطبوا للمستنصر الفاطمي.

خرج طغرلبك بنفسه إلى الموصل لمحاربة البساسيري، فاستعاد الموصل وعاد إلى بغداد حيث احتفى به الخليفة القائم حفاوة بالغة ولقبه ملك المشرق والمغرب، محرضاً إياه على محاربة الفاطميين أصحاب السيادة على المغرب، لكن طغرلبك اضطر إلى مغادرة بغداد متجهاً إلى بلاد الجبل لمعالجة تمرد قام به أخوه لأمه إبراهيم، الذي كان طغرلبك قد ولاه على الموصل، فغادرها إلى بلاد الجبل دون حماية، فدخلها البساسيري واستولى عليها مرة أخرى، ولم تقتصر خطورة تمرد إبراهيم على تهديد البيت السلجوقي بالانقسام؛ إذ كان الأمر أخطر من ذلك؛ إذ يبدو أن إبراهيم عزم على الإطاحة بطغرلبك والخليفة العباسي بمعاونة البساسيري والفاطميين[١].

انشغل طغرلبك بمعالجة تمرد أخيه فترك بغداد دون حماية ليدخلها البساسيري في سهولة، ويعتقل القائم بأمر الله العباسي ويسقط الخطبة له، ويُخطب على منابر بغداد للإمام الفاطمي أبي تميم معد المستنصر بالله أمير المؤمنين، وأودع القائم العباسي لدى مهارش بن المجلي أمير الحديثة، بعد أن أجبره على كتابة اعتراف بعدم أحقيته هو والعباسيين في الخلافة مع وجود بني فاطمة الزهراء.

مد البساسيري سلطانه إلى البصرة وواسط واتخذ من الأخيرة قاعدة له

(١) محمد بركات البيلي: الدولة العباسية، ص٢٢٦- ٢٢٧.

دون بغداد وذلك ليبتعد عن أعوان الخليفة والسلطان في بغداد؛ ولوجود أنصار للفاطميين بواسط؛ ولقربها من إمارة صهره نور الدين دبيس بن مزيد الذي يمنحه اللجوء إليه عند الضرورة، ولموقع واسط الهام على طريق المشرق وحصانتها[1].

عاد طغرلبك إلى العراق بعد أن وضع حداً لتمرد إبراهيم في الوقت الذي لم تبذل الخلافة الفاطمية جهداً جدياً لمعاونة البساسيري، وتركته ليواجه وحده طغرلبك بقواته التي لا قبل للبساسيري بها، فانهزم البساسيري، ولقي حتفه عند الكوفة سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م، وضاعت على الفاطميين فرصة نادرة لتحقيق أحلامهم في الإطاحة بالعباسيين[2].

هيمن طغرلبك على العراق من جديد، ومع إظهاره الاحترام للخليفة العباسي فإنه استأثر بالسلطة دونه، وزوجه الخليفة من ابنته، وهو شرف كبير لم يسبق إليه أحد من العجم قبل طغرلبك، لكن السلطان السلجوقي العجوز ما لبث أن توفي في سنة ٤٥٥هـ/ ١٠٦٣م بعد أن أرسي دعائم قويه للدولة السلجوقية.

الدولة السلجوقية بعد وفاة طغرلبك:

تعد الفترة الأولى من العصر السلجوقي والتي تشمل حكم سلاطينهم الثلاثة الأول: طغرلبك وألب أرسلان، وملك شاه عصراً قائماً بذاته يمكن أن نطلق عليه سلاطين السلاجقة العظام، في هذا العصر تمكن هؤلاء السلاطين

---

(١) المعاضيدي: واسط في العصر العباسي، ص ٨١- ٨٢.

(٢) المرجع السابق ص ٨٣.

الثلاثة من إقامة دولة قوية مترامية الأطراف تمتد من التركستان وبلاد ما وراء النهر إلى البحر المتوسط غرباً ويمتد نفوذها ليشمل الحرمين الشريفين في مكة والمدينة.

ألب أرسلان وحروبه ضد الروم:

تولى ألب أرسلان بن أخي طغرلبك السلطة، واستغرقت الفترة من عام ٤٥٧-٤٦٣هـ/ ١٠٦٣- ١٠٧٠م كل جهود ألب أرسلان لتوطيد سلطته في إيران والعراق ثم أخذ بعدها في تنفيذ مشروعه للجهاد ضد البيزنطيين وتأمين حدوده من ناحيتهم[١].

اتجه السلطان ألب أرسلان إلى غزو أرمينية واستطاع تحقيق ذلك في وقت قصير واستولى على حاضرتها آني[٢]، وبذلك أصبح الطريق مفتوحاً أمام السلاجقة للتوغل في آسيا الصغرى في سرعة وسهولة على نحو أفزع الإمبراطور البيزنطي «رومانوس ديوجينيس»؛ فسارع إلى تكوين جيش ضخم لإيقاف مشروعات السلاجقة التوسعية بمهاجمة بلاد الشام؛ ليوسع على السلاجقة جبهة المواجهة، فحول ألب أرسلان مجهوداته إلى بلاد الشام، وأخضع حلب لنفوذه، واستولى على أجزاء كثيرة من بلاد الشام، ورأى الإمبراطور البيزنطي في انشغال سلطان السلاجقة بالجبهة الشامية فرصة مواتية

---

(١) مواهب صبري: الحياة السياسية ومظاهر الحضارة في الدولة السلجوقية على عهد السلطان ملك شاه ص ٢٠٤.

(٢) آني: قلعة حصينة ومدينة بأرض أرمينية بين خلاط وكنجة (ياقوت: معجم البلدان جـ١ ، مادة آني).

له لمهاجمة السلاجقة في الصميم، فاتجه إلى مهاجمة قلب الدولة السلجوقي.

وعلم ألب أرسلان بهدف الإمبراطور البيزنطي فقطع حملته على الشام، ولحق بالبيزنطيين الذين وصلوا في ذات الوقت إلى أرمينية، ولما عاين ألب أرسلان كثرة جموع البيزنطيين آثر طلب الهدنة، إلا أن "رومانوس" أعجبته كثرة جنده فاغتز بقوته ورفض المهادنة، وأعلن أنه لن يجيب على طلب الصلح إلا في الري أي بعد إخضاع السلاجقة فغضب ألب أرسلان لهذا الرد المتعجرف، والتهب حماسه الديني ولم يعد من القتال بد وجاء اللقاء الحاسم عند ملاذكرد(١) على مقربة من خلاط بأرمينية في السابع من ذي القعدة سنة ٤٦٣هـ/ ٦ أغسطس ١٠٧٠م، واستطاع الجيش السلجوقي بحماسته الملتهبة أن يعوض النقص الخطير في أعداده التي لم تكن تزيد عن خمسة عشر ألفاً وأوقع هزيمة ساحقة بالجيش البيزنطي الذي كان يزيد عليه أضعافاً مضاعفة، حتى قيل : إنه بلغ مائتي ألف جندي، ومع ذلك لم تغن عنهم كثرتهم شيئاً واكتظت ساحة القتال بجثث الروم، ووقع إمبراطورهم نفسه أسيراً في أيدي السلاجقة، وجيء به ذليلاً مهيناً، وأوقف بين يدي السلطان فضربه السلطان ثلاث مقارع، وقال له: لو كنت أنا الأسير بين يديك ماذا كنت تفعل؟

- قال: كل قبيح.
- قال السلطان: ما ظنك بي؟
- إما أن تقتل وتشهرني في بلادك، وإما أن تعفو وتأخذ الفداء وتعيدني.

قال: ما عزمت على غير العفو والفداء.

(١) ياقوت: معجم البلدان جـ٥ ص ٢٠٢.

فافتدى رومانوس نفسه بمليون ونصف دينار[١].

وعلى الرغم من الهزيمة التي لحقت بالإمبراطور البيزنطي، والنصر الذي لم يتوقعه المسلمون، وما كان يكنه الإمبراطور المهزوم من حقد وعزم على إبادة الإسلام والمسلمين... رغم من ذلك كله، فقد تحلى السلطان المنتصر بالأخلاق الإسلامية الفاضلة، فلم يُهِنْ الملك المهزوم ولم يتخذه ضمن خدمه، وكان يستطيع ذلك، ولكن رفق به ومنَّ عليه وأعطاه عشرة آلاف دينار يتجهز بها، وأرسل معه جماعة من بطارقته ليستأنس بهم، ومشى معه أربعة أميال، وجعل له جيشاً يحرسه حتى يصل إلى بلاده، ومعهم راية كتب عليها، «لا إله لا الله محمد رسول الله»[٢].

يعد انتصار السلاجقة الحاسم في ملاذكرد علامة بارزة في تاريخ العلاقة بين الشرق والغرب، ونقطة تحول خطيرة في كل من التاريخ الإسلامي والتاريخ البيزنطي على حد سواء. فقد ترتب عليه ضياع الأجزاء الشرقية من الإمبراطورية البيزنطية التي كانت بمثابة مخزن بشري لبيزنطة. وما أكثر ما أمدتها بالجند والقادة وبعض الأباطرة ولم يستطع البيزنطيون بعد ملاذكرد أن يوقفوا التوسع السلجوقي في آسيا الصغرى، التي قام فرع سلجوقي بتأسيس دولة له فيها هي التي عرفت بدولة سلاجقة الروم.

وأصبحت آسيا الصغرى نهاية المطاف لكثير من القبائل التركية التي استقرت واستوطنت في آسيا الصغرى، وأنشأت لنفسها إمارات خاصة كانت

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٠١. والسيوطي: تاريخ الخلفاء ص ٤٢٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ص ٤٢٢.

تمتد في رقعتها على حساب البيـزنطيين الـذين انـحصر نفـوذهـم عـن أملاكهـم الآسيوية نهائياً.

ومن ناحية أخرى أدى انكسار الروم في ملاذكـرد إلى اسـتغاثة البيـزنطيين بالغرب الأوروبي، مما أدي إلى فتح سلسلة مـن الصراع بـين الشرق الإسـلامي والغرب المسيحي والتي تعرف بالحروب الصليبية[١].

لم يعش السلطان ألب أرسلان طويلاً بعد انتصاره في ملاذكـرد، إذ توجـه إلى المشرق على رأس جيش كبير لتأديب بعض المتمردين وإقرار الأمـور هنـاك، ومن مفارقات الأقدار أن يقتل بطل ملاذكرد غدراً على يد أحد المتمردين يدعى «يوسف الخوارزمي» ودفن بمدينة مرو بعد حكم قصير لم يزد عن تسعة أعـوام ونصف العام[٢].

(١) عن نتائج موقعة ملاذكرد، انظر: سـعيد عاشـور: الحركـة الصـليبية ج١، وأوربـا في العصـور الوسطي جـ١ ص٤٣٣، وأحمد إبراهيم الشريف: الدولة العباسية، ص ٥٩٧.
(٢) ابن الأثير: الكامل جـ١٠ ص ٢٧.

ملكشاه (٤٦٥- ٤٨٥ هـ/١٠٧٢-١٠٩٢م):

وعلى الرغم من أن ملكشاه قد تولى السلطنة بوصية من أبيه، إلا أن صغر سنه أطمع فيه بعض أمراء السلاجقة، فنافسوه كما هي عادة السلاجقة عقب وفاة أحد سلاطينهم، فثار عليه عمه «قارود» صاحب «كرمان» الذي اتجه للاستيلاء على الري- حاضرة السلاجقة حينذاك- معلناً أحقيته بالسلطة دون ابن أخيه ملكشاه واستطاع ملكشاه بمساعدة وزيره «نظام الملك» أن يهزم عمه قارود وتخلص منه بقتله لكنه- كرماً منه وحرصاً على وحدة الصف - أقر أن كرمان تظل في أيدي بنيه ليتوارثوها ويعرفون فيها باسم سلاجقة كرمان لتوطيد سلطانه.

أرسل ملكشاه إلى الخليفة العباسي القائم بأمر الله يطلب تجديد الاعتراف بسلطنته فلم يتردد الخليفة العباسي في إجابة طلبه، وخطب له من بعده، وولى ملكشاه وجهه شطر المشرق لتهدئة الأمور فيه، وإقرار أحواله خصوصاً من ناحية خاقانات ما وراء النهر، وخرج السلطان بنفسه ومعه وزيره نظام الدولة لإخضاع المتمردين.

وبينما كان ملكشاه يوطد سلطانه في المشرق كانت عيناه على الجبهة الأخرى يريد استكمال مشروعات أبيه التوسعية في بلاد الشام وآسيا الصغرى، وتعبيراً عن اهتمامه بتلك النواحي نقل ملكشاه حاضرة ملكه إلى أصفهان غرباً؛ لتكون أكثر قرباً من الأقاليم الغربية لدولته، ولتكون حاضرته أكثر توسعة لدولته بعد التوسعات في الشام وآسيا الصغرى[1].

---

(١) محمد بركات البيلي: الدولة العباسية، ص ٢٣٤- ٢٣٥.

وصلت دولة السلاجقة على يـد ملكشـاه إلى أقصى اتسـاعها وضـمت أطرافاً مترامية تشمل المشرق الإسلامي كله فضـلاً عـن آسـيا الصـغرى والعـراق والشـام والحرمين الشريفين.

نهاية الدولة السلجوقية:

لم تظهر بعد ذلك في البيت السلجوقي شخصية قوية تمـلأ فـراغ ملكشـاه، وراح أبناء البيت السلجوقي يقسمون تلك المملكة الواسعة الأطراف، ويستقل كل واحد منهم بنصيب منها، وفي ظل هذا التفكك سـاد الضـعف واضـطربت الأحوال لكثرة الحروب الداخلية إلى أن زال نفوذهـا سـنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م، وهكذا الأيام تذهب دولة لتأتي أخرى.

فقد حلت محل دولة السلاجقة دولة (الأتابكة) بالعراق وفارس.

كما حلت دولة الأتراك العثمانيين محل سلاجقة الروم بآسيا الصـغرى سـنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م.

وكما ذكرنا فقد كان هناك سلاجقة العراق وكردستان الذين حكمـوا مـن سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م إلى سنة ٥٩٠هـ/ ١١٩٣م.

ولا يمكـن أن ننسـى السـلاجقة العظـام الـذين كـانوا يحكمـون فـارس والأهواز والري وخراسان والجبل من سنة ٤٢٩-٥٥٢هـ/ ١٠٣٧-١١٥٧م من أسرة خوارزم شاه.

كما أننا لا ننسى سلاجقة الشام الذين حكموا حلب ودمشق من سـنة ٤٧٨-٥١١ هـ/ ١٠٨٥- ١١١٧م وخلفهم البوريون والأتقيون (من الأتابكيين).

وإلى جانـب هـؤلاء «سـلاجقة كرمـان» الـذين حكمـوا مـن

سنة ٤٣٣-٥٨٣ هـ/ ١٠٤١ - ١١٨٧م وخلفهم التركمان الغز.

وبقي سلاجقة الروم الذين حكموا آسيا الصغرى من سنة ٤٧٠-٧٠٠هـ/ ١٠٧٧-١٣٠٠م وخلفهم المغول والأتراك وغيرهم[١].

(١) ابن الأثير: الكامل ١٠/ ٥٠.

التتار وسقوط الخلافة العباسية

التتار قبائل تركية آسيوية كانت تسكن في الجزء الشرقي من بلاد تركستان وما يليها شرقاً غرب بلاد الصين. وهم بدو رعاة يدينون بالوثنية، ويبحثون عن الرزق أينما وجد، وينتقلون وراءه حيث كان، ويقتتلون من أجل الحصول عليه ونساؤهم في هذا كالرجال سواء بسواء[1].

وفي بداية القرن السابع الهجري استطاع الزعيم التتري "جنكيز خان" جمع شمل هذه القبائل لتصبح النقطة السوداء في التاريخ الإنساني بسبب ما أنزلوه من الكوارث التي لم يحدث مثلها.

كان أول صدام بين التتار والعالم الإسلامي في سنة ٦١٦هـ/ ١٢١٩م عندما أغاروا على بلاد السلطان «علاء الدين محمد بن خوارزم شاه تكش»[2].

وبعد ذلك بخمس سنوات وصلت قواتهم إلى مدن (قم) و(قاشان) و(همذان) في فارس، ولكن السلطان جلال الدين خوارزم شاه- الذي كان قد اعتلى عرش بلاده آنذاك- استطاع أن يسترد منهم هذه المناطق، ثم نشب خلاف بين هذا السلطان والخليفة العباسي الناصر لدين الله، وهاجم جلال الدين أراضي الخلافة العباسية[3]. وفي الثاني من شهر شوال سنة ٦٢٢هـ/ ١٢٢٥م توفي الخليفة العباسي، ولكنه كان قد ارتكب خطأ فاحشاً قبل وفاته؛ إذ استعان بالتتار ضد السلطان جلال الدين خوارزم شاه الذي كانت مملكته هي الوحيدة القادرة على التصدي للتتار.

---

(١) المقريزي: السلوك ١/ ١٨٥.

(٢) المصدر السابق ١/ ٢٠٥.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب في اخبار بني أيوب ٤/ ٣١٤ طبعة دار الكتب ١٩٧٢.

من ناحية أخرى مات جنكيز خان سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م، وقبل وفاته كان قد قسم إمبراطوريته الشاسعة بين أبنائه الأربعة، وبعد ذلك بثلاث سنوات كان التتار قد قضوا تماماً على مملكة جلال الدين خوارزم واختفى السلطان هرباً من سيوف التتار[١].

لقد كان سقوط هذه المملكة نذيراً بالخطر المحدق بالخلافة العباسية نفسها فأرسل الخليفة المستنصر بالله العباسي يستنجد بملوك بني أيوب في مصر والشام، كما بعث رسالة يطلب نجدة القبائل العربية، وفي ذلك الحين كانت جحافل التتار قد وصلت إلى أعالي العراق، واستولت على بعض الأقاليم الخاضعة للخلافة العباسية.

وإذا كانت جيوش التتار أداة عسكرية ضخمة بالمقارنة إلى الجيوش الصغيرة لحكام المنطقة، كان طبيعياً أن تطوي بلدان الشرق بسرعة هائلة[٢].

مرة أخرى أرسل الخليفة العباسي يستنجد بالأيوبيين، وبالفعل أرسل السلطان الكامل الأيوبي مساعدة مالية كبيرة، كما أمر بإرسال نجدة عسكرية كبيرة قوامها عشرة آلاف جندي من مصر والشام[٣]، وفي سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م شن التتار هجومهم الأول على بغداد، ولكن الهزيمة الشنعاء التي لحقت بهم جعلتهم ينسحبون مخلفين وراءهم أعداداً كبيرة من القتلى، بيد أن هذه لم تكن نهاية القصة.

(١) ابن أيبك الدوادار: كنز الدرر وجامع الغرر ٨/ ٢٩.
(٢) المقريزي: السلوك ١/ ٢٥٨- ٢٥٨.
(٣) ابن أيبك الدوادار: كنز الدرر وجامع الغرر، ٨/ ٢٩.

ففي سنة ٦٤٩ هـ/ ١٢٥١م اجتمع مجلس رؤساء التتار «القوريلاي» في عاصمتهم (قراقورم) وانتخبوا منكوخان بن تولاي بن جنكيز خان ليكون هو الخان الأعظم، وفي السنة التالية أرسل منكوخان حملتين: إحداهما توجهت إلى الصين والثانية توجهت غرباً صوب الأراضي الإسلامية، وكانت هذه الحملة تهدف إلى تحقيق هدفين رئيسين هما: القضاء على طائفة الإسماعيلية، وتدمير الخلافة العباسية في بغداد[1].

وتولى هولاكو قيادة الحملة الثانية، وفي مناطق ديار بكر وميافارقين ارتكب التتار مذابح مهولة، راح ضحيتها آلاف من السكان، وتركوا وراءهم من قصص الرعب والفزع ما جعل المعاصرين يصورونهم في صورة وحش أسطوري لا يمكن قهره.

وفي سنة ٦٥٣هـ/ ١٢٥٥م دخل هولاكو بقواته إلى أراضي فارس حيث قضى على قلاع الشيعة الإسماعيلية، وأخذ يمهد للقضاء على الخلافة العباسية، وتشير بعض المصادر العربية إلى أنه أرسل عدداً من جواسيسه إلى بغداد حيث عقدوا اتفاقاً مريباً مع الوزير ابن العلقمي وغيره من الأمراء، والخليفة في لهو لا يعبأ بشيء[2].

على أي حال جاءت سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م لتشهد حدثاً زلزل أركان العالم الإسلامي، نتج عنه تغيرات كبيرة في موازين القوى في المنطقة العربية على نحو

(١) قاسم عبده قاسم: وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك ص ١٣٥-١٣٧، عين للدراسات والبحوث القاهرة سنة ١٩٩٦م.

(٢) المقريزي: السلوك ١/ ٤٠٠.

خاص ففي أول صفر من تلك السنة أمر هولاكو بالهجوم العام على بغداد، وفي اليوم الرابع من الهجوم سلم الخليفة العباسي المستعصم بالله نفسه وعاصمته للتتار دون أي شروط وبعد التسليم بعشرة أيام قتل رفساً وهو في جوال، وأعمل التتار سيوفهم في المسلمين أربعين يوماً سلبوا فيها أموالهم وأهلكوا فيها كثيراً من رجال العلم، وقتلوا أئمة المساجد وحملة القرآن، وتعطلت المساجد والمدارس والربط، وأصبحت المدينة قاعاً صفصفاً ليس بها إلا فئة قليلة مشردة الأذهان، وكان القتلى في الطرقات كأنها التلال.

ولما نودي بالأمان خرج من تحت الأرض من اختفوا في المطامير والمقابر، ومن لجأ إلى الآبار والحشوش كأنهم الموتى قد نبشت قبورهم، وقد أنكر بعضهم البعض فلم يعرف الأب ابنه، ولا الأخ أخاه، ثم انتشر الوباء فحصدهم بمنجله حصداً ذريعاً وفسد الهواء وعم الوباء، وفي هذه اللحظات الدامية سمع بعض المغفلين من أهل بغداد من يقول:

يا خائفين من التتر لوذوا بقبر أبي عمر(١)

ولا نعرف أبا عمر هذا ولا قبره، وسواء كان صالحاً أو طالحاً فإن اللياذ به لايغني شيئاً، وقد سقطت بغداد وأعمل السيف في رقاب الرعاع اللائذين به.

لماذا سقطت الخلافة العباسية:

لقد كانت الخلافة العباسية في أيامها الأخيرة ظلاً باهتاً لا يمت بصلة إلى أيام المجد الأولى، فقد كان الخليفة العباسي «المستعصم بالله» مستضعف الرأي،

(١) ابن القوطي: الحوادث الجامعة في أعيان المائة السابعة، ص ٣٣٠- ٣٣١.

ضعيف البطش، قليل الخبرة بالمملكة، مطموعاً فيه... وكان زمانه ينقضي في سماع الأغاني والتفرج على المساخر... وكان أصحابه مستولين عليه، وكلهم جهال من أراذل العوام[١] كما وصف بأنه «كان محباً لجمع المال»[٢].

أدى نهم الخليفة بالمال وحرصه عليه إلى أن عـرَّض الخلافة للخطر حين هددها التتار إذ أنه قطع عن الجنود أرزاقهم في وقت هو أحوج ما يكون إليهم فيه، ويقول ابن كثير: «إنه صرف الجيوش ومنع عنهم أرزاقهم حيث كانوا يتسولون على أبواب المساجد وفي الأسواق... وأنشد فيهم الشعراء قصائد يرثون لهم ويحزنون على الإسلام وأهله»[٣].

على أن شح الخليفة المستعصم بالأموال على الجند في وقت حاجته لهم يقابل في الناحية الأخرى إسرافه الشديد في الإنفاق على خدمه وأتباعه من الظلمة الذين يأكلون أموال الناس، وكان أولئك الخدم من الجهال وأراذل العامة والمماليك الذين صعد بهم الزمن الرديء في عصر انحلال الدولة العباسية، فاحتكروا الثروة، بينما عاش العلماء والأشراف يتضورون جوعاً[٤]؛ ونضرب مثالاً تاريخياً فقط من أمثلة عديدة على ما جرى في أواخر الدولة العباسية حين أغدقت الأموال على الخدم وأصبحوا أعجوبة في الثراء: فهذا عبد الغني بن فاخر شيخ الفراشين كانت داره تشمل عدة حجرات، وفي كل حجرة جارية وخادم ثم رتب لكل جارية عملاً، فواحدة لطعامه، وأخرى لشرابه، وثالثة لفراشه، وأخرى غسالة، وأخرى طباخة[٥].

---

(١) ابن طباطبا: الفخري في الأداب السلطانية والدول الإسلامية ص ٣٣٣.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية: ١٢/ ١٥٧.

(٣) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٤) ابن كثير: البداية والنهاية ١٢/ ١٢١.

(٥) السيوطي: تاريخ الخلفاء ص٤٦٥.

وفي المقابل ابن القوطي وابن الساعي أشهر مؤرخي هذا العصر، كان كل منهما يأخذ راتباً شهرياً قدره عشرة دنانير[١]، فأين أولئك من شيخ الفراشين في قصر الخليفة؟

وفي ذلك الوضع المقلوب لا بد أن تكتمل الصورة المقيتة لأي دولة على وشك السقوط بغض النظر عن اللافتة التي ترفعها سواء كانت فارسية أو بيزنطية أو عباسية تلتصق بقرابة الرسول ﷺ، لا بد أن تتفشى الرشوة، وتكثر مصادرة الأموال وتتفاقم الاضطرابات الداخلية مع الانحلال الخلقي والانشغال بالتوافه عن الخطر الذي يدق الأبواب.

ولكن الخليفة المستعصم العباسي لم يستوعب الدرس، ولم يعرف أن عقوبة الفساد مستمرة، وإن تنوعت أساليبها. وكما كانت الخلافة ظلاً باهتاً وأقطار العالم الإسلامي وشعوبه تتداعى تداعي الجسد الواحد حتى صارت أعضاؤه أشلاء ممزقة كان الأيوبيون- الذين تشرذموا في عدة إمارات وممالك هزيلة- مشغولين بأنفسهم وحروبهم الصغيرة بحيث لم يكن لهم وزن سياسي أو عسكري[٢].

وعندما سقطت بغداد ماذا حدث؟ سكتت القاهرة وسكتت دمشق وسكتت مدائن العالم الإسلامي، وظهر جلياً أن الانهيار الداخلي هو الذي عجل بهذا الختام الكئيب.

هل جمع المسلمون بعدها أشلاءهم ودرسوا قضاياهم وبحثوا أسباب

---

(١) المصدر السابق، ص٤٦٦.

(٢) قاسم عبده وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك ص ١٣٥.

عللهم وهزائمهم؟

لا لم يحدث شيء من هذا، ولكن الله تبارك وتعالى لم يأذن بعد بانتصار الباطل فكما استطاعت مصر - في السابق - أن تجمع فلول بعض الدويلات وتقذف بهم في نحور الصليبيين بقيادة صلاح الدين الأيوبي، وجاءت معركة حطين التي انقشع غبارها عن تحرير بيت المقدس، استطاعت مصر أيضاً بنفس الطريقة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢١١م جمع فلول المسلمين، وأن تنتصر على التتار في معركة عين جالوت بفضل الله ثم بفضل المماليك الذين رفعوا شعار «وا إسلاماه» وباعوا أنفسهم لله.

خلاصة تقويمية لتاريخ الدولة العباسية

قيام دولة بعد سقوط أخرى لا يغير من مجرى التاريخ شيئاً، فليست شؤون الأمة السياسية والاجتماعية والثقافية موضوعة بين دفتي سجل يغيرها الحاكم الجديد كيفما اتفق مزاجه وما ارتضاه مسلكه السياسي.

لقد بدأ العباسيون حكمهم بطرح شعارات العدل والمساواة والالتزام بكتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، إلا أنهم ما لبثوا أن أخذوا يتفلتون بشكل أو بآخر من التزاماتهم تلك، وبدأوا يشهدون المتاعب نفسها التي استنزفت أسلافهم الأمويين وأسقطت دولتهم في نهاية الأمر.

وقد جعل بنو العباس من قرابتهم لرسول الله ﷺ وسيلة لجمع قلوب الأمة ودعم السلطة، لكن القرابة من رسول الله ﷺ - وحدها- لا تقدم متأخراً و لا تشفع لمسيء.

لكن استطاعت القيادة العباسية إبان عصرها الأول (١٣٢-٢٣٢هـ/ ٧٥٠-٨٤٦م) أن تحفظ كيان الدولة ووحدتها من التفكك والتمزق، وحافظت على ما ورثته من أقاليم من الدولة الأموية فيما عدا- بطبيعة الحال- الرقعة الأندلسية التي استأثر بها الأمويون، فإن السيادة الدولية بقيت للعباسيين، وواصل العباسيون حماية حدود الدولة من الروم الخصم التاريخي لهم، وتدويخهم بسلسلة من الحملات في قلب الأناضول، لكن كان ذلك في مناسبات محدودة لا ترقى أن تكون مواجهات دولة عظمى تملك أحشاء العالم وتسيطر على أرجائه، فضلاً على أنها دولة تعمل باسم رسالة الإسلام الخالدة.

لقد بقيت الحرب مع الروم وبمناوشات خفيفة في المناطق الواقعة بين الشام والأناضول، وربما استطاع المسلمون التوغل شرقاً وغرباً، ثم سرعان ما يعودون وربما هدد البيزنطيون حلب نفسها ثم سرعان ما يتراجعون.

بعد انتهاء العصر العباسي الأول تعاقبت على قيادة الدولة أربع عصور أخرى هي: عصر الأتراك (٢٣٢- ٣٣٤هـ/ ٨٤٦- ٩٤٥م).

العصر البويهي (٣٣٤-٤٤٧هـ/ ٩٤٥-١٠٥٥م).

العصر السلجوقي (٤٤٧- ٥٩٠هـ/ ١٠٥٥-١١٩٣م).

عصر الإحياء وهو العصر الذي سبق سقوط بغداد على أيدي التتار سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م والذي سعى فيه بعض الخلفاء العباسيين لاسترداد دورهم القيادي في الحكم.

وخلال هذا العصر الثاني بدأت وحدة الكيان الإسلامي تتفكك وتتمزق، وغدت الدولة العباسية نفسها جزيرة منعزلة وسط بحر مضطرب من الكيانات الإقليمية واستشرت في أطراف الدولة النزعة الاستقلالية عن قلب الدولة، وبدأت الدولة العباسية تفقد نفوذها كقوة مركزية في التعامل الدولي.

كما صعدت كيانات أخرى وأصبح مركز الخلافة في العصر العباسي الثاني على المسرح الدولي موقف الدفاع دائماً، ودفاع هزيل غير قادر على صد الضربات المكالة في معظم الأحيان.

وقد شهد المشرق ذاته منذ منتصف القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي ظهور الصفويين بعد الطاهريين في خراسان سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م، وظهر السامانيون في بخارى قبلهم سنة ٢٥٠هـ/ ٨٦٤م، وظهر الطولونيون في

مصر سنة ٢٤٥هـ/ ٨٥٩م ثم بعدهم الأخشيديون سنة ٢٢٣هـ/ ٨٣٧م، وظهر الزيـديون سـنة ٢٤٦هــ/ ٨٦٠م والحمـدانيون في الموصـل وحلـب سـنة ٣١٧هـ/ ٩٢٩م حتى وصل الأمر في الربع قرن التالي لمقتل المتوكـل إلى تقلـص نفوذ العباسيين واقتصاره على العراق والجزيرة[١].

إن التمزق قد أصاب جسد الدولة الإسلامية بعد مرور عقود عـلى نجـاح العباسيين في تأسيس دولتهم وظهور عدد من الإمارات المسـتقلة التـي أعطـت بعضها ولاءها للخليفـة في بغـداد، وبعضـها الآخـر ناصبت الخليفـة العـداء، واقتطع أجزاء من دولة الخلافة بل قصد بعضها عاصمة الخلافة فاحتلها ردحـاً من الزمن.

لكن هذه الإمارات إن بطل ولاؤها للخليفة فـإن ولاءهـا للإسـلام ظـل ممتداً وأصبحت هذه الدويلات حصناً منيعاً يـرد العـدوان الـذي يتهـدد مركـز الخلافة، بل يقوم بواجب نشر الإسلام فيما وراء تلك الحدود.

فلا عجب أن رأينا الفرس والهنـود والـتراك يهرعـون إلى نجـدة الإسـلام عندما يرون الصعاب قد أحاطت به.

ومن معرفة الفضل لذويه أن نذكر بأطيب الثناء جهد الأكراد والأتـراك في مقاومة الصليبيين والتتار بعدما انهزم العرب أمامهم، أنهـم هـم الـذين ألحقـوا الهزائم المريرة بالغزاة الباطشين.

---

(١) لمعرفة فترات ومواقع هذه الدويلات وانهيارها انظر شـوقي أبـو خليـل: أطلـس العـربي ط٤، دمشق: دار الفكر ١٩٩٤م.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

الدولة البويهية:

- قدم البويهيون من بلاد الديلم في الجنوب الغربي لبحر قزوين.
- اعتنق الديلم مذهب الشيعة الزيدية.
- قامت الدولة الزيادية التي أسسها ابن زياد الديلمي وهي البداية لقيام البويهية.
- تولى أحمد بن بويه إمرة الأمراء في عهد الخليفة العباسي الراضي واستبد بالدولة دون الخليفة.
- حاول البويهيون إقصاء العباسيين عن الخلافة وتحويلها إلى العلويين حسب اعتقادتهم، لكن أفضت المصلحة أن يحكموا في ظل خليفة عباسي ضعيف يسيتأثرون بالحكم دونه خيراً من غيره.

الدولة السلجوقية:

- هم قبائل الغز الأتراك التي تسكن في تركستان وكانوا على المذهب السني.
- كانت زعامة السلاجقة بيد أرسلان بيغو الذي دارت بينه وبين السلطان محمود عدة مناوشات انتهت بهزيمته عند رباط فراوة عام ٤١٩هـ.
- تولى بعده طغرلبك واتخذ من مدينة الري قاعدة له وتودد إلى الخلافة

العباسية حتى قضى له بحكم البلاد التي بحوزته.

- حدثت فتنة البساسيري حتى بغداد بعد أن تنافس البساسيري والـوزير أبو القاسم على السلطة، وانتهت بإبعاد البساسيري.
- بعد ذلك دخل طغرلبك العراق، وبدأ عصر السيطرة السلجوقية على الخلافة العباسية.
- كان سلاطين السلاجقة أكثر حرصاً على احترام الخلافة العباسية، وكان جهدهم في ميدان الجهاد ضد الروم، واستطاعوا اقتطاع آسيا الصغرى وإقامة دولة عليها.
- قامت حرب بين البساسيري وجند السلاجقة انتهت بهزيمة السلاجقة.
- انشغل طغرلبك بحرب البساسيري وتمرد أخيه إبراهيم، لكن البساسيري دخل بغداد واعتقل الخليفة، ثم واجهه طغرلبك حتى هزمه وقتله، ثم توفى بعد ذلك طغرلبك.
- تولى من بعده ألب أرسلان الذي اتجه إلى غزو أرمينية واستولى عليها وعلى أجزاء كثيرة من بلاد الشام، وأوقع هزيمة نكراء على إمبراطور الروم في موقعة ملاذكرد.
- تولى بعد ذلك ابنه ملكشاه الذي حرص على توسعة دولته حتى شملت المشرق الإسلامي كله وآسيا الصغري والعراق والشام والحرمين.
- بعد دولة السلاجقة جاءت دولة الأتابكة والأتراك العثمانيين.
- سقطت الخلافة العباسية على أيدي التتار في عهد المستعصم، الذي كان

ضعيفاً محباً للمال والشهوة، وقطع أرزاق الجند وجعلهم يتسولون، وبسط المال للخدام والفراشين حتى دخل التتار البلاد وقتلوا العلماء والمسلمين، وقتلوا الخليفة وعاثوا في الأرض الفساد وأبادوا الكتب، وهذا مصداق لقوله تعالى: ﴿وَإِذَا أَرَدْنَا أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُواْ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا الْقَوْلُ فَدَمَّرْنَاهَا تَدْمِيراً﴾[1].

(١) الإسراء: ١٦.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

أجب عما يأتي:

س١: اذكر ما تعرفه عن البويهيين موضحاً مراحل تدفقهم إلى العالم الإسلامي.

س٢: اذكر أحوال الدولة العباسية في ظل نفوذ البويهيين.

س٣: كيف انتهى عصر نفوذ البويهيين؟ وضح ذلك.

س٤: تكلم أصول السلاجقة ومراحل تدفقهم إلى العالم الإسلامي تفصيلاً.

س٥: اكتب ما تعرفه عن ثورة البساسيري تفصيلاً.

س٦: ما هي معركة رباط فراوة؟ وما الذي حدث فيها؟ وضح ذلك.

س٧: كان لشخصية طغرلبك السلجوقي أثر كبير على الإسلام، اشرح هذه العبارة.

س٨: كيف أوقع السلطان ألب أرسلان الهزيمة بالروم؟ وضح ذلك.

س٩: اكتب ما تعرفه عن ملكشاه تفصيلاً.

س١٠: كيف انتهت الدولة السلجوقية؟ وما الذي آلت إليه؟ وضح ذلك.

س١١: اذكر تفصيلاً بداية دخول التتار العالم الإسلامي، موضحاً كيف انتهت الخلافة العباسية وسقوط بغداد.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- كان العصر البويهي نكبة على الخلافة العباسية. (   )

٢- أزال البويهيون سلطان السلاجقة. (   )

٣- كان البويهيون على مذهب أهل السنة. (   )

٤- استمر نفوذ أسرة البرامكة في العصر البويهي. (   )

٥- قضى السلاجقة على آخر ملوك البويهيين. (   )

٦- كانت أصول البويهيين عربية. (   )

٧- انتصر السلطان محمود على أرسلان بيغو في موقعة رباط فراوة. (   )

٨- بدأ العصر السلجوقي سنة ٤٤٧هـ. (   )

٩- كانت أصول السلاجقة تركية. (   )

١٠- ينتهي نسب السلاجقة إلى السلطان طغرلبك السلجوقي. (   )

١١- انهزم الإمبراطور البيزنطي على يد الملك السلجوقي ألب أرسلان. (   )

١٢- قتل الملك ألب أرسلان الملك البيزنطي. (   )

١٣- انتصر المسلمون في موقعة ملاذكرد. (   )

١٤- قتل قارود ابن أخيه ملكشاه. (   )

١٥- وصلت دولة السلاجقة على يد ملكشاه إلى أقصى اتساعها. (   )

١٦- سقطت بغداد في عهد الخليفة العباسي المعتصم. ( )

١٧- أوقع التتار هزيمة كبرى بالمسلمين في بغداد. ( )

١٨- كان السبب الرئيس لسقوط الخلافة العباسية هو الانغماس في المال والشهوات. ( )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- تنتمي أصول البويهيين إلى [جنوب غرب قزوين- جنوب شرق قزوين- شمال شرق قزوين].

٢- اعتنق الديلم المذهب [السني- الشيعي- الخوارج].

٣- معز الدولة البويهي هو [ألب أرسلان- علي بن بويه- أحمد بن بويه].

٤- وصلت الدولة السلجوقية إلى أقصى اتساعها وذلك في عهد [ألب أرسلان- أرسلان بيغو- ملكشاه].

٥- انتصر السلطان...... [طغرلبك- ألب أرسلان- ملكشاه] على الإمبراطور البيزنطي.

٦- هزم السلطان محمود السلاجقة عند [رباط فراوة- ملاذكرد- بغداد].

٧- انتهت الدولة السلجوقية في سنة [٥٩١- ٥٩٠- ٥٩٢].

٨- انتهت الدولة البويهية في سنة [٤٤٧- ٤٤٦- ٤٤٥].

٩- سقطت الخلافة العباسية سنة [٦٥٦هـ- ٦٥٧هـ- ٦٥٨هـ].

١٠- سقطت الخلافة العباسية في عصر [المعتصم- المستعصم- الراضي].

١١- الذي قضى على البويهين هو [ألب أرسلان- طغرلبك- ملكشاه]

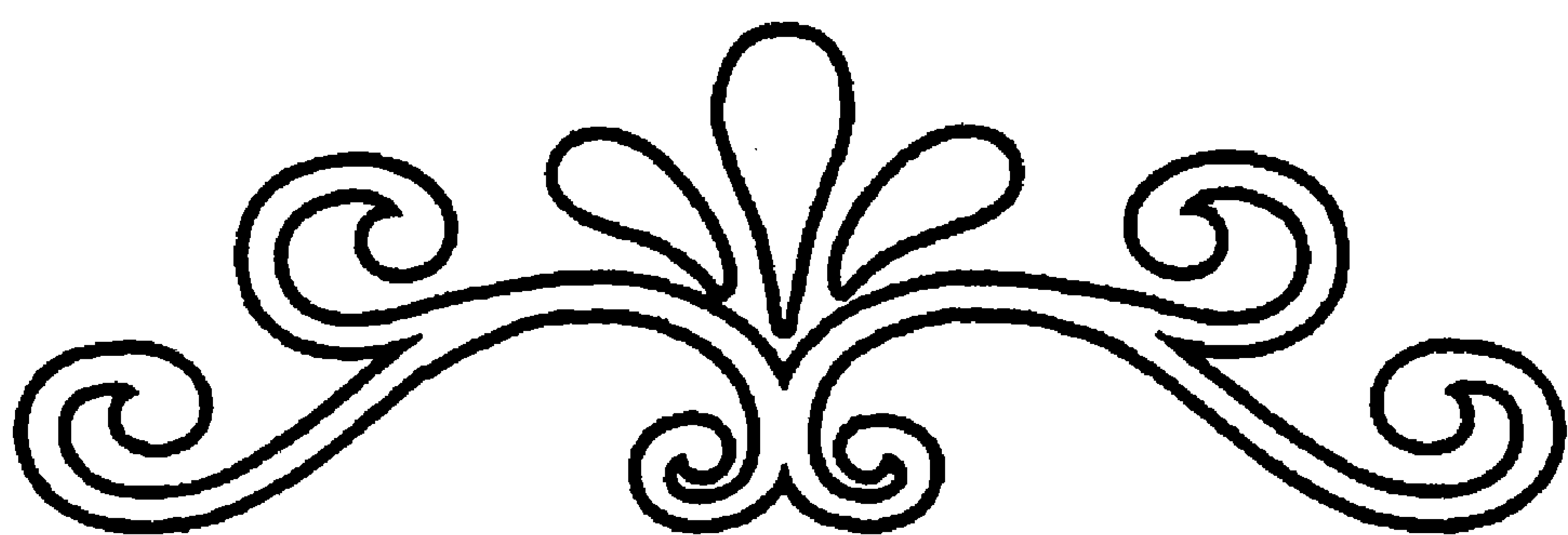
١٢- انهزم البساسيري ولقى حتفه وذلك في سنة [٤٥٢- ٤٥١- ٤٥٣].

النشاط التعليمي للوحدة الخامسة

عزيزي الدارس:

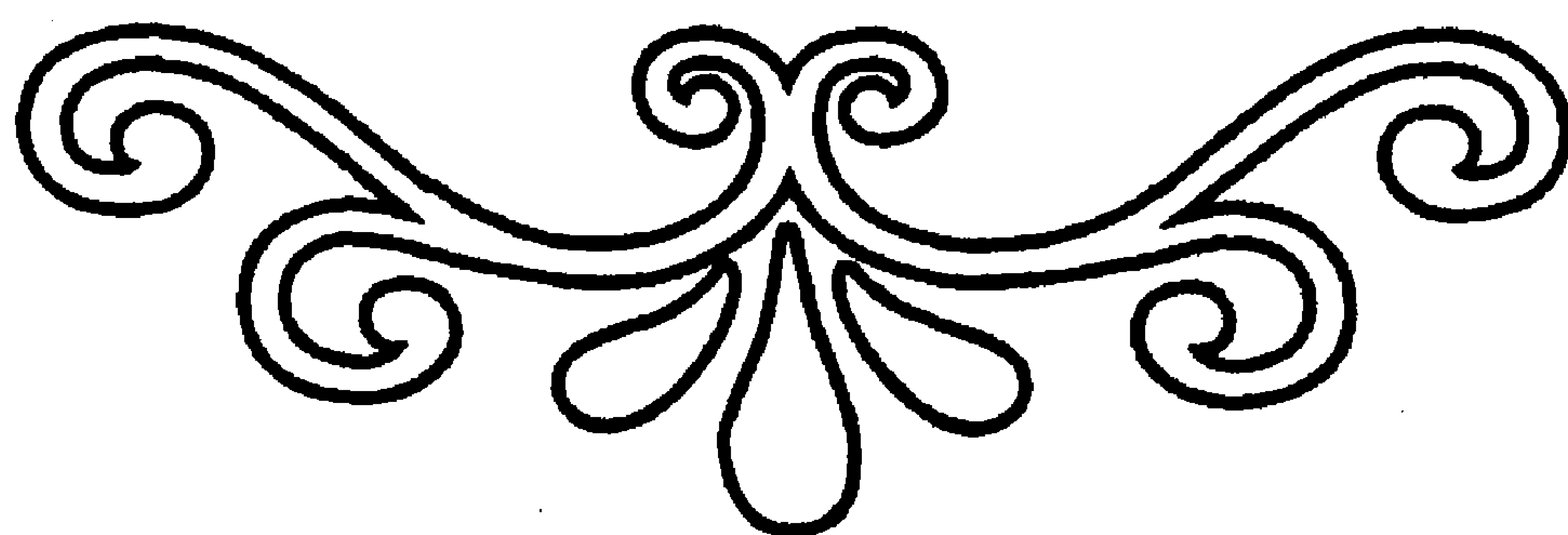
حتـى تكتسـب المزيـد مـن المعلومـات المتعلقـة بموضـوع هـذه الوحـدة نقـترح عليـك إنجـاز النشاط التعليمي التالي:

- اكتب ما تعرفه عن:
  - ١- طغرلبك.
  - ٢- ألب أرسلان.
  - ٣- ثورة البساسيري.
  - ٤- دولة البويهيين.



الوحدة السادسة

الحكم الإسلامي في الأندلس



محتويات الوحدة السادسة

الحكم الإسلامي في الأندلس:

- الدولة الأموية في الأندلس.
- ملوك الطوائف.
- المرابطون في المغرب والأندلس.
- الموحدون في المغرب والأندلس.
- الابتلاع الصليبي للأندلس.
- السلطة والكنيسة مع المسلمين.
- عوامل سقوط الأندلس.

أهمية دراسة الوحدة:



بعد فتح الأندلس على يد طارق بن زياد في عام ٩٢هـ، ثم سقوط الخلافة الأموية في الشام والحجاز، كان عبد الرحمن الداخل- حفيد الخليفة الأموي العاشر هشام- واحداً من بين أفراد الأمويين الذين استطاعوا أن ينجوا من القتل العام الذي قام به العباسيون في بداية حكمهم، ومن ثم استطاع دخول الأندلس واحتفظ هو وخلفاؤه بعرش قرطبة قرنين ونصف قرن من الزمان.

وفي هذه الوحدة سنعرض أحداث تلك الفترة من الحكم الإسلامي للأندلس حتى سقوطها على يد الفرنج النصارى.

الأهداف التعليمية:



يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١ - تفهم أن فتح الأندلس كان امتداداً لفتح المغرب.

٢- تُناقش أن قيام الدولة الأموية في الأندلس يعد توحيداً سياسياً أنقذ الأندلس من السقوط المبكر.

٣- تعلم أن عصر الطوائف يعد البداية الحقيقية لضعف الأندلس سياسياً وحضارياً.

٤- تُوضح أن المرابطين والموحدين حاولوا إنقاذ الأندلس من الانهيار.

٥- تُحلل أسباب سقوط الأندلس.

الدولة الأموية في الأندلس (١٣٨- ٤٢٣هـ/٧٥٥-١٠٣١م)

ذكرنا من قبل كيف فتح الأمويون الأندلس في عام ٩٢هـ/ ٧١٠م وكيف توطنوا فيها. كانت الأندلس كسائر ولايات الدولة الإسلامية تدار بأيـدي ولاة من قبل الأمويين حتى نهاية العصر الأموي سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م.

وكان عبد الرحمن الأول والملقب بـ «الداخل» هو حفيـد الخليفـة الأمـوي العاشر هشام واحداً من بين أفراد الأمويين الذين استطاعوا أن ينجـوا بأبـدانهم من القتل العام الذي قام به العباسيون في بداية حكمهم، وبعـد أن طـوف عبـد الرحمن زماناً تدخل في أمور الأندلس التي كانـت قـد اختلـت بسـبب المنافسـة الشديدة بين قبائل البربر وبعـض القبائـل العربيـة بـالمغرب الأقصى، ثـم تفـرد بالأمر وطالب الأهالي بالاعتراف به حاكماً.

وما إن قُبِل هذا الطلب حتى دخل عبد الرحمن الأنـدلس، ولمـا كانـت أغلبيـة المسلمين في الأندلس قد دخلت تحت طاعته في سنة ١٣٨هـ/ ٧٥٥م فقد اسـتطاع بتوفيـق كبـير أن يطـرد الأسـطول الـذي أرسـله العباسـيون للاسـتيلاء عـلى الأندلس، ويقتل قائده العلاء بن المغيث، وعلى هـذا النحـو قامـت في تلـك السـنة دولة أمويي الأندلس.

وقد اسـتطاع خلفـاء عبـد الـرحمن الأول أن يحتفظـوا بعـرش قرطبـة قـرنين ونصف قرن رغم عدوان المسيحيين القاطنين شمالي بلادهم، وبـرغم الاختلافـات الكبيرة بين رعاياهم في الداخل، ورغم حركات التمرد، وقد كـانوا يلقبـون بلقبـي

«أمير» و«سلطان»[١].

والواقع أن وجود إمارة أموية في شبه جزيرة كهذه -حيث الظروف الجغرافية التي تحول دون بسط سيطرة مركزية كاملة وبالتالي حكمها على نحو حازم- يعتبر في حد ذاته إنجازاً رائعاً.

وقد كانت هذه الإمارة قائمة على مدينتي إشبيلية وقرطبة إلا أن قبضة الأمراء على الأقاليم المتطرفة كانت أقل إحكاماً، ومع أن نسبة لا بأس بها من الروم الأندلسيين قد دخلت في الإسلام (المولدون)، فإن عدداً لا يستهان به منهم قد ظل على مسيحيته (المستعربون)، وظلوا يتطلعون إلى الشمال المسيحي يستلهمون منه التأكيد المعنوي والديني[٢].

وكانت مدينة طليطلة- التي اتخذها القوط الغربيون عاصمة لهم، فضلاً عن كونها المركز الكنسي للأندلس- تمثل بصورة خاصة أحد مراكز التمرد والعصيان على الوجود الإسلامي، وكان بين المسلمين كثير من الأمراء المحليين ممن حسن إسلامهم ومكنتهم قوتهم العسكرية- كحكام للأطراف- أن يتمتعوا بوضع مستقل عن العاصمة قرطبة.

وقد ساد هؤلاء الأمراء بصورة خاصة في وادي (أيبرو) الواقع في شمال الأندلس وهي المنطقة التي حملت فيما بعد اسم (أراجون) و(قطالونيا)، ومن هذه الفئة من الأمراء (بنو نجيب) في سرقسطة، و(بنو قسي) في طليطلة.

---

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ١/ ٢٥، دار المعارف بمصر ١٩٦٩م.

(٢) كليفورد.أ. بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي: ص ٣٤، الطبعة الثانية مؤسسة الشراع العربي بالاشتراك مع عين للدراسات والبحوث الاجتماعية والإنسانية. القاهرة ١٩٩٥.

وفي أعقاب القرن التاسع الميلادي كان هنالك مركزان مـن مراكـز التمـرد الذي استمر لفترة طويلة ضد الحكومـة المركزيـة، تـزعم إحـداهما ابـن مـروان الجليقي في المنطقة الواقعة حول بلدة بطليموس، أما الآخـر فقـد تزعمـه (ابـن حفصون) في جبال غرناطة.

وعلى الرغم من عوامل الضعف هذه ومواصـلة ممالـك الشـمال المسـيحية الصغيرة تحقيق استقلالها يوماً بعد آخر فـإن أمـويي الأنـدلس قـد جعلـوا مـن قرطبة مركزاً مرموقاً من مراكز التجارة والصناعة، كما جعلوا منهـا مركـزاً مـن مراكز الثقافة والعلم العربيين ولم يكن يفوقهـا في هـذه المنـزلة سـوى مـدينتي القاهرة وبغداد[1].

وهيمن على حكم الأنـدلس في القـرن العـاشر واحـد مـن أعظـم حكـام الأسرة هو عبد الرحمن الثالث الملقب بالناصر، فقـد دام حكمـه خمسـين عامـاً، واتخذ لنفسه لقب «خليفة».

وكان عبد الرحمن الثالث هذا هو أكبر حكام أمويي الأندلس قـوة وقـدرة فبالإضافة إلى أنه كان مستقلا استقلالاً تاماً في حكـم رعايـاه، فقـد اسـتطاع أن يدافع عن بلاده ضد الغارات التي كان يشنها الملوك المسيحيون في مناطق ليـون وقشتالة وناوار وكذلك ضد المحاولات التي قام بها الفاطميون.

وفي الوقت نفسه دعم حكمه بجـيش وأسـطول قـوي، وكـان إلى جانـب عدالته وكياسته في إدارة الأمور محباً للعلوم وللفنون، وقد ابتنى مدينـة الزهـراء

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار الملوك وتاريخ مدينة فـاس، ١/ ٩٨، الرباط ١٩٣٦.

بالقرب من قرطبة.

وجاء ابنه الحكم بن الناصر (٣٥٠-٣٦٦هـ/ ٩٦١-٩٧٦م) فاهتم بالعلم والكتب على حساب الملك والسياسة دون موازنة كافية بينهما، ومع ذلك فإن الحكم لم يتمزق بفضل حاجبه الوزير الأول ابن عامر الملقب «بالمنصور» الذي استولى على مدينة برشلونة، وما إن استشهد هذا المنصور في سنة ٣٩٢هـ/ ١٠٠١م حتى تهاوت أركان الخلافة الأموية في الأندلس، لأسباب أهمها تلك الفتنة بين العرب والبربر، مما جعل الأندلس تعيش عصر الطوائف وتصبح أكثر من عشرين دولة بعد أن كانت دولة واحدة، وقد تداول حكم البلاد لفترات قصيرة عدد من أفراد أسرة (آل حمود) الحكام المحليون لمالقة ثم الجزيرة فيما بعد.

وفي عام ٤٢٢هـ/ ١٠٣٠م اختفى الأمويون تماماً من البلاد، ثم ما لبثت الأندلس الإسلامية أن دخلت عهداً من التمزق السياسي كانت السلطة خلاله في أيدي أعداد شتى من الأمراء المحليين والجماعات العرقية، (وهو العهد المعروف بعصر ملوك الطوائف)(١).

ملوك الطوائف في الأندلس (٤٠٧-٤٨٥ هـ/ ١٠١٦-١٠٩٢م):

تعتبر الفترة الواقعة بين انهيار الخلافة الأموية في الأندلس وقيام دولة المرابطين فيها والمقدرة بنصف قرن فترة تفكك سياسي، وإن عدت- مع ذلك- فترة ازدهار ثقافي عظيم.

---

(١) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب بروض القرطاس في أخبار الملوك وتاريخ مدينة فاس، ١/ ١٠٠-١٠١.

وقد برز خلال هذه الفترة عدد من الأسر المحلية قدرها المؤرخون باثنين وعشرين أسرة، وقد مارست هذه الأسر الحكم في أجزاء شتى من الأندلس، فبعضها كان يحكم في ما يشبه دويلات المدن، وكان البعض الآخر يبسط نفوذه على مساحات كبيرة من الأراضي، كما هو الحال بالنسبة لأسرة (بني الأفطس) التي بسطت نفوذها على الأجزاء الجنوبية الغربية[١].

ولهذه الأسر أصول عرقية متعددة مما يعكس تعدد الفئات العرقية التي برزت تحت حكم الأمويين، كما يعكس التوترات والصراعات العرقية بين هذه الفئات.

ومن بين هذه الأسر من كانت أرومته عربية أصيلة مثل (بني عباد) الذين حكموا إشبيلية، و(بني هود) في سرقسطة، ومن بينها من كانت أرومته بربرية مثل (بني الأفطس) المكناسيين الذين حكموا في بطليموس، و(بني ذي النون) الهواريين الذين حكموا في طليطلة، وإن كان اسم هذه الأسرة في الأصل «بربر ذي النون»[٢].

وقد نضيف إلى هذه الأسرة أسرة (آل حمود) التي حكمت في مالقة، وكانت هذه الأسرة الأخيرة قد استعربت إلى حد ما خلال القرن الحادي عشر، وحاولت من خلال أدارسة المغرب إثبات الارتفاع بنسبها إلى ذرية الخليفة علي بن أبي طالب.

وقد برز بعض هذه الطوائف نتيجة تلك الأفواج العسكرية الإفريقية التي

---

(١) كليفورد.أ. بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٣٦.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

تدفقت على الأندلس بقيادة المنصور في نهاية القرن العاشر، مثل (الزيريين)- من بربر صنهاجة- الذين استقروا في (البيرة). وفي بلنسية سادت مجموعة من أعوان بني عامر وسلالة المنصور.

وفي أجزاء بعينها من الشمال الشرقي للبلاد مثل ترطوشة ودانة، ومن قبلهما بلنسية حكم لبعض الوقت عدد من الأمراء من أصول صقلبية.

ولئن كانت بعض هذه الدويلات الناشئة على قدر كبير من التمدن والرقي إلا أنها كانت قصيرة العمر، وقد ابتلع بنو عباد وهم- أقوى أصحاب هذه الدول وأرقاهم حضارة- معظم ملوك الطوائف، فقد وسع (بنو عباد) من دائرة ملكهم حتى وصلت تقريباً إلى مدينة طليطلة، فضلاً عن هذا فقد سعوا إلى إحكام مخططاتهم التوسعية في مرحلة ما من مراحل حكمهم بأن استخلفوا على الأندلس رجلاً زعم أنه آخر أموي يحمل اسم هشام الثالث، وكان بنو عباد هم قادة الأندلس في مقاومتهم الشديدة لغارات المسيحيين.

وقد كان الكثير من ملوك الطوائف لا يتورعون عن التواطؤ مع المسيحيين من حكام المناطق الأخرى، بل والاستنجاد بهم للعمل ضد إخوانهم من ملوك المسلمين. ويكفي أن نذكر أن آخر أمراء (بني الأفطس) المسمى (عمر المتوكل) قد أبدى استعداده للتنازل عن معظم ما يقع تحت يديه من ممتلكاته لألفونسو السادس أمير (ليون) و(قشتالة) مقابل مناصرته على أعدائه المرابطين[١].

وقرب نهاية القرن الحادي عشر ظهر واضحاً أن المد قد أخذ يرتفع في غير

(١) عبد الحليم عويس: أربعون سبباً في سقوط الأندلس، ص١٨، دار الصحوة الطبعة الأولى، القاهرة ١٩٩٤م.

صالح المسلمين في الأندلس، فقد ثارت الفئات المتدينة على حياة اللهو والمجون والتسيب التي كانت عليها الكثرة الكاثرة من الحكام المحليين، وفي ظل هذا الانحلال وجد بنو عباد أنفسهم لم يعودوا قادرين على مواصلة المقاومة، فاضطروا إلى طلب العون من المرابطين المعروفين بغيرتهم على الإسلام، وعندما سقطت طليطلة في يد المسيحيين عام ٤٧٨هـ/ ١٠٨٥م أدى هذا السقوط إلى ترحيب المعتمد بن عباد- الملك الشاعر- بقدوم المرابطين وجعله أمراً لا مفر منه[١].

المرابطون في المغرب والأندلس (٤٤٨- ٥٤٢/ ١٠٥٦- ١١٤٧م):

كان النجاح الجزئي الذي أحرزه نصارى الأندلس في منتصف القرن الخامس الهجري، والقوة التي أظهرها الجنوبيون والبيازنة في استردادهم جزيرتي كورسيكا وسردينيا، ثم الغارات التي قام بها النورمان على العرب في جنوب إيطاليا، كان كل ذلك من العوامل التي أدت إلى الضعف التام للحكم العربي في البحر المتوسط، ولم يستطع الاحتفاظ بقوة العرب المعنوية القديمة إلا الفاطميون في مصر، وكان بنو زيري في تونس لا يستطيعون حتى أن يقمعوا الثورات المتوالية التي كانت تظهر في رقعتهم الصغيرة، ولقد كان ما بين بني زيرى والحماديين والفاطميين من المنازعات والمخاصمات ما يمنعهم جميعاً من القيام بحركة مشتركة ضد المسيحيين، وكان قد آن الأوان ليقظة إسلامية[٢].

وفي منتصف القرن الخامس الهجري التقى يحيى بن إبراهيم- وهو رئيس

---

(١) المرجع السابق ص ١٨، ١٩.

(٢) المراكشي: كتاب المعجب في تلخيص أخبار المغرب، ص٨٨- ٨٩، ط دوزي، ليدن ١٨٨١.

بطن من بطون صنهاجة(١) يقال له جدالة- إثر عودته من الحج بداعية فقيه يقال له (عبد الله بن يس)، وكان ذلك في مدينة (نفيس) بالمغرب، فصحبه معه يحيى ليرغب أهل بلدته في أداء الفرائض الدينية، وأقام ابن يس في قبائل صنهاجة، وكان يحيى بن عمر وأخوه أبو بكر بن عمر، وهما من رفاق ابن يس رئيسين لشعبة من شعب صنهاجة يقال لها «لمتونة»، وقد ابتنيا هناك رباطاً، وذاعت أخبار زهد بن يس وتقواه في تلك الأرجاء، وحث البربر على الجهاد لنشر الإسلام ونصرته ومن هنا أطلق على أتباعه اسم المرابطين، وقد حرَّف الأسبان هذه الكلمة فصارت (المراويد)، ولما كان وضع اللثام عادة من عادات قبيلة لمتونة فقد أُطلق عليهم أيضاً اسم الملثمين.

وكان ابن يس يلي المسائل الإدارية لتشكيلات المرابطين، ويلي صاحبه الوفي يحيى بن عمر قيادتهم في الحرب، ولما توفى يحيى سنة ٤٤٨هـ/ ١٠٥٦م خلفه في قيادة الجيش أخوه أبو بكر، وتوفي ابن يس سنة ٤٥١هـ/ ١٠٥٩م(٢).

ويعتبر أبو بكر بن عمر اللمتوني مؤسس دولة المرابطين، وهو أول من سك العملة باسمه، وكان يوسف بن تاشفين وهو خلفه وابن عمه أشهر حكام المرابطين، وقد بنى أبو بكر مدينة مراكش في عام ٤٥٤هـ/ ١٠٦٢م؛ لتكون عاصمة له ولخلفه من بعده، ووسع فتوحه في المغرب الأقصى والجزائر فاستولى على فاس ومكناس وسبتة وطنجة وسلا، واعترف المرابطون بالتبعية للخلافة العباسية، واتخذوا من فقه الإمام مالك مذهباً لهم.

---

(١) صنهاجة: إحدى القبائل الرئيسية البربرية في الصحراء الكبرى.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ٢/ ١٣٢- ١٣٧.

ولما كان ابن تاشفين وهو صاحب قدرة عسكرية وإدارية كبيرة قد اكتسب ثقة المجاهدين جميعاً، فإنه تلبية لدعوة ملوك الطوائف خاصة العباديين في إشبيلية اجتاز البحر إلى الأندلس بجيش قوي، وبادر إلى مساعدة المسلمين ضد الهجمات التي كان يقوم بها ألفونسو السادس (لوذريق القامبطور)، وهزم ابن تاشفين جيش قشتالة هزيمة قاسية في رجب سنة ٤٧٩هـ/ تشرين الأول ١٠٨٦م وكان ذلك في سهل (زلاقة) ثم عاد إلى إفريقيا.

ولما كان ابن تاشفين قد دُعي مرة ثانية من قبل ملك إشبيلية سنة ٤٨٣هـ/ ١٠٩٠م للسبب الأول نفسه فإنه اجتاز البحر إلى الأندلس، إلا أنه استولى هذه المرة على بلاد ملوك الطوائف، ولم يترك إلا طليطلة، التي كانت في قبضة المسيحيين، وسرقسطة التي كان «بنو هود» يحكمونها بشق الأنفس، ولكن توفيق المرابطين مع هذا كان مؤقتاً، وذلك أن هؤلاء الشجعان ما لبثوا- بتأثير البلد الجميل الثري- أن ضعفوا وعجزوا عن مقاومة الغارات المسيحية المستمرة، بل لم يستطيعوا أن يضعوا خطة لاسترداد سلطانهم القديم في البحر الأبيض، واضطروا أن يتركوا لبني حماد وبني زيري في الجزائر وتونس والجزء الأكبر من طرابلس.

وبعد أقل من قرن من ظهور المرابطين استولى الموحدون على كل شمال إفريقيا وعلى جنوب الأندلس وقضوا على كل الحكومات المعادية[1].

وقد قُتل إسحاق بن علي آخر المرابطين في موقعة مراكش سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م ومع أن يحيى بن غانية والي المرابطين المشهور بالأندلس- والذي ترتبط

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الإسلام، السياسي ٤/ ٢٢٠- ٢٢٢.

أسرته بعلاقة مصاهرة مع المرابطين- قد أعلن عصيانه للموحدين وجهادهم، إلا أنه لم يوفق في آخر الأمر وتوفي سنة ٥٤٣هـ/ ١١٤٨م.

غير أن سلالة ما بعد المرابطين من أسرة «بني غانية» استمرت في ممارسة سلطتها على جزيرة ميورقة، وإلى أن استولى عليها جيش «أراغون» عام ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م كما استمروا في ممارسة سلطتهم على ميورقة كنواب تابعين لملك أراغون حتى عام ٦٨٥هـ/ ١٢٨٦م[1].

وعلى أية حال فقد كان الثلاثة الأول من حكام المرابطين وهم رؤساء قبائل صنهاجة بالصحراء الكبرى يعترفون لعبد الله بن يس بالسلطة الروحية، ولكن حكام المرابطين ابتداء من ابن تاشفين كانوا- مع محافظتهم على سلطتهم الزمنية- يعترفون للخلافة العباسية بالتبعية الروحية وكانوا يُلقبون بلقب (أمير المسلمين)[2].

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ص ٥١.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

الموحدون في المغرب والأندلس (٥٢٤- ٦٦٨هـ/١١٢٩- ١٢٦٩م):

أسس محمد بن تومرت- وهو من تلامذة الإمام الغزالى من قبائل مصامدة البربرية- دولة الموحدين في المغرب سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، وقد قام ابن تومرت بالترويج للمذهب الأشعري وأعلن التوحيد حتى سُميت الطائفة التي اتبعته باسم الموحدين في المغرب، وتولى ابن تومرت إمامة هذه الطائفة ولقب بـ«المهدي» وتوفي ابن تومرت سنة ٥٢٢هـ/ ١١٢٨م.

وخلفه في حكم الموحدين المصامدة صديقه العزيز وقائده عبد المؤمن سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م ومن عبد المؤمن هذا تبدأ شجرة الأسرة(١).

وقد بدأ عبد المؤمن في سنة ٥٣٤هـ/ ١١٣٩م سلسلة حروبه التي دامت طويلاً وفي سنة ٥٣٨هـ/ ١١٤٣م بدد جيش المرابطين واستولى في عامين اثنين على مدن وهران وتلمسان وفاس وسبتة وأغمات وسلا، ثم أجهز بعد ذلك على المرابطين باستيلائه على عاصمتهم (مراكش)، وكان قد أرسل في سنة ٥٤٠هـ/ ١١٤٥م جيشاً إلى الأندلس فأخضع كل ما كان بأيدي العرب هناك من البلاد.

وبعد أن حكم الأندلس والمغرب الأقصى أخذ يوسع بلاده نحو الشرق، فاستولى سنة ٥٤٧ هـ/ ١١٥٢م على دولة بني حماد بالجزائر، وفي سنة ٥٥٣هـ/ ١١٥٨م طرد النورمان الذين كانوا قد حلوا محل بني زيري في تونس، ثم ألحق طرابلس أيضاً ببلاده(٢).

---

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية ص ١/ ٥٣.

(٢) ابن أبي زرع: الأنيس المطرب، ٢/ ١٦٤- ١٦٧.

وهكذا دخلت في حوزته- بالإضافة إلى الأندلس- كل سواحل الشمال الأفريقي ابتداء من الحدود المصرية إلى المحيط الأطلسي، كما سعى صلاح الدين الأيوبي إلى محالفته وطلب مساعدته بحرياً ليتعاونا على التصدي للفرنجة.

وقد كانت الحروب ضد نصارى الأندلس مثار إزعاج شديد لعبد المؤمن وللمسلمين كافة، لذا فإن انهزام الموحدين في معركة (العقاب) سنة ٦٠٩هـ/ ١٢١٢م كان إيذاناً بخروجهم من الأندلس[١]، وبهذا اقتصر حكم آخر سلاطين الموحدين على إفريقية الشمالية.

وقد كان الأندلس في ذلك الوقت مقسماً بين النصارى وعدد من الدويلات الإسلامية، وكانت دولة بني نصر الذين يعرفون أيضا ببني الأحمر أكثر هذه الدول فاعلية في مقاوماتها لأعداء الإسلام، وما إن سقطت عاصمتهم غرناطة سنة ٧٩٨هـ/ ١٣٩٥م حتى دخلت كل الأندلس في يد فرديناند وإيزابيلا الكاثوليكيين.

ولقد ترتب على ضياع الأندلس من يد المسلمين أن اضمحل حكم الموحدين بالمغرب.

والواقع أن طرابلس الغرب كانت قد خضعت سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م لصلاح الدين الأيوبي، وكان بنو حفص- وهم نواب الموحدين في تونس- قد أقاموا دولة مستقلة سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م وحذا حذوهم «بنو زيان» فاستقلوا سنة ٦٣٧هـ/ ١٢٣٩م بـ (تلمسان) الواقعة غرب الجزائر، وقد استفاد «بنو مرين»- وهم من القبائل الجبلية- من الاضطرابات التي أثارها عدد من

(١) محمد عبد الله عنان: عصر المرابطين والموحدين، ص١٥٧- ١٦١.

الأدعياء الذين حاولوا الاستيلاء على العرش فتدخلوا في الأمر، واستولوا على (مراكش) مقر حكومة الموحدين سنة ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م وهكذا انقرضت دولة الموحدين[١].

وقد كان عبد المؤمن ومن جاءوا بعده يتلقبون بلقب "أمير المؤمنين" وهو لقب يدل على أن بنية دولة الموحدين ذات بنية دينية تؤكد هيمنة السلطة الحاكمة، وهي بنية تعكس جوهر دعوة ابن تومرت، وتقوم على نظام من التدرج الهرمي الدقيق لمستشاري الخليفة وخلصائه[٢].

وكان البلاط الموحدي أحد المراكز الراقية للفنون والعلوم، فضلاً عن ذلك فإن الفلسفة الإسلامية لم تحقق آخر ازدهار لها إلا على أيامهم، وهو الازدهار الذي ارتبط بأسماء عدد من العلماء منهم ابن طفيل وابن رشد، وكلاهما كان طبيباً لأمراء الموحدين[٣].

الابتلاع الصليبي للأندلس:

بعد ترك الموحدين للأندلس لم تلبث الكثير من المدن الإسلامية أن سقطت واحدة بعد الأخرى في يد المسيحيين، فسقطت قرطبة سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م وسقطت إشبيلية سنة ٦٤٦هـ/ ١٢٤٨م.

غير أن أحد أمراء المسلمين وهو محمد الغالب قد تمكن من الاحتفاظ بمنطقة غرناطة الواقعة في منطقة جبلية حصينة، واتخذ من قلعة مدينتها-

---

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدولة الإسلامية، ١/ ٥٤.

(٢) علام: الدولة الموحدية، ص١٧٢ وما بعدها.

(٣) المرجع السابق نفس الصفحة.

المعروفة بالحمراء- مركزاً لحكمه بعد أن قبل بتأدية الجزية لفرديناند الأول ملك قشتالة، ثم وافق على تأديتها بعد ذلك لخلفه ألفونسو العاشر.

وقد حاول سلاطين (بني نصر) اتباع سياسة متوازنة في تعاملهم مع المسيحيين من ناحية، ومع (بني مرين) من ناحية أخرى، وقد كان (بنو مرين) يطمحون إلى استعادة الأندلس إلى حظيرة الإسلام، غير أن آمال المسلمين في تحقيق فتح مريني ناجح قد تهاوت بهزيمة السلطان أبي الحسن على يد الملك ألفونسو الحادي عشر حاكم قشتالة في موقعة (ريو صلادو) سنة ٧٤١هـ/ ١٣٤٠م)[١].

وقد ظلت غرناطة- رغم موقعها الضعيف- طيلة قرنين ونصف القرن مركزاً للحضارة الإسلامية، يقصدها طلاب العلم والأدب من مختلف أصقاع الغرب الإسلامي، ومن أعلام غرناطة المؤرخ عبد الرحمن بن خلدون الذي عمل سفيراً لمحمد السادس، ومن أعلامها أيضا الوزير لسان الدين الخطيب الذي يعد كتابه «الإحاطة في أخبار غرناطة» واحداً من أهم المصادر التاريخية.

غير أن زواج فرديناند الثاني ملك أرجون من "إيزابيلا" ملكة قشتالة في سنة ٨٧٤ هـ/ ١٤٦٩م وحد أسبانيا المسيحية تحت تاج واحد، فبات الأمل واهياً في بقاء غرناطة مملكة إسلامية.

والواقع أن المسلمين هم الذين عجلوا بقرب نهايتهم في الأندلس حين انشغلوا بمعاركهم الداخلية حول ولاية الحكم. وفي سنة ٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م سقطت غرناطة في يد المسيحيين وفر منها أبو عبد الله آخر ملوك بني نصر إلى المغرب[٢].

---

(١) كليفورد.أ. بوزورث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٤٣.

(٢) المرجع السابق ص ٤٣- ٤٤.

ماذا فعلت السلطة والكنيسة الإسبانيتان مع المسلمين؟

إن ما فعلته السلطة والكنيسة الإسبانيتان مع بقايا مسلمي الأندلس بعد سقوط آخر معاقلهم السياسية غرناطة يقصه علينا الأستاذ محمد عبد الله عنان في كتابه «**نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**»؛ وهذا يبين لنا أن ما يجري اليوم من ممارسات التنصير والقهر الفكري بالاعتماد على معطيات العلم والتكنولوجيا والتطور المذهل في برامج العمل وخططه، كان يتم في الماضي بأشكال وصيغ أخرى، وإن كانت تقود في كثير من الأحيان إلى النتائج نفسها وهي تدمير الطاقة النفسية للمسلم، وتفريغ عقيدته وقناعاته وأفكاره السابقة، وملء عقله ووجدانه بما يراد له لا بما يريده هو أن يكون.

يذكر عنان ما يصفه لنا مؤرخ إسباني عاش قريباً من عصر المحنة الإسلامية في الأندلس نيات الكنيسة نحو المسلمين في قوله: «إنه منذ استولى فرديناند على غرناطة (٨٩٨هـ/ ١٤٩٢م) كان الأحبار يطلبون إليه بإلحاح أن يعمل على سحق طائفة محمد في إسبانيا، وأن يطلب إلى المسلمين الذين يودون البقاء إما التنصر، أو بيع أملاكهم والعبور إلى المغرب، وأنه ليس في ذلك خرق للعهود المقطوعة لهم، بل فيه إنقاذ لأرواحهم وحفظ لسلام المملكة؛ لأنه من المستحيل أن يعيش المسلمون في صفاء وسلام مع النصارى، أو أن يحافظ المسلمون على ولائهم للملوك ما بقوا على الإسلام الذي يحثهم- كما يزعمون- على مقت النصارى أعداء دينهم»[1].

ولم تكن هذه السياسة في الواقع بعيدة عما يخالج ملكي إسبانيا فرديناند

(١) الكتاب يمثل العصر الرابع من مؤلف محمد عبد الله عنان المشهور: دولة الإسلام في الأندلس، ط٢- مطبعة مصر، القاهرة ١٩٥٨.

الخامس وزوجته الملكة المتعصبة إيزابيلا الكاثوليكية من شعور نحو المسـلمين، ولم تكن العهود التي قطعت للمسلمين بتأمينهم على أنفسهم وأموالهم واحـترام دينهم وشـعائرهم، لتحـول دون تحقيـق أغـراض السياسـة القوميـة، ذلـك أن فرديناند لم يحجم قط عن أن يقطع الوعود والمواثيق متى كانـت سـبيلاً لتحقيـق مآربه، وأن يسبغ على سياسته الغادرة ثوب الدين والورع.

وأخذت سياسـة الإرهـاب تجـرف في طريقهـا كـل شيء، ونشـط ديـوان التحقيق، أو الـديوان المقـدس، يدعمـه الكنيسـة والعـرش إلى مزاولـة قضـائه المدمر... وهكذا فإنه لم تمض بضعة أعوام على تسليم غرناطة حتى بـدت نيـات السياسة الإسبانية واضحة نحو المسلمين، وكانت الكنيسة تحاول خـلال ذلـك أن تعمل على تحقيق غايتها -أعني تنصير المسلمين- بالوعظ والإقناع ومختلـف وسائل التأثير المادية، ولكن هذه الجهود لم تسفر عن نتائج تذكر.

جنحت الكنيسة عندئذ إلى سياسة العنف والمصـادرة، وأذعنـت السياسـة الإسبانية للكنيسة ولم تذكر ما قطعـت مـن عهـود مؤكـدة للمسـلمين بـاحترام ديـنهم وشـعائرهم وكـان وراء هـذه السياسـة العنيفـة حـبران كبـيران همـا: الكاردينـال «خمينـيس» مطـران طليطلـة رأس الكنيسـة الإسـبانية، والـدون «ديجاديسا» المحقق العام لديوان التحقيـق... فأغلقـت المسـاجد، وحظـر عـلى المسـلمين إقامـة شـعائرهم، وانتهكـت عقائـدهم وشريعـتهم... واسـتدعى الكاردينال «خمينيس» إلى غرناطة ليعمل على مهمة تحقيق تنصير المسلمين، فوفد عليها في شهر تموز سنة ٩٠٥هـ/ ١٤٩٩م، ودعا أسقفها الـدون (تـالافيرا) إلى اتخاذ وسائل فعالة لتنصير المسـلمين... وتمركـزت حركـة التنصـير في غرناطـة

وبـالأخص في حـي (البيـازين) حيـث حُـوِّل مسـجد في الحـال إلى كنيسـة سميت (سان سـلفادور)، واحـتج بعـض أكـابر المسـلمين عـلى هـذه الأعـمال دون جدوى.....

ولم يقف الكاردينال «خمينيس» عنـد تنظـيم هـذه الحركـة الإرهابيـة التـي انتهت بتوقيع التنصير المغصوب عـلى عشرات الألـوف مـن المسـلمين، ولكنـه قرنها بارتكاب عمل بربري شائن هو أنه أمر بجمع كل مـا يسـتطاع جمعـه مـن الكتب العربية من أهالي غرناطة وأرباضها، ونظمـت أكـداس هائلـة في ميـدان باب الرملة أعظم ساحات المدينة وأضرمت النيران فيها جميعاً... وذهبت ضحية هـذا الإجراء الهمجي عشرات الألوف من الكتب العربية هي خلاصة ما بقي من تراث الفكر الإسلامي في الأندلس[١].

وما حدث في غرناطة حدث في باقي البلاد والنواحي الأخرى، فَنُصِّرَ أهـل (البشرات) و(المرية) و(بسطة) و(وادي آش) في العام التالي ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠م وعـم التنصـير سـائر أنحـاء مملكـة غرناطـة، غـير أن ذلـك لم يـتم دون ثـورات وحركات مقاومة قدم فيهـا المسـلمون صـوراً فـذة للبطولـة والفدائيـة في سـبيل العقيدة، ولكنهم كانوا عـزلاً وكانـت جنـود النصرانيـة صـارمة شـديدة الوطـأة فمزقتهم بلا رأفة، وكثر بينهم القتل وسبيت نساؤهم وقضى بالموت عـلى منـاطق بأسرها وحُوِّل أطفالها إلى النصرانية[٢].

وفي العشرين من حزيران عام ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١م وبتـأثير مـن الكنيسـة،

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص ٢٩٧- ٣٠٠.

(٢) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص٣٠٣- ٣٠٤.

أصدر فرديناند وإيـزابيلا أمـراً ملكيـاً خلاصـته أنـه لمـا كـان الله قـد اختارهمـا لتطهير مملكة غرناطة من الكفرة فإنه يحظر وجود المسلمين فيهـا، فـإذا كـان بهـا بعضهم فإنه يحظر عليهم أن يتصلوا بغيرهم خوفاً مـن أن يتـأخر تنصـيرهم، أو بأولئـك للـذين نصروا؛ لـئلا يفسـدوا إيمانهـم ويعاقـب المخـالفون بـالموت أو مصادرة الأموال.

ومضت السياسة الإسبانية في اضطهاد المسلمين بمختلف الوسائل، وكان من الإجراءات الشاذة التي اتخذت في هذا السبيل تشريع أصدره فرديناند بإلزام المسلمين في المدن بالسكنى في أحياء خاصة بهم على نحو كان متبعاً عنـد اليهـود. في العصور الوسـطى، ونفـذ هـذا التشريـع في غرناطـة عقـب حركـة التنصـير الشامل...

وصدر في نفس الوقت في أيلول سنة ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١م قانون يحـرم عـلى المسلمين إحراز السلاح علناً أو سراً، وينص عـلى معاقبـة المخـالفين لأول مـرة بالحبس والمصادرة ثم بالموت بعد ذلك.

وكانت السياسة الإسبانية تخشى احتشاد الموريسكيين (المسلمين المتنصرين) وتجمعاتهم في مملكة غرناطة، ولهذا صدر في شباط سنة ٩٢١ هـ/ ١٥١٥م مرسوم ملكي أعلن في طليطلة يحـرم بتاتـاً عـلى المسـلمين المتـنصرين حـديثاً أن يخترقـوا أراضي مملكة غرناطة، ويعاقب المخالفون بالموت والمصادرة، ونص هذا المرسـوم أيضاً بأنه يحرم بتاتاً على المتنصرين حديثاً في مملكة غرناطة أو في أيـة جهـة أخـرى من المملكة أن يبيعوا أملاكهـم لأي شـخص دون تـرخيص سـابق، ومـن فعـل عوقب بالموت والمصادرة، وذلك لأنه تبين- كـما ورد في المرسـوم- أن كثـيراً مـن

المسلمين المتنصرين يبيعون أملاكهم ويحصلون أثمانها، ثم يعبرون إلى المغرب، وهنالك يعودون إلى الإسلام[(١)].

ويصف أحد المؤرخين المسلمين الأندلس بهذه الكلمات المؤثرة: «ثم بعد ذلك دعاهم- أي ملك قشتالة- إلى الدخول في المسيحية، وأكرههم عليه وذلك في سنة أربع وتسعمائة، فدخلوا في دينهم كرهاً، وصارت الأندلس كلها نصرانية، ولم يبق فيها من يقول لا إله إلا الله محمد رسول الله، إلا من يقولها في قلبه وفي خفية من الناس وجعلت النواقيس في صوامعها بعد الآذان، وفي مساجدها الصور والصلبان بعد ذكر الله وتلاوة القرآن، فكم فيها من عين باكية وقلب حزين، وكم فيها من الضعفاء والمعذورين، لم يقدروا على الهجرة واللحاق بإخوانهم المسلمين، قلوبهم تشتعل ناراً، ودموعهم تسيل سيلاً غزيراً، وينظرون إلى أولادهم وبناتهم وهم يعبدون الصلبان، ويسجدون للأوثان ويأكلون الخنزير والميتات، ويشربون الخمر التي هي أم الخبائث والمنكرات، فلا يقدرون على منعهم، ومن فعل ذلك عوقب بأشد العقاب، فيا لها من فجيعة ما أمرها ومصيبة ما أعظمها...»[(٢)].

عوامل سقوط الأندلس:

١- يعتبر التفكك السياسي الذي ساد الأندلس نتيجة انفراط عقد الخلافة الأموية إلى اثنتين وعشرين دولة (طائفة) سبباً مباشراً في سقوط الأندلس، وقد حفل عصر الطوائف هذا بمظاهر سقوط كثيرة وشنيعة تولدت من التفكك السياسي وما نجم عنه من مظاهر التنافس الرخيص والقتال

(١) محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، ص ٣٠٨- ٣١٠.

(٢) أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، ص ٥٤- ٥٦، تحقيق ميللر. غوتنغن، سنة ١٨٦٣م.

الداخلي والمجون والعبث.

لقد انتثر عقد الأندلس بين عناصر متصارعة هي: (البربر) في الجزء الجنوبي و(الصقالبة) في القسم الشرقي، (والعرب) في باقي الأندلس[1]...

ومن أهم هذه الممالك المتصارعة المتنابذة:

أ) موالي العامرية (في الشرق الأندلسي) ويندرج تحتها حكم «خيران العامري» للمرية ومرسية، و(مجاهد العامري) لدانية والجزائر ٤٠٠-٤٦٨هـ/ ١٠٠٩-١٠٧٥م إلى أن ضمها بنو هود إلى ملكهم.

ب) بنو زيري (في الجنوب) في غرناطة ومالقة، ثم توسعت فضمت قبرة جيان ومالقة وبنو الأفطس أصحاب بطليموس، وبنو ذي النون في طليطلة، وبنو رزين أصحاب السهلة.

ج) بنو عباد أصحاب إشبيلية ٤١٤- ٤٨٤هـ/ ١٠٢٣-١٠٩١م الذين أصبحوا أكبر دولة من دول الطوائف، وبنو هود أصحاب سرقسطة، وبنو القاسم والفهريون في البونت، وبنو حمود الحسنيون بالجزيرة.

د) بنو جهور موالي الأمويين في قرطبة، وتشمل إمارتهم مدن أخرى مثل (جيان) و(بياسة) و(آند)، وقد سقطت قرطبة بعد ٤٠ سنة من حكمهم في يد بني عباد، وزالت بالتالي دولة (بني جهور)، ولقد وجد في حكمها لهذه الإمارات نوع من التنافس على السلطة والتوسع على حساب بعضهم، واتخاذ

---

(١) لقد قام الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس بدراسة قيمة لأسباب سقوط الأندلس في كتابه: «أربعون سبباً لسقوط الأندلس»، دار الصحوة، القاهرة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م، وهو ما رجعنا إليه في هذا الموضوع.

الألقاب والنعوت بما استجلب نوعاً من السخرية منهم، وقد شوهد من بين حكام هذه الإمارات ست دول يحمل رئيس كل منها «لقب ملك» هذه الدول هي: قرطبة، وإشبيلية، وقرمونة، وإِسْتِجَة، ومالقة والجزيرة الخضراء، وغرناطة، وكان استقلال شكلياً[١].

أما من ناحية الاتجاه السياسي والإداري لهذه الإمارات فليس بينهم تفاوت يذكر فكلها كما يقول ابن حزم: «نظم مستبدة مستهينة بالدماء، مكثرة من أسباب الترف وضروب العمران، واستجلاب المنافقين من الكتاب والوزراء والشعراء، وقد نشأ بينها من المفاسد ما أعوز دفعه، وتعدد وتره وشفعه، واستحكم ضرره حتى لم يمكن دفعه» وبدلاً من أن تتحد قواهم في مواجهة عدو صليبي مشترك، تشتتوا وتقاتلوا حتى ضعفت قواهم، فلم يستطيعوا أن يصمدوا أمام هجمات النصارى.

كذلك كانت حروبهم الداخلية سبباً في أن يستنجد بعض هؤلاء الملوك والأمراء بقوات من النصارى؛ ليستعينوا بها على منافسيهم من الملوك المسلمين، ومن هؤلاء على سبيل المثال «سعد بن علي» الذي وصل إلى الحكم بمساعدة ملك النصارى «هنري الرابع»، وبني سراج الخونة سنة ٨٥٩هـ/ ١١٥٤م، كما أنه قدم ابنه أبا الحسن وسبعين فارساً رهينة لهنري ملك قشتالة ليساعده ضد محمد الحادي عشر سلطان غرناطة الشرعي، وبناء على هذا فقد وضع هنري الرابع لجيشه خطة تقتضي تدمير قرى المسلمين الحيوية، واستمر النصارى ثلاثة أسابيع في حرق القرى والمحاصيل الزراعية من أجل إفقار غرناطة وسلطانها

(١) عبد الحليم عويس: أربعون سبباً في سقوط الأندلس، ص١٨– ١٩.

على المدى الطويل، وكل ذلك بسبب حماقة سعد بن علي وموالاته للنصارى واستعانته بهم مما أتاح الفرصة للنصارى أن يبدأوا ... من هذا العصر الشاذ ... رحلة الاسترداد الطويلة الكئيبة ...

وفي ضوء هذا يقول الدكتور عبد الحليم عويس[1]: إن هؤلاء الحكام وهذه الدول التي ورثت الخلافة الأموية تتحمل الوزر الأكبر في وضع بذور سقوط الأندلس، وكان ابن حزم يُقسم بأن ملوك الطوائف هؤلاء لو علموا أن في عبادة الصلبان تمشية لأمورهم لعبدوها[2].

٢- كما كانت مؤامرات النصارى ومخططاتهم ومتابعتهم لأحوال المسلمين واستغلالهم للثغرات وفترات الضعف ونشرهم الأفكار الانهزامية الهادمة بينهم، مما يدفع إلى اتباع المسلمين لمناهج حياتهم وعاداتهم حذوك النعل بالنعل «حَتَّى لَوْ دَخَلُوا جُحْرَ ضَبٍّ لَدَخَلْتُمُوهُ»[3]... كما قال الرسول ﷺ.

٣- تخلي جمهرة من العلماء والدعاة عن رسالتهم وانغماسهم في متابعة الظالمين، فانحطت مكانة الفقهاء انحطاطاً كبيراً ومما قيل في تصوير انحطاط الفقهاء قول الشاعر ابن عبد الكريم القيسي:

أَلْكَلْبُ صَارَ بِبَسْطَةٍ ... أَعْلَى وَأَشْرَفَ مِنْ فَقِيهْ
أَنَّى فَقِيهٌ يَعْتَلِي ... لِمَحَلِّهِ أَوْ يَرْتَقِيهْ

---

(١) عبد الحليم عويس: أربعون سبباً في سقوط الأندلس، ص٢٠.

(٢) المرجع السابق، ص٢٠.

(٣) البخاري: ح٣٤٥٦، ومسلم: ح٢٦٦٩.

ويعتبر الفقيه «ابن البقني» مثلاً صارخاً للخيانة حين تعاون مع ملكي قشتالة وأراغون لإتمام تسليم غرناطة[١].

٤- التكاثر المادي وتبديد طاقة الأمة في بناء القصور المترفة والمساجد المتحفية ووسائل الزينة والراحة والدعة، ومنها: «زهراء الناصر» و «زاهرة ابن أبي عامر» و «حمراء بني الأحمر»، وغيرها.

٥- تعويق حركة الدعوة بالوسائل الدعوية المعروفة والمتدرجة، والاعتماد على الحروب من أجل الدولة لا الدعوة، وقد انتصر المنصور بن أبي عامر في سبع وخمسين غزوة (حروب دولة)، ومع ذلك سقطت الأندلس في مستنقع عصر الفتنة والطوائف بعد وفاته بأقل من عشر سنوات، لقيام حكمه على ديكتاتورية الدولة، وعلى الاستبداد، كما أن مُلكه قام على الدماء وتصفية الخصوم بطريقة لا إسلامية ولا أخلاقية، كما أنه أحدث شللاً واختراقاً لكيان الخلافة الأموية، فلم تنتفع الدولة من حروبه وانتصاراته المصلحية[٢].

٦- وكان للنساء نصيب في سقوط الأندلس، تدخل بعضهن في شئون الحكم فنشرن البغضاء والصراعات من وراء الكواليس، كما نشر بعضهن الفساد والانحلال ومنهن «ولادة بنت المستكفي» التي كانت تقول شعراً تتبجح فيه دون مبالاة بأخلاق المجتمع والشريعة، فتقول:

وَأُمَكِّنُ عَاشِقِي مِنْ صَحْنِ خَدِّي وَأُعْطِي قُبْلَتِي مَنْ يَشْتَهِيهَا

---

(١) عبد الحليم عويس: أربعون سبباً في سقوط الأندلس، ص ١٩.

(٢) عبد الحليم عويس: أربعون سبباً في سقوط الأندلس، ص ١٣.

كما كان للنساء النصرانيات المتزوجات من أبناء الأسر الحاكمة دوراً بارزاً في الفساد، وقد أُغتيل بتأثير مؤامراتهن «أبو الوليد إسماعيل» وهو من أعظم حكام غرناطة، كما أن زواج أبي الحسن- الذي خلع أباه سعد بن علي من ثريا «إيزابيلا»- أفسد الأمور كلها[1].

٧- المعاهدات السرية التي كانت تُبرم مع النصارى بعيداً عن الشعب، وفيها من صور الخيانة الكثير، وأكثر ما تضمنته التنازل عن الكور والقلاع والتعاون مع النصارى ضد المسلمين... وقد تجلى هذا الأمر الذريع في ملوك غرناطة بخاصة ولا سيما في عصرها الأخير، وفي تجربة الأندلس وضع النصارى في شتى العصور تخطيطهم على أسس ثلاثة ثابتة لم تتخلف قط:

أولها: العمل على تفريق كلمة المسلمين وضرب بعضهم ببعض حتى تذوب معالم العقيدة الجامعة بينهم، ويصبح الولاء للمصلحة وليس للإسلام.

ثانيها: العمل على وحدة كلمة النصارى بمؤازرة الدول الأوروبية وبمباركة من البابا، وكان اتحاد مملكتي (قشتالة) و(أراغون) هو التتويج العملي النهائي لجهود الوحدة.

ثالثها: الغدر الدائم بالعهود والمواثيق واعتبارها مرحلة تمليها الظروف، وفي خلالها يتم اتخاذ إجراءات وضغوط من شأنها إضعاف الطرف المسلم، والتمهيد للوثبة الصليبية التالية[2].

---

(١) المرجع السابق، ص١٢.

(٢) عبد الحليم عويس: أربعون سبباً في سقوط الأندلس، ص٢٠.

٨- قيام أكثر الحكومات الأندلسية ولا سيما في عصور الطوائف على قاعدة (الظلم) المؤذن بخراب البلاد ونفور العباد، وقد أدى انتشار الظلم إلى عدم الاستقرار السياسي والاجتماعي، وكثرة الدسائس والفتن والانقلابات الدموية في سبيل السلطة، كما أدى إلى كثير من الثورات الشعبية، وإلى تطاحن الطوائف المسلمة، وإلى كراهية العرب نتيجة استئثارهم بالمال والسلطة، واعتقاد أكثرهم أن ذلك حق لهم عدلوا أو لم يعدلوا، كانوا أكفاء أو لم يكونوا؛ وكأن الإسلام ميراث ورثوه عن آبائهم يمنحهم سلطة عرقية كهنوتية وليس دينا جاء بالعدل والمساواة والرحمة لكل البشر.

٩- وكان من أهم عوامل السقوط قاطبة أن أكثر الناس (عملياً أولاً وفكرياً ثانياً) نتيجة ضغوط المذاهب العقلانية والفلسفية الوافدة فقدوا الميزان الذي يحتكمون إليه وهو القرآن الكريم والسنة النبوية الشريفة على صاحبها أفضل الصلاة السلام، فأصبح كل منهم يبحث عن إسلام نصراني لاهوتي يسمح له بممارسة الحياة البهيمية والمادية التي ترضيه، ولا مانع عند ذاك من صيام رمضان وأداء الصلوات والحج وحضور الاحتفالات للقرآن والسنة باسم التقدمية والانفتاح على ممالك الشمال النصرانية المتحدة المتقدمة، وبعضهم كان يحاول الجمع بين الإسلام والنصرانية تحت مسميات تشبه مسميات عصرنا مثل (الوحدة الوطنية) و(العلمانية)[١].

---

(١) عبد الحليم عويس: أربعون سبباً في سقوط الأندلس، ص ٢١.

قال المستشرق (كوندي) «العرب هووا عندما نسوا فضائلهم التي جاءوا بها وأصبحوا على قلب متقلب يميل إلى الخفة والمرح والاسترسال بالشهوات».

وسئل الأستاذ شوقي أبو خليل عن سبب ضياع الأندلس فقال: «دخلنا الأندلس بشجاعة وفداء طريف بن مالك، وعزيمة طارق بن زياد، وإيمان موسى بن نصير وطموح عبد الرحمن الغافقي، وبطولة السمح بن مالك الخولاني، وتجدد الإسلام فيها بنجدة ومتانة عقيدة يوسف بن تاشفين، بقينا في الأندلس ما بقينا مع الله، وضاعت الأندلس لما أضعنا طريق الله»(١).

بقينا في الأندلس بهمة عبد الرحمن الداخل الذي قال لما نزل من البحر إلى بر الأندلس، وقد قدم إليه الخمر ليشرب فأبى وقال: «إني محتاج لما يزيد في عقلي لا لما ينقصه»، فعرف الناس من ذلك قدره، ثم أهديت إليه جارية جميلة فنظر إليها وقال: «إن هذه لمن القلب والعين بمكان، وإن أنا لهوت عنها بمهمتي فيما أطلبه ظلمتها، وإن لهوت بها عما أطلبه ظلمت مهمتي، فلا حاجة لي بها الآن». فقالوا: إن الأمير ذو همة(٢).

مرت الأيام ومال المسلمون في الأندلس إلى حياة الرخاء والنعيم متناسيين من يمكر بهم ومن يجمع صفوفه لسحقهم، كان عدوهم يستعد عسكرياً ويوحد كلمته وهم في موشحاتهم وسماعهم وخمرتهم وترفهم مخمورون...

دخلنا الأندلس عندما كان نشيد طارق في العبور: «الله أكبر»، ذلك النشيد

---

(١) شوقي أبو خليل: عوامل النصر أو الهزيمة عبر تاريخنا الإسلامي ص ١١٠ دار الفكر الطبعة الأولى دمشق ١٣٩٩هـ، نقلاً عن الأستاذ الدكتور عبد الحليم عويس: المرجع السابق، ٢١.

(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

الذي لامس سمع الزمان فترنم لعذوبته وصدقه وجلاله، فكان الله ورسوله ﷺ مع طارق لقد أخذت طارقاً سنة من نوم وهو يجتاز المضيق إلى أرض الأندلس، فرأى النبي ﷺ وحوله المهاجرون والأنصار قد تقلدوا السيوف وتنكبوا القسي، فيقول له رسول الله ﷺ: يا طارق تقدم لشأنك، ونظر إليه وإلى أصحابه قد دخلوا الأندلس قدامه.

وخرجنا منها لما صار نشيدنا:

دونك العُودَ وَهَاتِ القَدَحَا   رَاقَتِ الخَمْرُ والوَرْدُ صَحَا

إنها فوضى أخلاقية، وخيانة للقيم الإسلامية، فكيف لا يكون الموت نتيجة طبيعية.

وفي ظل هذه الفوضى جنحت الأمور إلى التكثيف في جانب على حساب جانب وضاع التوافق الذي حققه الإسلام بين الوحي والعقل والفرد والمجتمع والذاتية والغيرية، كما ضاع ترتيب الأولويات، وقد حورب العقل في كثير من الفترات، كما صودر حق الاجتهاد، وأحرقت الكتب تملقاً للعامة، وتعرض الإسلام لتفسيرات خاصة تجنح به طوراً إلى العقل المجرد، وطوراً إلى العاطفة البحتة.

١٠- ولقد كانت أرغوان وقشتالة وممالك الشمال بمثابة سرطان في جسم الأندلس، وكان الوعي الاستراتيجي يوجب أن يظل الهدف الأندلسي الثابت هو طرد هذه القوى وتوحيد الأندلس طبيعياً وجغرافياً حتى تصبح جبال البرانس (ألبرتات) فاصلاً طبيعياً وجغرافياً حقيقياً، ولكن هذا لم يحدث، وهذه خطيئة كبرى وقع فيها مسلمو الأندلس، بل إن

النصارى تقدموا واحتلوا طليطلة قلب الأنـدلس، ولم يسـتطع المرابطـون استعادتها على الرغم من انتصـارهم في الزلاقـة سـنة ٤٧٩هــ/ ١٠٨٦م، فاتسع الخرق، وأصبحت الأندلس في موقف الدفاع الهزيل(١).

كما كانت أوروبا تقـف وراء مملكتـي قشـتالة وأرغـوان مسـتخدمة وسـائل دبلوماسية وكنسـية وعسـكرية، وكـان العـرب في الأنـدلس يخـدعون أنفسـهم، وتخدعهم الأماني وبالتالي فكما كانت ممالك الشمال من أسباب سقوط الأنـدلس، كذلك كانت أوروبا الصليبية من العوامل المساعدة على هذا السقوط.

ويقول الدكتور عبد الحليم عويس: إن مجموعة العوامـل العامـة لسـقوط الدولة الإسلامية شجرة انبثقت عنها العوامـل الخاصـة التـي أفرزتهـا التجربـة الأندلسية، ويسترسل الدكتور عبـد الحلـيم عـويس فيقـول: إن ضـعف الفقـه الحضاري، وغياب الوعي بسنن الله الاجتماعية في تقدم الأمـم وسـقوطها كانـا وراء انحدار الأمور في الأندلس عـلى مسـتوى الحـاكم والمحكـومين... وكـلا المستويين يتحملان تبعة هذا السقوط، وقد دفع الجميع الثمن غالياً...(٢).

وكان من نتيجة هذا الضعف ظهور تلـك العوامـل العامـة التـي رصـدها العلامة المؤرخ أبو عبد الله محمد جعفر الكتاني في كتابه «نصيحة أهل الإسلام»، فوقع اختلاف كلمة المسلمين فيما بينهم، وتشـيعوا أحزابـاً في داخـل الأنـدلس المسـلمة المحاطـة بالأعـداء وأهملـوا الاسـتعداد الحـربي بـل تركـوا الجهـاد كله، وأصبحت المعارك بعيدة عن معاني الجهاد، فهي في الخـارج معـارك دولـة

(١) عبد الحليم عويس: أربعون سبباً في سقوط الأندلس، ص ٢٤.
(٢) المرجع السابق نفس الصفحة.

لا دعوة، وهي في الداخل صراع على السلطة ومعارك للاستعلاء العنصري... وقد أسندت الأمور إلى غير أهلها في شئون الدين والدنيا، ووضع أهل الولاء والثقة في المناصب بدلاً من أهل الكفاية والأمانة.

وقد وقعت الموالاة للكفار والمعاداة للمسلمين خضوعاً للمصالح والأهواء واتُّبعت عوائد الكفار وتقاليدهم وقوانينهم حذو النعل بالنعل، وأصبح الحكام وبطانتهم وعمالهم جبابرة ظالمين فانهارت الشورى وانهارت العدالة، وكثر الاشتغال باللهو والطرب وتبديد الأموال وبناء القصور، وأصبح التجاهر بالمنكرات شائعاً كما خفت صوت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وأصبح القرآن والسنة الشريفة غريبين عن أهل الأندلس في كثير من العصور... نعم في كثير من العصور، وليس في الحقبة الأخيرة التي سقطت فيها غرناطة فقط.

فابن عذارى المراكشي صاحب البيان المغرب يحكي لنا صور عصر الطوائف، أي على مشارف القرن الخامس الهجري وقبل أن تسقط الخلافة الأموية سقوطاً رسمياً يذكر فيها أن أهل قرطبة بلغ من استخفاف بعضهم بالإسلام في الفتنة التي وقعت أيام ابن عبد الجبار أن رجلاً نصرانياً وقف في أعظم شوارع قرطبة فنال من النبي ﷺ بألفاظ نابية فلم يكلمه أحد من المسلمين بكلمة، فقال رجل من المسلمين غيرة للنبي ﷺ: «ألا تنكرون ما تسمعون؟ أما أنتم مسلمون»، فقال له جماعة من أهل قرطبة: «امض لشغلك»، وكان الفرنج إذا سمعوا الأذان قالوا قولاً لا يذكر فلا يعترض عليهم أحد بشيء، وجمع أهل قرطبة مالاً كثيراً للإفرنج وسألوا القاضي ابن ذكوان أن يدفع

إليهم مال الأحباس (الأوقاف) المودع في مقصورة الجامع فامتنع عليهم، فكسروا باب المقصورة وأخذوه فدفعوه إلى الإفرنج[١] (الكفار).

وهكذا أثمرت الشجرة الخبيثة ثمارها المرة... شجرة الانفلات من الإسلام والذهول عن سنن الله في بقاء الأمم... وانتهت الأمور إلى غايتها، فتداعت الأندلس منذ عصر الطوائف وسقوط طليطلة وحتى سقوط غرناطة التي بقيت هذه القرون تقاوم السقوط بعظمة الإسلام وجهاد بقية من الصالحين حتى حقت كلمة ربك على الأندلس صدقاً وعدلاً... وما ظلمهم الله ولكن ظلموا أنفسهم...[٢] ولله عاقبة الأمور.

---

(١) ابن عذارى المراكشي: البيان المغرب في أخبار الأندلس- تحقيق كولان وليفي بروفنسال حوادث سنة ٤٠٠هـ جـ٣، ص ٩٢، ٩٣).

(٢) عبد الحليم عويس: أربعون سبباً في سقوط الأندلس، ص ٢٦.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

- استمرت الدولة الأموية في الأندلس من ١٣٨هـ- ٤٢٣هـ، وكان ذلك على يد عبد الرحمن الداخل وخلفائه الذين استطاعوا أن يجعلوا من قرطبة مركزاً للتجارة والصناعة والثقافة والعلم العربيين.
- وممن أسهموا في ذلك عبد الرحمن الناصر وابنه الحكم ووزيره المنصور، حتى قامت الفتنة بين العرب والبربر التي جعلت الأندلس تعيش عصر الطوائف وتصبح أكثر من عشرين دولة، وينتهي بذلك الحكم الأموي في الأندلس.
- في عصر ملوك الطوائف ظهر اثنان وعشرون أسرة تقريباً، مارست الحكم في أجزاء شتى من الأندلس، وذلك مثل بني عباد، وبني هود، وآل حمود، وبني ذي النون، وبني الأفطس، وغيرهم.
- ظل عصر الطوائف حتى سقطت طليطلة وبدأ عصر المرابطين.
- يعتبر أبو بكر بن عمر مؤسس دولة المرابطين، ثم تبعه يوسف بن تاشفين الذي كان صاحب قوة عسكرية وإدارية كبيرة، وقد لبى دعوة ملوك الطوائف وبادر لمساعدة المسلمين ضد الهجمات التي قام بها النصارى، وبقيت دولة المرابطين حتى قتل آخرهم سنة ٥٤١هـ حتى ظهرت دولة الموحدين.
- أسس الموحدون محمد بن تومرت من المغرب صاحب المذهب الأشعري،

ثم تلاه عبد المؤمن الذي استوى على الأندلس والمغرب الأقصى والجزائر وطرابلس حتى انهزم في معركة العقاب ضد النصارى، وكان هذا إيذاناً بخروجهم من الأندلس.

- كان بنو الأحمر أكثر الدول فاعلية في مقاومتها لأعداء الإسلام حتى سقطت غرناطة سنة ٧٩٨هـ ثم ضاعت الأندلس من يد المسلمين.

عوامل سقوط الأندلس:

١- التفكك السياسي وظهور دول وممالك متصارعة.

٢- مؤامرات النصارى ومتابعتهم لفترات ضعف المسلمين.

٣- خيانة جمهرة من العلماء والدعاة عن رسالتهم للإسلام.

٤- التكاثر المادي وبناء القصور ومظاهر الترف.

٥- الحرب من أجل الدولة لا من أجل الدعوة.

٦- تدخل النساء في شئون الحكم.

٧- خيانة بعض المسلمين وعقدهم معاهدات مع النصارى.

٨- الظلم وعدم الاستقرار وكثرة الانقلابات والفتن.

٩- التخلي عن الميزان الحاكم وهو الكتاب والسنة.

١٠- أن أرغوان وقشتالة وممالك الشمال تعتبر بمثابة سرطان في جسم الأندلس كان على المسلمين أن يكون هدفهم الأسمى هو طرد هذه القوى وتوحيد الأندلس طبيعياً وجغرافياً.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

أجب عما يأتي:

س١: كيف استمر حكم الأمويون في الأندلس في ظل الخلافة العباسية في الشام والحجاز؟

س٢: وضح كيفية سقوط الحكم الأموي في الأندلس مع الشرح.

س٣: ما هي أهم سمات عصر الطوائف؟

س٤: كيف دخل المرابطون إلى بلاد الأندلس؟

س٥: ما هم أهم سمات حكم المرابطين للأندلس، اشرح ذلك.

س٦: اذكر ما تعرفه عن محمد بن تومرت تفصيلاً.

س٧: ما هي أهم سمات عصر الموحدين؟ وضح ذلك بالشرح والتفصيل.

س٨: اشرح أهم مظاهر الابتلاع الصليبي للأندلس.

س٩: لخص أحداث سقوط الأندلس.

س١٠: ماذا فعلت الكنيسة والسلطة الإسبانيتان مع المسلمين، اشرح ذلك؟

س١١: اذكر ما تعرفه عن كل من:

أ- عبد الرحمن الداخل.

ب- يوسف بن تاشفين.

س١٢: لخص عوامل سقوط الأندلس.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- فتح المسلمون الأندلس عام ٩٠هـ. ( )

٢- كانت الأندلس تدار بأيدي ولاة مستقلين منذ أن فتحت. ( )

٣- أقام عبد الرحمن الداخل الدولة الأموية في الأندلس عام ١٣٨. ( )

٤- استطاع خلفاء عبد الرحمن الداخل أن يحتفظوا بعرش قرطبة خمسة قرون متتالية. ( )

٥- اختفى الأمويون تماماً من الأندلس عام ٤٢٢هـ. ( )

٦- فتح الوزير ابن عامر مدينة برشلونة. ( )

٧- يعتبر عهد ملوك الطوائف فترة ترابط سياسي للأندلس. ( )

٨- يعتبر بنو عباد أضعف إمارات الطوائف. ( )

٩- يعتبر أبو بكر بن عمر مؤسس دولة المرابطين. ( )

١٠- يعتبر محمد بن تومرت آخر الحكام الأمويين في الأندلس. ( )

١١- اتخذ المرابطون من فقه الإمام الشافعي مذهباً لهم. ( )

١٢- يوسف بن تاشفين هو أهم حكام المرابطين. ( )

١٣- اضطهدت الكنيسة والسلطة الأسبانية المسلمين بكل وسائل الاضطهاد والتنصير. ( )

١٤- ظلت غرناطة طيلة قرنين ونصف قرن مركزاً للحضارة ( )

والعلم رغم ضعفها.

١٥- اعتنق محمد بن تومرت المذهب الحنفي. ( )

١٦- سقطت غرناطة سنة ٨٩٩هـ. ( )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- تم فتح الأندلس عام [٩٠هـ- ٩١هـ- ٩٢هـ].

٢- سقطت غرناطة عام [٨٩٧- ٨٩٦- ٨٩٨ هـ].

٣- عبد الرحمن الداخل هو الحفيد العاشر للخليفة [هشام بن عبد الملك- الوليد بن عبد الملك- سليمان بن عبد الملك].

٤- بدأ عبد الرحمن الداخل حكم الأندلس في عام [١٣٨هـ- ١٣٨هـ- ١٣٩هـ].

٥- أعظم حكام الأسرة الأموية في الأندلس والذي حكم خمسين عاماً، [يوسف بن تاشفين- عبد الرحمن الناصر- عبد الرحمن الداخل].

٦- تم فتح برشلونة على يد [المنصور- الداخل- الناصر].

٧- من ملوك الطوائف الذين حكموا أشبيلية [بنو هود- بنو الأفطس- بنو عباد].

٨- طلب بنو عباد العون من [الأمويين- المرابطين- الموحدين].

٩- حكم المرابطون الأندلس في الفترة [(٤٤٨: ٥٤٢)- (٤٤٩: ٥٤٣)- (٤٤٧: ٥٤١)].

١٠- مؤسس دولة المرابطين هو [يوسف بن تاشفين- محمد بن تومرت- أبو بكر بن عمر].

١١- مؤسس دولة الموحدين هو [يوسف بن تاشفين- محمد بن تومرت- أبو بكر بن عمر].

النشاط التعليمي للوحدة السادسة

عزيزي الدارس:

حتى تكتسب المزيد من المعلومات المتعلقة بموضوع هذه الوحدة نقترح عليك إنجاز النشاط التعليمي التالي:

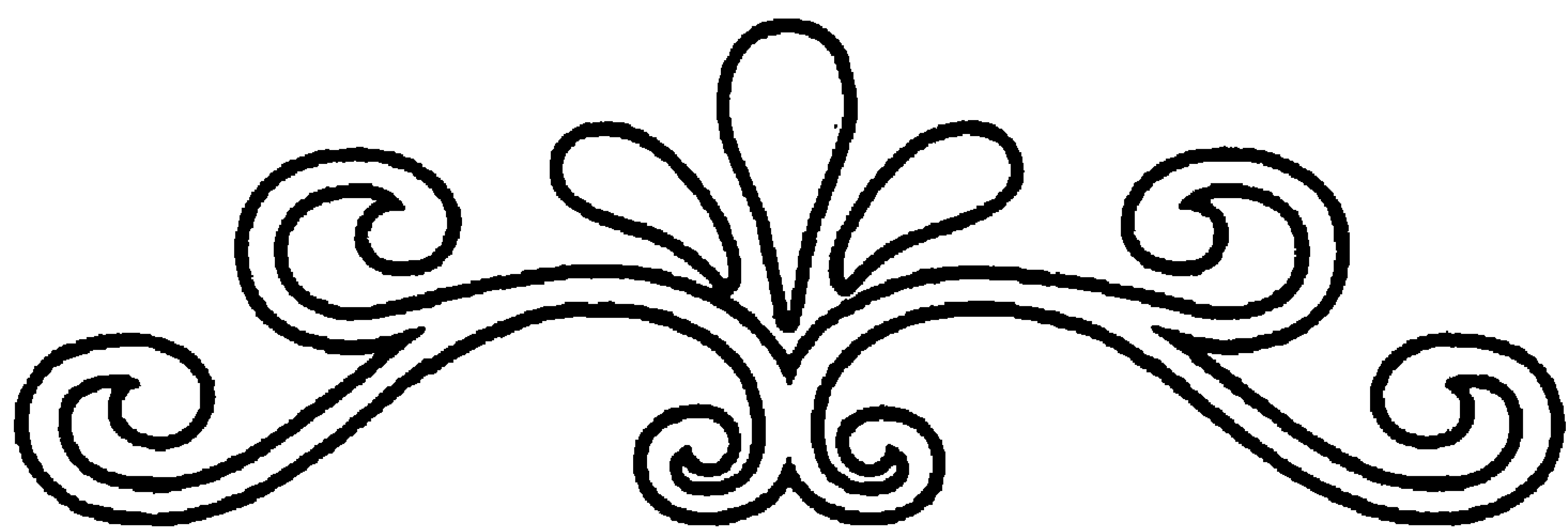
- اكتب مذكرات تارخية عن اثنين مما يأتي:

١- دولة الموحدين.

٢- دولة المرابطين.

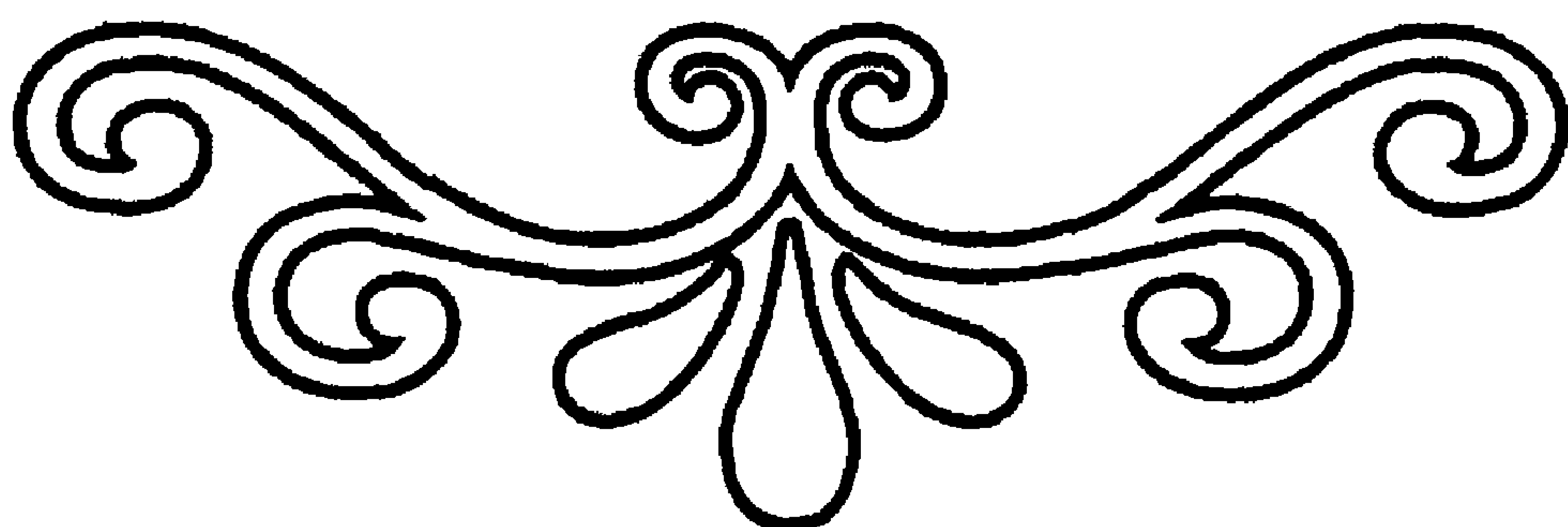
٣- أحداث سقوط الأندلس.

٤- عوامل سقوط الأندلس.



الوحدة السابعة

الحكم الإسلامي في شمال إفريقية



محتويات الوحدة السابعة

الحكم الإسلامي في شمال إفريقية

- الدولة المدرارية.
- الدولة الرستمية.
- دولة الأدارسة.
- دولة الأغالبة.
- الدولة الحفصية.

أهمية دراسة الوحدة:



حكمت منطقة شمال إفريقية عدة دول مثل:

الدولة المدرارية.

ودولة الأدارسة.

والدولة الرستمية.

ودولة الأغالبة.

والدولة الحفصية.

ولكل من هذه الدول سمات وبصمات في الحكم الإسلامي، وفي هذه المحاضرة سنوضح ذلك.

الأهداف التعليمية:



يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١- تشرح أن الدول المستقلة قامت في المغرب مبكراً، وذلك مثل الأغالبة وبني رستم.

٢- تُوضح أن الفاطميين قضوا على معظم الدول المستقلة في المغرب.

٣- تفهم أن المغرب توحد سياسياً وحضارياً على يد المرابطين والموحدين.

الدولة المدرارية (١٤٠-٣٤٩هـ/ ٧٥٧-٩٦٠م)

تعد الدولة المدرارية دولة خارجية صفرية[١] نسبة إلى زياد بن محمد الصفري، كانت عاصمتها مدينة (سجلماسة) في جنوب المغرب الأقصى، وقد أقفرت وقام مكانها مدينة (الساساني) في منطقة تافيلات اليوم، ويلاحظ أن الصفرية والأباضية من أكثر المذاهب الخارجية انتشاراً في المغرب عبر الفتح العربي، وأنهما من أكثر مذاهب الخوارج تسامحاً واعتدالاً مع مخالفيهم في الرأي إذا ما قورنوا بفرق الأزارقة والحروريين في المشرق؛ لأن الصفرية والأباضية لم ترضيا إباحة دماء المسلمين أو جواز سبي النساء والذرية، بل ذهبا إلى أبعد من ذلك، إذ لا يريان قتال أحد من الناس سوى جيش السلطان[٢].

أسس الدولة المدرارية سوداني أسود اللون يسمى «عيسى بن يزيد المكناسي» الذي بنى العاصمة سجلماسة وغرس النخيل في أرضها، حيث بقيت منطقة تافيلات من أهم مراكز إنتاج التمور حتى اليوم، ولم يمضِ وقت طويل حتى قامت معارضة قوية ضد عيسى بن يزيد المكناسي؛ لأنه آثر جمع الأموال لنفسه، وتزعم هذه المعارضة رجل يدعى أبو الخطاب الصفري؛ تمكن هو وأصحابه من القبض على عيسى بن يزيد وشد وثاقه إلى جذع شجرة في الجبل بعد أن طلوه بالعسل وتركوه حتى قتله البعوض والنحل والنمل؛ واتهموه

---

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي والسياسي والحضاري، ص ١٦٣.

(٢) ابن الخطيب: أعمال الأعلام، القسم الثالث الخاص بالمغرب، ص١٤٦، نشر أحمد مختار العبادي وإبراهيم الكتاني.

بسرقة أموال الدولة المدرارية الصفرية[١].

تولى رئاسة الدولة المدرارية بعد عيسى بن يزيد المكناسي أبو الخطاب الصفري، وجعل مدير شئونها أبو القاسم بن واسول.

ولما توفي أبو الخطاب تولى مقاليد الحكم مكانه أبو القاسم بن واسول[٢]، وتلقب بالمدرار، فعرفت الدولة فيها بعد باسم (الدولة المدرارية) أو (دولة بني واسول)؛ لأنه المؤسس الحقيقي لهذه الدولة التي استمر حكمها في يد أبنائه من بعده إلى أن قضى عليها نهائياً قائد الفاطميين (جوهر الصقلي) سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م.

الدولة الرستمية (١٤٤- ٢٩٦هـ/٧٦١-٩٠٨م)

هذه الدولة أباضية تنسب إلى عبد الله بن أباض المري بفارس، وهي خارجية أيضاً، أسسها عبد الرحمن بن رستم من أصل فارسي، وكانت قاعدتها مدينة (تاهرت) بالمغرب الأوسط.

ازدهرت مدينة تاهرت على عهد بني رستم حتى صارت ملتقىً للتجار والعلماء والطلبة من جميع أنحاء العالم الإسلامي، مما أكسبها شهرة عالمية لدرجة أنها سميت بالعراق الصغير تشبيهاً لها ببلاد العراق التي تضج بمختلف الأجناس والملل والنحل آنذاك.

تحالف عبد الرحمن بن رستم مع دولة بني واسول أو المدرارية الخارجية في

(١) المرجع السابق نفس الصفحة.

(٢) أبو القاسم بن واسول هو حداد من ربض قرطبة كان قد صنع سلاحاً جديداً أعجب أبا الخطاب فقربه منه.

سجلماسة- جنوب المغرب- لتقوية دولته، ونتج عن هذا التحالف مصاهرة تمت بزواج أروى بنت عبد الرحمن بن رستم من المنتصر بن اليسع بن مدرار ملك جنوب المغرب، وقد أنجب المنتصر من أروى ولداً ذكراً سماه (ميموناً) حكم بعده.

وبعد وفاة عبد الرحمن بن رستم سنة ١٦٨هـ/ ٧٨٤م ترك الأمر شورى في سبعة أشخاص من بينهم ابنه عبد الوهاب الذي مالت الأغلبية إلى مبايعته، وسلمت له بالخلافة في الوقت الذي بقي فيه المعارضون لخلافته مصرين على موقفهم فسموا بالنكار أو النكارية.

بقيت الدولة الرستمية قائمة في المغرب الأوسط وعلى علاقة طيبة مع الأمويين في الأندلس إلى أن قضى عليها الفاطميون سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م إلا أن مذهب الخوارج والأباضية بقيا معاً يؤلفون قوة معارضة للدولة الفاطمية، حتى إن الخوارج والأباضية لعبوا دوراً أساسياً ضد الاستعمار الفرنسي في الجزائر[١].

دولة الأدارسة (١٧٢- ٣٦٣هـ/ ٧٨٨- ٩٧٣م):

سبق أن ذكرنا في الوحدة الثانية من هذا الكتاب كيف ثار الحسين بن علي بن الحسين في المدينة سنة ١٦٩هـ/ ٧٨٥م في عهد الخليفة الهادي العباسي، وكيف انتهت هذه الثورة بموقعة فخ التي قتل فيها الحسين وجماعة كبيرة من أهل بيته، في حين فر إدريس بن عبد الله نحو المغرب الأقصى، كما فر أخوه يحيى بن عبد الله إلى الديلم في خراسان[٢].

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي، ص ١٦٤.

(٢) الطبري: تاريخ الرسل والملوك ٨/ ١٩٨ـ٢٠٠.

وعلى أية حال وجد البربر في إدريس بن عبد الله الزعيم الروحي والسياسي الذي يلتفون حوله في ظل الإسلام؛ لمناوأة الخلافة العباسية ومن ناحية، وتحقيق أمانيهم في الاستقلال من ناحية أخرى، فاستغل إدريس هذه الأوضاع السائدة في المغرب، إضافة إلى بُعد تلك المناطق عن الخلافة العباسية؛ فأسس دولة مستقلة استمرت قائمة حتى سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م، وساعد على بقائها هذه المدة الطويلة إحاطتها بدولتين معاديتين للخلافة العباسية في المشرق، هما الخلافة الأموية في الأندلس، والخلافة الفاطمية في شمال إفريقيا.

الأدارسة والخلافة العباسية:

لجأ هارون الرشيد إلى إجراءات وقائية لحماية أطراف دولته، ولا سيما في المغرب بعدما كثرت الحركات الاستقلالية المعادية للعباسيين، وذلك بأن عهد إلى إبراهيم بن الأغلب بولاية تونس؛ لتقف دولة الأغالبة حاجزاً دون أطماع الأدارسة بالتوسع وفي الوقت نفسه لجأ إلى التخلص من إدريس بن عبد الله بدس السم له سنة ١٧٧هـ/ ٧٩٣م(١).

على أن مقتل إدريس بن عبد الله لم يضع نهاية دولة الأدارسة كما ظن الرشيد، ولم يقف النشاط العلوي في المغرب، وكان لإدريس أمة حامل؛ فانتظر أتباعه حتى ولدت ذكراً أسموه إدريس أيضاً، والتفوا حوله، ويعد إدريس بن إدريس بن عبد الله- إدريس الثاني- المؤسس الحقيقي لدولة الأدارسة، بوضعه قواعدها، وتثبيته أركانها، وبنائه مدينة (فاس) سنة ١٩٢هـ/ ٨٠٧م؛ لتكون

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي ص ١٦٥.

عاصمة دولته، وجعل خطط وجهود إبراهيم بن الأغلب الرامية إلى زرع بـذور الفتنة والخلاف بين الأدارسة والبربر تبوء بالفشل[١].

نهاية دولة الأدارسة:

تعاقب على حكم دولة الأدارسة ثمانية كان أعظمهم يحيى الرابع بن إدريس بن عمر ٢٩٢- ٣١٠هـ/ ٩٠٤- ٩٢٢م الذي امتد سلطانه على المغرب الأقصى بأكمله وفي عهده ظهر الفاطميون بشمال إفريقيا ومدوا نفوذهم إلى بلاد الأدارسة، واعترف هؤلاء الأخيرون بنوع من التبعية لهم؛ لأن الأدارسة وجدوا أنفسهم بين نارين: نار الأمويين في الأندلس، ونار الفاطميين في المغرب الأوسط. فالأمويون أخذوا يتطلعون نحو شمال إفريقيا فمدوا نفوذهم فعلاً إلى تلك الأنحاء في عهد عبد الرحمن الناصر الأمر الذي جعل الدارسة ينكمشون إلى الريف، وأكثر من ذلك اضطروا أخيراً إلى خلع الفاطميين، والدخول في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي.

تجاه ذلك الوقف الذي وقفه الأدارسة أرسل عبيد الله المهدي الجيش الفاطمي لإعادة بسط نفوذه عليهم من جديد، فكان أن انتقلوا إلى بلاد الريف، تلاحقهم نظرات المتغلب على كامل بلاد المغرب، سواء من الشيعة الفاطميين أو من الأمويين في الأندلس، وقد أسهم الأدارسة في خدمة المسلمين عن طريق تثبيت البربر على الإسلام فكان ظهور دولة الأدارسة مقدمة لظهور دولة المرابطين الذين أكملوا ما بدأه الأدارسة في تثبيت إسلام البربر ونشر الإسلام في غرب إفريقيا في عهدهم[٢].

---

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي، ص ١٦٥.

(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي ص ١٦٦.

دولة الأغالبة (١٨٤- ٢٩٦هـ/٨٠٠ - ٩٠٨م)

لجأ الخليفة هارون الرشيد إلى تأييد دولة الأغالبة في تونس؛ لتكون حاجزاً بين الدولة العباسية ودولة الأدارسة، وتحقيقاً لذلك عهد إلى إبراهيم بن الأغلب بولاية إفريقية مقابل شرطين[1]:

أولهما: أن يوفر إبراهيم بن الأغلب لبيت المال الإعانة التي كانت ترسلها مصر إلى إفريقيا، ومقدارها مائة ألف دينار سنوياً.

ثانيهما: أن يرسل إلى الخلافة العباسية إضافة إلى ذلك أربعين ألف دينار سنوياً.

وإن دل هذا الإجراء على شيء فإنما يدل على اعترافه باستقلال إفريقية استقلالاً ذاتياً تحت حكم ابن الأغلب، وقد يبعث هذا الاستقلال شيئاً من الارتياح للخلافة العباسية ويخفف عن كاهلها أعباء الدفاع عن ولاية إفريقية البعيدة التي كانت تتعرض لهجمات الروم من البحر؛ ليتولى الدفاع عنها بدلاً من العباسيين الأغالبة، فضلاً عن وقوف الآخرين سداً حاجزاً في وجه أطماع الأدارسة وأخبارهم المرتقبة[2].

ونجح إبراهيم بن الأغلب في إقرار الأمن بتلك البلاد؛ فقضى على الثورات التي قامت في تلك الأنحاء، وعمل على توفير أمن الخلافة من ناحية الأدارسة بعقده اتفاقاً معهم يقضي بعدم اعتداء من كل منهما على الآخر، واتخذ إبراهيم مدينة القيروان مركزاً لولايته، ثم ما لبث أن بنى في

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ١٠٤.

(٢) إبراهيم أيوب: مرجع سابق، ص ١٦٦.

سنة ١٨٥هـ/ ٨٠١م عاصمة جديدة له فوق أطلال «القصر القديم» بُعد ثلاثة أميال إلى الجنوب من القيروان، وأسماها العباسية[1] تعبيراً عن ولائه للعباسيين.

ركن المسلمون في شمال إفريقية إلى الدفاع عن أنفسهم وبلادهم بعد أن كان زمام المبادرة في أيدي غيرهم في عهد خلافة الأمويين؛ لانشغال الولاة العباسيين الأوائل بإخماد الثورات، واستغلال الروم الفرصة لتغزو أساطيلهم السواحل الإفريقية من قواعد صقلية ومالطة.

وما كاد الأغالبة يوطدون نفوذهم في ولاية إفريقية حتى تحولوا من الدفاع إلى الهجوم ونجحوا في إنشاء قوة بحرية كبيرة استطاعوا بواسطتها رد هجمات الأساطيل الرومية على الساحل الإفريقي، ثم غزوا شواطئ صقلية ومالطة وجنوب إيطاليا حيث أقاموا مراكز دائمة لهم.

وتكررت الغزوات في عهد الأمير زيادة الله الأول بن إبراهيم الأغلب ٢٠١- ٢٢٣هـ/ ٨١٦- ٨٣٧م فقد أرسل حملة إلى صقلية بقيادة القاضي أسد بن الفرات فقيه القيروان، وبصحبته أشراف إفريقية من العرب والجند والبربر الأندلسيين، وأهل العلم والبصائر، واستمر الغزو إلى صقلية من سنة ٢١٢هـ/ ٨٢٧م إلى سنة ٢٦٤ هـ/ ٨٧٧م حتى تم فتح تلك الجزيرة التي استمرت تحت حكم المسلمين إلى أن استردها النورمان سنة ٤٨٥هـ/ ١٠٩٢م.

فالأغالبة الذين عملوا على إقرار الأمن والقضاء على الثورات في الداخل وحماية البلاد ومواصلة حركة الجهاد في الخارج، تعرضت دولتهم للانحلال،

---

(١) ياقوت الحموي: معجم البلدان، ٤/ ٧٥.

ولم تعد تقوى على القيام برسالتها، وفي عهد زيادة الله الثالث ٢٩٠-٢٩٦هـ/ ٩٠٢ - ٩٠٨م آخر أمراء الأغالبة ببلاد المغرب صار الفاطميون أصحاب السلطان في جميع المناطق الواقعة إلى الغرب من القيروان، وما كاد يسمع زيادة الله الثالث بدخول أبي عبيد الله الشيعي مدينة رقادة وفرار أهلها سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م حتى حمل ثروته، وركب فرسه، وتقلد سيفه، وخرج من مدينة رقادة ومعه أعيان دولته متجهاً إلى طرابلس، فزالت بذلك دولة الأغالبة سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م[1].

الدولة الحفصية (٦٢٥-٩٨١هـ/ ١٢٢٧- ١٥٧٣م):

تنسب الدولة الحفصية إلى الشيخ «أبي حفص عمر» رئيس قبيلة هنتاتة البربرية وكان أبو حفص هذا من مقدمي مريدي ابن تومرت مؤسس دولة الموحدين وتلامذته.

وكان أبو حفص وأولاده في بداية أمرهم نواباً للموحدين على ولاية إفريقية أي تونس، ثم أعلن واحد منهم هو أبو زكريا استقلاله في سنة ٦٢٥هـ/ ١٢٢٧م وأقام دولة مستقلة.

وحكم الحفصيون هؤلاء إفريقية بالعدل والقسطاس أكثر من ثلاثة قرون ووفروا لبلادهم كل أسباب الرقي.

ولم تكن مدينة (تونس) في عهدهم مجرد عاصمة سياسية، ولكن كانت بالنسبة للبلد كله مركزاً للتجارة والعلم والثقافة، وقد أقام أبو زكريا وابنه محمد

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٦/ ١٢٩- ١٣٢.

المستنصر الأول المساجد والمباني الجميلة من الجوامع والزوايا والمكتبات، كما شقوا قنوات الماء ووفقوا في جلب العلماء والأدباء من أطراف العالم وبخاصة من الأندلس، وكانوا على علاقات ودية بالحكومات الإيطالية التي تحذق التجارة، بل كان بينها وبين بعض هذه الحكومات معاهدات مما أدى إلى رواج التجارة وزيادة الرفاهية في بلادهم.

وما لبث أبو زكريا أن توسع غرباً، فتوغل في المغرب الأوسط واستولى على قسطنطينية، و(بجاية)، و(الجزائر العاصمة) وفرض الضريبة على بني عبد الواد في تلمسان، وأجبر بني مرين على الاعتراف به.

واستجار المسلمون المحاصرون في جنوب أسبانيا به وناشدوه مدّ يد العون لهم، وقد بلغت قوة «الحفصيين» شأواً كبيراً في عهد ولده المنتصر الذي نجح في صد هجمات الملك لويس التاسع ملك فرنسا، والملك شارل ملك إنجلترا ٦٦٨هـ/ ١٢٦٩م واتخذ لنفسه لقبي «الخليفة» و «أمير المؤمنين» بمباركة من شريف مكة، وادعى أنه وريث بني العباس في بغداد[١].

وقد زخرت فترة القرن ونصف القرن- التي أعقبت وفاة الخليفة المنتصر- بالتقلبات العنيفة التي أثرت على سلطة بني حفص واستقرارها، إذ كانت مدن المغرب الأوسط وجنوبي إفريقية وإقليم الجريد تسعى إلى التخلص من سيادة الحفصيين خلال الفترات التي اتسم فيها حكمهم بالضعف، ومن حين لآخر كانت الصراعات حول اعتلاء العرش تنشب بين المطالبين به من أفراد الأسرة الذين يحكمون في مختلف المدن المغربية، وفي القرن السادس عشر تقلصت

(١) كليفورد، أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٦٥.

سلطة الأسرة بصورة واضحة، فاقتصرت تقريباً على إقليم تونس.

وقد كان وجود الأتراك العثمانيين في الجزائر وغيرها من الثغور- فضلاً عن عجز الحفصيين عن التحكم في زمام ما كان يجري من أعمال القرصنة البحرية والنهب- من الأمور التي جعلتهم عرضة لغارات المسيحيين والاقتصاص منهم.

وفي عام ٩٤١ هـ/ ١٥٣٤م أنزل الإمبراطور شارل الخامس حامية أسبانية في تونس، وقد استعان آخر حكام الحفصيين بالأسبان ضد الأتراك؛ الأمر الذي مكنهم من الاحتفاظ بسلطة هشة في تونس، ولكن هذه السلطة ما لبثت أن هوت باحتلال «سنان باشا» لتونس وسقوطها في يده نهائياً عام ٩٨١هـ/ ١٥٧٣م واقتيد آخر حكام هذه الأسرة أسيراً إلى إستانبول[1].

---

(١) كليفورد، أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٦٥.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

- الدولة المدرارية دولة خارجية صفرية عاصمتها مدينة سجلماسة في جنوب المغرب الأقصى، أسسها عيسى بن يزيد ثم أبو الخطاب الصفري إلى أن كان آخر حكامها وهو أبو القاسم بن واسول.
- الدولة الرستمية أسسها عبد الرحمن بن رستم وقاعدتها مدينة تاهرت التي كانت ملتقى التجار والعلماء من جميع أنحاء العالم الإسلامي، وكانت على علاقة طيبة بالأمويين إلى أن قضى عليها الفاطميون.
- دولة الأدارسة أسسها إدريس بن عبد الله وظلت قائمة إلى أن تخلص منه هارون الرشيد بالسم، لكن ولده إدريس بن إدريس هو الذي أسس مدينة فارس، ثم تعاقب عليها ثمانية حكام حتى دخلوا في طاعة عبد الرحمن الناصر الأموي، ثم بعد ذلك كانوا مقدمة لظهور دولة المرابطين.
- دولة الأغالبة في تونس أسسها إبراهيم بن الأغلب الذي دان بالولاء للخلافة العباسية وقضى على الثورات وبنى مدينة العباسية، وغزا شوطئ صقلية ومالطة وجنوب إيطاليا، وأقام مراكز دائمة لدولته، واستمر حكم الأغالبة حتى تعرضت دولتهم للانحلال حتى دخلها أبو عبيد الله الشيعي سنة ٢٩٦هـ في عهد زيادة الله الثالث.

- الدولة الحفصية تنسب إلى أبي حفص عمر رئيس قبيلة هنتاتة البربريـة. وكان في بداية الأمر نائباً للموحدين في تونس حتـى أعلـن أبـو زكريـا استقلاله. كانت تونس في عهدهم مركزاً للتجارة والعلم وأقـاموا فيهـا المساجد والمكتبات وشقوا قنوات الماء، وحكموا بالعدل أكثر من ثلاثة قرون، واستولوا على قسطنطنية وبجاية والجزائر. وبعـد وفـاة الخليفـة المنتصر شهد بني حفص تقلبات عنيفة حتى سقطت في عام ٩٨١هـ.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

أجب عما يأتي:

س١: من هو مؤسس دولة الأدارسة؟ ومتى حكمت؟ وكيف كانت نهايتها؟

س٢: اكتب ما تعرفه عن الدولة الرستمية بالتفصيل.

س٣: من هو إدريس بن عبد الله؟ وما الذي فعله؟

س٤: ما العلاقة بين الأدارسة والخلافة العباسية؟ وضح ذلك.

س٥: هل انتهت دولة الأدارسة بموت إدريس بن عبد الله؟ ولماذا؟ اشرح ذلك.

س٦: كيف كانت نهاية دولة الأدارسة؟ فصل القول.

س٧: ما العلاقة بين الأغالبة والخلافة العباسية؟ وضح ذلك.

س٨: اكتب ما تعرفه عن الدولة الحفصية بالتفصيل.

س٩: كيف كانت تونس في عهد أبو زكريا؟ فصل القول.

س١٠: كيف انتهت دولة الأغالبة؟ وضح ذلك.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- كانت عاصمة الدولة المدرارية هي مدينة سجلماسة. (   )

٢- أسس الدولة المدرارية زياد بن محمد الصفري. ( )

٣- قضى على الدولة المدرارية جوهر الصقلي. ( )

٤- تعتبر الدولة الرستمية دولة أباحية خارجة. ( )

٥- تحالف عبد الرحمن بن رستم مع دولة الأغالبة. ( )

٦- كانت تربط الدولة الرستمية ودولة بني واسول علاقة مصاهرة. ( )

٧- كانت الدولة الرستمية على علاقة طيبة مع العباسيين. ( )

٨- قضى الفاطميون على الدولة الرستمية سنة ٢٩٧. ( )

٩- قضى هارون الرشيد على إدريس بن عبد الله بالسم. ( )

١٠- امتد سلطان يحيى الرابع على المغرب الأقصى بأكمله. ( )

١١- دخل الأدراسة تحت حكم الفاطميين وفي طاعتهم. ( )

١٢- أسهم الأدارسة في خدمة المسلمين عن طريق تثبيت البربر. ( )

١٣- احتل سنان باشا مدينة تونس سنة ٩٨٢. ( )

١٤- حكم أبو زكريا إفريقية بالعدل أكثر من ثلاثة قرون. ( )

١٥- كان أبو حفص نائباً لدولة الموحدين على تونس. ( )

١٦- كانت الدولة الحفصية على علاقة طيبة بالأمويين. ( )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- تنسب الدولة الحفصية إلى [أبي حفص عمر- أبي زكريا الحفصي- محمد المستنصر].

٢- كانت علاقة الدولة الحفصية طيبة بـ[العباسيين- الأمويين- الإيطاليين].

٣- يعتبر............ هو المؤسس الحقيقي للدولة المدرارية [عيسى بن يزيد- زياد بن محمد الصفري- أبو القاسم بن واسول].

٤- حكمت الدولة الرستمية في الفترة [(١٤٤- ٢٩٦هـ)- (١٤٥- ٢٩٧هـ)- (١٤٧- ٢٩٧هـ)].

٥- حكمت دولة الأغالبة في الفترة [(١٨٤- ٢٩٦هـ)- (١٨٥- ٢٩٧هـ)- (١٨٥- ٢٩٨هـ)].

٦- حكمت دولة الأدارسة في الفترة [(١٧٥-٣٦٢)- (١٧٢- ٣٦٣هـ)- (١٧٤- ٣٦٣هـ)].

٧- بنى إبراهيم بن الأغلب مدينة العباسية سنة [١٨٦- ١٨٧- ١٨٥هـ].

٨- تنسب الدولة الرستمية إلى [عبد الله بن أباض- عبد الرحمن بن رستم- أبو القاسم بن واسول].

٩- عاصمة الدولة المدارية هي [العباسية- رقادة- سجلماسة].

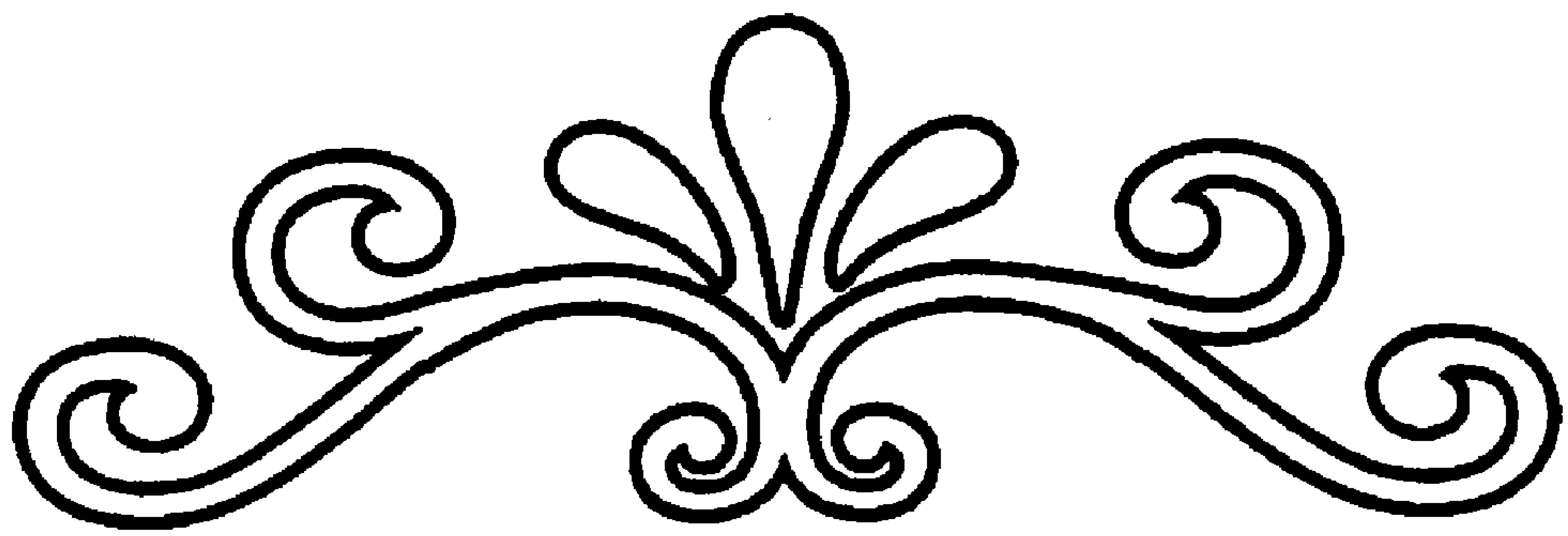
١٠- كانت منطقة تافيلات من أهم مراكز إنتاج [البخور- التمور- البقول].

النشاط التعليمي للوحدة السابعة

عزيزي الدارس:

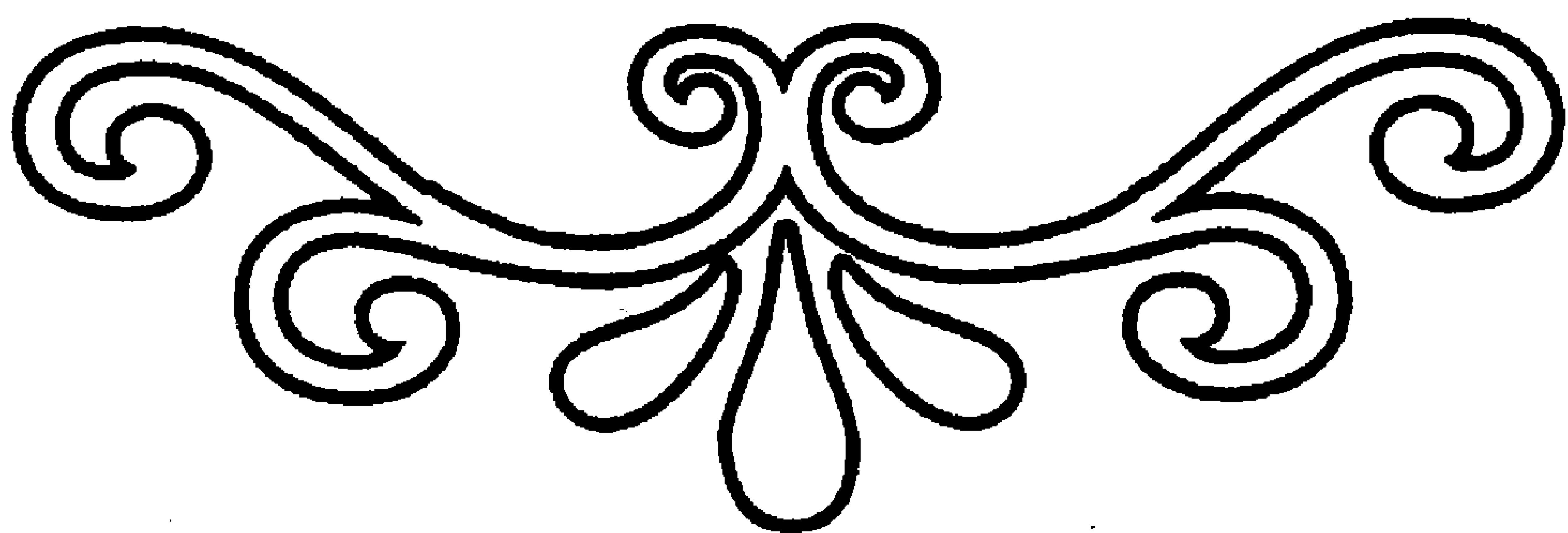
حتى تكتسب المزيد من المعلومات المتعلقة بموضوع هذه الوحدة نقترح عليك إنجاز النشاط التعليمي التالي:

- اكتب بحثاً في حضارة الدول الآتية (الحفصيين- الرستميين- الأغالبة).



الوحدة الثامنة

الدول الإسلامية المستقلة
في المشرق الإسلامي



محتويات الوحدة الثامنة

الدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي:

- الدولة الطاهرية.
- الدولة الصفارية.
- الدولة الغزنوية.
- سلاطنة دلهي في شمال الهند.
- سلاطنة البنغال.
- الإيلخانيون في فارس.
- خانات القبيلة الذهبية.



أهمية دراسة الوحدة:

قامت عدة دول إسلامية بالاستقلال عن الخلافة العباسية في المشرق الإسلامي مثل: خراسان وإيران وسجستان وغيرها من بلاد المشرق الإسلامي التي تدعى بلاد فارس.

وقد قامت حضارات لهذه الدول أثرت الحضارة الإسلامية، وفي هذه المحاضرة سنوضح ذلك.



الأهداف التعليمية:

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١- تشرح أن الدولة الطاهرية مثلت أولى المحاولات المستقلة في بلاد فارس.

٢- تُناقشْ دور الدولة الغزنوية في الحد من الوثنية ونشر الإسلام في الهند.

٣- تُحلل أسباب قيام دول للمغول في وسط آسيا والهند وجنوب سهول سيبريا.

٤- تذكر أن للمغول دوراً حضارياً كبيراً في الهند.

الدول الإسلامية المستقلة في المشرق

الدولة الطاهرية (٢٠٥- ٢٥٩هـ/ ٨٢٠- ٨٧٢م):

تنسب الدولة الطاهرية إلى طاهر بن الحسين أحد قواد الخليفة المأمون، وقد كافأه الخليفة بعد انتصاره في عدة معارك بخراسان وبغداد ضد الخليفة الأمين، فولاه خراسان سنة ٢٠٥هـ/ ٨٢٠م، ثم أضاف إليه أعمال المشرق الإسلامي بكامله، واتخذ طاهر بن الحسين نيسابور - في خراسان - قاعدة له.

وهكذا نشأت أول إمارة شبه مستقلة في الدولة العباسية لاستمرار الحكم في أولاده وأحفاده حتى انتهت الدولة الطاهرية سنة ٢٥٩هـ/ ٨٧٢م في عهد أميرها محمد بن طاهر(١).

وتتابع على حكم خراسان من الأسرة الطاهرية الفارسية الأصل: طاهر بن الحسين ثم عبد الله بن طاهر بن الحسين، ثم أحفاده ومنهم: طاهر بن عبد الله بن طاهر بن الحسين وأخيرا محمد بن طاهر بن عبد الله بن طاهر وقد أظهر الطاهريون ولاءهم الكامل للخلافة العباسية بقضائهم على الثورات التي قامت في وجه العباسيين، وبخاصة العلوية منها، وبالرغم من أن للطاهريين ميولاً علويةً، فكان هذا الولاء موضع ثقة الخلفاء العباسيين الذين وقفوا إلى جانب الطاهريين في نزاعهم مع الصفاريين، ثم جعلوا لهم شرطة بغداد بعد زوال إمارتهم في خراسان(٢)، فاستمرت في أيديهم حتى سنة ٣٠١هـ/ ٩١٣م.

---

(١) ابن خلدون: العبر ٣/ ٣٠٩.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٤٣، وابن كثير:البداية والنهاية ١١/ ١١٩.

الدولة الصفارية (٢٥٤-٢٩٠هـ/٨٦٧ - ٩٠٣م):

تنسب هذه الدولة إلى يعقوب بن الليث الصفار، والصـفار لقـب أطلـق على يعقوب بن الليث وأخيه عمرو بن الليث لاشـتغالها منـذ حداثـة سـنهما في صناعة «صفر النحاس»، واشترك يعقوب وأخوه عمـرو مـع المتطـوعين لقتـال الخارجين على الدولة العباسية في إقليم سجستان بجنوب خراسـان، وسرعـان ما بدأ اسم يعقوب ينتشر منذ سنة ٢٣٧هـ/ ٨٥١م عنـدما صـار زعـيما لفرقـة متطوعة، وقوي نفوذه، وغلب على سجستان والمناطق المجـاورة، ثـم اصـطدم بالدولة الطاهرية، واحتلت جيوشه عاصمتها نيسابور سـنة ٢٤٩هـ/ ٨٧٢م.[١] مخالفا أوامر الخلافة العباسية بعدم التعرض للطاهرين، مدعيا أنه إنما لبى رغبـة أهل خراسان لاستخلاصها من بني الطاهر.

أدركت الخلافة العباسية خطورة القوة الصفارية، فأرسل الموفـق شـقيق الخليفـة المعتمـد عـلى الله ٢٥٦- ٢٧٩هـ/ ٨٦٩- ٨٩٢م يقـول لـه: إن أمـير المؤمنين لا يقر يعقوب على ما فعل، وإنه يأمره بالانصراف إلى العمل الذي ولاه أباه، وإنه لم يكن له إلا ما للمخالفين[٢].

لكـن يعقـوب بـن الليـث الصـفار لم يأبـه لقـول الموفـق وتحـدى الخليفـة العباسي المعتز بالله الذي لم يقو على مقاومتـه[٣]، فاحتـل فـارس، وبـدأ بإعـداد العـدة للتوجه نحو العراق.

---

(١) المسعودي: مروج الذهب ٤/ ١١٢ .

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٣٤١.

(٣) ابن الطقطقي: الفخري في الآداب السلطانية ٢٤٣.

وتنفيذا لمخططاته اتجه إلى الأهواز، ووجه كتابا إلى الخليفة يسأله ولاية خراسان وبلاد فارس، وما كان مضموماً إلى طاهر بن الحسين الخزاعي من الكور وشرطتي ببغداد و(سر من رأى)، وأن يعقد له على كرمان، وسجستان، والسند[١].

وأخيراً استجاب الموفق أخو الخليفة المعتمد لطلبات يعقوب بن الليث الصفار جميعها.

على أن أطماع يعقوب لم تقف عند حد، إذ أخذ يحارب الولاة العباسيين، فاستولى سنة ٢٦٣هـ/ ٨٧٦م على جنديسابور، ثم أخذ الأهواز من صاحب الزنج بعد حروب طويلة بينهما[٢].

ولما توفي يعقوب بن الليث الصفار سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٧م ، أمَّر الموفق أخاه عمرو ابن الليث الصفار على خراسان وأصبهان وسجستان والسند وكرمان فضلاً عن الشرطة ببغداد، ولما طلب عمرو الصفار من الخليفة المعتمد على الله أن يعهد إليه بولاية ما وراء النهر التي في أيدي السامانيين، ساءت العلاقة بينه وبين الخليفة الذي أعلن بدوره عزل عمرو بن الليث عن البلاد التي ولاها لأبيه، وقلد محمد بن طاهر بلاد خراسان، فأناب الأخير عنه فيها «رافع ابن هرثمة»[٣].

وبدأ المعتضد بالله (٢٧٩- ٢٨٩هـ/ ٨٩٢- ٩٠٢م) خلافته بعزل رافع

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٥/ ٢٦٨- ٢٦٩.
(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ١٤٦.
(٣) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣٨- ٣٩.

بن هرثمة عن خراسان وإعادتها إلى عمرو بن الليث الصفار، الذي أصر على طلب ولاية بلاد ما وراء النهر التي كانت بيد إسماعيل بن أحمد الساماني، فكانت هذه الفرصة المناسبة للقضاء على الدولة الصفارية، فأجابه الخليفة على طلبه هذا؛ ليضرب الاثنين ببعضهما.

انتهت الحرب بينهما بهزيمة عمرو بن الليث الصفار وأسره، فتولى حكم الدولة الصفارية بعد عمرو حفيد طاهر بن محمد سنة ٢٨٨هـ/ ٨٩٤م لكنه لم يستطع مقاومة أعدائه السامانيين، والدولة العباسية، وبخاصة بعد ما استبد بالسلطة «سبك السبكري» غلام عمرو بن الليث، حتى انتهى الأمر أخيرا بسقوط الدولة الصفارية بعد أقل من خمس وثلاثين سنة[١].

الدولة السامانية (٢٦١-٣٨١هـ/٨٧٤-٩٩١م):

قامت الدولة السامانية في بعض الولايات بإقليم ما وراء النهر، ويرجع نسب السامانيين إلى إحدى الأسر الفارسية العريقة التي كانت تدين بـ"الزرادشتية"، ثم أسلم جدهم سامان بمساعدة أسد بن عبد الله القسري - والي الأمويين على خراسان- فسمى ابنه أسدا تيمنا به، وبرز أمر السامانيين في أيام الخليفة المأمون الذي ولى أولاد أسد الأربعة سنة ٢٠٤هـ/ ٨١٩ م: نوح بن أسد سمرقند، أحمد بن أسد فرغانة، يحيى بن أسد الشاش، إلياس بن أسد هرات، وأشر وسنة.

ولما تولى طاهر بن الحسين بلاد خراسان أقرهم على ما بأيديهم لذلك

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ١٤٦.

كان التعاون يجمع ما بين السامانيين والطاهرين على حماية الثغر الشرقي، وعندما قام النزاع بين الطاهريين والصفاريين وقف السامانيون إلى جانب الطاهريين، ولما انتهى النزاع باستيلاء الصفاريين على إقليم خراسان أقر الخليفة العباسي المعتمد على الله ٢٥٦-٢٧٩هـ/ ٨٧٠- ٨٩٢م نصر بن أحمد الساماني على إقليم بلاد ما وراء النهر منفصلا عن خراسان تقديراً لإخلاصهم للخلافة، وذلك سنة ٢٦١هـ/ ٨٧٤م، فاتخذ من مدينة بخارى عاصمة له(١).

وخلف نصر بن أحمد أخاه إسماعيل بن أحمد الذي أنزل بعمرو بن الليث الصفاري الهزيمة وأسره، ثم ضم إسماعيل الساماني أراضي الدولة الصفارية في خراسان وسجستان إلى مملكته، كما ضم إقليم طبرستان بعد أن انتصر على واليها محمد بن زيد العلوي(٢).

علاقة الدولة السامانية بالخلافة العباسية:

تمكنت الدولة السامانية من الاستمرار مدة أطول من غيرها (١٢٨ سنة) بفضل علاقتها الحسنة بالخلافة العباسية، فحرصوا على التودد إلى الخلفاء العباسيين والتمسك بطاعتهم، ولم يوجهوا أطماعهم داخل الدولة إلا بالقدر الذي يخدم الخلافة في حربها مع أعدائها، أو بالقدر الذي يخدمها داخلياً عند وقيام الفتن الداخلية، وهكذا ظلت الجيوش السامانية تحارب في الري، وكرامان، وقزوين ونهاوند، وهمذان حتى كان العصر البويهي، فتزوج نوح بن نصر الساماني بابنة عضد الدولة البويهي في سبيل عقد علاقات ودية بين الدولتين.

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٥٠٣.

(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ١٤٧.

نهاية الدولة السامانية:

لكن الدولة السامانية لم يكتب لها أن تعيش طويلا بعد نزاعها مع البويهيين خلال الفترة (٣٥٦-٣٦١هـ/ ٩٦٧-٩٧١م) وذلك لأسباب منها:

أ - النزاع بين أفراد الأسرة السامانية على الحكم.

ب - تمرد بعض القادة واستقلال عمال الأطراف عنهم، واستعانتهم ببني بويه.

ج - تدخل النساء والوزراء في شئون الحكم بسبب صغر سن بعض الأمراء.

ثم انتهت الدولة السامانية بعد مائة وسبعين عاما على أيدي الغزنويين من جهة خراسان، وخانات الترك من جهة بلاد ما وراء النهر، وذلك في سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م[١].

---

(١) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ١٤٧- ١٤٩.

الدولة الغزنوية (٣٥١- ٥٨٢هـ/ ٩٦٢- ١١٦٣م)

قيام الدولة الغزنوية:

أسس الدولة الغزنوية أحد مماليك السامانيين ويـدعى «البتكـين» الـذي ولاه السامانيون منطقة (خراسان) ثم ولايـة (غزنـة) في جبـال سـليماني شـمال الهنـد؛ فأســس هنــاك الدولــة الغزنويــة ســنة ٣٥١هــ/ ٩٦٢م التابعــة اســماً للسامانيين.

أما المؤسس الحقيقي فهو مملـوك زوج ابنـة «نـاصر الـدين سـبكتكين»[١] الذي استولى على بعض المواقع الجبلية، ونجح في إخماد الثورات في بلاد ما وراء النهر فكافأه نوح بن منصور الساماني سنة ٣٨٤هـ/ ٩٩٤م بولايته على ما كـان بأيدي حامية في بلاد الأفغان الحالية، فأثار بذلك مخاوف ملوك الهند المجاورين، ومنهم «جيبال راجا لاهور» في شمال غرب الهند.

دارت الحروب الطويلـة بـين سـبكتكين وبـين جيبـال، انتهـت بانتصـار الأول وأسر الثاني سنة ٣٦٩هـ/ ٩٧٩م ثم أطلق سراحـه بعـدما تعهـد جيبـال بدفع الجزية[٢].

وصلت الدولة الغزنوية إلى أوجها في عهد ابنه محمـود ٣٨٨-٤٢١ هــ/ ٩٩٨-١٠٣٠م الذي غزا الهند أكثر من اثنتي عشرة مرة بـدافع الجهـاد الـديني والرغبة في نشر الإسلام، فاستطاع أن يضم إليه إقليم البنجاب وقاعدتـه مدينـة لاهور التي صارت نواة الدولة الباكستانية الإسلامية فيما بعد، ثم طمع محمـود

(١) ابن كثير: البداية والنهاية ج١١/ ٢٨٧.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٧/ ١٩٦.

الغزنوي في ملك السامانيين فأنزل بهم الهزيمة في (مرو) سنة ٣٨٩هـ/ ٩٩٩م وأزال ملكهم من خراسان[١].

وتلقب بلقب السلطان بعد أن كان يلقب بلقب الأمير، ثم استغل فرصة ضعف الدولة البويهية فضم إليه ما كان بأيدي بني بويه في الري وبلاد الجبل[٢].

نهاية الدولة الغزنوية:

بلغت الدولة الغزنوية في أيام محمود الغزنوي أعلى شأن لها بسبب علاقته الحسنة بالدولة العباسية، حتى لقبه الخليفة القادر بالله (٣٨١-٤٢٢هـ/ ٩٩١-١٠٣١م) «يمين الدولة»، و«أمين الملة»، وسك نقوداً باسمه تحمل هذه الألقاب، أما بعد وفاته فقد اضطربت أحوال دولته نتيجة للخلاف الذي نشأ بين ولديه:

- مسعود بن محمود بن سبكتكين: ٤٢١-٤٣٢هـ/ ١٠٢٠-١٠٤٠م.
- مودود بن محمود بن سبكتكين: ٤٣٢-٤٤١هـ/ ١٠٤٠-١٠٤٩م.

لكن حركة الفتوح استمرت طيلة عهود خلفائه إلى أن ضعفت على أيدي السلاجقة الذين ظهروا في خراسان وتمكنوا من إنزال الهزيمة بالغزنويين سنة ٤٣١هـ/ ١٠٣٩م مما جعل النفوذ الغزنوي ينحسر تدريجيا عن خراسان، ثم سقطت نهائيا على أيدي الغوريين الذين أقاموا دولة لأنفسهم ذات طابع هندي خالص وتواصل نشر الإسلام في الهند حتى سقطت على أيدي المغول[٣].

---

(١) المصدر السابق نفس الصفحة.

(٢) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ١٥٠- ١٥٠.

(٣) إبراهيم أيوب: التاريخ العباسي السياسي والحضاري، ص ١٥١- ١٥٢.

الغوريــون في خراســان وأفغانســتان وشمــال الهنــد (٣٩٠-٦١٢هـ/١٠٠٠- ١١٢٥م):

كان الإقليم الأوسط من أفغانستان- ذلك الإقليم الجبلي الوعر المسمى بـ«الغور»- في معظمه أرضاً مجهولة تماماً لأوائل الجغرافيين المسلمين، وكان جُل ما هو معروف عنه لا يخرج عن كونه مورداً للعبيد، وموطناً للطائفة من سكان الجبال الإيرانيين المفطومين على حب القتال، أولئك الذين ظلوا على وثنيتهم حتى شطر لا بأس به من القرن الحادي عشر الميلادي.

وفي هذا القرن كان الغزنويون يقومون بشن الغارات على إقليم الغور، ويتخذون من أمرائه المحليين من الأسرة الشنسبانية نوابا لهم، غير أنه حين تردت حظوظ الغزنوين في أوائل القرن الثاني عشر، باتت أبواب الإقليم مفتوحة أمام تغلغل النفوذ السلجوقي.

وكان على «عز الدين حسين»- وهو أول شخصية تاريخية معروفة تماما من هذه الأسرة- أن يؤدي الجزية للسلطان السلجوقي سنجر، وقد بذل السلطان الغزنوي «بهرام شاه» محاولات عدة لإعادة ترسيخ نفوذه، فما كان من هذه المحاولات إلا أن أسفرت عن قيام الغوريين بنهب مدينة «غزنة» في سنة ٥٤٥هـ/ ١١٥٠م ثم أسفرت في نهاية المطاف عن استيلائهم على الأراضي الغزنوية الواقعة في شرقي أفغانستان.

أما في الغرب فقد لقيت السياسات التوسعية التي سار عليها علاء الدين حسين في بادئ الأمر مقاومة من السلطان السلجوقي سنجر، غير أن انهيار السلطنة السلجوقية في خراسان بعد ذلك بوقت قصير قد أتاح الفرصة للغوريين

بإقامة إمبراطورية تمتد رقعتها على وجه التقريب من بحر قزوين إلى شمالي بلاد الهند، حيث ورثوا عن الغزنويين عقيدة الجهاد في سبيل نشر الله، وواصلوا السير على نهجها[1].

أما المهندسان اللذان اضطلعا معا بهذه المهمة، فهما الأخوان غياث الدين محمد ومعز الدين محمد، وقد وجه الأول منهما جهاده نحو الغرب بصفة أساسية، على حين وجه الآخر جهاده نحو الهند.

أما (باميان) والأراضي الواقعة على نهر جيحون فكانت تحت سيطرة فرع آخر من العائلة الغورية، وقد استعان غياث الدين بالقوات الغورية المحلية، كما استعان كذلك بما كان متاحا من فرق المماليك الأتراك لمواجهة الخوارزم شاهات وسادتهم القراخطاي، وفي وقت من الأوقات قام بغزو خوارزم نفسها، وقبيل وفاته استولى على سائر إقليم خراسان حتى مدينة بسطام غربا[2].

ومع هذا فلم تكن موارد الغوريين البشرية على ما يبدو بالموارد الكافية لإبقاء على هذه الإمبراطورية موحدة، في الوقت الذي كان يوسع خصومهم من الخوارزميين أن يتحركوا في يسر عبر السهول الآسيوية الوسطي بحثا عن الفرق المقاتلة، وبعد وفات معز الدين في عام ٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م ابتليت الأسرة بما نشب بين أفرادها من صراعات داخلية على السلطة، وأعلنت جماعة من الجنود الأتراك العاملين في خدمة الغوريين استقلالها بالحكم في غزنة، وتمكن الخوارزمشاه من التدخل وضم الأراضي الغورية إلى إمبراطوريته الكبرى.

---

(١) كليفورد.أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة، ص ٢٥٣.
(٢) كليفورد.أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة، ص٢٥٣.

غير أن الهيمنة الغورية لم تدم سوى فترة وجيزة، وذلك لأن المغول الجنكيزخانيين ما لبثوا أن اجتاحوا شرقي العالم الإسلامي برمته، وفضلاً عن ذلك فقد واصل قادة معز الدين من الأتراك السير على سياسة الغوريين، وإحياء تقاليدهم في شمالي الهند، حيث قام أحد سلاطنة أفراد الأسرة الغورية بتنصيب قطب الدين أيبك حاكما في لاهور[١].

سلاطنة دلهي في شمالي الهند (٦٠٢-٩٦٢هـ/١٢٠٦-١٥٥٥م):

تحقق أول غرس إسلامي في الهند في الجزء الأدنى من بلاد السند على يد الولاة العرب الذين حكموا هنالك في عهد خلفاء بني أمية، ففي عام ٩٢هـ/ ٧١١م، قام محمد بن القاسم بفتح إقليم السند سعيا إلى نشر الإسلام على وجه التحديد، وقد ظل هذا الإقليم في يد المسلمين طيلة القرون الثلاثة التالية، وإن كانت المجتمعات الإسلامية فيه قد وقعت تحت تأثير الحركة الشعبية الإسماعيلية التي كان دعاتها في هذا الوقت يجدّون في نشر دعوتهم في أماكن كثيرة من بلاد العالم الإسلامي من إفريقيا الشمالية إلى اليمن والحدود الهندية.

كما كانت هنالك علاقات تجارية بين مسلمي الشرق الأدنى والأراضي الساحلية من إقليم الكجرات وبومباي والدكن، وهي علاقات مماثلة لتلك التي كانت قائمة بينهما في العهود السابقة، غير أن هذه العلاقات المتقطعة لم تترك أثراً على الداخل الهندي، أي على الصعيد الأعظم من شبه القارة الهندية[٢].

(١) المرجع السابق ص ٢٤٥

(٢) أحمد محمد الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية الباكستانية وحضارتهم، القاهرة ١٩٧٠.

ويعتبر الغزنويون الأتراك أول من ألقى بكامل ثقله العسكري في شمالي الهند فأطاحوا بمن كان يحكم فيه من أسر محلية لها شأنها، كالأسرة الهندوشاهية التي كانت تحكم في (وايهند) حتى سنة ٤١٧هـ/ ١٠٢٦م، وقلصوا نفوذ الكثيرين من حكام الأسرة الراجبوتية، وأحالوهم إلى حكام تابعين، كما تغلغلوا في هذا الإقليم حتى وصلوا إلى (سومنات) في إقليم الكجرات كما وصلوا إلى كالنجر وبنارس.

ومع أن محمود الغزنوي قد حقق لنفسه شهرة جابت شتى آفاق العالم الإسلامي على أنه جلاد الهندوس الوثنيين، فمن الواضح أن هذا السلطان لم يكن من هذا الصنف من المجاهدين المتعصبين، ذلك أنه لم يعمد أبدا إلى إكراه الهنود على الدخول في الإسلام، كما لم يعمد مثل غيره من الفاتحين إلى إبادتهم، فقد كانت الفرقة العسكرية الهندية تشكل ركناً أساسياً في الجيش الغزنوي، كما لم يكن اعتناق الإسلام على ما يبدو شرطا للانخراط في سلك الجندية، وكان اهتمام الغزنويين في شمالي الهند اهتماما ماليا في المقام الأول.

وكانت شبه القارة بالنسبة لهم المعين الذي لا ينضب من الكنوز والعبيد فقاموا باحتلال البنجاب واتخذوا منها ركيزة دائمة في الهند، كما أصبحت لاهور حاضرة لملكهم قبل انحسار سلطانهم فيها[1].

وهكذا أضحت لهم في البنجاب نقطة انطلاق لها قيمتها بالنسبة

(١) جمال الدين الشيال: محاضرات عن الحركة الإصلاحية وحركة الثقافة في الشرق الإسلامي الهند والجزيرة العربية، مطبوعات معهد الدراسات العربية التابع لجامعة الدول العربية، القاهرة ١٩٥٧م.

للفتوحات الهندية الأخرى التي تمت على يد معز الدين الغوري وقـواده خـلال السنوات الأخيرة من القرن الثاني عشر والسنوات الأولى من القرن التالي، فبعد أن استولى معز الدين على البنجاب في أواخر حكم الغزنـويين، أخـذ يتوسـع في سهل الكنج، ودخل في مواجهات عدة مـع أمـراء راجبـوت المحليـين. فأطـاح بادي ذي بدء بحكم «يرتوي راج الثالث» ملك أجمير ودلهي (٥٨٨هـ/ ١١٩٢م) ذلك الملك القدير الملقب (بالشهابا) أو (يشوهان) ثم أطاح من بعده بحكـم (جياتشاندراجاه الدولة) ملك بنارس وقنوج (٥٩٠هـ/ ١١٩٤م).

ومن القواد الأتراك العاملين في خدمة السلطان معز الدين قطـب الـدين أيبك الذي أسندت إليه مسئولية حكم الفتوحات الغورية في الهنـد، أبـان حيـاة سيده السلطان المعز، حين كان على الأخـير أن يظـل متغيبـا في خراسـان، وقـد بسط قطب الدين أيبك نفـوذه عـلى الفتوحـات الغوريـة في منطقتـي البنجـاب والدواب الواقعة على نهر جمبا، أحد روافد نهر الكنج، وأخـذ يواصـل غزواتـه حتى وصل إلى الكجرات.

كما يذكر أن قائداً تركياً آخر هو «اختيار الدين محمد بـن خلجـي» الـذي توغل في (بهار) وبنغال، متخذاً من (كور) أو (لكهناوتي) قاعـدة لـه، بـل لقـد هاجم إقليم (آسام).

وعليه فإن ترسيخ الوجود الإسلامي في شمالي الهنـد لا يبـدأ إلا في عهـد الغوريين وقوادهـم، فقد تضاءل على أيديهم شأن الأسر الهندوكية الحاكمة التـي كانت قائمة منذ زمن بعيد في تلـك المنـاطق، كـما أرسـيت دعـائم العديـد مـن السلطنات الإسلامية.

على أنه ينبغي ألا يغيب عن بالنا أن الأسر الهندوسية المحلية - وبخاصة رؤساء راجيوت - قد ظلت في عهد سلطنة دلهي تمارس سلطانها في الأقاليم البعيدة عن مراكز الاحتلال العسكري التركي الأفغاني[١].

وحين توفي معز الدين في سنة ٦٠٢هـ/ ١٢٠٦م أمسك أيبك بزمام السلطة في لاهور كملك أو حاكم ينوب عن السلطان الغوري في فيروركو، ومنذ ذلك الوقت انفصلت غزنة والأجزاء الأفغانية من الإمبراطورية الغورية عن الهند، غير أنه لم يمض وقت طويل حتى كانت غزنة قد وقعت في أيدي الخوارزمشاهات ثم في أيدي المغول[٢].

وغالبا ما يطلق اسم (المملوك المماليك) على أيبك وخلفائه من القواد الذين حكموا حتى ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م، على الرغم من أن عدد من كان منهم ذوي أصول مملوكية لا يخرج عن القواد الثلاثة: أيبك- وألتوتمش- وبلبان، ناهيك عن أن سادتهم قد أنعموا عليهم بالعتق قبل أن يصلوا إلى سيادة الملك.

فضلاً على هذا فإن هؤلاء السلاطين لا ينحدرون من سلالة مملوكية واحدة بل من ثلاث سلالات متميزة[٣].

وفي عهد ألتوتمش الذي يعتبر المهندس الحقيقي المؤسس لدعائم سلطنة مستقلة في دلهي انضم إقليم السند إلى سلطنة دلهي وكان قبل ذلك في يد القائد المعز «ناصر الدين قباتشا»، كما تمكن من إلزام الخوارزميين حدودهم فلم يجرءوا

(١) كليفورد.أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة، ص ٢٥٧- ٢٥٨.

(٢) المباركفوري: رجال السند والهند في القرن السابع الهجري طبع بومباي: الهند ١٩٨٠م.

(٣) الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية الباكستانية وحضارتهم، ص ٢٨٤.

على عبور أراضيه.

غير أن المغول ما لبثوا أن اجتاحوا البنجاب في عام ٦٢٩هـ/ ١٢٤١م ونهبوا لاهور، ثم واصلوا تقدمهم حتى وصلوا إلى أوك[1].

وتعاقب على الحكم بعد ألتوتمش عدد من السلاطين الضعاف، فحل التمزق الداخلي بالسلطنة، ولم تتحقق لها وحدتها إلا حين آل أمرها إلى (بالبان)، وهو في الأصل أحد أفراد جماعة شهيرة من العبيد الأتراك- تدعى جماعة تشهيلكان- قوامها أربعون قائدا يعملون في خدمة ألتوتمش[2].

وقد واصل (بالبان) السير على ضرب سيده من حيث إرسائه دعائم السلطنة على أساس عسكري وإداري حازم من خلال ما استحدثه من إصلاحات وارتقاء بسلطة العرش وفق أسس فارسية تقليدية، فقويت في عهده الصلة الروحية والمعنوية مع سائر بلاد العالم الإسلامي.

وكان ألتوتمش من قبل قد حظى بمباركة الخليفة العباسي المستنصر، بل إن سلاطنة المعزيين قد وصلوا ضرب اسمه على سكتهم حتى بعد مقتل الخليفة المستعصم آخر خليفة عباسي في بغداد[3].

ومن هنا يتضح لنا عنصر التوحيد مع الإسلامي السني ككل، كما يتضح لنا مفهوم الاعتراف بالزعامة الروحية للخلافة، وقد ظل هذان العنصران قائمين في قدر كبير من تاريخ الإسلام الهندي كما ظلا يبرزان كفاح هذا الدين

(١) المباركفوري: رجال السند والهند في القرن السابع الهجري، ص ٥٢- ٥٣.

(٢) كليفورد.أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة، ص ٢٥٩.

(٣) جمال الدين الشيال: محاضرات عن الحركة الإصلاحية وحركة الثقافة في الشرق الإسلامي، ص٢٦١.

لتعزيز هويته أمام الضغوط الواقعة عليه من جانب البيئة الهندوسية المحيطة.

فضلاً على هذا كان هناك عاملاً آخر يتمثل في أفواج اللاجئين الذين وفدوا من فارس وما وراء النهر هاربين من المغول، وقد عرف هؤلاء اللاجئون طريقهم إلى الهند في عهدي (ألتوتمش) و(بلبان) وفي عهود لاحقة كعهد محمد بن تغلق واصلت موجات من الدماء الجديدة إثراءها للثقافة الإسلامية الهندية[١].

وفي عام ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م خلفت السلاطين المعزيين سلالة جلال الدين فيروز شاه الثاني الخليجي، وقد كان الخليجيون في الأصل شعبا من الشعوب التركية (أو لعلهم شعب متترك من أصل عرقي مختلف) يقطنون شرقي أفغانستان، وأغلب الظن أن أفغان غازي الحاليين من أحفادهم، وفي عهد معز الدين لعب الخليجيون دورا بارزا في الغزوات الغورية للهند، وكان (اختيار الدين محمد الخليجي) أول من أدخل الإسلام إلى البنغال وشرقي الهند، وقد كان طرد المغول هو الشغل الشاغل لفيروز شاه الثاني، ومع ذلك فقد تم في عهده السماح لأعداد غفيرة من المغول الداخلين في الإسلام بالاستقرار في منطقة دلهي[٢].

ومما لاشك فيه أن علاء الدين محمد كان أبرز شخصية في الأسرة الخليجية الحاكمة، فهو الحاكم الذي اعتبر نفسه الإسكندر الأكبر الثاني،

---

(١) جمال الدين الشيال: محاضرات عن الحركة الإصلاحية وحركة الثقافة في الشرق الإسلامي، ص٢٦١.

(٢) الساداتي: تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، ص٢٨٧.

وراودته أحلامه الكبيرة لإقامة إمبراطورية إسلامية مترامية الأطراف.

ولتحقيق هذه الأحلام كان عليه أن يتصدى قبل أي شيء آخر لتهديد (المغول الجغتائيين) المتربصين بحدوده الشمالية الغربية، والذين قاموا أبان السنوات السابقة على عام ٧٠٦ هـ/ ١٣٠٦م بالإغارة مرات عديدة على هذه الحدود فعبروها حتى وصلوا إلى دلهي.

ومع هذا وجدت طموحات علاء الدين متنفساً رئيساً لها في جنوب الهند، تلك المنطقة الخصبة الواقعة على مرتفعات وند هاي التي كانت حتى هذه الوقت بمنأى عن هجوم المسلمين.

وفي سنة ٦٩٥هـ/ ١٢٩٦م قام علاء الدين بشن هجوم على مدينة (ديوكرى) أو (ديوكر)- عاصمة بادواس- الواقعة في غربي الدكن، وقد أمده هذا الهجوم بالثروة التي استغلها فيما بعد للوصول إلى السلطنة، وحين تحقق له اعتلاء العرش باقتدار، دفع بالمزيد من الجيوش إلى الطرف الجنوبي من الدكن.

واستمر علاء الدين يحمل اسم (ناصر أمير المؤمنين)، أما ابنه قطب الدين مبارك شاه الأول فكان أول وآخر من أطلق على نفسه لقب الخلافة المعروف باسم (أمير المؤمنين)(١).

وانهارت السلالة الخليجية حين ارتد خسروخان عن الإسلام واغتصب عرش السلطنة في دلهي. ومن الجدير بالذكر أن خسروخان هذا كان قائدا كجراتيا ينتمي إلى إحدى الطوائف الهندوسية الدنيا، ثم تحولت عن الهند وسية إلى الإسلام، وكان من المقربين إلى السلطان مبارك شاه الأول آخر سلاطنة الخليجيين.

---

(١) كليفورد.أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة، ص ٢٦٠.

غير أن السيطرة على دلهي ما لبثت أن دانت للمسلمين مرة أخرى على يد القائد التركي «غازي تغلق شاه» وابنه «محمد» الذي استهل باسمه قائمة سلسلة حكام الأسرة التغلبية (٧٢٠/ ١٣٢٠) وقد بذل ما في وسعه من جهد لإعادة الاستقرار الاقتصادي والإداري إلى السلطة، كما أعاد بسط السيطرة الإسلامية على الدكن[١].

أما ابنه محمود فكان من تلك الشخصيات المحيرة فمع أنه كان حجة في اللغة الفارسية وبحرا في العلوم وقائدا عسكرياً بارعاً، إلا أننا نجده في عدد من المواقف شخصا مزاجيا فيما يصدر عنه من سلوك، وفقيراً فيما يتخذه من قرارات، فلقد كان إقدامه على زيادة الضرائب- ضماناً لإرساء دعائم السلطة على أساس مالي قوي- ما أسفر عن سلبه شعبية من الناس، كما أن القرار الذي اتخذه سنة٧٢٧هـ/ ١٣٢٧م بنقل العاصمة إلى (ديوكر) وأطلق عليها اسم (دولت آباد) كان قرارا أشبه بكارثة حلت بالسلطة، غير أنه من ناحية أخرى كان موفقا في صده لغزو المغول الجغتائية التي شنها «يرما شيرين» على بلاد ما وراء النهر في عام ٧٩٢هـ/ ١٣٢٩م.

كما أن المشروع الذي أعده للإفادة من ضعف الإيلخاني بغزو أسيا الوسطى عن طريق باميرز (إن كان هذا هو ما انتواه حقا، نظرا لغموض البيان الوارد في المصادر التي تناولت هذا الغزو) كان محض خيال[٢].

وقد كان لمحمد بن تغلق علاقات دبلوماسية مع بلاد العالم الإسلامي

---

(١) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، ص ٢٨٨.

(٢) الساداتي : تاريخ المسلمين في شبه القارة الهندية، ص ٢٨٨.

الواقعة فيما وراء بلاد الهند، كما كانت له صلات وثيقة مع سلاطنة دولة المماليك في مصر فضلاً عن سعيه الحصول على مباركة الخليفة العباسي الدمية المقيم في القاهرة.

وعلى أي حال فقد كان في تسخيره لطاقات السلطنة للقيام بمشروعات عسكرية غير واقعية على الحدود الشمالية للهند ما أدى إلى إضعاف قبضة التغلقيين على الدكن: ففي (مادوره) في أقصى الطرف الجنوبي لهذه المنطقة قامت مملكة إسلامية مستقلة استمرت فترة من الزمن، ثم ما لبثت أن أطيح بها مع ظهور مملكة (فياينكر) الهندوسية.

وفي سنة ٧٤٨ هـ/ ١٣٤٧م أسس علاء الدين بهمن شاه في وسط الدكن ما يعرف بالمملكة البهمنية.

وفي وقت لاحق استعاد فيروز شاه الثالث نفوذ السلطنة في السند والبنغال، غير أنه لم يبذل من جانبه أية محاولة للاقتراب من الدكن، وكان لتخاذل آخر حكام التغلقيين وضعف السلطنة أثرها في تمكين «تيمور» من غزو الهند في سنة ٨٠١هـ/ ١٣٩٨م وتدميرها تدميرا شديدا، وكان من نتيجة هذا أن انفرطت وحدة السلطة واستقل بحكم الأقاليم فيها أفراد شتى من مختلف المسلمين[١].

ولقد ظلت السلطنة ما يقرب من أربعين عاماً في يد خضر خان الذي كان حاكماً على (ملتان) من قِبل «تيمور» حيث حكم باسم تيمور وشاه روخ واختص نفسه بلقب «راياتي أعلى» وقد تسمت أسرته باسم أسرة السادات

(١) جمال الدين الشيال: محاضرات الحركة الإصلاحية، ص ١١٢.

اعتماداً على نسب مختلق يصلها بذرية آل بيت النبي ﷺ.

وقد اقتصرت السلطة الفعلية للأسرة الساداتية على منطقة صغيرة قرب دلهي وكان لاعتمادهم الرئيسي على التيموريين أثره في سلبهم شعبيتهم بين الفئات العسكرية التركية والأفغانية[١].

وفي عام ٨٥٥هـ/ ١٤٥١م توارت سلالتهم كي تحل محلها سلالة «بهلول خان» وهو أحد أمراء قبيلة «اللودي» الأفغانية، وأحد الحكام السابقين لمدينتي (سيرهند) و(لاهور).

وقد كان بهلول في حماسه ندا لعظماء التغلقيين، فبذل الكثير من جهده لاستعادة الهيبة الإسلامية في الهند، فلقد أعاد لدلهي السيطرة على قدر كبير من وسط الهند، كما أطاح بحكم الشرقيين في (جنبور) (٨٨١ هـ/ ١٤٧٧م).

أما ابنه إسكندر الثاني، فقد قاد العمليات العسكرية ضد الولايات الواقعة تحت سيطرة الراجبوتيين، وحقق شيئاً من النجاح في مهمته تلك، كما نقل عاصمته من دلهي إلى أكرا فكانت القاعدة الأفضل لهذه العمليات العسكرية، وقام إبراهيم الثاني آخر حكام الأسرة اللودية بعزل كثير من النبلاء والقواد بدعوة القائد المغولي الجغتائي «بابر» إلى التدخل، وكان «بابر» في هذا الوقت حاكما لكابول[٢].

وقد أسفر النصر الذي أحرزه «بابر» في (بانيبات) سنة ٩٣٢هـ/ ١٥٢٦م عن موت إبراهيم وظهور سلالة أباطرة المغول في الهند، غير أن هذا النصر لم

---

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٣٠٥- ٣٠٦.

(٢) كليفورد.أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٢٦١- ٢٦٢.

يكن ليعني بعد إقامة دائمة لأسرة «بابر» في الهند، ذلك أن عهد ابنه همايون قد توقف مدة خمس عشرة سنة بسبب عودة الحكم الأفغاني على يد «شيرشاه سور»، وقد انطلق «شيرشاه» من بهار وهزم «همايون» في وقنوج وبهذا أحبط كل جهود «بابر» سنة ٩٤٧هـ/ ١٥٤٠م.

وفضلاً على أن شيرشاه كان قائدا بارعا، فقد كان بالمثل مستحدثا لعدد من الإصلاحات الهامة في الميادين الزراعية والمالية، ولولا وفاته المبكرة لقامت في الهند سلطة أفغانية قوية، ولما عاود همايون محاولاً أن يجرب حظه مرة أخرى، وهكذا فقد كان لضعف من تعاقب على الحكم بعد شيرشاه من حكام عابرين أثره في تذليل الأمر على أباطرة مغول الهند، كي يعودوا مرة أخرى[١].

سلاطنة البنغال (٧٣٧-٩٨٤هـ/١٣٣٦-١٥٧٦م):

كانت البنغال دوما مشكلة تقلق بال سلاطنة دلهي، فقد كان غني الولاية بالموارد الطبيعية فضلا عن بعدها عن العاصمة يشكل لحكامها إغراءات مستمرة بإعلان التمرد .

وبعد وفاة بلبان في سنة ٦٨٦هـ/ ١٢٨٧م أصبحت الولاية مستقلة تحت إمرة ولاتها الذين حكموها من لكهنواتي، وفي السنوات الاستهلالية للقرن الرابع عشر قامت القوات الإسلامية بغزو شرقي البنغال، وعبرت نهر براهمبوترا متوغلة في منطقة (سلهت) الواقعة في ولاية (آسام) ثم أعاد غياث الدين تغلق بسط سيطرتة لبعض الوقت على دلهي، وقام بتقسيم البنغال إلى حكومتين:

(١) المرجع السابق، ص ٢٦٢.

أحدهما: في الغرب ومركزها (لكهنواني).

والأخرى: في الشرق ومركزها (سناركاون).

غير أن البنغال سقطت بعد وفاته في أيدي كل من «فخـر الـدين مبـارك» حـاكم الجـزء الشرقـي، و «عـلاء الـدين عـلي» حـاكم الجـزء الغـربي، وظلـت البنغال طيلة القرنين ونصف القرن التـالي تحكـم مـن قبـل سـلاطنة مسـتقلين، وخلال هذه السنوات كان الإسلام ينتشر بصـورة مطـردة بـين أبنـاء الطبقـات الهندوسية الدنيا الأمر الذي أدى إلى جعل المسـلمين في الوقـت الحـالى يمثلـون الأغلبية الساحقة في الإقليم[١].

وقد قام آل بيت شمس الدين إليـاس بتوحيـد كامـل الأراضي البنغاليـة تحت تاج واحد، وفي عهد الإلياسيين ازدهرت الفنون والعلوم الإسـلامية، كـما صارت تجارة المنسوجات والمواد الغذائية البنغالية محل تشجيعهم ورعايتهم.

وفي العقد الأول للقرن الخامس عشر قـام غيـاث الـدين أعظـم بإحيـاء الروابط الدبلوماسية والثقافية مع الصين، ولعـل في نمـو مينـاء (تشـيتاكونك) دليلا واضحا على تزايـد التبـادل التجـاري مـع الشرق الأقصى، غـير أن عهـد إلياسيين قد تخللته فاصلة رامنية تقدر بأربعين عاما انتقلـت السـلطة خلالهـا إلى سلالة «راجا كانس» الذي كان إقطاعيا هندوسيا يحكم (بهاتورا) حكماً محلياً.

وقد كان «راجاكانس» على ما يبدو هـو القـوة التـي وقفـت وراء عـرش السلطنة لعدة سنوات، غير أنه في نهاية الأمر ما لبث أن اغتصب عرش السلطنة وسلمها لابنه «جادو» الذي دخل في الإسلام وحكم تحت اسم «جـلال الـدين

---

(١) كليفورد.أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ٢٦١- ٢٦٢.

محمد»، ومع أن سلالة «كانس» ذات أصول هندوسية فإنها تمكنت من حكم البلاد بمؤازرة عدد من المسلمين.

وحين عاد الإلياسيون إلى السلطة مرة أخرى استشرى نفوذ حراس القصر من الأحباش، فما إن حلت سنة ٨٩٢هـ/ ١٤٨٧م حتى قام قائدهم الخصي «سلطان شهادة» بقتل آخر حكام إلياسين واستأثر بالسلطة لنفسه[١].

وفي النهاية استتب النظام على يد «سيد علاء الدين حسين» والذي جاء حكمه المستنير في وقت مناسب بعد أن عمت البلاد مظاهر الفوضى التي سادت فترة الأحباش.

وفي عهده انضم إقليم (بهار) إلى البنغال، وتم منح اللجوء السياسي لحاكم جوانبور الشرقية الذي خلعه سلاطنة دلهي، وانضمت قوات جوانبور إلى جيش البنغال.

أما ظهور نوع من الأدب البنغالي المحلي، فقد كان نتاج عملية تشجيع ملكي متصل خلال هذه القرون، ويتجلى التشجيع الملكي للأدب في احتضان «نصرة شاه» بن «سيد حسن» لإحدى الترجمات البنغالية لملحمة المهابراتا، أما زوال سلالة سيد حسين فقد حل بظهور الرئيس الأفغاني في شيرشاهخ على مسرح الأحداث ظهوراً خاطفاً، فهو الذي استولى على البنغال واتخذها قاعدة لطرد همايون المغولي من الهند.

لكن ما أن تمكن المغول من إحكام قبضتهم مرة أخرى على لاهور ودلهي

---

(١) حسن أحمد محمود: الإسلام والحضارة العربية في آسيا الوسطى بين الفتحين العربي والتركي ص ٢٤١ القاهرة ١٩٦٨م.

وإلحاق الهزيمة بالأفغان حتى بدأ النفوذ المغـولي في البنغـال يـتسرب إلى الهنـد، واعترف سليمان كراراني- الحاكم الأسبق لجنوب إقليم بهار- بتعيينه للسـلطان أكبر. وفي سنة ٩٨٤هـ/ ١٥٧٦م قام مغول الهنـد باجتيـاح البنغـال وأصـبحت جزءا لا يتجزأ من الإمبراطورية المغولية[١].

الإيلخانيون في فارس (٦٥٤-٧٥٤هـ/١٢٥٦- ١٣٥٣م):

سبق أن ذكرنا[٢] أن الخان الأكبر «منكو» أسند إلى هولاكو مهمة استعادة السيطرة على الفتوحـات المغوليـة في غـربي آسـيا وتقويتهـا، وذلـك لأن زمـام السلطة في كثير من بلاد الإسلام الواقعة جنوب نهر جيحون قد أفلتت مـن يـد المغول خلال الفترة التي أعقبت وفاة جنكيز خان؛ لـذلك اتجـه هولاكـو غربـا وأجهز في سنة ٦٥٤هـ/ ١٢٥٦م على ما أبداه الإسماعيليون أو الحشاشون مـن مقاومة لسلطة المغول في شمالي فارس، كما سحق أحد جيوش الخلافـة المرابطـة في العـــراق وقتـــل الخليفـــة المستعصـــم آخـــر خلفـــاء العباســـيين في بغـــداد سنة ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م ثم توغل في الشـام، هنالـك منـي المغـول رغـم قـوتهم بالهزيمة والتشتت على يد مماليك مصر في موقعة عـين جـالوت بفلسـطين سـنة ٦٥٨هـ/ ١٢٦٠م.

وحين أصبح هولاكو نائباً للخان الأكبر في الحكم على سائر أنحاء فارس والعراق والقوقاز والأناضـول اتخـذ لنفسـه لقـب «إيلخـان» أي خـادم الخـان الأكبر أو تابعه[٣].

---

(١) كليفورد.أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة، ص ٢٦٥- ٢٦٦.

(٢) انظر ص١٧٤ وما بعدها.

(٣) انظر الوحدة الثانية.

ومنذ هذا الوقت أخذت مقومات المملكة الإيلخانية تتحد، وإن كـان لا يزال عليها أن تواجه خارج حدودها أعداءً كثيرين كانوا يتربصون بها الـدوائر، ومنهم مماليك مصر الذين نجحوا في تحطيم الأسطورة التي شاعت لدى العامـة عن أن المغول قوة لا تقهر.

كما كان لهذه المملكة أعداء كثيرون، منهم تلـك الأسر المغوليـة الأخـرى المتفرعة عن «القبيلة الذهبية» ومنهم الجغتائيون الذين كانوا يناصبوهم العـداء بسبب الأراضي المتنازع عليها في القوقاز وشمال شرقي إيران على التـوالي، وقـد كـان اتفـاق جميـع هـذه القـوى في عـدائها للإيلخـانيين هـو الـذي أدى إلى قيام التحالف التجاري والسياسي بين المماليك وكثير مـن أسر القبيلـة الذهبيـة، على حين سعى الإيلخانيون مـن جـانبهم إلى إقامـة تحـالف مضـاد للمسـلمين اشتركت فيه القوى الأوروبيـة المسـيحية والصـليبية في مـدن الشرق السـاحلية والأرمن في فليقيا.

وجدير بالذكر أن «دوقـوز خـاتون» زوجـة هولاكـو كانـت مـن المسـيحيين النســاطرة، فضــلا عــن أن أوائــل الإيلخــانيين كــانوا متعــاطفين بالفعــل مــع المسيحية والبوذية[1].

وقد تمكن الإيلخانيون من حماية دولتهم من أعدائهم من الخـارج، إلا أن الروابط التي كانت قائمة بينهم وبين خانات الصين الكبار قـد تفككـت بوفـاة قوبلاي خان في سنة ٦٩٣ هــ/ ١٢٩٤م وبخاصـة عنـدما أسـفرت الضـغوط الثقافية والدينيـة للبيئـة الفارسـية عـن اعتنـاق «غـزان خـان» وأتباعـه للـدين

(١) كليفورد.أ. بوزوروث: الأسرات الحاكمة، ص ٢٠٩- ٢١٠.

الإسلامي، وكان أبو سعيد آخر حاكم إيلخاني كبير قد أبرم معاهدة سلام مع المماليك في سنة ٧٣٢هـ/ ١٣٢٣م توقف بمقتضاها القتال في الشام، غير أن الصراع الداخلي ما لبث أن أنهك مملكته، ثم مات دون أن يترك - لسوء حظه - وريثاً شرعياً له، وكان من نتيجة ذلك أن تعاقب على الحكم خلال السنوات القليلة التالية سلسلة من الخانات العابرين الذين كانوا يصلون إلى العرش عن طريق منافسي الإيلخانيين من الجلائريين والأمراء الجوبانيين، واستمر الوضع على هذا النحو إلى أن تداعت أركان الإمبراطورية الإيلخانية في آخر الأمر وحلت محلها الأسر المحلية الحاكمة، ولم يبق أمام تيمور إلا أن يعيد توحيد الأراضي الفارسية تحت راية واحدة[1].

وعلي الرغم مما ساد العهد الإيلخاني من حروب كثيرة، وتوتر داخلي فقد كان بالنسبة لبلاد فارس عهد رخاء وازدهار، وقد كان لاعتناق (غازان) الدين الإسلامي أثره في ظهور نوع من الوفاق بين أفراد الطبقة المغولية التركية من جلنب وبين رعاياهم من الفرس من جلنب آخر، كما أضحت (تبريز) و(فرغانة)- حاضرتا الإيلخانيين - مركزين كبيرين من مراكز العلم والمعرفة مع إبداء اهتمام خاص بتشجيع العلوم الطبيعية والدراسات التاريخية.

وبعد سنة ٧٠٧ هـ/ ١٣٠٧م قام «أولجايتو» بالتخطيط لإنشاء حاضرة جديدة لإمبراطوريته في منطقة (السلطانية) قريبا من قزوين، فكان في إنشائها فرصة لتشجيع الفنانين المعماريين، وبزوغ أسلوب متميز في العمارة الإيلخانية، وقد كان للمواقف المغولية ذات النزعة الدولية- فضلاً عن اتصالهم بثقافات

(١) أحمد السعيد سليمان: تاريخ الدول الإسلامية، ص ٢٧٩- ٢٨٣.

مختلفة كالثقافة الأوروبية المسيحية والثقافة الصينية - أبلغ الأثر في إثراء العالم الفارسي بالجديد من التيارات الفكرية والفنية والتجارية، مثال ذلك عودة ظهور الجاليات التجارية الإيطالية في هذا الوقت في العاصمة تبريز، وقيام الإمبراطورية الإيلخانية بدور بارز في توثيق روابطها التجارية مع بلاد الشرق الأقصى والهند.

خانات القبيلة الذهبية في روسيا الجنوبية وغربي سيبريا (٦٢٣-٩٠٧هـ/١٢٢٦-١٥٠٢م):

خص جنكيز خان ابنه «جوشي» بالأراضي الواقعة غربي سيبريا، وبوفاة جوشي سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٧م آل الجزء الشرقي من هذه التركة- أي غربي سيبريا- إلى ابنه الأكبر (أوردا) الذي أصبح الرئيس الروحي لذرية جوشي، وأقام في أراضيه ما يسمى (القبيلة البيضاء) غير أنه لا يعرف سوى القليل عن خانات هذه القبيلة، اللهم فيما عدا توقتميش (ت٨٠٩/ ١٤٠٦) ذلك الخان القوي النشط الذي يعتبر شخصية بالغة الأهمية، فقد قام بتوحيد «القبيلة الزرقاء» التي أسسها «باتو» والتي عرفت منذ ذلك الوقت باسم القبيلة الذهبية مع «القبيلة البيضاء» كما بث الحيوية مرة أخرى في «القبيلة الذهبية» وجعل منها قوة مرهوبة الجانب في روسيا.

وفي سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م حاصر مدينتي (نزني نوفغورد) و(مسكو) ونهبهما غير أن سوء حظه وضعه في مواجهة مع تيمور، فطرده الأخير من عاصمته (سرايا) الواقعة على نهر الفولجا، فاضطر للهرب إلى ليتوانيا واتخاذها منفى له تحت رعاية حاكمها «فيتولد»[1].

---

(١) كليفورد.أ.بوزوروث: الأسرات الحاكمة، ص ٢١١.

أما النصف الغربي من تركة جوشي الذي يضم خوارزم وسهل القبجـاق في روسيا الجنوبية، فقد آل إلى ابنه الثاني «باتو»، الذي قام بالزحف عـلى روسـيا حتى وصل إلى (نوفكورد) واستولى على (كييف) وهاجم (بولندا وبلغاريا).

وبعد النصر الذي حققه جيش «باتو» على جيش «بيلا الرابـع» في موقعـة «ليكنتز» سنة ٦٣٨هـ/ ١٢٤١م ثم مطاردته حتى شواطئ الأدرياتيك، لم يكتب لأوروبا المسيحية أن تسلم من أيـة تحرشـات أخـرى إلا بعـد وصـول أنبـاء إلى (باتو) تحمل إليه وفاة الخان الأكبر «أوكتاي»، وقد اتخـذت «القبيلـة الزرقـاء»- التي أسسها «باتو»- من (سرايا) حـاضرة لهـا بعـد أن أصـبحت نـواة «القبيلـة الذهبية»، ويبدو أن الروس هم الذين أطلقوا اسم «الذهبية» على هـذه القبيلـة، وقد كان جميع خانات «القبيلة الذهبية» مسلمين اعتباراً من ولاية الخان أوزبـك (٧٤٢هـ/ ١٣٤١م) فصاعداً، مما يشير إلى أنه كانـت هنالـك فجـوة دينيـة بـين القبيلة الحاكمة وبين العامة من رعاياها الروس المسيحيين، عـلى الـرغم مـن أن الإرسالات المسيحية اللاتينيـة قـد أخـذت لـبعض الوقـت تواصـل نشـاطها التبشيري في سهل القبجاق.

وقد كانت لهذه القبيلة صلات تجارية هامة مع بـلاد الأناضـول والدولـة المملوكية في مصر والشام، إذ كانت تزود المماليك بأفواج متجددة من الرقيق، في حين كانت ثقافتهـا تسـتقبل عـن طـريقهم مـؤثرا ثقافيـا بعينـه مـن المـؤثرات الإسلامية البحر متوسطية عـلى عكـس الإيلخـانيين الـذين اصـطبغوا بصـبغة فارسـية، غـير أن تنـامي قـوة العثمانيـين وهيمنتهـا عـلى الـدردنيل بعـد عـام ٧٥٥هـ/ ١٣٥٤م قطعت عليهم الطريـق إلى البحـر المتوسـط كـما حالـت دون

اتصالهم بالمماليك، وبالتالي جعلت منهم قوة روسية خالصة[١].

وبعد وفاة «توقتميش» آلت السلطة الفعلية في «القبيلة الذهبية» إلى عمدة القصر «إديكو» القوي، غير أنه بعد وفاة «إديكو» عام ٨٢٢هـ/ ١٤١٩م أصبحت القبيلة عرضة للتفكك، وسرت في داخلها الكثير من بوادر الشقاق، وقد كان لظهور (بولندا وليتوانيا) وإمارة (مسكوفي) في وقت سابق يعود إلى أواخر القرن الرابع عشر الميلادي أثره في تهديد سلطة الخانات على نحو خطير، فضلاً عن أن العثمانيين وحلفاءهم من تتار القرم كانوا يناصبونهم العداء، وقد كان «منكلي كراي» خان القرم هو الذي أطاح إلى الأبد بسلطان «القبيلة الذهبية» في سنة ٩٠٧هـ/ ١٥٠٢م.

لكن قبل هذا التاريخ بقليل كانت خانات أخرى قد خرجت على وحدة «القبيلة الذهبية» وانفصلت عنها تحت زعامة عدد من أحفاد «توقاتمور» الابن الثالث لجوشي، وهذه الخانات هي: استراخان (حتى الغزو الروسي لها سنة ٩٦١هـ/ ١٥٥٤م) وقازان (حتى الغزو الروسي لها سنة ٩٥٩هـم١٥٥٢م) وقاسيموف (حول ريزان جنوب شرق موسكو حتى الغزو السوفيتي لها حوالي سنة ١٠٩٢/ حوالي سنة ١٦٨١م وقد تحول أخر خاناتها إلى المسيحية) ثم خالية القرن[٢].

---

(١) أبرار كريم الله: قساهم اللتار، ترجمة د. رشيدة رحيم الصبروتي، ص ٧- ٨، الهيئة المصرية العامة للكتاب، القاهرة ١٩٩٤.

(٢) أبرار كريم الله: قساهم اللتار، ص٩.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

- قامت الدولة الطاهرية من سنة ٢٠٥- ٢٥٩هـ وتنسب إلى طاهر بن الحسين أحد قواد الخليفة المأمون، ثم أظهروا ولاءهم الكامل للخلافة العباسية.
- تنسب الدولة الصفرية إلى يعقوب بن الليث، وكانت تحكم في الفترة من سنة [٢٥٤- ٢٩٠هـ] ثم اصطدمت بالدولة الطاهرية وكانت على علاقة سيئة بالخلافة العباسية والسامانين، وقامت بينهما حروب انتهت بهزيمة الدولة الصفرية وسقوطها.
- قامت الدولة السامانية في الفترة من (٢٦١- ٣٨١هـ) في بعض ولايات إقليم ما وراء النهر، وكانت علاقتهم طيبة بالدولة الطاهرية والأمويين وكذلك العباسيين، ثم سقطت على أيدي الغزنويين.
- قامت الدولة الغزنوية سنة (٣٥١- ٥٨٢هـ) ومؤسسها الحقيقي هو زوج ابنة ناصر الدين سبكتكين. وبلغت أعلى شأنها في عهد محمود الغزنوي، ثم سقطت بعد وفاته على أيدي الغوريين.
- سمي الإقليم الأوسط من أفغانستان بالغور، وفتحت هذه البلاد من قبل الغزنويين وبسطوا نفوذهم عليها حتى قام الغوريون بنهب غزنة، ثم ورثوا عن الغزنويين عقيدة الجهاد ونشر الإسلام. وقد سادت هذه الحضارة في الفترة (٣٩٠- ٦١٢هـ) في خرسان وأفغانستان وشمال الهند.

- كان أول غرس إسلامي في بلاد الهند في عهد بنى أمية، لكن الغزنويون هم أول من فتح شمال الهند على يد محمود الغزنوي حيث كان اهتمامهم بها اهتماماً مالياً، ثم استولى معز الدين على البنجاب.
- لم يبدأ ترسيخ الوجود الإسلامي في شمالي الهند إلا في عهد الغوريين وقوادهم.
- يعتبر عهد التوتمش تأسيس حقيقي لسلطنة دلهي والسند التي لم تلبث أن سقطت في أيدي المغول بعد وفاته.
- وقد دانت هذه البلاد بالولاء للخلافة العباسية.
- وفي عهد الخليخيين دخل الإسلام إلى البنغال وشرقي الهند، وكان شغلهم الشاغل طرد المغول.
- كان علاء الدين محمد هو الذي شن الهجوم على مدينة ديوكرى المغولية وانتصر عليهم.
- انهارت السلالة الخليجية بعد ارتداد خسروخان عن الإسلام.
- عادت دلهي مرة أخرى للمسلمين على يد (غازي تغلق شاه).
- حكم خضرخان باسم تيمور ما يقرب من أربعين عاماً.
- كان لضعف الحكام الذين تولوا بعد ذلك أثراً في عودة مغول الهند مرة أخرى.
- حكمت سلاطنة البنغال في الفترة من (٧٣٧- ٩٨٤هـ) حيث كانت غنية بالموارد الطبيعية، ثم قامت القوات الإسلامية بفتح تلك البلاد وقد قسمها غياث الدين تغلق إلى حكومتين في الغرب وفي الشرق، ثم

استقل كل جزء منهما لمدة قرنين ونصف قرن حتى قام آل بيت شمس الدين بتوحيدهم، ثم حكمها سيد علاء الدين حسين، وتوالى بعد ذلك الحكام حتى سقطت في يد مغول الهند سنة ٩٨٤هـ.

- كان الإيلخانيون في فارس في الفترة (٦٥٤- ٧٥٤هـ) وبعد هزيمة المغول في موقعة عين جالوت أصبح هولاكو نائباً للخان الأكبر على سائر أنحاء فارس ومن ثم أخذت المملكة الإيلخانية تنحدر واشتركت مع القوى الأوربية المسيحية في إقامة تحالف مضاد للمسلمين، ثم اعتنق غزان خان الدين الإسلامي وأقام معاهدة سلام مع المماليك.
- كانت الأراضي الواقعة غربي سيبريا تحت حكم جوشي بن جنكيز خان حيث أقام فيها القبيلة البيضاء.
- كان هناك خان قوي يدعى توقنميش أسس القبيلة الذهبية والذي قام بتوحدها مع القبيلة البيضاء.
- كان جميع خانات القبيلة الذهبية مسلمين اعتباراً من الخان أوزبك فصاعداً بينما كان هناك بعض الرعايا المسيحيين.
- بعد وفاة توقنميش آلت السلطة إلى إديكو، وبعد وفاته ظهر الشقاق في القبيلة وكان منكلي كراي هو الذي أطاح بسلطان القبيلة الذهبية سنة ٩٠٧هـ.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

اكتب ما تعرفه عن:

س١: دور السامانيين في نشر الدعوة الإسلامية في شرق آسيا.

س٢: الدولة الطاهرية في خراسان وبغداد.

س٣: الدولة الصفارية.

س٤: الدولة الغزنوية ودورها في شرق آسيا.

س٥: دولة الغوريين في خراسان وأفغانستان في شمال الهند.

س٦: المعزيين في شمال الهند.

س٧: الخليجيين في شمال الهند.

س٨: التغلقيين في شمال الهند.

س٩: سلاطنة البنغال.

س١٠: الإيلخانيين في فارس.

س١١: خانات القبيلة الذهبية.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- تنسب الدولة الطاهرية إلى طاهر بن الحسين. (   )

٢- قامت الدولة الطاهرية عام ٢٢٥هـ. (   )

٣- تنسب الدولة الصفارية إلى عمرو بن الليث الصفار. ( )

٤- قامت الدولة السامانية في عام ٢٦١هـ. ( )

٥- اتسمت العلاقات السامانية العباسية بالسوء على طول الخط. ( )

٦- قامت الدولة الغزنوية عام ٣٥٢هـ. ( )

٧- قام حكم الغوريين في خراسان عام ٣٩٠هـ. ( )

٨- ورث الغوريون عن الغزنويين حب الجهاد ونشر الإسلام. ( )

٩- فتح الحجاج بن يوسف الثقفي السند عام ٩٢هـ. ( )

١٠- قامت سلطنة البنغال عام ٧٣٧هـ. ( )

١١- لم يشكل اعتناق غزان للإسلام أي أثر في المحيط السياسي المغولي. ( )

١٢- قامت دولة خانات القبيلة الذهبية في جنوب روسيا وغربي سيبريا. ( )

١٣- قامت دولة الإيلخانيين في الهند عام ٦٥٤هـ. ( )

١٤- يعد أبو سعيد آخر حاكم إيلخاني كبير. ( )

١٥- أسس باتو دولة القبيلة الزرقاء. ( )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- قامت الدولة الطاهرية عام ....

أ- ٢٠٥هـ ب- ٢٠٦هـ ج- ٢٠٤هـ

٢- سقطت الدولة الصفارية عام ....

أ- ٢٩٠هـ ب- ٢٩١هـ ج- ٢٨٩هـ

٣- سقطت الدولة السامانية عام ....

أ- ٣٨١هـ ب- ٣٨٢هـ ج- ٣٨٠هـ

٤- قامت الدولة الغزنوية عام ....

أ- ٣٥١هـ ب- ٥٨٢هـ ج- ٣٧٠هـ

٥- قامت الدولة الغورية في ....

أ- إيران في فارس وجنوب الهند ب- خراسان وأفغانستان وشمال الهند

ج- جنوب روسيا وسيبريا

٦- سقطت دولة سلاطين دلهي في شمال الهند عام ....

أ- ٩٦٠هـ ب- ٩٦١هـ ج- ٩٦٢هـ

٧- قامت دولة سلاطنة البنغال عام ....

أ- ٧٣٧هـ ب- ٧٣٦هـ ج- ٧٣٨هـ

٨- سقطت دولة الإيلخانيين في فارس عام ....

أ- ٧٥٤هـ ب- ٧٥٥هـ ج- ٧٥٦هـ

٩- سقطت دولة خانات القبيلة الذهبية عام ....

أ- ٩٠٧هـ ب- ٩٠٥هـ ج- ٩٠٦هـ

١٠- قامت دولة خانات القبيلة الذهبية في ....

أ- روسيا الجنوبية وغربي سيبريا ب- وسط الهند وشرق فارس

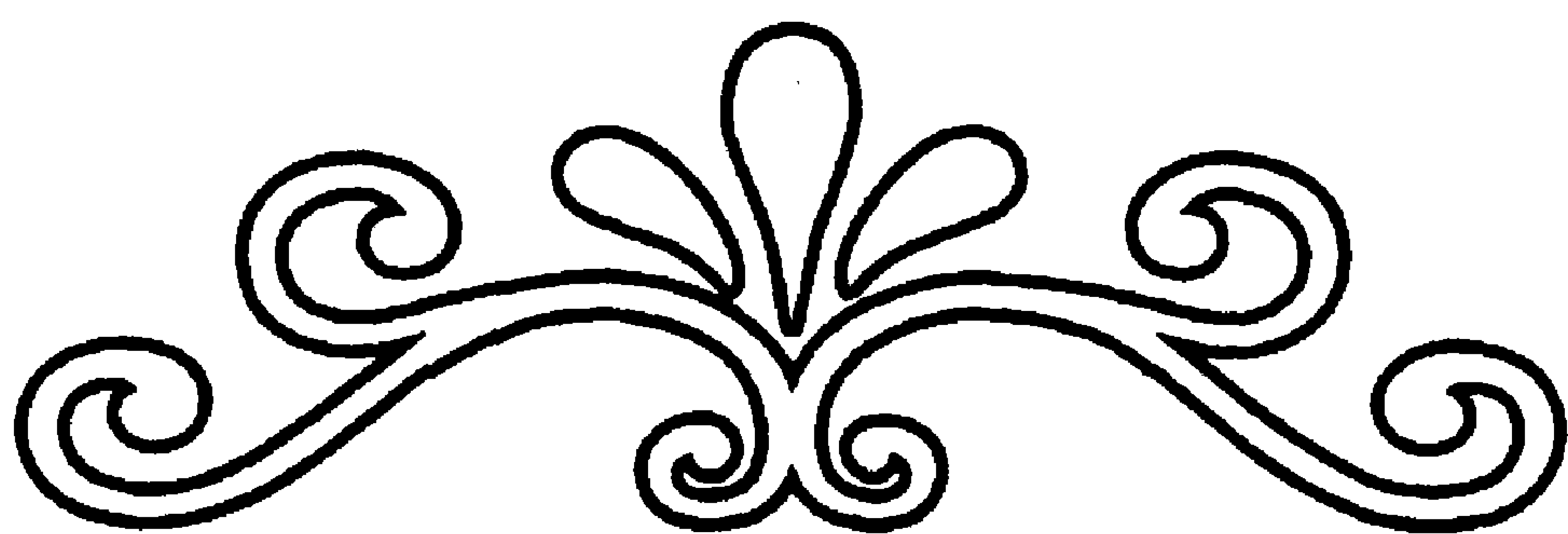
ج- خراسان وبغداد

النشاط التعليمي للوحدة الثامنة

عزيزي الدارس:

حتى تكتسب المزيد من المعلومات المتعلقة بموضوع هذه الوحدة نقترح عليك إنجاز النشاط التعليمي التالي:

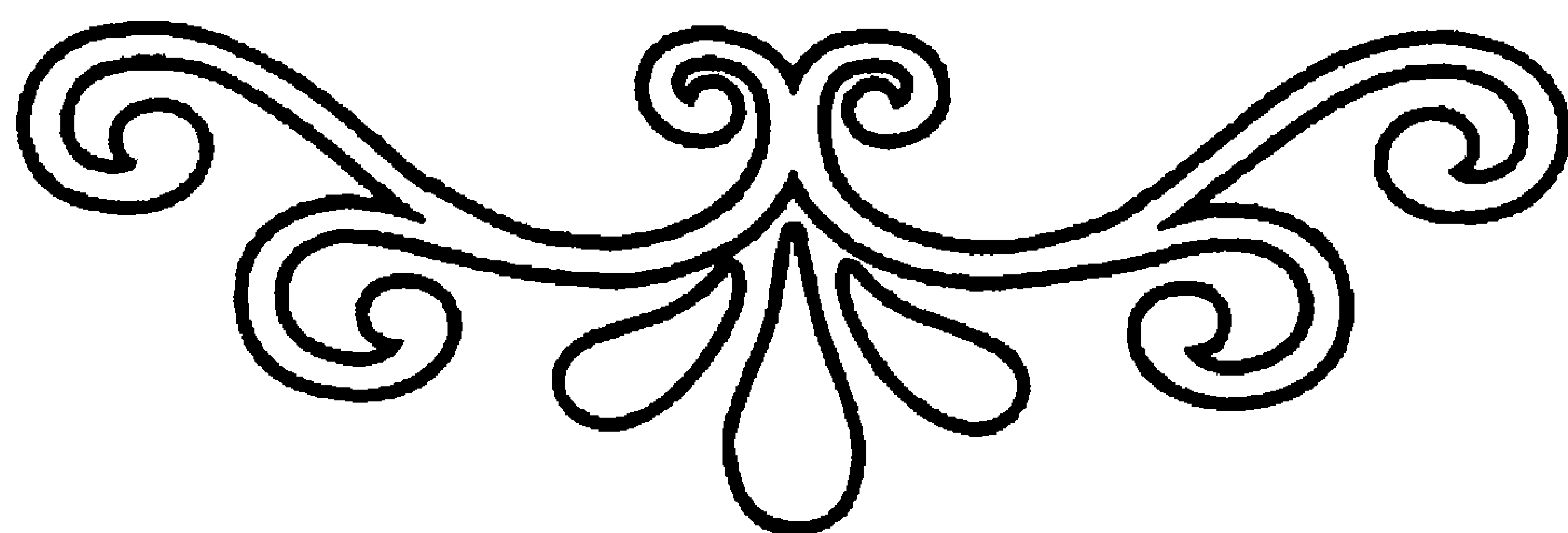
- اكتب بحثاً في جهود هذه الدول في نشر الإسلام في وسط وشرق أسيا.



الوحدة التاسعة

الدول الإسلامية المستقلة في مصر والشام

(١) الحمدانية- الطولونية- الإخشيدية



محتويات الوحدة التاسعة

الدولة الحمدانية- الطولونية- الإخشيدية

- الدولة الحمدانية.
- الدولة الطولونية.
- الدولة الإخشيدية.

أهمية دراسة الوحدة:



ظهرت أثناء الخلافة العباسية في عصر نفوذ الأتراك عدة دول استقلت عن الخلافة في مصر والشام ومنها: الدولة الحمدانية والطولونية والإخشيدية، وكان لكل منهم أثرٌ على الحكم الإسلامي والحضارة الإسلامية، وفي هذه الوحدة سنوضح ذلك.

الأهداف التعليمية:



يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١- تبين أن الحمدانيين كان لهم دور في جهاد الروم، وكذلك في نهضة الحضارة.

٢- تحلل أسباب قيام الدولة الطولونية على يد أحمد بن طولون.

٣- تناقش جهود محمد بن طغج الإخشيد في قيام الدولة الإخشيدية.

الدولة الحمدانية (٢٩٢- ٣٩٢هـ/ ٩٠٤- ١٠٠١م)

ظهر الحمدانيون على مسرح أحداث الخلافة العباسية في الوقت الذي بدأ فيه تصارع الأتراك على سلطة أمير الأمراء في بغداد، وظهور الدول المستقلة في مصر ممثلة في الطولونيين، ثم الإخشيديين والفاطميين، وجاء ظهورهم في عهد الخليفة المعتضد الذي استعان بالحسين بن حمدان للقضاء على الخارجي هارون الشاري، فجاء به أسيراً إلى الخليفة، ثم لم تلبث شهرتهم في أوساط الناس بعد أن استعانت بهم الخلافة- بوصفهم قوة عربية- لإعادة التوازن ضد طغيان الترك من جهة، وللقضاء على أعداء الخلافة والخارجين عليها من جهة أخرى؛ لذلك كافأ الخليفة المقتدر بالله الحمدانيين فمنح أبا الهيجاء عبد الله بن حمدان الموصل وما يليها سنة ٢٩٢ هـ/ ٩٠٤م، وأخاه سعيداً نهاوند سنة ٣١٢هـ/ ٩٢٤م.

وتكررت الاستعانة بالحمدانيين لإعادة الأمور إلى مجراها الطبيعي في بغداد بعدما خرج البريديون على الخليفة المتقي لله، فاضطر للفرار نحو الموصل هرباً من البريديين الذين عاثوا فساداً في البلاد، فلبى الحسين بن حمدان طلبه بمساعدته ضدهم، فكافأ الخليفة المتقي لله الحسين بن حمدان بلقب «ناصر الدولة» ومنح أخاه علياً لقب «سيف الدولة» وذلك سنة ٣٣٠هـ/ ٩٤١م[1].

ورأى سيف الدولة الحمداني أن الفرصة مواتية وسط الفوضى التي تسود العراق فسار إلى حلب فملكها سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م وهرب واليها الإخشيدي «يانس المؤنسي» إلى مصر، عندها أرسل الإخشيد جيشاً بقيادة كافور لطرد

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٦/ ٢٨٥، وابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢٠٢.

سيف الدولة الحمداني من حلب، وانتصر عليه الأخير عند (الرستن) على نهر العاصي، وطمع في مد سيطرته حتى دمشق[1] لكنه لم يتمكن من ذلك؛ لأن الإخشيد جاء بنفسه على رأس قوة كبيرة من جيشه، وتصدى له؛ ثم انتهى القتال بالصلح بينهما والاتفاق على أن يأخذ سيف الدولة حلب وما يليها من بلاد الشام شمالاً؛ ليكون حاجزاً يقي الإخشيديين من هجمات الروم الذين انتهزوا فرصة ضعف الدولة العباسية وأخذوا يهجمون من وقت لآخر على أطرافها.

وما إن سمع سيف الدولة الحمداني بوفاة الإخشيد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م وقيام كافور بالوصاية على ابنه أبي الحسن علي، حتى نقض الاتفاق بين الطرفين وهجم على دمشق واستولى عليها[2]، لكن كافور أسرع بالمجيء إليها وأنزل به هزيمة اتفق بعدها الاثنان على العودة إلى العمل بالاتفاق القديم بين الإخشيد وسيف الدولة الحمداني، ثم وجه سيف الدولة اهتمامه إلى غزو الروم حتى بلغت غزواته نحو أربعين غزوة شملت (زبطرة) و(علقة) و(ملطية) وانتصر في معظمها مما، جعل الشعراء يشيدون بانتصاراته، وبخاصة المتنبي الذي قال فيه جيد شعره.

وقد أجزل سيف الدولة العطاء للشعراء بسبب محبته للشعر وإجادته نظمه وبادله الشعراء شعراً حسناً وفناً جيداً، كما اشتهر جماعة من أهل بيته كأبي فراس الحمداني- ابن عمه- في نظم الشعر، وهو حينما وقع في أسر الروم في أحد غزواته كتب أفضل ما لديه من شعر وهو في الأسر متألماً شاكياً عاتباً طالباً من

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٣١٢.

(٢) ابن كثير: البداية والنهاية ١١/ ٢١٣-٢١٤.

سيف الدولة أن يفديه؛ لأنه نشأ في رعايته، ومن ذلك قول أبي فراس الحمداني[1] مخاطباً سيف الدولة:

وَلا تَقْعُدَنَّ عَنِّي وَقَدْ سِيمَ فِدْيَتِي فَلَسْتَ عَنِ الفِعْلِ الكَرِيمِ بِمُقْعَدِ
فَكَمْ لَكَ عِنْدِي مِن أَيَادٍ وَأَنْعُمٍ رَفَعْتَ بِهَا قَدْرِي وَأَكْثَرْتَ حُسَّدِي

على أن الدولة الحمدانية سرعان ما تعرضت للضعف بعد وفاة سيف الدولة بحلب في شهر صفر سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م ذلك أن ابنه سعد الدولة[2] ٣٥٦- ٣٨١هـ/ ٩٦٦-٩٩١م، وحفيده سعيد الدولة ٣٨١- ٣٩٢هـ/ ٩٩١- ١٠٠١م لم يستطع كل منهما فرض الأمن والقضاء على الثورات الداخلية التي كثرت في عهديهما إضافة إلى أن الروم عادوا إلى تهديدهم؛ كما تطلع الفاطميون إلى استرداد حلب وعودتها إلى نفوذهم، ولم يمض القرن الرابع الهجري/ العاشر الميلادي حتى اضطر الحمدانيون بالاعتراف بالدولة الفاطمية، مما أدى إلى زوال حكمهم على أيدي الفاطميين، ولكن بالرغم من قصر عمر دولتهم فقد قامت بدور عظيم في مجال السياسة والجهاد والحضارة يسترعي الانتباه.

---

(١) أبو فراس الحمداني: الديوان ٨٣- ٨٤ من قصيدة بعنوان" متى تخلف الأيام مثلي" منشورات دار صادر- بيروت.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٧/ ١٥١- ١٥٣.

الدولة الطولونية (٢٥٤- ٢٩٢هـ/ ٨٦٨- ٩٠٤م)

أوْلى الخلفاء العباسيون مصر والشام اهتماماً كبيراً نظراً لكونهما حلقة وصل بين مغرب الدولة ومشرقها، فتولى حكمها إدارياً نائب الخليفة أو ولي عهده باعتبارهما وحدة إدارية واحدة، على أن مقر إقامته كانت إما في دمشق أو مصر.

وفي أواخر العصر العباسي الأول وبالتحديد منذ خلافة المأمون حقق نواب الخليفة مكاسب كثيرة منها:

- حق الإقامة في بغداد بصفة مستمرة.
- حق الخطبة لهم على المنابر.
- حق كتابة أسمائهم على النقود.

وبعد أن سيطر الأتراك على النفوذ في العصر العباسي الثاني أصبح الولاة الذين يتولون حكم مصر والشام منهم، لكن عز عليهم أن يبتعدوا عن بغداد أو سامراء لذلك أنابوا عنهم رجالاً يصرِّفون أمورهم باسمهم، الأمر الذي جعل نواب الولاة- مع مرور الأيام- ينتهزون فرصة انشغال الولاة بما يجري داخل عاصمة الخلافة من منافسات ومنازعات على السلطة مثل إمارة إمرة الأمراء، فضلاً عن ضعف الخلفاء أنفسهم، فينزعون إلى الاستقلال عن الخلافة العباسية، وقد ولي مصر منذ عهد المعتصم بالله أحد أمراء الأتراك المدعو «بيكباك» على أن بيكباك- شأنه شأن سائر ولاة ذلك العصر- أناب عنه سنة ٢٥٤هـ/ ٨٦٨م ابن زوجته أحمد بن طولون، إلا أنه قُتل بعد مدة قصيرة وحل محله في ولاية مصر أمير تركي اسمه «باركياروق» كانت تربطه بأحمد بن

طولون روابط مودة فأسرع إلى الزواج من ابنة الوالي الجديد توثيقاً للروابط وضماناً لبقائه في الولاية، فكان له ما أراد، فأقره «باركياروق» على ولاية مصر بكاملها قائلاً في الكتاب[1] «تسلم من نفسك إلى نفسك»، فانسحب من مصر صاحب خراجها أحمد بن المدبر إلى الشام سنة ٢٥٧هـ/ ٨٧٠م ليقلد خراج دمشق وفلسطين والأردن.

فأحمد بن طولون مؤسس الدولة الطولونية تركي الأصل، والده أحد مماليك المأمون، نشأ في بغداد نشأة عسكرية ونال قسطاً وافراً من التربية الإسلامية وحصل قدراً من الفقه والعلوم في (بغداد) و(طرسوس) فكان ذلك لها الأثر الكبير في أخلاقه وسياسته التي اتسمت بالبعد عن العبث والظلم والجشع في جمع الأموال، واتخذ لنفسه سياسة ذكية استهدفت الاستقلال بمصر كلها؛ ليجعل منها دولة يحكمها هو وأولاده من بعده، على أن تربطها بالخلافة روابط شكلية منها:

- الدعاء للخليفة.
- نقش اسم الخليفة على النقود.
- إرسال جزء من الخراج إلى الخليفة.

وأول ما فكر فيه مؤسس الدولة ابن طولون هو إنشاء حاضرة لدولته، فأنشأ أحمد ابن طولون مدينة القطائع[2] سنة ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م لتكون عاصمة له، وبنى فيها قصراً فخماً ترك أمامه ميداناً واسعاً يستعرض فيه الجيش، وأحاط

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٥/ ٣٣٩. وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ج٣/ ٥- ٧.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/ ١٤-١٧. والمقريزي: الخطط. ١/ ٣١٥.

بالقصر ثكنات جنوده وحاشيته، جاعلاً لكل فئة من جنوده قطعة خاصة بها فجاء اسم العاصمة جامعاً لها «القطائع»، وبنى جامعه الذي انتهى منه سنة ٢٦٥هـ/ ٨٧٨م، وهو لا يزال حتى الآن على حالته الأصلية باستثناء المئذنة التي أعيد بناؤها سنة ٦٩٦هـ/ ١٢٩٦، كما بنى بيمارستان لمعالجة المرضى على اختلاف حالاتهم.

ولم يلبث «باركياروق» هو الآخر أن توفي سنة ٢٨٥هـ/ ٨٩٨م فأصبح أحمد بن طولون يحكم مصر من قبل الخلافة مباشرة، ويباشر ماليتها وقضاءها وجيشها، وقضى أحمد بن طولون على الفتن الداخلية وخاصة تلك التي أشعل نارها الخوارج والعلويون، كما أحكم رقابته على الموظفين وخاصة موظفي ديوان الخراج، فحصل زيادة في الدخل دون إرهاق الأهالي كما كان يفعل أحمد بن المدبر في السابق، ثم استغل هذا الدخل في العناية بالمشاريع العمرانية، فربط البلاد بشبكة من الجسور، وحفر الترع، ووطد الأمن، ورعى التجارة.

وساعد على تحقيق هذه الإنجازات إنشاء جيش كبير ليوطد مركزه من جهة والدفاع عن البلاد ضد أي خطر خارجي من جهة أخرى، فضلاً عن توطيد الأمن داخل البلاد من جهة ثالثة، لذا أكثر أحمد بن طولون من شراء الرقيق حتى وصل عددهم في عهده إلى أربعة وعشرين ألف غلام تركي، وأربعة آلاف أسود، وسبعة آلاف مرتزقة.

لكن سيطرة طلحة الموفق على أخيه الخليفة المعتمد في بغداد أقلق بال أحمد بن طولون ولا سيما عندما طلب الموفق منه مساعدة مالية ولم يقدمها له فأقدم الأخير على عزله عن مصر وتولية «ماجور التركي» مكانه، وواجه أحمد بن طولون الموقف

بحكمة إذ أظهر طاعته بإرساله رسالة إلى الخليفة المعتمد سنة ٢٦٨هـ/ ٨٨١م يحرضه فيها على المجيء إلى مصر، ويعده بالحماية ويحرضه على مقاومة جشع واستبداد أخيه الموفق، في الوقت الذي امتدت دولته من العراق شرقاً إلى برقة غرباً، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى النوبة جنوباً.

لكن الموفق علم بمؤامرة ابن طولون في محاولته نقل الخليفة والخلافة إلى مصر وأفشلها إلا أنه لم يتمكن من محاربته لانشغاله بالقضاء على ثورة الزنج مكتفياً بتدبير المكايد ضده الأمر الذي جعل أحمد بن طولون يتبع السياسة نفسها تجاه الموفق ويصدر أوامره بلعن الموفق على منابر مصر والشام، وحَسَّن علاقته بالدولة الأموية في الأندلس.

توفي أحمد بن طولون سنة ٢٧٠هـ/ ٨٨٣م قبل إنهاء الخلاف بينه وبين الموفق فأسرع الأخير إلى الإغارة على الشام للقضاء على الدولة الطولونية؛ لاعتقاده أن «خمارويه» الذي خلف أباه في حكم الطولونيين لم يكن رجل حرب لميله إلى حياة السلم والرخاء، فاستولى الموفق العباسي على الشام حتى حدود مصر لكنَّ «خمارويه» أفشل خطته ورده على أعقابه حينما قام على رأس قوة كبيرة من جيشه، واستعاد سيطرة الطولونيين على بلاد الشام حتى الموصل والجزيرة الفراتية، وانتزع من الخليفة العباسي اعترافاً له بحكم مصر - هو وأولاده - لمدة ثلاثين سنة عند عقد معاهدة الصلح سنة ٢٧٣هـ/ ٨٨٦م[١] بينه وبين الخليفة العباسي المعتمد وولي عهده الموفق، على أن يكف «خمارويه» عن لعن الموفق على منابر مصر والشام، والدعاء له مع الخليفة المعتمد العباسي.

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٣/ ٥٠- ٥١.

وارتاح خمارويه من المضايقات بموت الموفق العباسي سنة ٢٧٨هـ/ ٨٩١م وموت أخيه الخليفة المعتمد سنة ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م، فدعم سلطانه في مصر والشام وشدَّ روابط علاقاته بالدولة العباسية ترسيخاً لسلطانه عندما تزوج الخليفة العباسي المعتضد بالله من ابنته «أسماء»[١] الملقبة «بقطر الندى» سنة ٢٨١هـ/ ٨٩٤م بعدما بنى خمارويه القصور والاستراحات[٢] على جانبي الطريق إلى بغداد، كي تتمتع قطر الندى أثناء سيرها إلى بغداد بكل وسائل الراحة، وتشعر كأنها لم تفارق قصر أبيها.

وبموت «خمارويه» سنة ٢٨٢هـ/ ٨٩٥م اضطربت أحوال الطولونيين عندما اتبع ابنه «أبو العساكر جيش» سياسة غاشمة أدت إلى خروج قواد جيشه عليه فخلعوه وسجنوه، وولوا أخاه الأصغر «هارون» مكانه، وهكذا صار أمراء البيت الطولوني ألعوبة في يد الجند.

وفي سنة ٢٩٠هـ/ ٩٠٢م ظهر القرامطة في الشام فأرسل الطولونيون جيشاً لطردهم منها، لكن هذا الجيش هُزم مما أضعف من هيبة الدولة الطولونية، ولما تأكدت الخلافة العباسية من ضعف الطولونيين وانحلال أمرهم، جددت رغبتها في استعادة مصر من أيديهم قبل أن تقع في أيدي القرامطة أو الفاطميين، فأرسلت سنة٢٩٢هـ/ ٩٠٤م جيشاً بقيادة «محمد بن سليمان الكاتب»، كما طلبت من قائد الأسطول في الثغور التوجه إلى مصر ومساعدة قائدها الكاتب، لاستعادة مصر إلى سيطرة العباسيين المباشرة.

---

(١) المصدر السابق ٣/ ٥٢- ٥٣.

(٢) المصدر السابق ٣/ ٦١- ٦٢.

لم يستطع الأسطول الطولوني الصمود أمام الأسطول العباسي، وكذلك الجيش البري أمام زحف جيش «محمد بن سليمان الكاتب» الذي تمكن من اختراق صفوف الطولونيين والدخول إلى مدينة القطائع سنة ٢٩٢هـ/ ٩٠٤م وتدميرها تدميراً شبه كامل[١]. بذالك زالت الدولة الطولونية بعد أن تمتعت بالاستقلال الذاتي مدة أربعين سنة تقريباً، وعادت مصر إلى الحكم العباسي.

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ١٠٩ - ١١٠

الدولة الإخشيدية (٣٢٣- ٣٥٨هـ/ ٩٣٤- ٩٦٨م)

لم تستقر الأوضاع في مصر أكثر من ربع قرن بسبب اضطراب الخلافة العباسية وعدم استقرار الأمور في عاصمتها بغداد فانعكست آثار هذه الأوضاع على مصر وسائر الأقاليم العباسية آنذاك، وقد زادت الحالة الداخلية في مصر سوءاً بسبب الحملات الفاطمية من وقت لآخر بغية الاستيلاء عليها، وفي وسط هذه الظروف ظهر «محمد بن طغج» الملقب بـ «الإخشيد»، وهذا اللقب من ألقاب ملوك فرغانة في بلاد ما وراء النهر، وقد دخل جده «جف» في خدمة الخليفة العباسي المعتصم، ثم ابنه الواثق فأخيه المتوكل بسامراء، وعمل أبوه في جيش أحمد بن طولون بنواحي طرسوس كما دخل محمد في عداد الحملة التي جاءت إلى مصر تحت قيادة «تكين» التركي، فأظهر براعة في قتال الحملة الفاطمية التي هاجمت مصر سنة ٣٠٢هـ/ ٩١٤م بقيادة «حُباسة بن يوسف الكتامي»، وظل «محمد بن طغج» يرتقي إلى أن أصبح نائباً عن القائد التركي «تكين»(١) في عدة ولايات، ثم استقوى بعد أن صاهر «الفضل بن جعفر» صاحب الكلمة في بغداد عندئذ.

وأخيراً تحققت آمال «محمد بن طغج» لما أحست الخلافة العباسية بحاجتها إلى رجل قوي يُقر الأمن في مصر لاضطراب أحوالها بسبب مطامع القواد من جهة واستبداد «محمد بن علي الماذردائي» صاحب الخراج في مصر من ناحية أخرى، فولاه الخليفة العباسي الراضي (٣٢٢- ٣٢٩هـ/ ٩٣٣- ٩٤٠م) على

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣/ ٢٥٠- ٢٥٤.

مصر سنة ٣٢٣هـ/ ٩٣٤م بعد تصديه للحملة الفاطمية سنة ٣٢١- ٣٢٤هـ/ ٩٣٣- ٩٣٥م[1]، ومنحه لقب الإخشيد فدعى له بهذا اللقب على منابر مصر والشام سنة ٣٢٧هـ/ ٩٣٨م، وبذلك تأسست ثاني دولة مستقلة في مصر أيام العباسيين.

وقلد الإخشيد «محمد بن طغج» الطولونيين في جميع أعمالهم وبخاصة من الناحية السياسية والتاريخية، وحاكاهم في بلاطه ومواكبه وتصرفاته، وحرص على إنشاء جيش قوي اعتمد عليه في توطيد مركزه والدفاع عن البلاد، وسرعان ما افتضح أمره ونواياه في العمل من أجل السيطرة على الشام الأمر الذي أغضب الخليفة عليه، وقلد «محمد ابن رائق» مصر، ومن جانبه رد الإخشيد على تكليف «ابن رائق» أعمال مصر بإلغاء الخُطبة للخليفة العباسي، حتى قيل: إنه أمر بذكر الخليفة الفاطمي بدلاً منه.

ولما دارت الحرب بينهما تمكن الإخشيديون من الانتصار على «ابن رائق» قرب العريش، لكنه اضطر إلى قبول الصلح على أن يتقلد «ابن رائق» الأراضي الشامية شمالي الرملة مقابل جزية سنوية مقدارها «٤٠ ألف دينار» سنوياً، ثم ما لبث أن مات «ابن رائق» فتمكن الإخشيد من استعادة نفوذه على بلاد الشام دون جهد، إلا أن سوء العلاقات بين الإخشيد وسيف الدولة الحمداني في حلب لم يبعث على الاستقرار في مصر، وكان ذلك في الوقت الذي خرج فيه العلويون على الإخشيد في مصر مما تطلب منه جهداً كبيراً لتهدئة الأوضاع داخل البلاد الشامية التي غلب عليها الحمدانيون فانتصر الإخشيد بمساعدة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ: ٦- ٢٣٨، وابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٣- ٢٣٧.

قائده «كافور الحبشي» ودخل مدينة حلب واسترد دمشق، ولكن الإخشيد عـاد وتنازل عن حلب وشـمال سـورية لسـيف الدولـة الحمـداني[١] بعـدما عقـدت معاهدة صلح بين الطرفين خُتمت بزواج سيف الدولة الحمداني من ابنـة أخـي الإخشيد توثيقاً لعُرى الصداقة بين الدولتين سنة ٣٣٣هـ/ ٩٤٤م.

ومات الإخشيد سنة ٣٣٤هـ/ ٩٤٥م ودفن ببيـت المقـدس، فخلفـه ابنـه «أبو القاسم أنجور» على أن يقوم بالوصاية عليه « كافور» الذي أصبح صـاحب السلطان في إدارة شئون الدولة حتى سنة ٣٤٩هـ/ ٩٦٠م وبعد أن مـات «ابـن الإخشيد» سنة ٣٥٦هـ/ ٩٦٦م أعلن كـافور نفسـه واليـاً عـلى مصر مـن قبـل الخليفة[٢].

وقد نجح كافور في سياسته الخارجية والداخليـة، سـواء في محاربـة سـيف الدولة الحمداني والحد من أطماعه في بلاد الشـام، أم في القضـاء عـلى الثـورات الداخلية وتوطيد الأمن والاسـتقرار في الـبلاد[٣]، وقـد تعرضـت بـلاد الشـام لغارات القرامطة فنهبوا وقبضوا على قافلة مصرية كبيرة للحجاج قوامهـا «٢٠ ألف جمل» كانت في طريقها لأداء فريضة الحج، فضلاً عن الزلزال المروع الـذي وقع بالبلاد، والنيران الهائلة التي التهمت «١٧٠٠ منـزلا» بالفسطاط، وغارات ملك النوبة التي وصلت هجماته حتى أخميم.

ونجح دعاة الشيعة في بـث دعـوتهم في أنحـاء الـبلاد المصريـة حتـى كثـر

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ٦/ ٣١٢.
(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٣/ ٣٢٣- ٣٤٤ و٤/ ٢.
(٣) المصدر السابق٤/ ٣- ٦.

أتباعهم فيها إضافة إلى أن محاولات الهجوم عليها من قبل الفاطميين في المغرب لم تنقطع حتى توفي «كافور» سنة ٣٥٨ هـ/ ٩٦٨م، فأرسل المعز لدين الله الفاطمي قائده جوهر الصقلي على رأس حملة كبيرة نجحت في الاستيلاء على مصر سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م.

وبذلك سقطت الدولة الإخشيدية لتحل محلها الدولة الفاطمية في حكم مصر والشام.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

- حكم الحمدانيون في الفترة من (٢٩٢- ٣٩٢هـ) في عهد الخليفة العباسي المعتضد وقد استعان بهم الخلفاء العباسيون في مواجهة طغيان الترك، وقد كانت هناك فتن وخلافات بين الدولة الحمدانية والإخشيدية انتهت بعقد الصلح بينهما ثم تم نقضه بعد وفاة الإخشيد.
- ضعفت الدولة الحمدانية بعد وفاة سيف الدولة وزال ملكهم على يد الفاطميين.
- حكمت الدولة الطولونية في الفترة من (٢٥٤- ٢٩٢هـ) وقد تولى أحمد بن طولون تأسيس الدولة بعد أن كان نائباً عليها من قبل أقاربه الأتراك، وكانت تربطه بالخلافة علاقة طيبة شكلية، وأنشأ مدينة القطائع وبنى جامعه المشهور وقضى على الفتن الداخلية، وعني بالمشاريع العمرانية، وأنشأ جيشاً كبيراً لمواجهة الأخطار الخارجية.
- قامت بينه وبين الخلافة العباسية خلافات في عهد الموفق، ثم تبعه ابنه خمارويه الذي عقد الصلح معه.
- تحسنت العلاقة بين خمارويه والمعتضد بزواج الأخير من ابنته.
- بعد موت خمارويه اضطربت أحوال الطولونيين بالفتن الداخلية وانهزام جيشهم أمام القرامطة، مما جعل الخلافة العباسية ترسل أسطولاً لاستعادة مصر ودخلت مدينة القطائع وعادت مصر للخلافة

العباسية.

- حكمت الدولة الإخشيدية في الفترة مـن (٣٢٣- ٣٥٨هـ) ومؤسـس هذه الدولة هو محمد بن طغج الملقب بالإخشيد، تولى الولاية مـن قبـل الخليفة العباسي الراضي، وعنـدما حـاول الاسـتقلال سـاءت العلاقـة بينهما حيث قلد الخليفة العباسي ابنـه رائـق عـلى أعـمال مصر، وقامـت بينهما فتن وحروب انتهت بعقد الصلح بينهما حتى موت ابن رائق.
- كانت العلاقة بين الدولـة الإخشـيدية والحمدانيـة سـيئة، ثـم عقـدت معاهدة صلح ومصاهرة بينهما.
- بعد موت الإخشيد وابنه تولى الحكـم قائـدها كـافور الـذي اسـتقرت الأوضاع في عهده.
- بعد وفاة كافور سقطت الدولة الإخشيدية على يد الفاطميين.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

أجب عما يأتي:

س١: اذكر أثر الحكم الحمداني في مصر والشام على الحضارة الإسلامية.

س٢: لخص أحداث الصراع بين الدولة الحمدانية والإخشيدية.

س٣: وضح العلاقة بين الدولة الحمدانية والخلافة العباسية.

س٤: كيف تولى أحمد بن طولون الحكم في مصر والشام؟ وضح ما تقول.

س٥: ما هي أهم مظاهر الحضارة في عصر الدولة الطولونية؟

س٦: اشرح العلاقة بين الدولة الطولونية والخلافة العباسية.

س٧: كيف سقطت الدولة الطولونية؟ فصل القول.

س٨: كيف تولى الإخشيد الحكم في مصر والشام؟

س٩: كيف كانت العلاقة بين الدولة الإخشيدية والخلافة العباسية؟ فصل القول.

س١٠: ما هي أهم إنجازات كافور في الحضارة الإسلامية؟

س١١: كيف سقطت الدولة الإخشيدية؟ وضح ذلك.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- ظهر الحمدانيون في عهد الخليفة المعتمد. (   )

٢- منح الخليفة المتقي لقب سيف الدولة لعلي بن حمدان. ( )

٣- سيطر الحمدانيون على حلب في سنة ٣٣٢هـ. ( )

٤- كان سيف الدولة الحمداني محباً للشعر والشعراء. ( )

٥- كثرت الفتن الداخلية بعد موت سيف الدولة الحمداني. ( )

٦- يعتبر أحمد بن طولون مصري الأصل. ( )

٧- أنشأ الإخشيديون مدينة القطائع. ( )

٨- تزوج أحمد بن طولون من ابنة (باركياروق). ( )

٩- فشل خمارويه في الحرب مع الخلافة العباسية. ( )

١٠- كانت العلاقة بين أحمد بن طولون والموفق سيئة. ( )

١١- تزوج الخليفة العباسي المعتضد من ابنه خمارويه. ( )

١٢- انتصر الطولونيون على جيش محمد بن سليمان الكاتب. ( )

١٣- تولت الدولة الإخشيدية الحكم في الفترة من (٣٢٣: ٣٥٨هـ). ( )

١٤- انتصر ابن رائق على الإخشيديين في عين العريش. ( )

١٥- نجح كافور في سياسة الخارجة والداخلة. ( )

١٦- سقطت الدولة الإخشيدية على يد الفاطميين. ( )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- حكم الحمدانيون في الفترة من [(٢٩٢- ٣٩٢هـ)- (٢٩٣- ٣٩٣هـ)- (٢٩٢- ٣٩٢)].

٢- ظهر الحمدانيون في عهد الخليفة [المعتمد- المعتضد- المقتدر].

٣- من أشهر شعراء الدولة الحمدانية [أبي فراسى- أبي نواس- البحتري].

٤- حكم الطولونيون في الفترة من [(٢٢٥- ٢٩٢)- (٢٥٤- ٢٩٢)- (٢٥٦- ٢٩٣)].

٥- تزوج أحمد بن طولون من ابنة [بايكباك- باركياروق- كافور].

٦- مؤسس مدينة القطائع هو [سيف الدولة الحمداني- أحمد بن طولون- الإخشيد].

٧- كانت علاقة ابن طولون سيئة بـ [المعتضد- الموفق- المعتمد].

٨- تزوج المعتمد من ابنة [الإخشيد- الحمداني- خمارويه].

٩- هزم القرامطة الطولونية في الشام سنة [٢٩٢- ٢٩١- ٢٩٠هـ].

١٠- حكمت الدولة الإخشيدية في الفترة من [(٣٢٤- ٣٥٨هـ)- (٣٢٣- ٣٥٨هـ)- (٣٢٤- ٣٥٩هـ)].

١١- تزوج سيف الدولة الحمداني من ابنة أخي [الإخشيد- خمارويه- كافور].

١٢- سقطت الدولة الإخشيدية على يد [العباسيين- الحمدانيين- الفاطميين- القرامطة].

النشاط التعليمي للوحدة التاسعة

عزيزي الدارس:

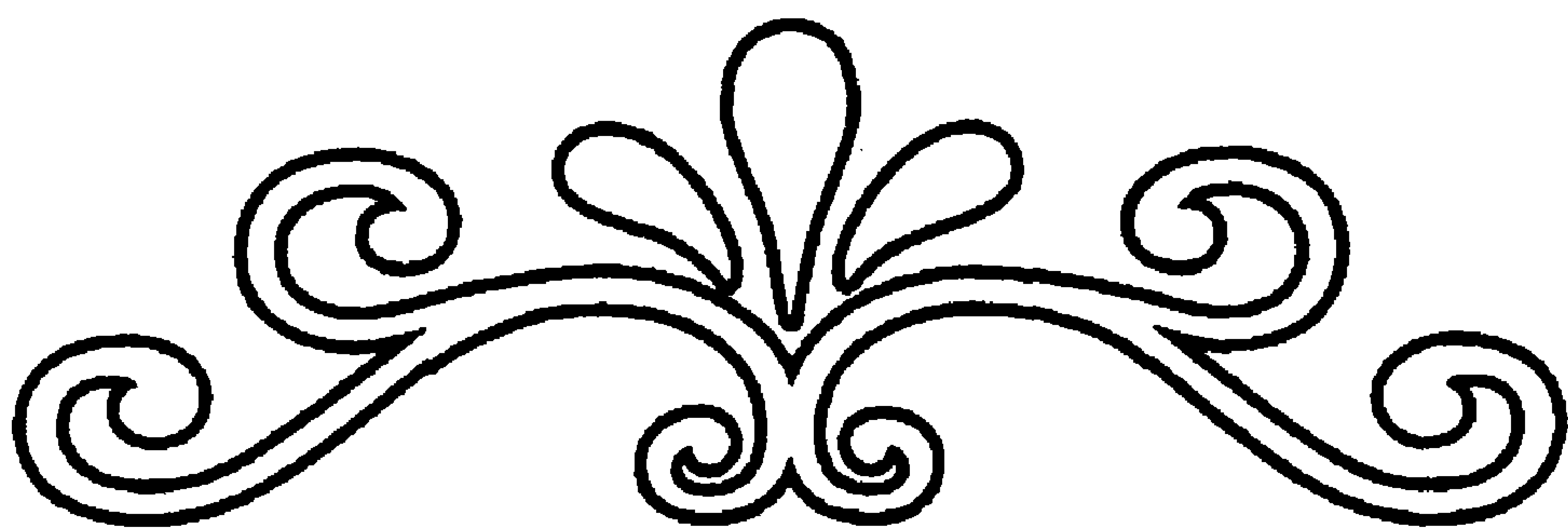
حتى تكتسب المزيد من المعلومات المتعلقة بموضوع هذه الوحدة نقترح عليك إنجاز النشاط التعليمي التالي:

- اكتب مذكرات تاريخية عن كل من

١- الدولة الحمدانية.

٢- الدولة الطولونية.

٣- الدولة الإخشيدية.

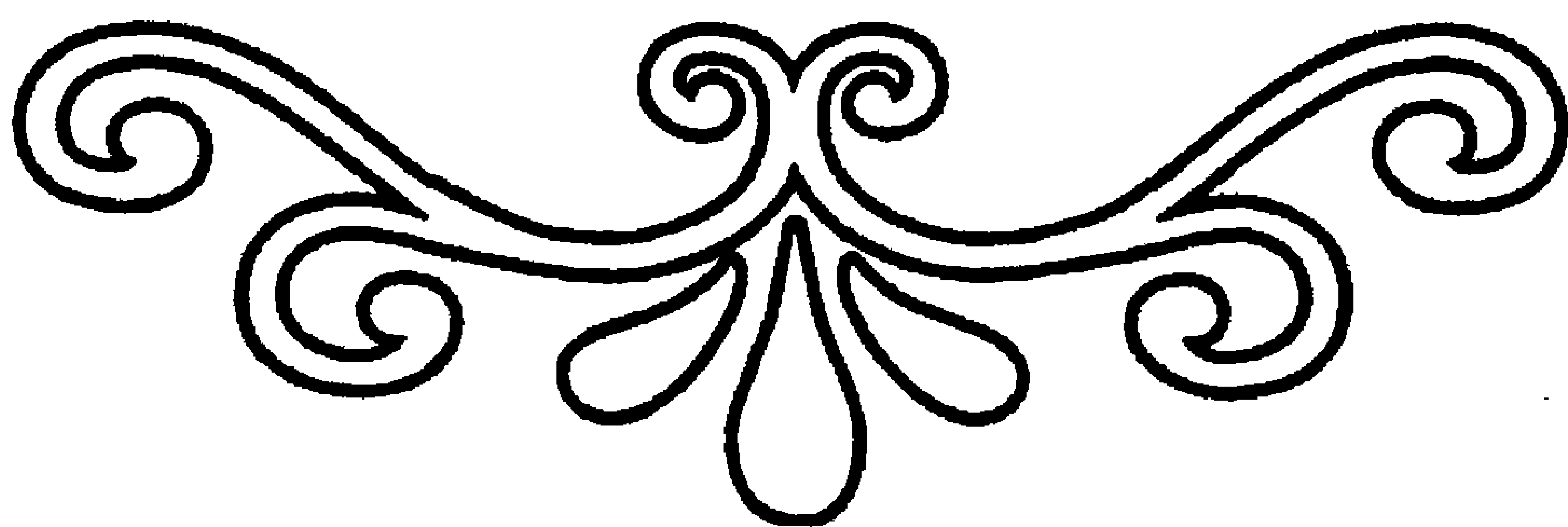


الوحدة العاشرة

الدول الإسلامية المستقلة في مصر والشام

(٢) الدولة الفاطمية

(٢٨٨- ٥٦٧ هـ/ ٩٠٠ - ١١٧١م)



محتويات الوحدة العاشرة

الدولة الفاطمية:

- الدولة الفاطمية في المغرب.
- الدولة الفاطمية في مصر.
- العصر الفاطمي الأول.
- العصر الفاطمي الثاني.
- الفاطميون والصليبيون.
- إلغاء الخلافة الفاطمية ونهاية دولتها.

أهمية دراسة الوحدة:



بدأ ظهور الدولة الفاطمية في المغرب وشمال إفريقية ومصر التي اتخذها الفاطميون مقراً لخلافتهم، وقد انقسمت الدولة الفاطمية إلى عصرين: الفاطمي الأول والثاني، ولكل منهما مميزات وسمات وأثر على الحضارة الإسلامية، وفيما يلي سنوضح ذلك.

الأهداف التعليمية:



يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١ - تناقش أسباب عدم اتفاق المؤرخين على صحة نسب الفاطميين.

٢- توضيح كيفية نشر الفاطميين لمذهبهم.

٣- تحلل أسباب تعاون الفاطميين مع الحملات الصليبية.

أولاً: الدولة الفاطمية في المغرب:

اختلف المؤرخون في إثبات نسب عبيد الله المهدي- مؤسس الدولة الفاطمية- إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما: فمنهم من سلم بها ادعاه وأقره بما حكاه[1]، ومنهم مدافعين عما انتحله[2].

دأب الخلفاء العباسيون على مطاردة العلويين أينما وجدوا، لذلك قاموا بثورات متعددة من وقت لآخر تعبيراً عن شعورهم بالاستياء، إلا أن هذه الثورات كانت تبوء بالفشل، الأمر الذي جعل العلويين وشيعتهم يلجأون إلى أطراف الدولة البعيدة مثل طبرستان واليمن والمغرب، أو إلى المناطق المنعزلة والجبال في فارس ومرتفعات الشام، ومن هذه المراكز التي ذكرت حاولوا بث دعوتهم وترسيخ عقيدتهم، وتثبيت أنفسهم.

ونتيجة لهذه الجهود نجحوا في إقامة بعض الدول على حساب الدولة العباسية وأشهر هذه الدول وأقواها وأطولها عمراً كانت الدولة الفاطمية في شمال إفريقية، ثم في مصر والشام.

وأول ما ظهرت الدولة الفاطمية في المغرب، وذلك عندما ذهب أبو عبد الله الشيعي[3] إلى المغرب في أواخر القرن الثالث الهجري سنة ٢٨٨هـ/ ٩٠٠م؛ لنشر

---

(١) منهم ابن الأثير في الكامل ٨/ ٨- ٩، وابن خلدون في المقدمة ص ١٢١.

(٢) منهم ابن خلكان: وفيات الأعيان ١/ ٦٠٩، والباقلاني وأبو الفدا ٢/ ١٥١.

(٣) هو عبد الله الحسين بن أحمد بن زكريا أصله من الكوفة ويعرف «بالمعلم»؛ لأنه كان يعلم الناس مذهب الإمامية الباطنية. ذهب إلى اليمن وكانت مركزاً هاماً للدعوة الشيعية لقربها من الحجاز مجمع الحجاج، وهناك اتصل بداعي الشيعة فيها «ابن حوشب» فأخذ يحضر مجالسه ويستفيد من علمه ويمتثل لأمره. الكامل في التاريخ: ٦/ ١٢٧

الدعوة الفاطمية في تلك البلاد، ونجح أبو عبد الله الشيعي في جذب الأنظار إليه طوال ثلاث سنوات ٢٨٨- ٢٩١ هـ/ ٩٠٠- ٩٠٣م حتى جمع جنداً عظيماً وسلاحاً كثيراً ومالاً وفيراً، عندها أرسل إلى سلمية- مركز الدعوة الإسلامية- يدعو عبيد الله المهدي إلى إفريقية، وفي الوقت نفسه بدأ مرحلة جهاد حربي طويل ٢٩١- ٢٩٧ هـ/ ٩٠٣-٩٠٩م انتهت بالاستيلاء على القيروان عاصمة الأغالبة.

وبالرغم من أن عبيد الله المهدي كان حذراً في سلوك الطريق إلى المغرب؛ لكنه لم ينجُ من مطاردة العباسيين له، ووقع في قبضتهم على يد «اليسع بن مدرار» أمير (سجلماسة) ووضعه في السجن، فما كان من أبي عبد الله لما علم بإلقاء القبض على المهدي إلا أن سار على رأس قوة كبيرة من أتباعه قاصداً (سجلماسة) ليخلصه من سجنه، وفي الطريق إلى جنوب المغرب الأقصى مرّ بالمغرب الأوسط (الجزائر) فقضى على الدولة الرستمية واحتل عاصمتها (تاهرت) سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م ثم تابع طريقه إلى (رقادة) التي بادر أهلها إلى الهرب بعدما سبقهم إليها «زيادة الله» فدخلها يوم السبت أول رجب سنة ٢٩٦هـ/ ٩٠٨م ونزل ببعض قصورها وفرق دورها على كتامة؛ لأنه لم يبق أحداً من أهلها فيها.

وأقيمت خطبة الجمعة في (القيروان) و(رقادة)[1] دون أن يذكر الخطباء أحداً؛ وأمر بضرب السكة وألا ينقش عليها اسم، ولكنه جعل مكان الاسم من وجه «بلغت حجة الله»، ومن الوجه الآخر «تفرق أعداء الله» ونقش على السلاح «عُدة في سبيل الله» ووشم الخيل على أفخاذها: «الملك لله»، وأقام على

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٣٢.

ما كان عليه من لبس الدون الخشن والقليل من الطعام الغليظ[1].

ولما استتبت الأمور لأبي عبد الله في (رقادة) وسائر بلاد أفريقيا سار في رمضان من السنة نفسها إلى (سجلماسة) التي بادر أميرها «اليسع بن مدرار» وأصحابه بالفرار منها ليلاً فدخلها أبو عبد الله ومن معه، وأطلقوا سراح عبيد الله المهدي من سجنه وبعد إقامة قصيرة بسجلماسة- ٤٠ يوماً- رجع إلى القيروان فوصل إلى (رقادة) أواخر ربيع الآخر من سنة ٢٩٧هـ/ ٩٠٩م وقد زال ملك «بني الأغلب»، وملك «بني مدرار»، وملك «بني رستم» من (تاهرت).

وفي رقادة نزل عبيد الله المهدي بقصر من قصورها فأمر خطباء الجمعة بذكر اسمه في الخطبة، وتلقب بـ «المهدي أمير المؤمنين» ووزع أعمال أفريقية ودواوينها على رؤساء قبيلة «كتامة»، وجبى الأموال، واستقرت الأحوال ودانت له أهل البلاد[2].

وهكذا قامت الخلافة الفاطمية في المغرب، وتعاقب خلفاؤها في شمال أفريقيا وهم: المهدي ٢٩٧- ٣٣٧هـ/ ٩٠٩-٩٤٨م، والقائم ٣٢٢-٣٣٤هـ/ ٩٣٣-٩٤٥، فالمنصور ٣٣٤-٣٤١هـ/ ٩٤٥-٩٥٢، فالمعز لدين الله الفاطمي الذي في أيامه فتح «جوهر الصقلي» مصر واتخذوها مقراً لهم، وتنقل الفاطميون بين عواصم عدة، فأخذوا أولاً القيروان، ثم بنى المهدي عاصمة جديدة اسماها (المهدية) سنة ٣٠٥هـ/ ٩١٧م، بينما بنى المنصور مدينة

---

(١) المصدر السابق، نفس الصفحة.

(٢) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ٦/ ٢٣٣.

(المنصور) سنة ٣٣٧هـ/ ٩٤٨م ليتخذها حاضرة له.

ولما استقر حكم الفاطميين في شمال أفريقية، عملوا على الاستيلاء على مصر حتى يمكنهم من هناك مد سيطرتهم على بلاد المشرق، وظلوا أكثر من نصف قرن يتحينون الفرصة حتى واتتهم أخيراً في خلافة المعز الذي انتهز فرصة موت كافور وأخذ يستعد لغزو مصر، فأمر بحفر الآبار على طول الطريق إليها، وإعداد الجيش الذي عقد لواءه لجوهر الصقلي، كما بعث إلى دعاته بالبلاد المصرية أعلاماً وأمرهم أن يوزعوها على الجند الذين يؤيدون بيعته لينشروها إذا ما اقتربت عساكره من مصر.

وخرج جوهر من القيروان يوم السبت ١٤ ربيع الأول ٣٥٨ هـ/ فبراير ٩٦٨م، وقام الخليفة المعز بنفسه بتوديع الجيش الغازي، وصار جوهر بجيشه حتى وصل برقة (ليبيا) فقدم له صاحبها فروض الطاعة والولاء، ومضى بعد ذلك إلى الإسكندرية فدخلها دون مقاومة.

وفي طريقهم من الإسكندرية إلى الفسطاط التقى جوهر بوفد من أعيان البلاد وعلى رأسهم الوزير جعفر بن الفرات يطلبون السلام من جوهر على أن يتسلم البلاد ويكتب لأهلها كتاب الأمان، فكتب لهم جوهر كتاباً أمنهم فيه على أنفسهم وأموالهم وضياعهم، والتزم بعدم تغيير مذهبهم السني إلى المذهب الشيعي.

وبذلك انتهى حكم الإخشيديين لمصر، وبدأ حكم الفاطميين واستقلت مصر استقلالاً تاماً عن التبعية لخلافة بغداد السنية[1].

---

(١) سيدة كاشف: مصر في عصر الإخشيديين، ص٢٦٦.

ثانياً: الدولة الفاطمية في مصر:

اتخاذ مصر مقراً للخلافة الفاطمية:

لم يتخذ جوهر الفسطاط ولا العسكر عاصمة للدولة الجديدة، بل شرع في إنشاء مدينة جديدة تكون حاضرة للحكم الجديد ومركزاً لنشر دعوته المذهبية في العالم.

وفي ليلة ١٧ شعبان سنة ٣٥٨هـ/ ٩٦٨م بدأ العمل في بناء العاصمة الجديدة وكتب جوهر إلى المعز يستدعيه للحضور إلى مصر لتولي شئونها بعد أن تهيأت له فارتحل إليها ودخل الإسكندرية في شعبان سنة ٣٦٢هـ/ ٩٧٢م وفي صحبته عدد كبير من أتباعه ورجال دولته وأهله وأقاربه حتى قيل إنه أحضر معه رفات أجداده لتدفن في القاهرة عاصمة دولته الجديدة.

كذلك أحضر المعز معه أحمالاً كثيرة من الأموال والتحف النادرة التي أخرجها من قصور آبائه، فضلاً عن أحمال كبيرة من القمح والطعام حملتها سفنه؛ لإنقاذ أهل مصر من المجاعة التي تعرضوا لها في آخر عهد حكم الإخشيديين.

ووصل المعز القاهرة يوم الثلاثاء ٧ رمضان ٣٦٢ هـ/ ٩٧٢ م، وفي اليوم التالي لوصوله خرج أشراف مصر وقضاتها وأعيانها ورجال العلم بها للتهنئة بوصوله[١].

وأصبحت القاهرة دار خلافة بعد أن كانت دار إمارة، وغدت مركزاً للدولة الفاطمية التي حكمت قرابة القرنين من الزمان.

---

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ١٩٤ – ١٩٨.

وقد قام المعز منذ أن قدم إلى مصر بتثبيت حكم الفاطميين في مصر ونشر المذهب الشيعي الإسماعيلي بها، وإرسال الدعاة إلى البلاد المختلفة لنشر الدعوة، كذلك قام ببعض الإصلاحات الداخلية فيما يتصل بالزراعة والتجارة، ووضع المعز أسس النظم الفاطمية في الحكم والإدارة والملبس والاحتفال بالمواسم والأعياد وإقامة المواكب الفخمة والولائم الضخمة بقصر الخلافة، وإبراز مظاهر الأبهة والعظمة[١].

ولم يطل حكم المعز في مصر، فقد توفى بعد دخوله لها بثلاث سنين عام ٣٦٥هـ، وخلفه بعده ابنه العزيز بالله، وتوالى الفاطميون في حكم مصر.

ونستطيع أن نقسم تاريخ الدولة الفاطمية في مصر والشام إلى عصرين كبيرين:

العصر الأول: وهو عصر الازدهار، وقد بلغ فيه نفوذ الخلافة أقصى درجات الاتساع، وبلغت الدولة أقصى درجات القوة والعظمة، وتعاقب على عرش الخلافة بالقاهرة: المعز، فالعزيز، فالحاكم، فالظاهر، فالمستنصر حتى سنة ٤٦٥هـ/ ١٠٧٢م.

أما العصر الثاني: فهو عصر الاضمحلال والركود، وفيه ضعفت دولة الفاطميين في الخارج وأصابها الفتور والتدهور في الداخل، وشمل هذا العصر الجزء الأخير من حكم الخليفة المستنصر ثم عهود الخلفاء الذين أعقبوه في الحكم وهم: المستعلي، والآمر والحافظ والظافر والفائز والعاضد.

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة، ٤/ ٧٩.

العصر الفاطمي الأول

عصر الخلفاء الفاطميين الأقوياء:

العزيز بالله (٣٦٥- ٣٨٦ هـ/ ٩٧٥- ٩٩٦م):

يعتبر العزيز بالله (أبو منصور نزار) أول هؤلاء الخلفاء الأقوياء بعد وفاة والده مؤسس الدولة المعز لدين الله الفاطمي. تولى العزيز الخلافة في ١٤ ربيع الآخر سنة ٣٦٥هـ/ ٩٧٥م وأقام في الحكم مدة إحدى وعشرين سنة ونصف.

وفى عهده اتسعت رقعة الدولة الفاطمية فصارت تمتد من بلاد العرب شرقاً إلى المحيط الأطلسي غرباً، ومن آسيا الصغرى شمالاً إلى بلاد النوبة جنوباً، وفتحت له حمص وحماة وشيزر وحلب والموصل وأعمالها وخطب له بمكة واليمن[1].

وكان خطر القرامطة في بلاد الشام قد ازداد على عهده، وكان قد بدأ في عهد أبيه المعز الذي لم يستطع القضاء عليه نهائياً قبل وفاته، وفى عهده حاول القرامطة الاتفاق مع القائد أفتكين التركي للاستقلال ببلاد الشام، فأرسل العزيز قائده العجوز جوهر الصقلي لحربهم بعساكر كثيرة، فحاربهم لكنه لم يستطع القضاء عليهم فعاد لمصر ليعاود الهجوم بقوات جديدة قادها العزيز بنفسه ونجحت القوات الجديدة في هزيمة القرامطة وأسر أفتكين وإنهاء الخطر القرمطي عن بلاد الشام.

اهتم العزيز بنشر عقائد المذهب الشيعي. وفى عهده تحول الجامع الأزهر

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٥٧.

إلى جامعة تدرس عقائد هذا المذهب وأصوله إضافة للعلوم العقلية... ونبغ عدد من العلماء في العلوم النظرية والنقلية والعلمية[١].

وتوفي العزيز في ٢٨ رمضان سنة ٣٨٦هـ/ ٩٩٦م بمدينة بلبيس عن عمر يناهز الثالثة والأربعين، وحمل ليدفن في القاهرة بتربة القصر مع آبائه، وكان العزيز قد خلف من الأولاد ابنه المنصور الذي ولي الخلافة بعده، وابنة تدعى «سيدة الملك»[٢].

الحاكم بأمر الله (٣٨٦- ٤١١هـ/ ٩٩٦- ١٠٢٠م):

ولد الحاكم (أبو علي المنصور) في القاهرة في ٢٣ ربيع الأول سنة ٣٧٥هـ/ ٩٨٥م وتولى الخلافة وعمره إحدى عشرة سنة ونصف في ليلة ٢٧ شوال سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م عقب وفاة والده العزيز في بلبيس، واختير له لقب (الحاكم بأمر الله) وخطب له على منابر مصر والشام وإفريقية والحجاز.

وكانت سيرته من أعجب السير، قال المقريزي عنه: «إنه كان يعتريه جفاف في دماغه، فلذلك كثر تناقضه، وما أحسن ما قال فيه بعضهم من أن أفعاله كانت «لا تعلل وأحلام وساوسه لا تؤول» و «كان يحب العزلة ويركب في الأسواق ويقيم الحسبة بنفسه» و «كانت سياسته متضادة بين شجاعة وإقدام، وجبن وإحجام، ومحبة للعلم، وانتقام من العلماء، وميل إلى الصلاح وقتل الصلحاء»[٣].

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٠١.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ٧٨- ٧٩.

(٣) المقريزي: السلوك، ١/ ٢٨١.

ويمكن تقسيم مدة حكم الحاكم بأمر الله إلى أربعة أقسام:

الأولى: من سنة ٣٨٦ هـ/ ٩٩٦م إلى سنة ٣٩٠هـ/ ٩٩٩م، وفى هذه الفترة كان صبياً صغيراً دون الثانية عشرة من العمر، يحكم دون سلطة، وكانت السلطة في يد رجلين من رجال دولته: الأول ابن عمار (أبو محمد الحسن) الذي تقلد الوساطة في الدولة دون الوزارة، وكانت مقاليد الأمور في يده لمدة عام (هرب سنة ٣٨٧هـ/ ٩٩٧م) والثاني: الطواشي برجوان الصقلي الذي قام بالوصاية عليه وكان بيده مقاليد الأمور في الدولة.

الثانية: من سنة ٣٩٠ هـ/ ١٣٩٩م إلى سنة ٣٩٥هـ/ ١٠٠٤م بعد أن تخلص الحاكم من وصاية برجوان، وكانت السلطة فيها كاملة للحاكم رغم صغر سنه، وفى هذه المرحلة أظهر الحاكم تعصبه الشديد للمذهب الفاطمي واضطهاده الكبير لأهل السنة وأهل الذمة من اليهود والنصارى.

الثالثة: من سنة ٣٩٦ هـ/ ١٠٠٥م إلى سنة ٤٠١هـ/ ١٠١٠م وهى فترة تميزت بالاضطراب في الدولة نتيجة خطرين تعرضت لها:

أحدهما: في الداخل.

والآخر: من الخارج.

وجاء الخطر الداخلي متمثلاً في الضائقة الاقتصادية ونقص الموارد الغذائية في البلاد بسبب انخفاض مياه نهر النيل لمدة ثلاث سنوات (٣٩٨-٤٠١هـ/ ١٠٠٧-١٠١٠م).

أما الخطر الخارجي فكان قد تمثل في ثورة الثائر الأموي «أبي ركوة»، تلك الثورة التي أزعجت الحاكم وهزمت قواته في برقة ومصر، ولم تهدأ نفس الحاكم

بأمر الله وتطمئن إلا بفشل الثورة والقبض على أبي ركوة ببلاد النوبة وقتله في القاهرة بعد التشهير به سنة ٣٩٧هـ/ ١٠٠٦م.

كذلك تغلبت البلاد على الضائقة الاقتصادية بعد اعتدال فيضان النيل وعودة المياه إلى الكمية المعتادة اللازمة للبلاد.

وبسبب تلك الظروف السيئة التي عاشت فيها البلاد في ذلك الوقت، خفف الحاكم من تعصبه وأظهر ليونةً وتسامحاً وخوفاً من ازدياد غليان شعب مصر الذي قد يترتب عليه نهاية الخليفة ونهاية الدولة الفاطمية جميعها.

الرابعة: من سنة ٤٠١ هـ/ ١٠١٠م إلى ٤١١هـ/ ١٠٢٠م وهي فترة اتسمت سياسة الحاكم فيها بالعودة للعنف مع رعاياه، وبالتذبذب والاضطراب في أحكامه وأوامره، والتناقض في أفعاله الأمر الذي كان ينذر بقرب نهايته[١].

وجاءت نهاية الحاكم بأمر الله يوم ٢٨ شوال سنة ٤١١هـ/ ١٠٢٠م حين اختفى الحاكم ولم يعرف مصيره، بعد أن خرج ليلاً كعادته إلى مرصده بالمقطم، ثم توجه بعد ذلك إلى حلوان حيث انقطعت أخباره هناك، وكان الحاكم وقتها قد قارب على سبعة وثلاثين عاماً من العمر[٢].

الظاهر لإعزاز دين الله (٤١١- ٤٢٧هـ/ ١٠٢٠- ١٠٣٥م):

ولي الظاهر الخلافة بعد اختفاء أبيه الحاكم في شوال ٤١١هـ/ ١٠٢٠م وكان يبلغ من العمر قرابة السبعة عشر عاماً، وملك الظاهر سائر ممالك والده

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية ص ١٦٥ – ١٦٨.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٤/ ١٩٠.

في مصر والشام والثغور وإفريقية، وقامت عمته «ست الملك» بتدبير أمر مملكته أحسن قيام، والوصاية عليه في الفترة الأولى من حكمه لمدة أربع سنوات، وبذلت العطاء للجند وساست الناس أحسن سياسة حتى وفاتها سنة ٤١٥هـ/ ١٠٢٤م).

وفي عهد الظاهر وقعت بعض الاضطرابات في الشام بخروج صالح بن مرداس الكلابي عليه في حلب واستيلائه عليها، كذلك تغلب حسان بن المفرج بن الجراح البدوي صاحب الرملة على معظم الشام حتى وصلت جيوشه إلى غزة، فجهز الظاهر لحربها جيشاً جعل قيادته لقائده أبي منصور أنوشتكين الشهير بالدزيري، فالتقى معهما فانهزم حسان وقتل صالح واستولى القائد التركي على الشام ونزل على دمشق وكتب للخليفة كتاباً بالنصر فدان بذلك الحكم للظاهر في الشام[1].

وحاول الروم في عهده مهاجمة حلب من أنطاكية والاستيلاء عليها، لكن نائبه شبل الدولة نصر بن صالح الأكبر قاتل الروم وهزمهم.

وتوفي الظاهر بالقاهرة يوم الأحد منتصف شعبان سنة ٤٢٧هـ وهو يبلغ من العمر إحدى وثلاثين سنة، وكانت ولايته على مصر ست عشرة سنة وتسعة أشهر[2].

المستنصر بالله (٤٢٧- ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥- ١٠٩٤م):

خلف أباه الظاهر في سنة ٤٢٧هـ/ ١٠٣٥م وكان عمره سبع سنين وقد

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٣٠- ٢٣١.

(٢) محمد جمال الدين سرور: سياسية الفاطميين الخارجية، ص ٢١١.

حكم ستين عاماً (٤٢٧- ٤٨٧هـ/ ١٠٣٥-١٠٩٤م) وهو بذلك أطول خلفاء الفاطميين حكماً.

لم تتمتع مصر طوال مدة حكمه بالأمن والرخاء غير فترة قصيرة، وحدثت فيها أحداث سياسية واقتصادية واجتماعية أدت إلى تدهور أحوال الخلافة الفاطمية في عهدها الثاني.

وفي بداية حكم المستنصر تحكمت في أمر البلاد والدته السودانية الأصل، ولم يمسك المستنصر بناصية أمره إلا بعد موت أمه وتقدمه في السن، واستعان بوزراء محنكين في حكم البلاد مثل الوزير اليازوري الذي عرف بسيد الوزراء.

وامتد سلطان الفاطميين في القسم الأول من حكم المستنصر على بلاد الشام وصقلية وشمال إفريقية، ودعي للمستنصر على منابر مكة والمدينة، كما دعا له حاكم اليمن علي بن محمد الصليحي على منابرها سنة ٤٤٢هـ/ ١٠٥٠م[١].

ولأول مرة في عهد المستنصر يُدعى لخليفة فاطمي على منابر بغداد والبصرة وواسط وجميع بلاد العراق دون الخليفة العباسي.

فلقد دعي للمستنصر هناك سنة ٤٥١هـ لمدة عام وخطب له بإمرة المؤمنين، دعا له أبو الحارث البساسيري في أعقاب نجاح ثورته في العراق ضد الخليفة العباسي القائم بأمر الله. وكادت الدعوة الفاطمية تقضي على الدعوة العباسية في هذه البلاد معقل العباسيين لولا استعانة الخليفة بالأتراك السلاجقة ودخول قائدهم طغرلبك إلى بغداد وقتله البساسيري وإيقاف الدعاء للفاطميين

(١) محمد جمال الدين سرور: سياسية الفاطميين الخارجية، ص ٢١٤.

بعد أن دُعي لهم ببغداد وخطب لهم أربعون خطبة[١].

وفي الفترة الثانية من حكم المستنصر انفصلت عن مصر بعض البلاد التابعة لها فانفصلت عنها بلاد شمال إفريقية حين أسس بنو زيري الصنهاجيون دولتهم هناك منذ سنة ٣٦٢هـ كذلك حين أسس بنو حماد دولتهم في الجزائر سنة ٣٩٨هـ/ ١٠٠٧م وعملوا على توسيع هذه الدولة خلال حكم المستنصر. كذلك خرج عن يدهم حكم جزيرة صقلية حين استولى عليها النورمان، وزالت سيادتهم عن الحجاز في سنة ٤٦٢هـ/ ١٠٦٩م حين دعا أمير مكة وأمير المدينة للخليفة العباسي القائم بأمر الله بعد أن انقطعت أموال الفاطميين التي كانوا يرسلونها إليهم عنهم[٢].

وفي عهد المستنصر تعرضت مصر لمجاعة شديدة عرفت في التاريخ الإسلامي باسم «الشدة المستنصرية» التي تعتبر أطول وباء عرفته مصر طوال حكمها الإسلامي وكان سبب هذه الشدة توقف فيضان نهر النيل مدة سبع سنوات (من سنة ٤٥٧- ٤٦٤هـ/ ١٠٦٤-١٠٧١م) متصلة، الأمر الذي أدى إلى انعدام الزراعة وخراب البلاد وموت أهل مصر جوعاً وانقطاع النيل براً وبحراً[٣].

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٥/ ٦- ١١.

(٢) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٣٧- ٢٤٢.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر ص، ١٢- ٢٣.

العصر الفاطمي الثاني

عصر نفوذ الوزراء:

الوزير بدر الدين الجمالي (٤٦٦- ٤٨٧هـ/ ١٠٧٣- ١٠٩٤م):

عمت الاضطرابات والفوضى البلاد، فأرسل المستنصر إلى أمير الجيوش بدر الجمالي حاكم عكا يطلب منه المجيء لإنقاذ الخلافة والبلاد، فلقد قلده الخليفة الوزارة وأعطاه السلطة المطلقة والحرية التامة في إدارة شئون البلاد.

ويعتبر هذا الحدث في حد ذاته بداية دور جديد في تاريخ الخلافة الفاطمية، وهو دور اتسم باضمحلال سلطة الخلافة ونفوذها، وظهور نفوذ الوزراء العظام الذين سيطروا على مقاليد الأمور في الدولة.

ونجح بدر الجمالي بفضل حسن تدبيره، وبما قام به من إصلاحات سريعة وإخماده ثورات العربان، وبفضل عودة مياه النيل إلى طبيعتها الأولى وجريان الفيضان السنوي، نجح في إصلاح الحال ووقف المجاعة وإعادة دولاب العمل إلى ما كان عليه قبل الشدة.

وانفرد بدر الجمالي بالأمر إلى أن توفي في خلافة المستنصر في ربيع الأول سنة ٤٨٧هـ/ ١٠٩٤م[١]، ثم جاء من بعده مع ولده الأفضل بن بدر الدين الجمالي الذي حل في الوزارة مكانه.

وقد أخذ الضعف يدب في جسد الدولة الفاطمية في عصرها الثاني، واستأثر الوزراء فيها بالنفوذ والسلطان، وأصبح الخلفاء مسلوبي السلطة مع الوزراء.

---

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٠٤.

وقد حرص هؤلاء الوزراء على اختيار خلفاء صغار ضعاف يستطيعون أن ينفذوا في ظلهم ما يريدون من سياسة، ويكون لهم النفوذ الفعلي في البلاد، حتى عرف هذا العصر الثاني من حكم الدولة الفاطمية بعصر نفوذ الوزراء.

لقد أدى الصراع بين الوزراء في أواخر أيام دولة الفاطميين إلى زوال الخلافة الفاطمية بعد حكم تعدى القرنين من الزمان[1].

الوزير أبو القاسم شاهنشاه الأفضل (٤٨٧- ٥١٥هـ/ ١٠٩٤- ١١٢١م):

حل أبو القاسم شاهنشاه في الوزارة وهو في سن الثمانين، ولقب "بالأفضل".

وقام الأفضل بتعيين أبي القاسم أحمد أصغر أبناء الخليفة المستنصر وتلقيبه بالخليفة «المستعلي» متجاوزاً في ذلك «نزاراً» ابن الخليفة المستنصر الأكبر وولي عهده من بعده، وكان يبلغ من العمر خمسين عاماً. وكان المستنصر في مرضه الأخير قد أراد عقد البيعة لابنه نزار، لكن الأفضل ظل يدافعه حتى مات.

وكان الأفضل لا يميل لنزار لتعاليه عليه، كذلك كان يميل للمستعلي؛ لأنه كان أخاً لأمه ابنة بدر الجمالي، فأراد بهذا التعيين أن يجمع بيت الجمالي بين الوزارة والخلافة.

ولقد أنكر أتباع نزار من الإسماعيلية هذا التعيين لمخالفته قواعد توارث الخلافة عندهم، وأدى ذلك إلى ثورتهم ضد الأفضل والمستعلي والتفافهم حول نزار وتلقيب أنفسهم بالنزارية. ولقد ارتحل نزار إلى الإسكندرية والتف أهلها حوله يبايعونه بالخلافة وانضم إليهم القائد أفتكين التركي والي الإسكندرية ولقبوه «المصطفى لدين الله».

---

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٧٢.

وحارب الأفضل قوات نزار مرتين، هزمها في المرة الثانية، وأُسر نزار وزُج به في السجن ومات فيه. واستبد الأفضل بالحكم دون المستعلي أضعاف استبداد أبيه المستنصر، وظل المستعلي طوال حياته كالمحجور عليه من الأفضل.

وعند وفاة الخليفة المستعلي في نهاية سنة ٤٩٥هـ/ ١١٠١م نصب الوزير الأفضل أبا علي منصور ابن الخليفة المستعلي- وكان طفلاً في الخامسة من عمره- خليفة ولقبه بـ"الآمر بأحكام الله"، واشتدت سلطة الأفضل في عهد خلافة الآمر، وأصبح هو الحاكم الفعلي للبلاد مدة ثمانية وعشرين عاماً.

وجاءت نهاية الأفضل بن بدر الجمالي سنة ٥١٥هـ/ ١١٢١م، وتم قتله على يد أبي عبد الله محمد بن البطائحي أحد خواص الوزير، بتحريض من الخليفة الآمر الذي لم يعد طفلاً والذي صمم على القبض على مقاليد الأمور بنفسه، وبعد موت الأفضل صادر الخليفة أملاكه[1].

الوزير ابن البطائحي (٥١٥- ٥٢٥هـ/ ١١٢١- ١١٣٠م):

خلف ابن البطائحي الأفضل في الوزارة وتلقب بـ«المأمون»، وبرغم كفاءته الإدارية والمالية إلا أنه لم يصل إلى مكانة الأفضل، ولم يسلم من بطش الخليفة الآمر الذي خاف منه أن يتجبر مثل الأفضل ويخضعه لسلطانه، فقبض عليه الخليفة الآمر سنة ٥١٩هـ وصادر أمواله وحبسه مدة ثلاث سنوات قتله بعدها مع خمسة من إخوته.

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٦٩- ١٧٠.

الوزير أبو علي أحمد بن الأفضل (٥٢٥- ٥٢٦هـ/ ١١٣٠- ١١٣١م):

اغتيل الخليفة الآمر سنة ٥٢٤هـ/ ١١٢٩م، وهو يبلغ من العمر خمسة وثلاثين عاماً، اغتاله غلمان الأفضل ومماليكه، وقيل النزارية.

ولم ينجب الآمر أولاداً ذكوراً، وكان قد ولي الوزارة بعد البطائحي أبو علي أحمد ابن الأفضل الذي وصل إلى الوزارة بإرادة مماليك أبيه الذين تخلصوا من الآمر وثأروا لسيدهم ولقبوه بأمير الجيوش، وقام الوزير أحمد ومماليك الأفضل بتعيين أبي الميمون عبد المجيد ابن عم الآمر ولقبوه بالحافظ.

استولى الوزير أحمد على الحكم، ولم يكن للحافظ معه سوى الاسم في الحكم، وصار الأمر كله للوزير، فضيق على الخليفة وحجر عليه ومنعه من الظهور، وحجزه في خزانة لا يدخل أحد عليه فيها إلا بأمره.

وكان هذا الوزير إمامي المذهب، فقاوم المذهب الإسماعيلي، الأمر الذي دفع الإسماعيليين إلى التخلص منه بقيادة الأمير «يانس الأرمني» أحد غلمان الوزير أثناء لعبه بالكرة (البولو).

وأخرج الأمير يانس الخليفة الحافظ من سجنه واستعاد المذهب الإسماعيلي مكانته.

الوزير يانس الأرمني (٥٢٦هـ/ ١١٣١م):

اختار الخليفة الحافظ يانس للوزارة ولقب بأمير الجيوش، ولكن الحافظ تخلص منه بأن دس له السم بعد تسعة أشهر من توليه الوزارة.

الوزير بهرام الأرمني:

حاول الحافظ أن يحكم منفرداً دون أن يتخذ وزيراً له، لكن العسكر نصبوا «بهرام الأرمني» وزيراً وفرضوه على الخليفة الذي رضخ لإرادتهم، واستكثر برهام من جلب الأرمن إلى مصر حتى بلغ عددهم في زمن قصير ثلاثين ألفاً.

الوزير رضوان بن الولخشي:

وبعث أمراء الجيوش وقواده إلى «رضوان بن ولخشي» والي الغربية؛ لينقذهم من تحكم الأرمن، وكان عسكرياً شجاعاً فأجابهم إلى طلبهم وقدم إلى القاهرة مع قواته، واضطر بهرام إلى الهرب.

وتولى رضوان الوزارة للحافظ، ولقب نفسه بـ «الملك»، وهو أول من لقب من الوزراء بهذا اللقب، وسار الوزراء من بعده على هذا التقليد.

حاول الوزير رضوان التآمر ضد الخليفة الحافظ، لكن الحافظ قبض عليه وسجنه عشر سنوات قتله بعدها، وكان الخليفة الحافظ قد وصل إلى سن الخامسة والسبعين ولم يستوزر أحداً بعد إقصاء رضوان عن الوزارة، وظل يحكم بلا وزير حتى وفاته سنة ٥٤٤هـ/ ١١٤٩م[١].

وبعد موت الحافظ خلفه ابنه الأصغر أبو منصور إسماعيل على العرش، ولقب بالظافر بأمر الله، وكان يبلغ من العمر سبع عشرة سنة، وكان هذا الخليفة مغرماً باللهو والنساء والغناء أكثر من اهتمامه بأمور الجندية والسياسة، ولذلك كانت أيام خلافته أيام اضطراب وعدم استقرار.

---

(١) القلقشندي: صبح الأعشى ١٣/ ٣٦٩.

الوزير نجم الدين أبو الفتح بن مصال:

وزر للظافر أمير الجيوش نجم الدين أبو الفتح بن مصال الذي أحسن السيرة واستقامت الأمور في بداية عهد وزارته، لكن والي البحيرة والإسكندرية «ابن السلار الكردي» ثار ضد ابن مصال، فاضطر ابن مصال إلى الهرب، وحل في الوزارة مكانه ابن السلار الذي تلقب بـ«الملك العادل».

الوزير ابن السلار:

كان الوزير ابن السلار شافعي المذهب وحاول نشر هذا المذهب وإحلاله محل المذهب الإسماعيلي، الأمر الذي أدى إلى حقد الخليفة ورجاله عليه فقاموا باغتياله سنة ٥٤٨هـ وولي للوزارة بعد لبن السلار للوزير عباس سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م، ولقد اغتيل الخليفة الظافر على يد وزيره عباس وابنه نصر، وحل في الخلافة بعده ابنه «عيسى»، وكان في الخامسة من عمره، ولقب بـ«الفائز بنصر الله»[١].

الوزير الصالح طلائع بن رزيق:

وبسبب مقتل الخليفة الظافر اضطربت الأمور في البلاد وسادت الفوضى واستعر القتال بين الفرق المتطاحنة، وساد الفزع القصر الخلافي، فأرسل نساء القصر إلى «طلائع بن رزيق»، والي الأشمونين وقوص والصعيد وكبير الأمراء يخبرنه بقتل الظافر ويطلبن منه أن ينقذهن، فقدم طلائع بن رزيق سنة ٥٥٤هـ/ ١١٥٩م ودخل القاهرة وتولى الوزارة وتلقب بـ«الملك الصالح»

---

(١) زامباور: معجم الأنساب والأسرات الحاكمة في التاريخ الإسلامي، ص ١٤٥- ١٥٠.

وهرب الوزير عباس وابنه.

وكان ابن رزيق رجلاً قوياً، وكانت مصر آنذاك بحاجة إلى مثل هـذا الرجـل القوي فقضى على الفوضى وأخمد ثورات الجند السودانيين.

ظل ابن رزيق قابضاً على زمام الأمور حتى وفاة الخليفة الفائز وهو صـغير سنة ٥٥٥هـ/ ١١٦٠م دون وصية لمن يخلفه، فأقام ابن رزيق بعده أبا محمد عبد الله بن يوسف حفيد الخليفة الحافظ ولقب بالخليفة «العاضـد» وكـان يبلـغ مـن العمر وقتها إحدى عشرة سنة.

كان العاضد آخر خلفـاء دولـة الفـاطميين، وشـاء الله أن تكـون نهايـة الدولـة الفاطمية على عهده، وقد قام ابن رزيـق بتـزويج ابنتـه للعاضـد ليجمـع حفيـده بـين الوزارة والخلافة.

وكان ابن رزيق إمامياً، وعمل على تخليص مصر من المـذهب الإسـماعيلي، الأمر الذي أثار الإسماعيليين، وتآمرت عمة الخليفة الفائز مع جند السودان على قتله[١].

الوزير رزيق بن طلائع:

قتل طلائع بن رزيق وخلفه في الـوزارة ابنـه رزيـق بـن طلائـع، فأقـام في الوزارة سنة وعدة أشهر، وكانت نهايته على يـد شـاور بـن مجـير السـعدي والي قوص والصعيد الذي ولي الوزارة وحجر على الخليفة العاضد.

واستمر شاور في الوزارة إلى أن خرج عليه «ضرغام بن عامر» أحـد أمـراء

(١) حسن إبراهيم حسن: تاريخ الدولة الفاطمية، ص ١٧١- ١٧٢.

بني رزيق، فحارب قوات شاور التي كان يقودها ابنه «طيء»، ونجح ضرغام في هزيمة قوات شاور وقتل طيء بن شاور، فهرب شاور إلى الشام مستنجداً بأمير الشام نور الدين محمود بن زنكي[1].

الفاطميون والصليبيون:

تمثل الفشل الفاطمي الأكبر في مواجهة الهجوم الصليبي في أنهم لم يفهموا حقيقة الغزو الصليبي ولم يروا فيه سوى أداة تمكنهم من سحق السلاجقة السنيين الذين كانوا عدواً خطيراً يتهدد الفاطميين.

ويعتقد «ستيفن رانسمان» وغيره من الباحثين أن الإمبراطور البيزنطي «إليكسيسو كومنين» قد نصح قادة الصليبيين عندما استخدمهم في عاصمته بأن يتحالفوا مع الفاطميين ليساعدوهم ضد السلاجقة.

وبالفعل أرسل الفرنج سفارة إلى القاهرة لبحث إمكانية مثل هذا التحالف، وفي القاهرة كان صاحب السلطة الفعلية هو للوزير الأفضل شاهنشاه بن بدر الجمالي، وهو من كبار المفسدين- عبيدي السلطة- وكان الخليفة ظلاً باهتاً ولقباً خالياً من أي مضمون.

وكان الأفضل تواقاً للتحالف مع الصليبيين لكسر شوكة السلاجقة، فراودته فكرة التحالف معهم على أساس تقسيم بلاد الشام وآسيا الصغرى بين الطرفين.

وفعلاً أرسل سفارة إلى الصليبين أثناء حصارهم لأنطاكية للتفاوض على

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/ ١٩٧.

تفاصيل التحالف، وإذا كانت المفاوضات بين الجانبين لم تسفر عن اتفاق فإن أهم نتائجها تمثلت في إدراك الصليبين مدى التمزق السياسي الذي كان العالم الإسلامي يعاني منه آنذاك[1].

وفي غمرة القتال المحتدم بين الصليبيين والسلاجقة في أعالي بلاد الشام، خرج الأفضل- تأكيداً لفساده وخيانته- على رأس الجيش الفاطمي سنة ٤٩١هـ/ ١٠٩٧م ليستولي على مدينة بيت المقدس من السلاجقة، ويدمر جزءاً من تحصيناتهم ليمهد بذلك الطريق أمام الصليبيين الذين هاجموها في السنة التالية سنة ٤٩٣ هـ/ ١٠٩٩م واستولوا عليها بعد أن ذبحوا الحامية الفاطمية وعدداً ضخماً من السكان في مذبحة بشعة[2]. حينها أدرك الفاطميون حقيقة العدوان الصليبي ولكن الوقت كان قد فات.

ولكن الصليبيين كانوا يعرفون منذ البداية أن مصر هي غريمهم الأول الذي يجب أن يهزموه حتى يضمنوا الأمن لوجودهم على أرض فلسطين، وقبل استيلائهم على القدس عقدوا مجلساً حربياً لمناقشة مشروع غزو مصر، ولكن ضآلة الجيش الصليبي منعتهم من القيام بهذه المجازفة الخطيرة[3].

ولكن غزو مصر وإخضاعها ظل أملاً يداعب خيالهم وأطماعهم، فجردوا عدة حملات لمحاولة تحقيقه حتى يضمنوا أمنهم.

ورغم أن الفاطميين جردوا جيوشاً كبيرة وأساطيل قوية في حملات متتالية

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/ ١٩٧.

(٢) ابن القلانسي: ذيل تاريخ دمشق، ص ٩٨.

(٣) ابن ميسر: تاريخ مصر ص ٤٦٤.

ضد الصليبيين بفضل موارد مصر الاقتصادية والبشرية الكبيرة، فإن الفشل كان دائماً من نصيب الجهود الفاطمية بسبب التفسخ والانهيار الداخلي في مصر آنذاك[١].

ونتيجة للنصر الذي أحرزته الحملة الصليبية الأولى، قامت فوق الأرض العربية عاصمة لاتينية للملكة الصليبية، كما قامت عدة مستوطنات صليبية في الرها وأعالي النهرين وفي إنطاكية وسوريا وفلسطين فضلاً عن بعض مناطق الشاطئ اللبناني.

ولا شك في أن المسلمين لم يدعوا الصليبيين يهنأون بالمدينة المقدسة التي كانت درة التاج وواسطة العقد لدى أصحاب الديانات السماوية الثلاثة، كما أنهم لم يكونوا ليغضوا الطرف عن وجود الكيان الصليبي فوق الأرض العربية.

وبعد أن نجحت القوات الصليبية هذا النجاح السريع في الاستيلاء على مدن الشام، تقدمت لغزو مصر ذاتها، وهاجم «بلدوين» ملك بيت المقدس مصر سنة ٥١١هـ/ ١١١٧م وأحرق جزءاً من الفرما ووصلت قواته إلى تنيس، ولم يوقف حملته على مصر إلا مرضه الذي اضطره للعودة إلى بلاده.

حقيقة لقد حاول الأفضل بن بدر الجمالي محاربة الصليبيين واسترداد مدن الشام وبيت المقدس من أيديهم ولكن دون جدوى، ولقد تم للصليبيين الاستيلاء على معظم بلاد الشام أيام خلافة الآمر الذي كان مكروهاً من المصريين؛ لتقاعسه عن الجهاد ضد الصليبيين، ولقد أعطى الصراع بين الوزراء على السلطة في مصر الفرصة للصليبيين لتحقيق أطماعهم في الشام والتطلع إلى غزو مصر[٢].

---

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص٢١١- ٢١٣.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ١/ ٣٨٧- ٣٩٠.

ففي الوقت الذي اشتد فيه النـزاع على الوزارة بين شاور وضرغـام، كـان ملك بيت المقدس الصليبي (عموري الأول) يستعد لغزو مصر.

وقـام عمـوري سـنة ٥٥٨هـ/ ١١٦٢م بغـزو مصر فوصـل إلى بلبـيس وحاصرها ولكن قـوات ضرغـام أرغمتـه عـلى الانسـحاب في الوقـت الـذي كان شاور قد هرب إلى الشام ليستنجد بـالأمير نـور الـدين محمـود بـن زنكـي حاكم دمشق.

ووجد نور الـدين محمـود الفرصـة التـي كـان يترقبهـا لتحقيـق حلمـه في الاستيلاء على مصر وضمها لحكمه وبذلك يكون حاكماً لمصر والشام[١].

وتطلع نور الدين محمـود للاسـتيلاء عـلى مصر لتمتـد الجبهـة الإسـلامية الجديدة المقاومة للخطر الصليبي من النيل إلى الفرات بعد أن طمـع الصـليبيون في مصر واستهدفوها حـين شـعروا بضـعف الدولـة الفاطميـة وعـدم مقـدرة خلفائها ووزرائها على الصمود[٢].

ووجد نور الدين محمود الفرصة التي كان يترقبها لفتح مصر حين لجأ إليـه شاور وطلب نجدته ضد غريمه ضرغام فوافق على الفور على شروط شـاور أن يمده بجيش على أن يعيده للوزارة ويكون نائباً لنور الدين، وقد جهز نور الدين هذا الجيش وجعل قيادته لأحد قواده الشجعان وهو أسد الدين شـيركوه وابـن أخيه صلاح الدين بن أيوب الذي كان في السابعة والعشرين من عمره.

والتقى جيش شيركوه بجيش ضرغام عـلى مقربـة مـن القـاهرة وانتهـت

(١) المرجع السابق ٢/ ٦٦٦.

(٢) المرجع السابق ٢/ ٦٨٣.

المعركة بينهم لصالح قوات شيركوه ومقتل ضرغام أثناء محاولته الفرار سنة ٥٥٩هـ/ ١١٦٣م، وعاد شاور يتولى الوزارة وأقام شيركوه بجنده خارج مدينة القاهرة وانتظر تنفيذ شاور لتعهداته للسلطان نور الدين.

لكن شاور نكث بعهده وأرسل إلى شيركوه يطلب منه الجلاء بقواته عن أرض مصر، فامتنع شيركوه ورد على تصرفاته باحتلال بلبيس والشرقية، فما كان من شاور إلا أن استنجد بالملك عموري، ووعده بتقديم مبلغ كبير من المال إذا هو نجح في طرد قوات شيركوه من أرض مصر.

وما كان من ملك بيت المقدس إلا أن هم بالإسراع إلى مصر حتى لا تفوته مثل هذه الفرصة الذهبية.

ووقف الجيشان النوري والصليبي أمام بعضهما البعض عند بلبيس، وانتهى الأمر بينهما بالاتفاق على أن يغادر كلاهما مصر، وسارع عموري بالعودة إلى بلاده بسبب تهديد قوات نور الدين لمملكته في الشام.

أرسل الخليفة العاضد إلى نور الدين يشكو إليه استبداد شاور وتعسفه، فما كان من نور الدين إلا أن أمر شيركوه بالتوجه ثانية إلى مصر على رأس حملة كبرى بصحبة صلاح الدين، ووصلت هذه الحملة إلى مصر سنة ٥٦٢هـ/ ١١٦٦م واستقرت قوات شيركوه خارج مدينة الفسطاط.

وتبعاً لمجيء هذه القوات النورية استنجد شاور بالملك الصليبي عموري الذي سارع للمرة الثالثة بالمجيء بقواته إلى مصر، ووقعت بين الفريقين النوري والصليبي معركة حاسمة هي معركة «البابين» عند بلدة المنيا بصعيد مصر، وانتهت بانتصار جيش شيركوه، وعلى أثر الهزيمة ارتحلت القوات الصليبية إلى

مدينة الإسكندرية وقامت بحصار صلاح الدين الذي كان نائباً عن عمه بها، واشتد الحصار على صلاح الدين فسار شيركوه بقواته إليه لفك الحصار، وانتهى الأمر بين الطرفين بالصلح على أن يترك الطرفان مصر وأن يتبادلا الأسرى بينهما.

وأرسل شاور للصليبيين مرة أخرى يطلب منهم مساعدته عن طريق دمياط ودبر مؤامرة استهدف منها اغتيال شيركوه ورجاله. ولما انكشف أمره اجتمع رأي أعيان مصر لدى شيركوه أن يقتل شاور؛ لأنه رأس كل المصائب والنكبات التي حلّت بالبلاد. فقام شيركوه بقتل شاور هو وابنه الكامل سنة ٥٦٤هـ/ ١١٦٨م.

توفى شيركوه بعد خمسين يوماً من توليه الوزارة فخلفه فيها ابن أخيه صلاح الدين الذي لقب بـ«الملك الناصر»(١).

إلغاء الخلافة الفاطمية ونهاية دولتها (٥٦٧هـ/ ١١٧١م):

كان موقف صلاح الدين منذ ولي الوزارة موقفاً غريباً فهو وزير لخليفة مصر العاضد الشيعي المذهب، وفي الوقت نفسه قائداً لجيش نور الدين صاحب الشام السني المذهب، وهذا يعني أنه كان موزع الولاء، ومع ذلك فقد اتبع سياسة الحكمة إزاء الرجلين(٢).

بدأ صلاح الدين بالخطوات التمهيدية لتقليم أظافر الخليفة العاضد وقوات جيشه ورجال قصره، فأبعد هذه القوات عن القاهرة، واستولى على

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٢٨٥- ٢٩١.

(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٢/ ٧٠٦- ٧٠٧.

إقطاعاتهم ومنحها لقواده؛ ليضمن ولاءهـم وإخلاصـهم، ثـم أرسـل إلى نـور الدين يستأذنه في أن يرسل إليه أباه نجم الدين أيوب الـذي كـان بعـد وصـوله خير عضد ونصيح لابنه صلاح الدين وذلك لما كان يتمتع به مـن دهـاء وخـبرة طويلة(١).

كذلك عمل على محاربة الدعوة الفاطمية وساعده على ذلـك أنـه كـان لـه الإشراف على القضاء والدعوة معاً، فعزل قضاة مصر الشيعة وقطـع أرزاقهـم، وعين صدر الدين عبد الملك بـن الـدباس الشـافعي قاضـياً للقضـاة، كـما شرد الدعاة وألغى مجالس دعوتهم وأزال أصول المذهب الشيعي مثل الأذان بـ «حي على خير العمل» بدلاً من الأذان بـ «حي على الفلاح» وحذف من عـلى العملـة العبارات الشيعية مثل «علي ولي الله» ومنع صلاة الجمعـة مـن الجـامع الأزهـر. ولتنفيذ ذلك أخذ في إنشاء المدارس بمعظم أنحاء مصر(٢).

وفي يونيو ٥٦٧ هـ/ ١١٧١م أعلن صـلاح الـدين رسـمياً نهايـة الخلافـة الفاطمية وعودة مصر إلى حظيرة الخلافة العباسية، وتم ذلك دون ضجة، ففـي أول جمعة من شهر المحرم سنة ٥٦٧هـ/ ١٠ سبتمبر ١١٧١م حل اسم الخليفـة العباسي محل اسم الخليفة الفاطمي في مسجد عمرو بن العاص، وكـان الخليفـة العاضد طريح الفراش ودون أن يحدث مـا يعكـر الجـو عـلى حـد قـول بعـض المؤرخين «فلم ينتطح فيه عنـزان»(٣)، ومات الخليفة الفاطمي بعـد أسـبوع دون

---

(١) أبو شامة: كتاب الروضتين ص ١٧٨.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب ١/ ١٧٦ - ١٧٧.

(٣) ابن الأثير: الكامل حوادث ٥٦٧ هـ.

أن يعلم أن دولة آبائه قد زالت هي الأخرى.

وهكذا اختفت من الوجود الدولة الفاطمية التي لعبـت دوراً هامـاً أكثـره سلبي وأقله إيجابي في تاريخ المنطقة العربية الإسلامية في فترة تزيـد عـلى المـائتين وسبعين عاماً تقريباً.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

- اختلف المؤرخون في إثبات نسب عبيد الله المهدي مؤسس الدولة الفاطمية إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما.
- طارد العباسيون العلويين حثيما وجدوا فهرب أبو عبد الله الشيعي إلى المغرب لنشر الدعوة الفاطمية وجمع جنداً وسلاحاً كثيراً، كما أرسل إلى عبيد الله المهدي بدعوة إلى إفريقية، لكن هذا الأخير وقع في قبضة العباسيين حتى سار إليه أبو عبيد الله وأطلق سراحه.
- قامت الخلافة الفاطمية في المغرب واستقرت الأحوال وتعاقب عليها الخلفاء.
- كان الفاطميون يتحينون الفرصة للاستيلاء على مصر، وفي خلافة المعز الذي استغل فرصة موت كافور فقضى على دولته وقامت الخلافة الفاطمية في مصر.
- أنشأ جوهر الصقلي مدينة القاهرة ودعا إليها المعز؛ لتكون مقراً لها ونشر فيها المذهب الشيعي الإسماعيلي.
- يعتبر العصر الفاطمي الأول هو عصر الخلفاء الأقوياء فتولى الحكم العزيز بالله واتسعت في عهده رقعة الدولة الفاطمية وهزم القرامطة. كما تحول الأزهر في عهده لتدريس المذهب الشيعي.
- تولى الحاكم بأمر الله بعده وقد قسمت مدة حكمه إلى أربعة أقسام:

الأولى: كان فيها صغيراً تحت ولاية أبي محمد الحسن وبرجوان الصقلي.

الثانية: كانت السلطة كاملة له بعد أن تخلص من الولاية.

الثالثة: فترة اضطراب في الدولة وفقر البلاد وخطر خارجي في الثـورة الأمويـة التي هزمت الحاكم بقيادة أبي ركوة، ثم قتله الحاكم في القاهرة.

الرابعة: الحكم فيها بالعنف والتذبذب والاضطراب في أحكامه.

- تولى الظاهر لإعزاز دين الله بعده وكان صغيراً فتولـت عمتـه الوصـاية عليه، ثم وقعت اضـطرابات في الشـام تغلـب عليهـا بقيـادة قائـده أبي منصور أنوشتكين.
- تولى بعده المستنصر بالله الذي تحكمت والدته في الحكـم حتـى وفاتهـا، وفي عهده دعي له على المنابر في مكة والمدينـة والشـام وإفريقيـة، وكـاد يقضي على الدعوة العباسية وكان هذا في الفترة الأولى.
- أما الفترة الثانية فقد انفصلت عن مصر بعض الـبلاد التابعـة لهـا مثـل شمال إفريقية والحجاز وصقلية، ثم تعرضت مصر لمجاعة شديدة انعدم فيها الأمان ومات فيها الكثير.
- يعتبر العصر الفاطمي الثاني هو عصر نفوذ الوزراء، فقـد تـولى الحكـم عدة وزراء بسبب تولية الخليفة لبدر الدين الجمالي سلطة الخلافة الـذي أدى إلى سيطرته على الدولة، ثم تولى الوزير أبو القاسم شاهنشاه حتـى قتل على يد أبي عبد الله محمد بن البطائحي.
- ثم تولى الوزير ابن البطائحي ثم الوزير أبو على أحمـد بـن الأفضـل ثـم يانس الأرمني ثم بهرام الأرمني ثم رضوان بن الولخشي ثم نجم الدين

أبو الفتح ثم ابن السلار ثم طلائع بن رزيق ثم رزيق بن طلائع بن رزيق.

- فشل الفاطميون في مواجهة الصليبين ولم يفهموا حقيقة الغزو الصليبي فتحالفوا معهم ضد السلاجقة واستولوا على بيت المقدس، ولما انتصر الصليبيون قتلوا الفاطميين في مذبحة ضخمة واستولوا على بيت المقدس، وقد حاول الفاطميون استرداد بيت المقدس من الصليبيين إلا أن محاولتهم باءت بالفشل.
- كان ملك بيت المقدس الصليبي عموري الأول يستعد لغزو مصر فاستعان شاور بنور الدين محمود حاكم دمشق الذي جهز جيشاً بقيادة أسد الدين شيركوه وابن أخيه صلاح الدين الأيوبي لمحاربة غريم شاور ويدعى ضرغام وانتهت بهزيمة الأخير.
- استعان شاور بعموري لمواجهة جيش شيركوه، فتواجهه الجيشان واتفقا على مغادرة كليهما لمصر.
- استعان الخليفة العاضد بنور الدين لمواجهة شاور، فوقعت بينهما موقعة البابين انتهت بهزيمة شاور ثم قتله بعد خيانته بالاستعانة بالصليبيين.
- تولى بعده صلاح الدين الوزارة، وكان سني المذهب فعمل على تقويض الخلافة الفاطمية، وأعلن نهاية الخلافة الفاطمية سنة ٥٦٧هـ.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

أجب عما يأتي:

س١: اشرح خطوات قيام الدولة الفاطمية في المغرب.

س٢: كيف دخل الفاطميون مصر؟ اشرح ذلك.

س٣: ما هي أهم الإنجازات التي حدثت في عصر العزيز بالله؟ وضح ذلك.

س٤: ما حقيقة العلاقة بين الدولة العباسية والفاطمية؟ اشرح ذلك.

س٥: قسم المؤرخون فترة حكم الحاكم بأمر الله أربعة أقسام، اشرح ذلك.

س٦: ما دور العمة ست الملك في الخلافة في عهد الظاهر؟ اشرح ذلك.

س٧: لخص أحداث حكم الخليفة المستنصر بالله.

س٨: تكلم عن العصر الفاطمي الثاني إجمالاً متتبعاً أحوال وزرائه.

س٩: اشرح العلاقة بين الفاطميين والصليبيين موضحاً الخيانات التي حدثت للإسلام.

س١٠: كيف انتهت الخلافة الفاطمية وعلى يد من؟ فصل القول.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- يعتبر مؤسس الدولة الفاطمية أبو عبد الله الشيعي. (   )

٢- انتصر أبو عبيد الله الشيعي على العباسيين وخلص أبا عبيد (   )

من سجنه.

٣- بدأ إنشاء مدينة القاهرة في سنة ٣٥٧هـ. ( )

٤- توفي المعز بعد دخوله لمصر بثلاث سنوات. ( )

٥- تحول الجامع الأزهر في عهد الفاطميين لتدريس المذهب الشيعي. ( )

٦- كان المستنصر يحب العزلة ويركب في الأسواق ويقيم الحسبة بنفسه. ( )

٧- اختفى الحاكم بأمر الله فجأة ولم يعرف مصيره. ( )

٨- كان الظاهر لإعزار دين الله أطول الخلفاء الفاطميين حكماً. ( )

٩- تعرضت مصر في خلافة المستنصر لمجاعة شديدة. ( )

١٠- دب الضعف في الخلافة الفاطمية منذ عهد الحاكم بأمر الله. ( )

١١- قُتل الأفضل بن بدر الجمالي على يد ابن البطائحي. ( )

١٢- كان الوزير أبو على أحمد بن الأفضل إسماعيلي المذهب. ( )

١٣- توفي الوزير يانس الأرمني بعد سبعة أشهر من توليه الوزراة. ( )

١٤- كان الوزير ابن السلار شافعي المذهب. ( )

١٥- تحالف الفاطميون مع الصليبيين ضد السلاجقة. ( )

١٦- استرد الأفضل بيت المقدس من الصليبيين. ( )

١٧- قتل أسد الدين شيركوه شاور لخيانته. ( )

١٨- تولى صلاح الدين الأيوبي حكم مصر وقلم أظافر آخر الخلفاء الفاطميين. ( )

١٩- كان الخليفة الآمر هو آخر الخلفاء الفاطميين. (   )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- انتهت الدولة الفاطمية سنة [٥٦٧- ٥٦٨- ٥٦٩] هـ.

٢- كان آخر خلفاء الدولة الفاطمية [العاضد- الآمر- الظاهر].

٣- قام شيركوه بقتل شاور لخيانته سنة [٥٦٥- ٥٦٤- ٥٦٣].

٤- تحالف الفاطميون مع الصليبيين لمحاربة [العباسيين- السلاجقة- النوريين].

٥- استولى الصليبيون على بيت المقدس سنة [٤٩١- ٤٩٢- ٤٩٣] هـ.

٦- قتل الوزير الأفضل بن الجمالي على يد الخليفة [العاضد- الآمر- الظاهر].

٧- تعرضت مصر لمجاعة شديدة في عهد [الظاهر- المستنصر- الحاكم].

٨- في بداية حكم المستنصر تحكمت في السلطة [والدته- عمته- وزيره].

٩- اختفى الخليفة............. ولم يُعرف مصيره [المستنصر- الحاكم- الظاهر].

١٠- اهتم العزيز بالله بنشر المذهب [الشيعي- الإسماعيلي- الإمامي].

١١- بدأ العمل في بناء مدينة القاهرة في عام [٣٥٦- ٣٥٧- ٣٥٨] هـ.

النشاط التعليمي للوحدة العــاشــرة

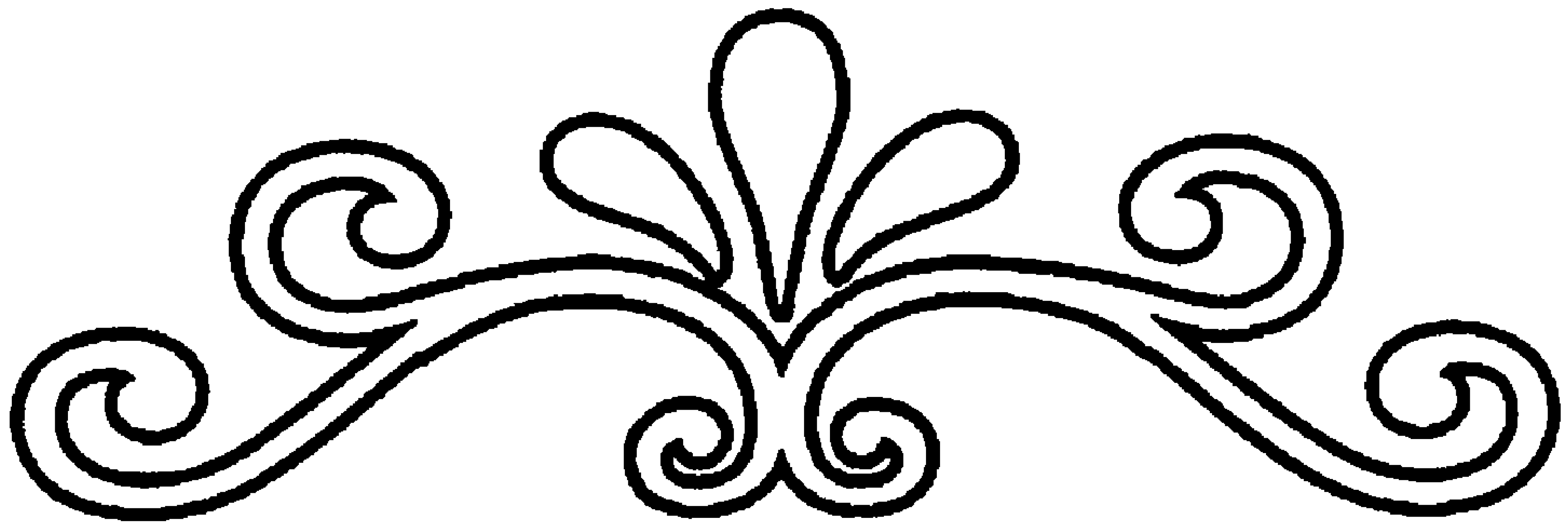
عزيزي الدارس:

حتـى تكتسـب المزيـد مـن المعلومـات المتعلقـة بموضـوع هـذه الوحـدة نقـترح عليـك إنجـاز النشاط التعليمي التالي:

- اكتب مذكرات تاريخية عن:

١- موقف الفاطميين والصليبيين.

٢- العصر الفاطمي الأول.

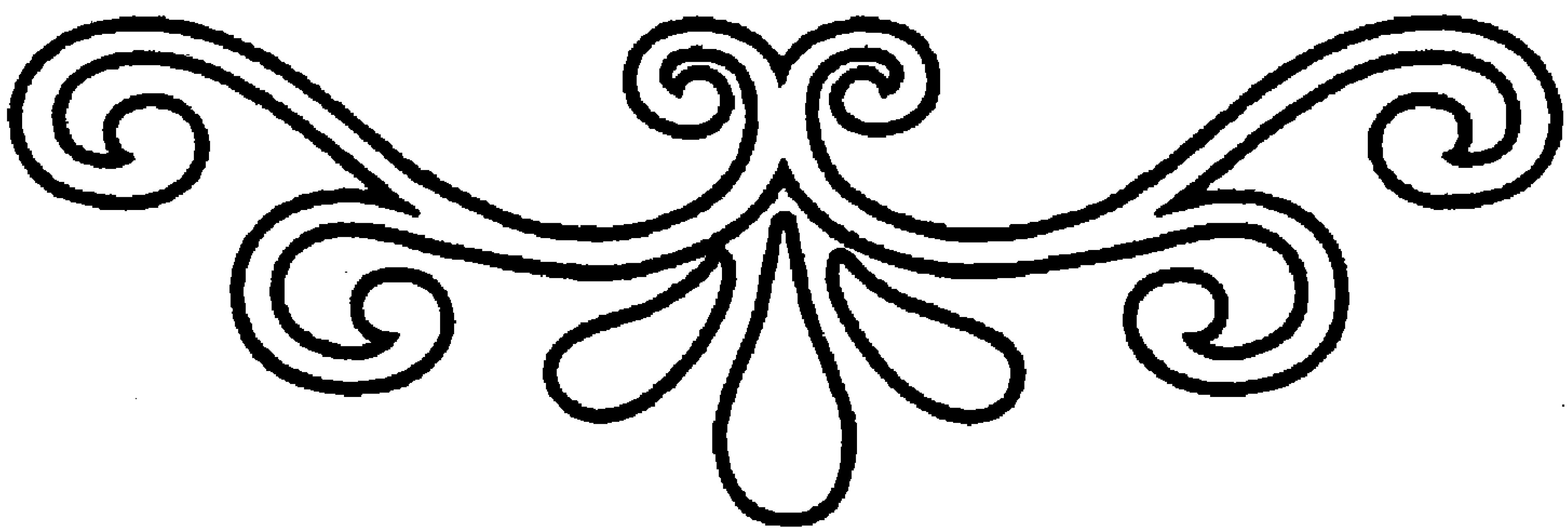


الوحدة الحادية عشرة

الدول الإسلامية المستقلة في مصر والشام

(٣) الدولة الأيوبية

(٥٧١- ٦٤٨هـ/١١٧٥-١٢٥٠م)



محتويات الوحدة الحادية عشرة

الدولة الأيوبية:

- التعريف بالدولة الأيوبية.
- الصراع الإسلامي الصليبي.
- صلاح الدين يوطد سلطانه في مصر.
- صلاح الدين والصليبيون.
- معركة حطين.
- استرداد بيت المقدس.
- مقارنة بين صلاح الدين والصليبيين عند دخول بيت المقدس.
- الحملة الصليبية الثالثة.
- العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين.
- الملك المنصور.
- الملك العادل.
- السلطان الملك الكامل.
- السلطان العادل نجم الدين أيوب الثاني.
- الملك توران شاه.
- نهاية الدولة الأيوبية.

أهمية دراسة الوحدة:



يرجع أصل الدولة الأيوبية إلى أكراد شمال العراق وكانوا على مذهب أهل السنة.

وقد شهدت الحضارة الإسلامية في فترة الدولة الأيوبية أحداثاً مشرقة وانتصارات للإسلام وفتحاً لبيت المقدس.

كما أسهموا في بناء الحضارة الإسلامية، وفي هذه المحاضرة سنوضح ذلك.



الأهداف التعليمية:

يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١- تفهم أن صلاح الدين الأيوبي هو مؤسس الدولة الأيوبية.

٢- توضح أحداث استرداد صلاح الدين لبيت المقدس وفضله في تقليص التواجد الصليبي في الشام.

٣- تشرح أسباب سقوط الدولة الأيوبية.

تعريف بالدولة الأيوبية:

يرجع أصل حكام هذه الدولة إلى أكراد شمال العراق، وأول من حكم مصر منهم «السلطان الملك الناصر صلاح الدين بن نجم الدين أيوب».

نشأ أبوه أيوب وعمه أسد الدين شيركوه ببلدة (دوين) من أرض أذربيجان ودخلا بغداد وخدما بها، وذهب أيوب إلى قلعة تكريت مصطحباً معه أخاه شيركوه وخدما بعد ذلك عماد الدين زنكي حاكم الموصل الذي آواهما وأقطعهما إقطاعاً في بلاده، ثم جعل أيوباً أميراً على بعلبك[1].

اتصل شيركوه بنور الدين محمود زنكي في أيام أبيه وقام بخدمته، ولما ملك نور الدين محمود حلب بعد وفاة أبيه، قام نجم الدين بدور كبير في أخذه مدينة دمشق وأحرز كل من نجم الدين وأسد الدين المكانة في دولة نور الدين، وأسند نور الدين إلى أسد الدين شيركوه قيادة الحملة على مصر ضد الوزير شاور، وصاحبه في هذه الحملة صلاح الدين.

وكان صلاح الدين قد سافر مكرها رغم إرادته إلى مصر، وهو لا يدري أن التاريخ يدخره لدور هام في تاريخ مصر وفي تاريخ المسلمين، وكان من أمر شيركوه أن صار وزيراً للخليفة الفاطمي العاضد، ثم خلفه في الوزارة بعد وفاته ابن أخيه صلاح الدين[2].

وقام صلاح الدين بإلغاء الخلافة الفاطمية، وبموت الخليفة العاضد آخر خلفاء الفاطميين أصبح هو الحاكم الوحيد الفعلي في مصر، وما لبث صلاح الدين

---

(١) أبو الفدا: المختصر في أخبار البشر، ١/ ١٢٧، القاهرة ١٣٢٥هـ.

(٢) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، ١/ ١٠ القاهرة ١٩٥٣ - ١٩٦٠.

أن فكر في الاستقلال بحكم مصر، ونجح في ذلك وأقام بها الدولة الأيوبية التي استمرت تحكم مصر لمدة إحدى وثمانين عاماً، وكانت نهايتها على يد أمراء المماليك سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م.

الصراع الإسلامي الصليبي:

كانت الدولة الأيوبية دولة عسكرية قامت في ظروف تعرض فيها العالم الإسلامي لخطر شديد وهو خطر الحروب الصليبية، ذلك لأن العالم الإسلامي عامة وبلاد الشام خاصة تعرضت في النصف الثاني من القرن السادس الهجري/ الثاني عشر الميلادي لخطر عدوان شنه مسيحيو غرب أوربا على بلاد الشرق الإسلامي، وألبسوا هذا العدوان ثياب التقديس.

نادى زعماء هذا العدوان بتخليص بيت المقدس من يد المسلمين، واتخذوا الصليب شعاراً لهم حتى يخفوا وراءه أطماعهم العدوانية في هذه البلاد الغنية.

وكانت هذه الحروب الصليبية قد تقررت في مجمع كليرمونت سنة ٤٩٠هـ/ ١٠٩٦م الذي ترأسه البابا «أربان الثاني» بحضور أمراء أوروبا وعدد من رجال الدين ومندوبين عن الإمبراطور البيزنطي وممثلين عن المدن التجارية الإيطالية واستطاع البابا في هذا الاجتماع أن يثير حماسة الجميع ويحثهم على السير إلى بلاد الشام وحددوا عام ٤٩٢هـ/ ١٠٩٨م موعداً لبدء حربهم الصليبية.

ونجح الصليبيون في الفترة ما بين ٤٩٢- ٤٩٤هـ/ ١٠٩٨- ١١٠٠م مستغلين فرقة العالم الإسلامي في إقامة أربع إمارات صليبية لهم في بلاد

الشام هي: أنطاكية والرها وطرابلس وبيت المقدس(١).

كان لنجاح الغزو الصليبي لبلاد العالم الإسلامي وقع أليم في نفوس المسلمين وكان سقوط بيت المقدس في يد الصلبيين أهم دوافع الجهاد الديني، وأهم عوامل اليقظة لاسترداد الأماكن المقدسة واستخلاصها من يد الصليبيين.

وكانت أكبر دولتين إسلاميتين في ذلك الوقت هما: الدولة العباسية والدولة الفاطمية قد وقفتا عاجزتين أمام هذا الغزو، وجاءت النجدة وكان الخلاص على يد السلاجقة ومن بعدهم سلاطين الأيوبيين.

كان عماد الدين زنكي حاكم حلب والموصل، أول هؤلاء للزعماء السلاجقة الذين تصدوا للعدوان الصليبي، ونجح بضمه حمص وبعلبك إلى دولته أن يكون جيشاً استطاع بواسطته أن يهزم أول وأقوى إمارات الصليبيين ويستولي عليها وهي إمارة الرها.

وأصبح بعد ذلك من أكبر الأخطار التي باتت تهدد أحلام الصليبيين في بلاد الشرق الإسلامي حتى وفاته سنة ٥٤١هـ/ ١١٤٦م.

وورّث زنكي الجهاد ضد الصليبيين لابنه نور الدين محمود الذي ضم لمتلكاته مدينة دمشق سنة ٥٤٩هـ/ ١١٥٤م واتخذها عاصمة لدولته ومركزاً لمهجامة معاقل الصليبيين في الشام.

وتطلع نور الدين للاستيلاء على مصر، بعد أن أدرك ضعف الحكم الفاطمي فيها لكي يكوّن دولة قوية تجمع مصر والشام وتطبق على الصليبيين

---

(١) قاسم عبده قاسم، وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك التاريخ السياسي والعسكري، ص ٩، عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية الطبعة الثانية القاهرة ١٩٩٦.

من الشمال ومن الجنوب، وخاصة حين تأكد لـه رغبـة الصـليبيين في فـتح مصر واستهدافها بأطماعهم.

وكان الملك «جودفري دي بوايون» أول ملوك الصليبيين في بيت المقـدس قد أعد مشروعاً للاستيلاء على مصر، لكنه مات سنة ٤٩٤هـ/ ١١٠٠م قبل أن يبدأ في تنفيذ مشروعه.

وبعد وفاة جودفري حاول أخوه الملك بلدوين الأول- الذي حل في إمارة بيت المقدس بعـده- أن ينفـذ مشروع أخيـه، فقـام في سـنة ٥١٠هــ/ ١١١٦م بحملة استطلاعية وصل بها حتـى مدينـة تنـيس عـلى شـاطئ بحـيرة المنــزلة، لكن المرض فاجأه هنـاك وعـاد إلى بـلاده ومـات وهـو في طريـق عودتـه سـنة ٥١٢هـ/ ١١١٨م[1].

وتكررت محاولات الصليبيين للاستيلاء على مصر، لكـن الأمـر- كـما رأينا- حسم لصالح نـور الـدين الـذي نجـح في فـتح مصر وإبعـاد الخطـر الصليبي عنها والقضاء على الحكم الفاطمي فيها.

صلاح الدين يوطد سلطانه في مصر ويوحد الجبهة الإسلامية:

واجه صلاح الدين المصاعب والمؤامرات بعد إلغائه الخلافة الفاطمية مـن مصر ومـــن هـــذه المـــؤامرات: مـــؤامرة مـــؤتمن الخلافـــة جـــوهر ســـنة ٥٦٧هـ/ ١١٧١م، وثورة السودان سنة ٥٦٨هـ/ ١١٧٢م، وثورة عمارة اليمني سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م، وثورة بني الكنــز سـنة ٥٧٠هــ/ ١١٧٤م. واسـتطاع

(١) قاسم عبده قاسم، وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك التـاريخ السـياسي والعسـكري، ص ١٠- ١١.

صلاح الدين أن يتغلب على كل هذه المؤامرات وأن يتخلص من مدبريها، الأمر الذي أدى إلى تثبيت مركزه في مصر وقوى رغبته في الاستقلال بها عن السلطان نور الدين محمود[١].

أحس السلطان نور الدين محمود برغبة صلاح الدين في الاستقلال بمصر حين أرسل صلاح الدين رسولاً من طرفه إلى الخليفة العباسي يحمل البشارة بإلغاء الخلافة الفاطمية دون أخذ الإذن في ذلك من سيده نور الدين.

كذلك حين أمره نور الدين بملاقاته عند حصن الكرك لمقابلة الصليبيين بجيشهما معاً ولكنه لم يمتثل لمطلب نور الدين خوفاً من الغدر به والقبض عليه هناك.

وعندما ازدادت شكوك نور الدين في تصرفات صلاح الدين صمم على أن يخرج بجيشه إلى مصر لإزاحة صلاح الدين عنها، وأرسل نور الدين سنة ٥٦٩هـ/ ١١٧٣م موظفاً من عنده ليحاسب صلاح الدين، وأن يقدم له كشف حساب عن إيرادات مصر ومصروفاتها.

كادت الخلافات تؤدي إلى الحرب بين العاهلين الكبيرين لولا فاجأ الموت نور الدين بغتة سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م فأنقذه من خطر مؤكد هدد وجوده في مصر[٢].

---

(١) سعيد عبد الفتاح عاشور: الناصر صلاح الدين، ص٥- ٧ سلسلة أعلام العرب، عدد (٤١) القاهرة ١٩٦٥م.

(٢) أبو شامة: الروضتين في أخبار الدولتين النورية والإصلاحية، ١/ ٢٢٧- ٢٢٨، القاهرة ١٢٨٧هـ.

ويموت نور الدين زالت أهم العقبات من طريق صلاح الدين في سبيل تحقيق حلمه في تكوين دولة له في مصر، وإقامة الجبهة الإسلامية المتحدة لجهاد الصليبيين الذي نذر نفسه له.

ومن أجل وحدة الصف الإسلامي كان لزاماً على صلاح الدين حكم الشام والاستيلاء على ممتلكات نور الدين في الشام بعد أن آلت لابنه الطفل إسماعيل، فخرج صلاح الدين بجيشه لفتح الشام سنة ٥٧٠هـ/ ١١٧٤م فدخلها بعد أن حارب القوات التي اعترضت طريقه وتسلم قلعة دمشق، ثم استولى على حمص وحماة وبعلبك.

وصفيت له كل بلاد الشام بعد معركة «قرون حماة» التي انتصر فيها سنة ٥٧١هـ/ ١١٧٥م على عساكر الموصل وحلب، ومعركة (تل السلطان) سنة ٥٧٢هـ/ ١١٧٦م التي حسم فيها هذا النصر لصالحه[1].

صلاح الدين والصليبيون:

كان صلاح الدين قد عقد هدنة مع بلدوين الرابع ملك بيت المقدس سنة ٥٧٤هـ/ ١١٧٨م. ومن أهم الشروط التي تمسك بها صلاح الدين حرية التجارة بين مصر والشام. وكان هذا الطريق قد تعرض للأخطار بسبب القتال بين المسلمين والصليبيين، كذلك ازدادت الأخطار فيه بسبب تولي أرناط (رينو دى شاتيو) إمارة الكرك (الواقعة في بلاد الأردن) في منتصف هذا الطريق.

قام أرناط بانتهاك هذه الهدنة وفرض الإتاوة على القوافل التي تجتاز الكرك

(١) هاملتون جب: صلاح الدين الأيوبي، دراسات في التاريخ الإسلامي، ص ١٢٢-١٢٣، بيروت ١٩٧٣.

سنة ٥٧٥هـ/ ١١٧٩م، فتوترت لذلك العلاقات بين المسلمين والصليبيين، وحاول أرناط مهاجمة مكة والمدينة وشرع فعلاً في تنفيذ ذلك في هذا العام نفسه، وعاود المحاولة في العام التالي ولم تفلح محاولته، وبعد ذلك أعد حملة بحرية في البحر الأحمر (٥٧٧هـ/ ١١٨١م) لضرب تجارة مصر في هذا البحر كان مصيرها الفشل، واستمر الاتجار من خلال البحر الأحمر الأمر الذي أدى بصلاح الدين إلى أن يصمم على القضاء على أرناط وإمارته، فتوجه صلاح الدين في هذا العام نفسه إلى قلعة الكرك وحاصرها وضربها بالمنجنيق، غير أن صلاح الدين ما لبث أن رفع الحصار عنها[1].

معركة حطين ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م:

استخدم صلاح الدين السياسة في عزل الصليبيين في الشام، فسهل لتجار المدن الإيطالية القدوم للاتجار في مصر بحرية، وصادق في الوقت نفسه الإمبراطور البيزنطي «الكسيوس الثاني» وعقد معاهدة صداقة معه.

ولم تنته سنة ٥٨٠هـ/ ١١٨٤م حتى أصبح صلاح الدين مستعداً لتحقيق غرضه ولم يبق إلا أن تسنح الفرصة لمهاجمة الصليبيين، وكان صلاح الدين قد عقد معاهدة أخرى مع ملك بيت المقدس سنة ٥٨١هـ/ ١١٨٥م وكان ملتزماً بها محترماً لشروطها.

وجاءت فرصة صلاح الدين حين نقض أرناط هذه المعاهدة وكان شريكاً فيها وتعرض لقافلة إسلامية متوجهة من القاهرة إلى دمشق وكان بها والدة

(١) ابن واصل: مفرج الكروب في أخبار بني أيوب ٢/ ١٩٤، تحقيق جمال الشيال، القاهرة ١٩٥٣- ١٩٥٧م.

السلطان صلاح الدين، فأرسل صلاح الدين إلى أرناط يطلب إليه رد ما استولى عليه من المسلمين وإطلاق سراح الأسرى، فامتنع وأصر على عصيانه، فنذر السلطان أن يقتله بيده إذا وقع في قبضته جزاءاً لما قدمت يداه، فنقضت بذلك الهدنة القائمة بين صلاح الدين وملك بيت المقدس(١).

فأعلن صلاح الدين الجهاد الديني وأرسل إلى سائر الأطراف يطلب العساكر فجاءته من كل ناحية، وخرج من دمشق في المحرم من سنة ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م فسار بقواته متجهاً إلى الكرك وضرب أعمالها، ثم فعل الشيء نفسه مع بلدة الشوبك، ثم عاد بعد ذلك بقواته إلى الشام.

أما عساكر دمشق وحلب والجزيرة والموصل فاجتمعت في رأس الماء وأغارت على طبرية ووقع الصدام بين المسلمين والصليبيين عند صفورية في العام نفسه، وكانت النتيجة نصراً ساحقاً لقوات المسلمين(٢).

وتعتبر معركة صفورية مقدمة فتوح صلاح الدين، وعقب هذه المعركة توجه صلاح الدين بقواته إلى فلسطين، وتهيأ للمعركة الفاصلة مع الصليبيين عند حطين.

أما الموقف الصليبي فيتمثل في وقوع الخلاف بين قادة الصليبيين، وأثناء تفشي هذا الخلاف بينهم فوجئوا بقوات صلاح الدين تتحفز لقتالهم فما كان بإمكانهم إلا أن يواجهوا هذا الخطر المتحفز، واجتمعت قوات الصليبيين عند عين صفورية على هضبة مرتفعة وكان عددها يصل إلى عشرين ألفاً، وكان

---

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ ١٠/ ٣٢٤.

(٢) أبو شامة: الروضتين ٢/ ٧٦.

العدد بذلك مساوياً لجيش صلاح الدين في العدد والعتاد الحربي. وكانت خطة الصليبيين أن يتجنبوا الاشتراك مع المسلمين في معركة فاصلة يحدوهم الأمل في تفرق جيش صلاح الدين والإفادة من الحرارة الشديدة في بلاد الجليل الجبلية، إذ كان الوقت صيفاً شديد الحرارة.

لكن الصليبيين تراجعوا عن هذه الخطة على أمل احتمال النصر على صلاح الدين إذا دخلوا في معركة حاسمة معه خاصة وأن جيشهم مساو لجيشه في العتاد والعدد وعلى هذا كان النصر متوقعاً للجيش الذي يستطيع أن يدفع الجيش الآخر للمبادرة بالقتال في ظروف غير ملائمة(١).

وهكذا عزم الصليبيون على اتخاذ موقف الدفاع مستغلين في ذلك الموقع الممتاز الذي تحتله قواتهم، غير أن الخطة لم تتحقق بسبب دهاء صلاح الدين العسكري واستخدامه الخديعة في هزيمة الصليبيين.

عبر صلاح الدين نهر الأردن جنوبي طبرية، وعمل على اجتذاب الصليبيين للخروج من موضعهم، ولهذا أرسل طائفة من جنده إلى «كفر سبت» على الحافة الجنوبية للهضبة وقاموا بالإغارة على هذه المنطقة ليثيروا الصليبيين، ولكن الصليبيين لم يتحركوا، عندئذ عزم صلاح الدين على أن يهاجم طبرية، وكان هذا الهجوم نقطة التحول في المعركة.

وأثار الهجوم على طبرية «ريموند» كونت طرابلس لوجود زوجته بها، ونجحت الخطة في استدراج الجيش الصليبي فترك مواقعه الحصينة في الهضبة

---

(١) ابن شداد: النوادر السلطانية والمحاسن اليوسفية، ص١٢٠- ١٢١ طبع مطبعة الآداب والمؤيد بمصر ١٣١٧هـ.

ونزل إلى وادي حطين في طريق طبرية، فأحاطت بـه جيـوش المسـلمين في هـذا الوادي من كل ناحية ومنعت عنه الماء، وانسحب جيش صلاح الدين من طبرية واعتلى جيشه تلال حطين.

وبدأت معركة حطين وجيوش الصـليبيين محصـورة بـين حـر الجـو وحـر الظمأ وحر القتال، وكانت هزيمتهم ساحقة في هذه المعركة، فقتل مـنهم العـدد الكبير، كذلك أسرت منهم أعداد هائلة كان في مقدمتها "جى لوزيجنان" ملـك بيت المقدس وأرناط. وأطلق صلاح الدين سراح ملك بيت المقدس لكنـه قتـل أرناط وفاء لنذره[1].

استرداد بيت المقدس:

توجه صلاح الدين بعد معركة حطين إلى طبريـة وراسـل زوجـة ريمونـد فأجابت بالتسليم، فأمنها صلاح الدين ومـن معهـا، فسـلمت الحصـن بـما فيـه وخرجت ومعها أموالها إلى طرابلس بلد زوجها.

وأصبح طريق القوات الإسلامية بعـد حطـين مفتوحـاً أمـامهم وخاصـة الطريق إلى بيت المقدس وإمارتي طرابلس وإنطاكية، وقام صـلاح الـدين بفـتح عكـا والنـاصرة وقيسـارية وحيفـا وصـفورية والشـقيف وغيرهـا مـن للـبلاد المجاورة، ثم استولى كذلك على نابلس وصيدا وبيروت وجبيل والرملـة وبيـت لحم والخليل وعسقلان، وأضحت جميع إمارة طرابلس فـيها عـدا صـور في يـد صلاح الدين[2].

(١) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص٤٦ - ٤٧. القاهرة ١٣٢٢هـ.
(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ١٢٩.

وحاصر صلاح الدين بعد ذلك مدينة صور، وكان قد اجتمع بها عدد كبير من الصليبيين ولكنه رفع الحصار عنها بعد أسبوع بسبب مناعتها وقوة تحصينها، ولقد تعرض صلاح الدين للنقد؛ لأنه أجاز للصليبيين أن يجتمعوا في صور وما ترتب على ذلك من نتائج خطيرة، إذ أصبحت صور القاعدة التي اتخذها الصليبيون للمحافظة على ما تبقى لهم من أملاك في الشام، ومنها صاروا يوجهون حملاتهم لاسترداد ما استولى عليه صلاح الدين من بلاد.

ولما فرغ صلاح الدين من الاستيلاء على عسقلان وعلى ما حولها من الجهات توجه إلى بيت المقدس، وكان قد اجتمع بها عدد كبير من الصليبيين الذين نجوا من معركة حطين وحشدوا قواتهم بها وعزموا على الدفاع عنها لما لها من قدسية عندهم.

ونزل صلاح الدين على بيت المقدس في نفس العام ٥٨٣هـ/ ١١٨٧م وحاصرها وما لبث أن طلب أهلها الأمان والتسليم بعد أن رأوا قوة جيش المسلمين و كثافة عدده وقوة تسليحه، وتسلم صلاح الدين المدينة بعد شهر من حصارها يوم الجمعة ١٧ رجب وعادت بذلك المدينة المقدسة ليد المسلمين بعد أن ظلت في يد الصليبيين قرابة التسعين عاماً[١].

مقارنة بين أسلوب الصليبيين وصلاح الدين عند دخول بيت المقدس:

حين وصل الصليبيون في الحملة الثانية إلى «معرة النعمان»، حاصروها حتى اضطر أهلها للاستسلام بعد أن أخذوا من رؤساء الحملة عهوداً مؤكدة

(١) ابن الأثير: الكامل في التاريخ، ١١/ ٥٥٢- ٥٥٣.

بالمحافظة على الأنفس والأموال والأعراض، فما كادوا أن يدخلوها حتى ارتكبوا من الفظائع ما تشيب لهوله الولدان، وقدر بعض المؤرخين الإفرنج الذين كانوا في الحملة عدد الذين قتلوهم بين الرجال والنساء والأطفال بمائة ألف! ثم تابعوا سيرهم إلى بيت المقدس وشددوا الحصار على أهلها، ورأى أهلها أنهم مغلوبون لا محالة فطلبوا من قائد الحملة (طنكرد) الأمان على أنفسهم وأموالهم، فأعطاهم رايته يرفعونها على المسجد الأقصى ويلجأون إليه آمنين على كل شيء، ودخلوا المدينة بعد ذلك، فيالهول المجزرة ويالقسوة الإجرام!.. لجأ سكان القدس إلى الأقصى الذي رفعوا فوقه راية الأمان، حتى إذا امتلأ بما فيه من شيوخ وأطفال ونساء ذُبحوا ذبح النعاج، فسالت الدماء في المعبد حتى ارتفعت إلى ركبة الفارس، ودمرت المدينة بذبح كل من فيها تماماً، حيث كانت شوارعها تعج بالجماجم المحطمة والأذرع والأرجل المقطعة والأجسام المشوهة.

ويذكر مؤرخونا أن عدد الذين ذبحوا في داخل المسجد الأقصى فقط سبعين ألفاً منهم جماعة كبيرة من الأئمة والعباد والزهاد فضلاً عن النساء والأطفال، ولا ينكر مؤرخوا الفرنج هذه الفظائع، وكثير منهم يتحدثون عنها فخورين!

وبعد تسعين سنة من هذه المجزرة فتح صلاح الدين بيت المقدس فماذا فعل؟

لقد كان فيها ما يزيد على مائة ألف غربي بذل لهم الأمان على أنفسهم وأموالهم وسمح لهم بالخروج لقاء مبلغ قليل يدفعه المقتدرون منهم، وأعطاهم

مهلة للخروج أربعين يوماً، فجلى منها أربعة وثمانون ألفاً لحقوا بإخوانهم في عكا وغيرها، ثم أطلق كثيراً من الفقراء من غير فدية، وأدى أخوه الملك العادل الفدية عن ألفي رجل منهم وعامل النساء معاملة لا تصدر عن أرقى ملك منتصر في العصر الحديث.

ولما أراد البطريرك الإفرنجي أن يخرج، سمح له بالخروج ومعه من أموال البيع والصخرة والأقصى والقيامة ما لا يعلمه إلا الله، واقترح بعض حاشية صلاح الدين عليه أن يأخذ ذلك المال العظيم، فأجابه السلطان: «لا أغدر به» ولم يأخذ منه إلا ما كان يأخذه من كل فرد. ومما يزيد في روعة هذا العمل الإنساني الذي عمله صلاح الدين في فتح بيت المقدس، أنه أرسل مع جماهير الغربيين الذين نزحوا من القدس لينضموا إلى إخوانهم من يحميهم ويوصلهم إلى أماكن الصليبيين في صور وصيدا بأمان، مع أنه لا يزال في حرب معهم! فهل تستطيعون أن تضبطوا أعصابكم حين تسمعون مثل هذا؟ واسمعوا بقية القصة... اجتمع كثير من النساء اللواتي دفعن الجزية وذهبن إلى السلطان يتوسلن إليه قائلات أنهن إما زوجات أو أمهات أو بنات لبعض من أُسر أو قُتل من الفرسان والجنود ولا عائل لهن ولا مأوى، ورآهن يبكين فبكى معهن تأثراً وشفقة، وأمر بالبحث عن الأسرى من رجالهن، وأطلق الذين وجدهم وردهم إلى نسائهم، أما اللواتي مات أولياؤهن فقد منحهن مالاً كثيراً جعلهم يلهجن عليه بالثناء أينما سرن. ثم سمح لهؤلاء الذين أعتقهم أن يتوجهوا مع نسائهم وأولادهم إلى سائر إخوانهم اللاجئين في صور وعكا.. فعل هذا بينما قصد بعض الفقراء الغربيين الذين تركوا القدس بعد فتحها إلى إنطاكية، فأبى أميرها

الصليبي أن يقبلهم، فهاموا على وجوههم حتى آواهم المسلمون، وذهب فريق منهم إلى طرابلس- وهي تحت حكم اللاتين- فطردوهم وأبوا قبولهم وسرقوا أمتعتهم التي منحهم إياها المسلمون.

إن قصة صلاح الدين مع الغربيين في الحروب الصليبية تشبه الأساطير، ولولا أن الغربيين أنفسهم لا ينتهي عجبهم من نبل هذا البطل الخالد وسمو أخلاقه، لكان هنالك مجال لاتهام مؤرخينا بالمبالغة، والغربيون أنفسهم هم الذين يذكرون عن صلاح الدين أنه بلغه مرض ريتشارد قلب الأسد- أكبر قواد الحملات الصليبية وأشجعهم- فأرسل إليه صلاح الدين طبيبه الخاص يحمل إليه العلاج والفواكه التي لا يمكن أن يحصل عليها ذلك القائد الصليبي، هذا والحرب بينهما مستعرة، وجيوشهما في صراع وهم الذين يذكرون أن امرأة غربية ألقت بنفسها على خيمة السلطان صلاح الدين تبكي وتولول وتشكي إليه أن اثنين من جنود جيشه خطفا ولدها، فبكى صلاح الدين وأرسل من يفتش عن الولد حتى وجدوه وسُلم إليها، وأرسلت بحراسة إلى معسكرها آمنة مطمئنة، فماذا يقول قائل بعد هذا؟[١]

الحملة الصليبية الثالثة:

بعد أن فتح صلاح الدين بيت المقدس أطلق سراح الملك «جي لوزيجنان»، فانتقل إلى صور حيث اتفق هنالك مع «كونراد مونتفرات» حاكمها على حشد القوات لاسترداد البلاد التي استولى عليها صلاح الدين، وقام الملك «جي»

(١) مصطفى السباعي: من روائع حضارتنا، ص ١٠٦- ١٠٩، المطبعة الهاشمية، دمشق، ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م.

بإرسال البعوث إلى غرب أوربا يستنجد بالمسيحيين و يحثهم على استرجاع بيت المقدس، واستطاع بذلك أن يؤلب المسيحيين فحشدوا القوات لحرب المسلمين، وخرجت هذه القوات من بلادها متوجهة إلى عكا وقامت بحصارها وأحكموا هذا الحصار حولها.

حاول صلاح الدين أن يستخلص عكا من يد الصليبيين ولكنه لم يستطع ذلك ولما رأى خطورة الموقف أمر بتدمير استحكامات طبرية ويافا وأرسوف وصيدا حتى لا تقع في يد الصليبيين.

ثم قدم «فيليب أغسطس» ملك فرنسا و «ريتشارد قلب الأسد» ملك إنجلترا بقواتهما إلى بلاد الشام وازداد بقدوم هذه القوات خطر الصليبيين حول عكا، ونجح الصليبيون في الاستيلاء على عكا وسقطت في أيديهم سنة ٥٨٧ هـ/ ١١٩١م.

حدث انقسام بين الصليبيين في الرأي ووقع النزاع بين البيازنة والجنوبيين وتنازع جي لوزيجنان ومنتفرات على عرش مملكة بيت المقدس، وفشل ريتشارد في الصلح بينهما، فقرر عقد الصلح مع صلاح الدين، وجرت المفاوضات بين الجانبين بشأن الصلح (صلح الرملة)، وفي ٥٨٩ هـ/ ٢٠ مارس ١١٩٣م استقر الرأي على الشروط الآتية للصلح وهي:

١- أن يحتفظ الصليبيون بمنطقة الساحل من عكا شمالاً حتى يافا جنوباً.

٢- أن يسمح للصليبيين بزيارة بيت المقدس.

٣- أن تكون عسقلان وما يليها من أملاك صلاح الدين الأيوبي[1].

---

(١) أبو شامة: الروضتين ٢/ ١٥٤- ١٥٦.

وهكذا ولدت مملكة بيت المقدس اللاتينية الثانية كقطاع ضيق من الأرض يلتصق بالساحل ويمتد من بيروت حتى يافا. أما القدس - هدف الحملة الصليبية الثالثة - فقد ظلت مدينة إسلامية، وبدأ ريتشارد يعد العدة للعودة إلى بلاده واكتشف أن جميع الطرق كان يسدها أعداؤه الأوروبيون، وعندما حاول الرجوع عن طريق ألمانيا قبض عليه وأودع السجن رهن فدية طلبها هنري السادس ملك ألمانيا(١).

لقد كان حصاد الحملة الصليبية الثالثة هزيلاً بالقدر الذي خيب آمال الصليبيين المقيمين في الشرق العربي جميعاً، وسرعان ما تحولت الآمال الكبار التي عقدت على هذه الحملة إلى يأس واتهامات حادة للزعماء الصليبيين، ذلك أن الفترة التي قضاها الأوربيون في الإعداد لهذه الحملة - ولمدة عامين - لم تكن لتقارن بالإنجازات الهزيلة التي حققتها الحملة.

وعلى الجانب الإسلامي بقي صلاح الدين في القدس شهوراً قليلة اتجه بعدها صوب الشمال، وعاد إلى دمشق حيث وافته المنية في السابع والعشرين من صفر ٥٨٩ هـ/ ٤ مارس ١١٩٣م، وبموته انتهت مرحلة وبدأت مرحلة جديدة ضد الكيان الصليبي(٢).

لقد أحدثت وفاة صلاح الدين الأيوبي فراغاً سياسياً كبيراً في المنطقة، فقد أدت وفاة هذا القائد إلى تفسخ دولته في الحال، إذ كانت شخصيته ومواهبه وممارسته السياسية والعسكرية هي التي تحفظ الدولة من التفكك، ولم يكن

---

(١) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص ١٩٢ ترجمة قاسم عبده قاسم، دار المعارف، القاهرة ١٩٨١.

(٢) ابن شداد: النوادر السلطانية، ص ٢٠٠.

هناك مبدأ ثابت ينجم عنه استقرار أو تناسق داخلي يشد أركان هذه الدولة الشاسعة إلى بعضها وسرعان ما جرى على هذه الدولة ما جرى على إمبراطوريات كثيرة غيرها في العصور الوسطى؛ إذ قسم صلاح الدين دولته الشاسعة بين أبنائه وإخوته وبني عمومته وأبنائهم، وكان نتاج هذا التقسيم مريراً، تمثل في عدد من المشاحنات والمنازعات والحروب الداخلية، وعادت المنطقة العربية تعاني من جديد مرارة النزاع والتشرذم السياسي، ويبقى أن نستعرض عصر خلفاء صلاح الدين.

العزيز عماد الدين عثمان بن صلاح الدين (٥٨٩- ٥٩٥هـ/١١٩٣-١١٩٨م):

يوم أن مات صلاح الدين كان ابنه العزيز عثمان ينوب عنه في مصر فبايعه قواد عسكر أبيه، كذلك بايعه قواد عسكر أخيه الأكبر الملك الأفضل.

وثار الأخ الأكبر على أخيه العزيز محتجاً على توليه السلطة، وكان يلي أمر الشام فسار إليه العزيز بجيشه وحصره بدمشق، واستغل الملك العادل أخو صلاح الدين العداء الذي وقع بين الأخوين لصالحه وشجع العزيز على قتال أخيه حتى يصفو له الأمر بعد وفاة العزيز، وخرج العزيز لقتال الأفضل مرة ثانية في بلاد الشام وترك عمه العادل ينوب عنه في حكم مصر، لكن العادل حاول أن يجمع السلطة في يده حتى خاف العزيز منه أن يعزله عن السلطة ويستأثر بها دونه، فعاد إلى مصر مسرعاً دون أن يحسم الأمر مع أخيه الأفضل، وجرى الصلح بين الأخوين على أن يعود الأفضل إلى مملكته بدمشق، وأقام العادل مع العزيز بمصر وتولى تدبير أمور الدولة.

وخرج العادل مع العزيز ثانية لمحاربة الأفضل فحاصراه في دمشق وأخذاها منه بعد حروب وقع بعدها الأفضل في الأسر، فنفاه أخوه إلى صرخد، وعاد العزيز إلى مصر، وأقام العادل بدمشق نائباً عنه فيها، ثم توفى العزيز في ٢٠ من المحرم سنة ٥٩٥ هـ/ ١١٩٨م عن سبع وعشرين سنة بعد حكم دام ست سنين بعد أبيه[١]، وكان موته بسبب وقوعه من على فرسه أثناء قيامه بالصيد.

الملك المنصور ناصر الدين محمد (٥٩٥- ٥٩٦هـ/١١٩٨-١١٩٩م):

تولى الحكم وهو طفل صغير يبلغ من العمر عشر سنين، فقام بالوصاية عليه الأتابك بهاء الدين قراقوش فاختلف عليه أمراء الدولة وكاتبوا عمه الملك الأفضل، فقدم من صرخد واستولى على الأمور، وحجر على المنصور حتى أنه لم يبق له من الحكم إلا الاسم.

وحاول الأفضل أن يأخذ دمشق من الملك العادل، لكن العادل هزم قواته عند بلبيس سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م، فطلب الأفضل الصلح من العادل، فعوضه العادل صرخد، و دخل العادل القاهرة وقام بأتابكية المنصور، ثم خلعه عن السلطنة في ١١ شوال سنة ٥٩٦هـ/ ١١٩٩م، بعد أن حكم سنة وثمانية أشهر[٢].

الملك العادل سيف الدين أبو بكر (٥٩٦- ٦١٥هـ/١١٩٩-١٢١٨م):

صار العادل سلطاناً على مصر، وخطب له بديار مصر وبلاد الشام وحران والرها، وقام بإخراج المنصور وإخوته من القاهرة إلى الرها، واستناب ابنه الملك

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب، ٢/ ١٧٨- ١٧٩.

(٢) عماد الدين الكاتب: الفتح القسي في الفتح القدسي، ص ٣٦٤.

الكامل محمد عنه، وعهد إليه بعده بالسلطنة، وأقسم له الأمراء يمين البيعة.

وفي أيامه توقفت زيادة النيل مدة ثلاث سنوات (٥٩٧-٦٠٠هـ/ ١٢٠٠-١٢٠٣م) فأصيبت الأرض بالتحاريق، وتعذر وجود الأقوات، وغلت الأسعار غلواً شديداً[١].

السلطان الملك الكامل محمود بن العادل (٦١٥- ٦٣٥هـ/١٢١٨-١٢٣٧م):

كان أول عمل قام به الملك الكامل هو تخليص مصر من خطر الحملة الصليبية الخامسة، ومحاربة الجنود الصليبيين الذين نزلوا بدمياط وتحريرها منهم، وقد أقام الكامل جسراً على النيل شمالي دمياط شن الهجوم عليهم منه، ثم توقف القتال وعقدت هدنة بين المتقاتلين، وعاد القتال ثانية وانتصر المسلمون في المكان الذي عرف فيما بعد بمدينة المنصورة، وأغرقتهم مياه الفيضان، وطلب الصليبيون الصلح في مقابل الجلاء عن دمياط، وتم ذلك سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م[٢].

كانت الحملة الصليبية الخامسة منعطفاً جديداً في التاريخ الصليبي، إذ أن أهم ما كان يميزها أن هدفها كان مصر، فقد سيطرت على الغرب الأوربي الفكرة القائلة بأنه ما دامت مصر باقية على ما هي عليه من القوة والبأس فإن المشاريع الصليبية في الشام فاشلة لا محالة، و لا بد من حرمان الجبهة الإسلامية من تلك القاعدة الهامة.

---

(١) هاملتون جيب: صلاح الدين الأيوبي، ص ٢٠٥.

(٢) المقريزي: السلوك ١/ ١٩٥-١٩٧.

وإلى جانب هذا كان هدف الحملة الخامسة هو استرداد شرف وهيبة الصليبيين الذين تمرغت في تراب حطين[1].

وفي وسط أوحال الدلتا تخلى الصليبيون عن أحلامهم ثمناً لحريتهم، وفي اليوم الثامن من سبتمبر سنة ٦١٨ هـ/ ١٢٢١م خرج الصليبيون من دمياط ودخلتها القوات المصرية الأيوبية عصر اليوم نفسه.

ولقد وقع النزاع على اقتسام البلاد بعد جلاء الصليبيين عن دمياط، بين الملك الكامل وأخويه المعظم عيسى صاحب دمشق، والأشرف موسى صاحب الجزيرة وخلاط، وقد أدى هذا النزاع إلى الحرب بين الأخوة الثلاثة في الوقت الذي كانت فيه الدولة الأيوبية في أمس الحاجة للوحدة والاتحاد والوقوف أمام خطر الخوارزميين.

وكان الخوارزميون قد تطلعوا إلى امتلاك بلاد ما وراء النهر وما يليها بعد أن دمر جنكيز خان كبير المغول دولتهم سنة ٦١٨هـ/ ١٢٢١م[2].

اضطر الملك الكامل للاستغاثة بالصليبيين- ماضياً في درب الخيانة- ليساعدوه ضد أخيه المعظم عيسى الذي استنجد بالخوارزميين في حربه ضد أخيه الملك الكامل، فأرسل الملك الكامل إلى الإمبراطور فردريك الثاني إمبراطور الدولة البيزنطية وطلب منه أن يساعده في الحرب ضد أخيه ومعاونيه على أن يعطيه بيت المقدس وجميع ما فتح صلاح الدين من بلدان بالساحل

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٥/ ٩٥.
(٢) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٢/ ٩٥٢.

السوري[1]. وهو سلوك يمثل قمة العار والخيانة!!

وكان البابا «جريجوري» التاسع قد طلب من الإمبراطور فردريك القيام بحملة صليبية ضد بلاد الإسلام، لكن الإمبراطور ظل يماطل حتى أصدر البابا ضده قرار الحرمان من غفران الكنيسة سنة ٦٢٤هـ/ ١٢٢٦م[2].

فأعد فردريك جيشاً قوامه خمسمائة جندي قدم به إلى الشام في الحملة التي عرفت بالحملة الصليبية السادسة بقصد مساعدة الملك الكامل وحصوله على بيت المقدس حسب اتفاقه معه.

وعُقد اتفاق (يافا) بين الملك الكامل والإمبراطور فردريك سنة ٦٢٦هـ/ ١٢٢٨م الذي تقرر فيه المصالحة بين المسلمين والصليبيين لمدة عشر سنوات على أن يأخذ الصليبيون بيت المقدس وبيت لحم والناصرة (وهي الأماكن المقدسة عند الصليبيين) على ألا يُحدث الصليبيون أي تغيير في بيت المقدس، وأن يكون الحرم بصخرته ومسجده الأقصى بيد المسلمين، وأن يقيم المسلمون فيه شعائرهم.

واستولى فردريك على بيت المقدس ٦٢٧هـ/ ١٢٢٩م وتوج إمبراطوراً في كنيسة القيامة، ومكث بالمدينة يومين عاد بعدها إلى عكا.

هذا وقد سخط الناس على الملك الكامل بسبب تنازله عن بيت المقدس للصليبيين دون قتال، وأثار هذا الحدث أسى المسلمين في كافة بلاد العالم الإسلامي، ولا شك أنه فاز بنصيب كبير من سخط المسلمين وسبهم له.

---

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٢٢١.

(٢) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص ٨٥.

وتوفي الملك الكامل - غير مأسوف عليه - بدمشق ١١ رجب سنة ٦٣٥هـ/ ١٢٣٧م بعد أن حكم عشرين عاماً كلوحاً عجافاً، وأقيم بعده ابنه السلطان الملك العادل (الثاني) سيف الدين أبو بكر[١].

السلطان العادل (الثاني) سيف الدين أبو بكر (٦٣٥- ٦٣٦هـ/١٢٣٧-١٢٣٨م):

لم يكن عمر هذا السلطان حين تولى حكم مصر يتجاوز الثانية عشرة من العمر وكان أخوه الأكبر نجم الدين أيوب أحق منه بالسلطنة، إلا أن القواد بايعوا العادل؛ لأنه كان نائب أبيه على مصر حين توفي في دمشق، في الوقت الذي كان فيه نجم الدين نائباً لأبيه على الشرق وإقليم ديار بكر، على أن يظل نجم الدين على ما هو عليه من ولاية الشرق.

لم يرض نجم الدين بما انتهى إليه قواد الأيوبيين من تعيين أخيه العادل (الثاني) فسار من بلاد الشرق إلى دمشق واستولى عليها سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م وجرت له أمور آخرها أنه سار إلى مصر، فقبض الأمراء على العادل وخلعوه يوم الجمعة ٨ ذو القعدة سنة ٦٣٦هـ/ ١٢٣٨م فكانت سلطنته سنتين وثلاثة أشهر، وخلفه من بعده في السلطنة أخوه السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب[٢].

السلطان الملك الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٦- ٦٤٧هـ/١٢٣٨-١٢٤٩م):

استولى الملك الصالح نجم الدين على قلعة الجبل وبدأ في حكم مصر وضبط

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٤/ ٢٤٤، وهاملتون جيب: صلاح الدين الأيوبي، ص ٢١٦.
(٢) ابن الأثير: الكامل ١٢/ ٢٢٦، ويوشع براور: عالم الصليبيين، ص ٨٧.

الأمور فيها، وأقبل على شراء المماليك الترك بأعداد كثيرة واستخدمهم كجنود، وبنى قلعة الروضة بالجزيرة واتخذها سكناً، وفرض سيطرته على مكة وبعث جيشاً لغزو اليمن.

أما ما كان من أمر بيت المقدس في أيامه وعلاقته بالصليبيين، فإنه نجح في استرداد بيت المقدس من يد الصليبيين بمساعدة الخوارزمية ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م، وخرج الصليبيون منها إلى يافا، واتحدت القوات الخوارزمية مع قوات الصالح نجم الدين أيوب في إيقاع الهزيمة بقوات الصليبيين وحلفائهم من أمراء الشام في معركة غزة في نفس العام، ونجح بذلك الجيش المصري في أخذ القدس والخليل ودمشق.

وحين واجهت الصالح نجم الدين أيوب المتاعب من قبل الخوارزمية في الشام تخلص منهم بعد أن هزمهم، فتبدد شملهم ولم تقم لهم قائمة بعد ذلك، وعاد الصالح لمحاربة الصليبيين فاستولى سنة ٦٤٥هـ/ ١٢٤٧م على قلعة طبرية ثم على عسقلان(١).

الحملة الصليبية السابعة:

كان لاستعادة المسلمين لبيت المقدس سنة ٦٤٢هـ/ ١٢٤٤م صداه في أوربا ودعت البابوية- كالعادة- لحملة جديدة ضد المسلمين ولم يستجب لهذه الدعوة سوى ملك فرنسا لويس التاسع(٢).

---

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٢٩٦- ٣٠٣.

(٢) يوشع براور: عالم الصليبيين، ص ٨٩.

هذه الحملة كانت الاستعدادات تجري لها في الغرب الأوربي بالتنسيق بين البابا «إنوسنت الرابع» والملك الفرنسي «لويس التاسع» منذ ٦٤٣ هـ/ ١٢٤٥م أي منذ سقوط بيت المقدس بأيدى المسلمين، والواقع أن فكرة الحملة الصليبية بقيادة لويس التاسع جاءت مصاحبة للفكرة الداعية إلى إقامة الحلف (المغولي- الصليبي).

وقد تصور البابا إنسونت الرابع أنه يمكن للحملة التي يقودها لويس التاسع أن تهاجم المنطقة العربية من سواحل البحر المتوسط، على حين تقوم القوات المغولية بالهجوم على المنطقة من الناحية الشرقية، وبذلك تخلو المنطقة من الإسلام والمسلمين ويخلو الجو للبابوية وأحلامها.

وقد أرسل البابا بعثتين لعقد هذا الحلف، ولكن المحاولة فشلت لإحساس المغول بتفوقهم السياسي والعسكري، مما جعل الخان الأعظم يطلب من البابوية أن تعترف له بالسيادة على ملوك أوربا الذين طالبهم الخان بأن يفدوا إلى بلده لتقديم الجزية إليه وأخيراً كان على أوربا أن تعتمد على مواردها الذاتية في مشروعاتها الصليبية العدوانية ضد المسلمين[١].

ووصلت حملة لويس التاسع إلى دمياط ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م واستولت عليها، وكان المرض قد اشتد آنذاك على الملك الصالح نجم الدين أيوب، فحُمل وخرج ليشرف على قواته التي كانت تستعد لهذه الحملة بعد أن وصل خبرها إليه بواسطة الإمبراطور فردريك الثاني.

---

(١) نظير حسان سعداوي: الحرب والسلام زمن العداون الصليبي ص ١١٨ القاهرة ١٩٦١.

وتوفي الملك الصالح نجم الدين أيوب بالمنصورة ١٤ شعبان سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م، بعد حكم دام حوالي عشر سنين، فقامت زوجته أم خليل شجر الدر بالأمر، وكتمت خبر موته حتى لا يفت في عضد الجنود، واستدعت «توران شاه» ابن الملك الصالح من حصن كيفا وسلمت له مقاليد الأمور(١).

السلطان الملك المعظم غياث الدين توران شاه (٦٤٨هـ/١٢٥٠م):

لما وصل استدعاء شجر الدر لتوران شاه، سار من حصن كيفا في نصف شهر رمضان، فمر على دمشق وأقيمت له فيها مراسم السلطنة يوم الاثنين (٢٨ رمضان) وركب إلى مصر فنزل الصالحية، فأعلن حينئذ موت الصالح أيوب، وكانت الأمور تسير كما كانت أيامه، وشجر الدر تدير أمر الدولة وتوهم الكافة أن السلطان مريض ما لأحد عليه سبيل ولا وصول، ثم سار توران شاه من الصالحية إلى المنصورة، وكانت القوات المصرية قد أوقعت الهزيمة بقوات لويس التاسع عند المنصورة بقيادة زعيم المماليك البحرية بيبرس البندقداري.

وعند وصول توران شاه فكر لويس التاسع في الانسحاب إلى دمياط لإعادة ترتيب صفوفه لمعاودة الهجوم على العاصمة؛ لكن المرض وقلة الإمدادات وانقضاض سفن المسلمين على مراكبه جعلته يشرع في طلب الصلح على أساس ترك دمياط مقابل إعادة بيت المقدس للصليبيين، لكن توران شاه رفض عرضه لتأكده من النصر، وعند محاولة الصليبيين الانسحاب التقى بهم جيش مصر في منتصف الطريق إلى دمياط عند فارسكور، وأوقعوا بهم الهزيمة

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٣٤٧- ٣٤٨.

الساحقة، ووقع الجيش الصليبي جميعه وعلى رأسه الملك لويس التاسع أسرى في يد المصريين.

وساق المصريون الأسرى جميعهم مكبلين بالأغلال وسجنوا، وسجن لويس التاسع في دار القاضي ابن لقمان(١).

وهكذا فشلت الحملة الصليبية السابعة، وكان للمماليك البحرية فضل كبير في هزيمتها، وقد برز زعماؤهم من أمثال فارس الدين أقطاي، وعز الدين أيبك، وبيبرس البندقداري خلال المعارك التي أظهروا فيها شجاعة وقدرة عسكرية واضحة..

ولكن السلطان الأيوبي الجديد توران شاه، جاء إخفاقاً أيوبياً جديداً وفشلاً في الاستجابة للتحديات التي تفرضها الظروف التاريخية، وبدل الانصراف لتوحيد المسلمين للقضاء على الخطر الصليبي تماماً، بدأ يحيك المؤامرات والدسائس ضد الأمراء المماليك وضد زوجة أبيه «شجر الدر» التي حفظت عرشه، وبدلاً من أن يحمد السلطان توران شاه للمماليك دورهم، حسدهم على ما حققوه لأنفسهم من مكانة وسيطر عليه شعور بأنهم يزاحمونه في حكم البلاد، ومن ثَمَّ أعرض السلطان عن المماليك وقرب إليه رجاله الذين جاء بهم من الشرق مما نفر منه كبراء المماليك(٢).

وهكذا استقر الرأي على ضرورة التخلص من آخر الأيوبيين في مصر، وقد لعبت شجر الدر دوراً هاماً في التحريض على ذلك.

---

(١) سعيد عاشور: الحركة الصليبية ٢/ ١٠١٩.

(٢) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك ص ١٠٩ - ١١١.

وبالفعل قام بتنفيذ هذه المؤامرة أربعة من كبار أمراء المماليك هم بيبرس البندقداري، وقلاوون الصالحي، وأقطاي الجمدار، وأيبك التركماني... وقد تولى عرش سلطنة المماليك منهم ثلاثة وقتل واحد هو أقطاي الجمدار.

وفي صباح يوم الاثنين ٢٧ محرم ٦٤٨ هـ/ ٢ مايو ١٢٥٠م وبعد أن فرغ توران شاه من إفطاره في خيمته بفارسكور، تقدم إليه بيبرس البندقداري وضربه بسيفه ضربة تلقاها بيده فقطعت أصابعه، وجرى توران شاه ليحتمي ببرج خشبي في معسكره على شاطئ النيل، فأضرم المتآمرون النار في البرج، فنزل يجري صوب النيل والسهام تناله من كل جانب، فرمى نفسه في المياه ولحقه أقطاي فقتله. ويقول المقريزي: «إنه مات جريحاً غريقاً محترقاً»[١].

وبموت توران شاه انقضت دولة بني أيوب من ديار مصر، بعدما حكمت واحداً وثمانين عاماً، وملك منهم ثمانية ملوك، وهي دولة خير ما يذكر لها هو جهادها ضد الصليبيين، وحماية مصر من الوقوع في قبضتهم، فضلاً عن قضائها على المذهب الإسماعيلي الباطني ودولته الفاطمية.

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٣٥٩.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

- يرجع أصل حكام الدولة الأيوبية إلى أكراد شمال العراق، وأول من حكم مصر هو صلاح الدين بن نجم الدين أيوب بعد موت الخليفة العاضد.
- كانت الدولة الأيوبية دولة عسكرية قامت في ظل العدوان الصليبي على الشام وإقامة أربع إمارات له.
- بعد تولي صلاح الدين حكم مصر استطاع التغلب على الثورات مثل ثورة بني الكنز والسودان وغيرها.
- وبعد موت نور الدين زالت أهم عقبات صلاح الدين في تكوين دولة إسلامية في مصر وجهاد الصليبيين، وخرج بجيشه لفتح الشام في معركة تل السلطان.
- كانت هناك هدنة بين الصليبيين وصلاح الدين انتهكت على يد أرناط الذي أعد حملة بحرية في البحر الأحمر لضرب التجارة لكن صلاح الدين حاصره وهزمه.
- عقد صلاح الدين الصلح مع الإمبراطور البيزنطي ثم جدد الصلح مع أرناط الذي نقضه مرة أخرى بالاستيلاء على قافلة فيها والدة السلطان صلاح الدين.
- انتصر صلاح الدين في معركة صفورية على الصليبيين انتصاراً ساحقاً والذي يعتبر تهيئة لمعركة حطين.

- انتصر صلاح الدين في معركته ضد الصلبيين وكانت معركة حطين حاسمة حيث قتل الكثير منهم.
- استرد صلاح الدين الكثير من بلاد الشام مثل عكا والناصرة وحيفا وغيرها وكذلك نابلس وبيت لحم، فيما عدا صور الذي اجتمع فيها الصليبيون وأصبحوا يوجهون حملاتهم منها.
- حاصر صلاح الدين بيت المقدس وتسلمه بعد حصار دام شهراً.
- أطلق صلاح الدين سراح الملك جي لوزيجنان الذي حشد الحشود لمواجهته ونجح في الاستيلاء على عكا، ثم حدث انقسام بينهم أدى إلى عقدهم صلح الرملة مع صلاح الدين.
- كان موت صلاح الدين في سنة ٥٨٩هـ بداية لمرحلة جديدة تفككت فيها دولته بين أبنائه وإخوته وبني عمومته وأبنائهم.
- تقاتل ابني صلاح الدين بعد وفاته ثم عقد الصلح بينهما.
- تولى بعد ذلك الملك ناصر الدين ثم سيف الدين ثم محمود بن العادل الذي خلص مصر من خطر الحملة الصليبية الخامسة، والذي ارتكب بعد ذلك خيانة كبرى حيث استعان بالصليبيين لمعاونته في الحرب ضد أخيه مقابل إعطائهم بيت المقدس وجميع ما فتحه صلاح الدين.
- تم في اتفاق يافا تسليم بيت المقدس للصليبيين، وهي خيانة كبرى من الملك الكامل محمود بن العادل.
- تولى بعده السلطان سيف الدين أبو بكر ثم الملك الصالح نجم الدين أيوب الذي نجح في استرداد بيت المقدس من يد الصليبيين.

- استعد الصليبيون للحملة السابعة لاسترداد بيت المقدس، وكانت هذه الحملة لها استعدادات كبيرة بقيادة لويس التاسع، ثم توفي الملك نجم الدين أيوب، وأخفت زوجته شجر الدر الخبر عن الجنود واستدعت توران شاه ليتولى الحكم.
- قامت معركة بين توران شاه ولويس التاسع انتهت بهزيمة الصليبيين وأسر لويس التاسع وسجنه.
- بدأ توران شاه يحيك المؤمرات ضد المماليك وزوجة أبيه شجر الدر حتى أعرض عنه المماليك، وتم تدبير مؤامرة لقتله، وبموت توران شاه انقضت دولة بني أيوب من مصر.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

أجب عما يأتي:

س١: عرف الدولة الأيوبية موضحاً أصولها وعلاقتها بالشام.

س٢: تتبع مراحل الصراع الإسلامي الصليبي تفصيلاً.

س٣: كيف ثم توطيد الدولة الأيوبية وتوحيد الجبهة الإسلامية؟ اشرح ذلك.

س٤: اشرح وقائع معركة النصر في حطين ضد الصليبيين.

س٥: قارن بين سلوك صلاح الدين والصليبيين عند دخول كل منها بيت المقدس.

س٦: ما هي شروط صلح الرملة؟ وما هي ظروف ذلك الصلح؟ وضح ذلك.

س٧: اكتب ما تعرفه عن كل من:

س٨: العزيز عماد الدين عثمان- الملك ناصر الدين محمد – الملك سيف الدين أبي بكر.

س٩: ما هي الخيانة الكبرى التي ارتكبها الملك الكامل في الإسلام والمسلمين؟ فصل القول.

س١٠: كيف استرد الملك الصالح نجم الدين أيوب بيت المقدس؟ اشرح ذلك.

س١١: ما هي وقائع الحملة الصليبية السابعة؟ وضح دور شجرة الدر تفصيلاً.

س١٢: كيف كانت نهاية آخر حكام الدولة الأيوبية؟ وضح ما تقول.

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- يرجع أصل الأيوبيين إلى أكراد شمال العراق. ( )

٢- حكمت الدولة الأيوبية في الفترة ٥٧٢-٦٤٨هـ. ( )

٣- كانت هناك ثلاث إمارات للصليبيين في الشام. ( )

٤- فشلت محاولات الصليبيين في الاستيلاء على مصر. ( )

٥- مات نور الدين محمود سنة ٥٧٠هـ. ( )

٦- كانت معركة حطين سنة ٥٨٤هـ. ( )

٧- تعتبر معركة صفورية مقدمة فتوحات صلاح الدين. ( )

٨- فتح صلاح الدين جميع بلاد الشام وطرد منها الصليبيين. ( )

٩- قتل صلاح الدين أرناط الصليبي. ( )

١٠- استرد صلاح الدين بيت المقدس سنة ٥٨٣هـ. ( )

١١- سقطت عكا في يد الصليبيين سنة ٥٨٨هـ. ( )

١٢- عُقد صلح الرملة سنة ٥٨٩هـ. ( )

١٣- توفي صلاح الدين سنة ٥٩٠هـ. ( )

١٤- استعان الملك الكامل بالصليبيين في معاهدة يافا سنة (٦٢٦) ( )

هـ.

١٥- توفي الملك الكامل غير مأسوف عليه لخيانته. (   )

١٦- استرد الملك الصالح نجم الدين أيوب بيت المقدس. (   )

١٧- نجحت الحملة الصليبية السابعة. (   )

١٨- سقطت الدولة الأيوبية سنة ٦٤٨هـ. (   )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اختر الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- تولى صلاح الدين الحكم سنة [٥٧١- ٥٧٣- ٥٧٤].

٢- كانت معركة تل السلطان سنة [٥٧١- ٥٧٢- ٥٧٣].

٣- كانت معركة حطين سنة [٥٧٩- ٥٨١- ٥٨٣هـ].

٤- استرد صلاح الدين بيت المقدس سنة [٥٨٢- ٥٨٣- ٥٨٤هـ].

٥- عقد صلح الرملة سنة [٥٨٩- ٥٨٨- ٥٨٧].

٦- تعاون مع الصليبيين في معاهدة يافا [الملك الصالح- الملك الكامل- الملك العزيز].

٧- استرد الملك الصالح نجم الدين أيوب بيت المقدس سنة [٦٤٢- ٦٤٣- ٦٤٤].

٨- كانت الحملة الصليبية السابعة بقيادة [لويس السابع- لويس التاسع- ريتشارد قلب الأسد].

٩- توفي الملك نجم الدين أيوب سنة [٦٤٥- ٦٤٦- ٦٤٧هـ].

١٠- تولى الحكم بعد وفاة الملك الصالح نجم الدين أيوب [الملك الكامل-

الملك الناصر - توران شاه].

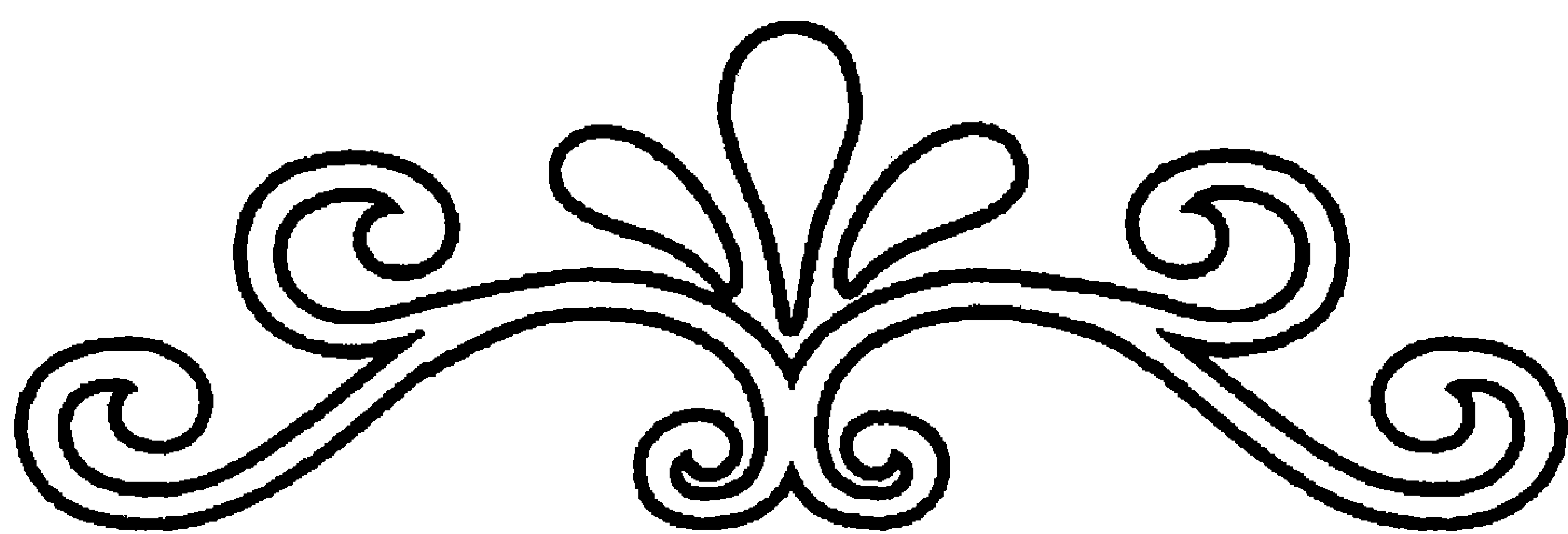
١١- سقطت الدولة الأيوبية بموت [صلاح الدين - توران شاه - الملك الصالح نجم الدين].

النشاط التعليمي للوحدة الحادية عشرة

عزيزي الدارس:

حتى تكتسب المزيد من المعلومات المتعلقة بموضوع هذه الوحدة نقترح عليك إنجاز النشاط التعليمي التالي:

- اكتب بحثاً تاريخياً عن كل من:
  - ١- معركة حطين.
  - ٢- الملك الصالح نجم الدين أيوب.
  - ٣- الملك الكامل ومعاهدة يافا.

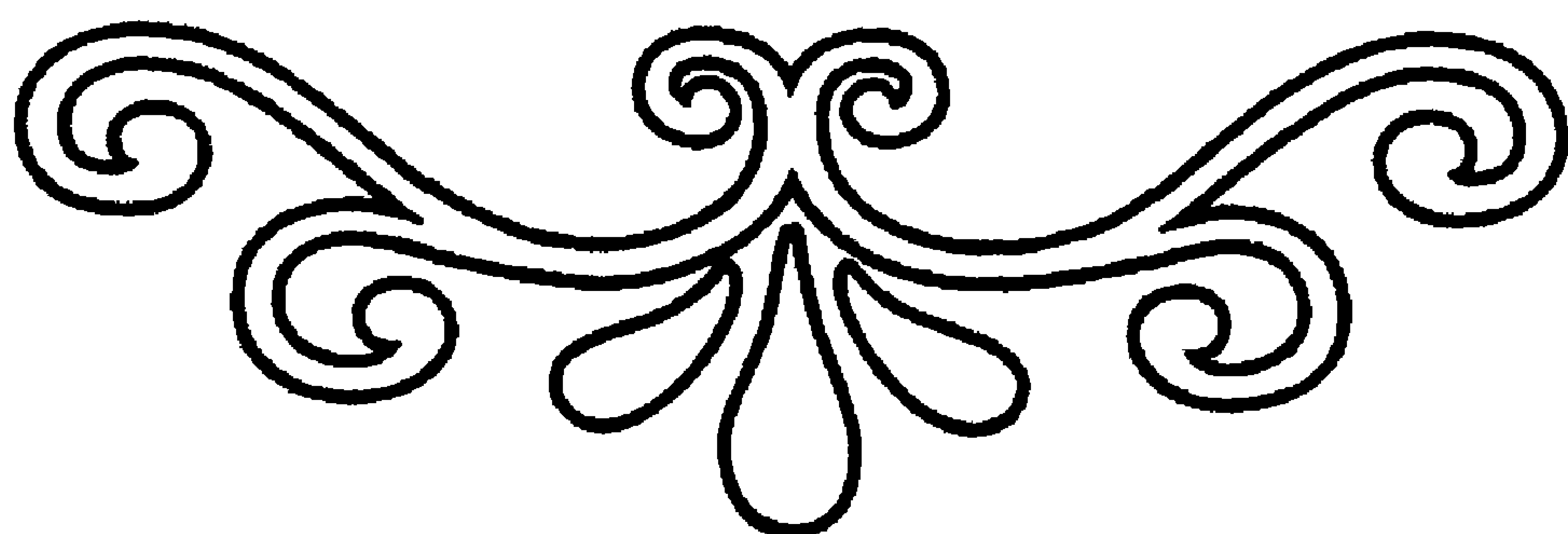


الوحدة الثانية عشرة

الدول الإسلامية المستقلة في مصر والشام

(٤) الدولة المملوكية

(٦٤٨- ٩٢٣هـ/ ١٢٥٠-١٥١٧م)



محتويات الوحدة الثانية عشرة

الدولة المملوكية:

- من هم المماليك.
- دولة المماليك البحرية.
- السلطان عز الدين أيبك.
- الملك المنصور نور الدين علي.
- سيف الدين قطز.
- الظاهر بيبرس.
- الملك قلاوون.
- الأشرف خليل بن قلاوون.
- الناصر محمد بن قلاوون وخلفاؤه.
- دولة المماليك البرجية.
- السلطان الظاهر برقوق.
- الأحداث الداخلية والخارجية في عهد المماليك البرجية.
- السلطان قنصوه الغوري.
- عوامل سقوط الدول الإسلامية المستقلة.

أهمية دراسة الوحدة:



المماليك هم رقيق أبيض اشتراهم الأيوبيون وعلموهم الدين الإسلامي، وتم تدريبهم عسكرياً حتى ازاد عددهم في الجيش الأيوبي.

وقد حكم المماليك في الفترة [٦٤٨: ٩٢٣هـ] وكان لهم أثرٌ كبير في الحضارة الإسلامية، وفيما يلي سنوضح ذلك.

الأهداف التعليمية:



يتوقع منك عزيزي الدارس بعد دراستك لهذه الوحدة أن تكون قادراً على أن:

١- تناقش فضل المماليك في إنهاء الوجود الصليبي في الشام.

٢- تبين دور المماليك في الحد من خطورة المغول.

٣- تشرح فضل المماليك في الجهاد والنواحي العمرانية والاقتصادية وفتح جزيرة قبرص.

من هم المماليك؟

هم الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الإسلامي لا سيما في مصر والشام في منافستهم وصراعاتهم الداخلية في غمار الفوضى السياسية التي سادت عقب وفاة الناصر صلاح الدين مؤسس الدولة الأيوبية.

فقد كان الأيوبيون أصحاب العروش الصغيرة المتنافسة يشترون المماليك صغاراً في سن الطفولة من تجار الرقيق، ويعهدون بهم إلى من يعلمهم العربية ويلقنهم مبادئ الدين الإسلامي، ثم يتدربون على الحياة العسكرية بحيث يضمنون لهم قدراً عالياً من الكفاءة العسكرية والولاء الشخصي لسيدهم، وبهذا يكونون قوةً وسنداً له في الصراعات والمنافسات الداخلية بين أبناء الأسرة الأيوبية، ومع ازدياد أعداد المماليك في جيوش أولئك الحكام من ناحية، وتصاعد أهميتهم في الحياة السياسية الأيوبية من ناحية أخرى، برزت أهميتهم في دوائر الحكم في مصر وبلاد الشام بشكل مطرد منذ أخريات القرن السادس الهجري (الثاني عشر الميلادي).

وفي زمن كان للقوة العسكرية الدور الأكبر في حسم مصائر الحكام والمحكومين، بدأ فرسان المماليك يتقدمون رويداً حتى صار وجودهم مرادفاً للقوة العسكرية والقدرة السياسية، وربما يكون السلطان الصالح نجم الدين أيوب (٦٣٧- ٦٤٧هـ/ ١٢٣٩- ١٢٤٩م) هو المسئول عن ازدياد أعداد المماليك ونفوذهم، بالشكل الذي أدى إلى استيلائهم على الحكم عقب وفاته.

وكان أولئك المماليك من عناصر وأجناس مختلفة من الأتراك والمغول والصقالبة والألمان والأسبان واليونان والجراكسة وغيرهم، بيد أن غالبيتهم في عصر الدولة المملوكية الأولى كانوا من العناصر التركية المجلوبة من بلاد القفجاق

والقوقاز، على حين كانت غالبيتهم من الأتراك الجراكسة في الدولة الثانية[1].

كانت أقوى الروابط التي تجمع بين المماليك هي رابطة «الأستاذية» التي تربط الأستاذ (أي السيد أو الأمير) بمماليكه، ورابطة الخشداشية (الخجداشية) التي كانت رابطة الزمالة التي تجمع بين المماليك في طائفة واحدة، ولا غرو فإن أبناء هذه الطبقة المجلوبين عبيداً في طفولتهم قد تربوا معاً ونشأوا في نفس الظروف، كما أنهم من ناحية أخرى كانوا غرباء على المجتمع الذين تعين عليهم أن يحاربوا دفاعاً عنه.

ولما كانت جذورهم تمتد في تربة أخرى بعيدة انتزعوا منها، فقد افتقروا إلى الإحساس بانتمائهم إلى المجتمع الذي عاشوا على هامشه، ولم يشعروا بأية وشائج تربطهم به، وقد أدى هذا إلى عدم شعورهم بالأمن في رحاب هذا المجتمع، وعوضوا ذلك بالأمن الذي أحسوه في زمالتهم ورفقتهم التي فرضت عليهم أن ينشأوا في ظروف واحدة.

وكان الأمراء يولون عنايتهم ورعايتهم الكاملة لمماليكهم في ظل علاقة «الأستاذية» لأنهم كانوا هم القوة الذاتية للأمير أو السلطان وسنده في الصراع الذي كان يمكن أن ينشب في أي وقت بين المتصارعين على الحكم والسطوة والنفوذ، ولم يكن السلطان والأمراء يتناولون طعامهم سوى مع مماليكهم، بل إن السلطان كان يغضب من المملوك الذي لا يأكل عنده.

لا عجب إذن أن تجد انتماءات شخصية وخاصة، فنحن نقرأ في المصادر التاريخية المعاصرة عن طوائف شتى من المماليك تنتمي كل منها إلى شخص بعينه، فها هي طائفة «المماليك الصالحية» نسبة إلى الصالح نجم الدين أيوب،

---

(١) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك، ص١٢٧ – ١٢٨.

وهاهي طائفة أخرى هم «المماليك الظاهرية» نسبة إلى الظاهر بيبرس، و«المنصورية» نسبة إلى المنصور قلاوون و«الأشرفية» نسبة إلى السلطان الأشرف خليل بن قلاوون.

ذلك أن هذه الرابطة الخاصة كانت هي الوسيلة المثلى لتحقيق الشعور بالأمن للمماليك في ظل حياتهم التي كانت تحكمها المنافسة الدموية كطريق يعترف به الجميع للوصول إلى العرش.

وكان حصاد هذه الروح التنافسية القائمة على القوة والدم، والمستندة إلى الروابط الخاصة سلسلة من المتاعب والمنازعات كانت تفرض نفسها على الحياة المصرية كلما جلس على العرش سلطان ضعيف أو سلطان طفل[١].

وهنا ينبغي أن نلاحظ أن دولة سلاطين المماليك جاءت استمراراً لدولة بني أيوب باعتبارها إفرازاً سياسياً عسكرياً للواقع التاريخي الذي كان يعيشه العالم العربي الإسلامي آنذاك، فقد كان العالم الإسلامي يتعرض لضربات موجعة في الأندلس غرباً عندما نجح المسيحيون الأسبان في تقليص المساحة العربية على خريطة أسبانيا. وفي الشرق كانت قعقعة حوافر الخيول المغولية تقترب من بغداد عاصمة الخلافة العباسية. وفي فلسطين كانت بقايا مستوطنات الفرنج ما تزال قائمة تهدد المنطقة العربية. كما كانت شراذم الحملة الصليبية السابعة على أرض الدلتا تجسيداً لفشل آخر مشروعات الغرب الكاثوليكي ضد العرب المسلمين.

كانت تلك الظروف تستوجب قيام دولة موحدة على غرار دولة صلاح

---

(١) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك، ص ١٧٤.

الدين تقود الأمة في مواجهة الأخطار القادمة من الشرق والغرب، ولم يكن هناك بين الأيوبيين العاجزين الذين انغمسوا في منازعاتهم ومنافساتهم من يستطيع أن يقوم بهذا الدور التاريخي، وكانت أحداث الحملة الصليبية السابعة التي قادها لويس التاسع ضد مصر سنة ٦٤٧هـ/ ١٢٤٩م فرصة لإبراز أهمية فرسان المماليك العسكرية.

إذ أن المماليك بقيادة بيبرس وبمساعدة المتطوعين من المصريين والعرب، أنزلوا ضربة قاصمة بالحملة وأسروا الملك وكبار مساعديه في معركة واحدة، وحين لم يجد المماليك أحداً من الرؤوس الأيوبية المتوجة يستطيع كبح جماحهم ويخضعهم لقيادته قرروا حل المشكلة المتعلقة بالعرش الأيوبي على طريقتهم بقتل توران شاه آخر سلاطين الدولة الأيوبية، وهكذا ظهر في الأفق السياسي مرة أخرى المبدأ الذي قال به العادل الأيوبي ذات مرة «الحكم لمن غلب»، ولقد حكم المماليك مصر حتى الفتح العثماني لمصر لمدة ٢٧٤ عاماً.

حكم النصف الأول منها المماليك البحرية (٦٤٨- ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠- ١٣٨٢م) وحكم النصف الثاني المماليك البرجية (الجراكسة) (٧٨٤- ٩٢٣هـ/ ١٣٨٢-١٥١٧م)[١].

أولاً: دولة المماليك البحرية (٦٤٨- ٧٨٤هـ/ ١٢٥٠-١٣٨٢م):

شجر الدر أول سلاطين المماليك البحرية ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م:

كانت الخطوة الأولى خطوة انتقالية، إذ اختار المماليك البحرية أرملة

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٤٢٥-٤٣١.

السلطان الصالح نجم الدين أيوب الأميرة «شجر الدر» لتولي عرش السلطنة الشاغر، ولما كانت هذه السيدة جارية تركية أو أرمينية اشتراها السلطان الراحل ثم أعتقها وتزوجها، فقد اعتبرها بعض المؤرخين ومن بينهم المقريزي الذي يقول: «وهذه المرأة شجر الدر، هي أول من ملك مصر من ملوك الترك المماليك...»[١].

وعلى الرغم من أن «شجر الدر» قامت بدور بطولي بعد موت زوجها في خضم الصراع ضد الصليبيين وملكهم لويس التاسع، فإن الرأي العام في مصر والعالم العربي الإسلامي لم يكن ليقبل بقيام امرأة تتولى زمام الحكم، ذلك أن النظرية السياسية الإسلامية تستوجب أن يكون الحاكم رجلاً، وقد رفض الخليفة العباسي الاعتراف بالسلطانة الجديدة، كما اتسمت ردود فعل الأيوبيين ببلاد الشام بالعصبية، ورفضوا الاعتراف بهذا التتويج.

من ناحية أخرى حاولت شجر الدر أن تحكم باعتبارها أم ولد، ونسبت نفسها إلى زوجها وإلى الخليفة المستعصم العباسي، ونقشت على العملة التي سكتها عبارة «المستعصمية الصالحية ملكة المسلمين والدة خليل أمير المؤمنين»[٢]، لكن كل ذلك لم يجعلها تفوز برضا الرأي الإسلامي العام الرسمي والشعبي.

قبضت شجر الدر على زمام الحكم بيد من حديد، وهو ما يبرر وصف أحد المعاصرين لها بأنها «امرأة صعبة الخلق، شديدة الغيرة، ذات شهامة زائدة،

---

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٣٦١.

(٢) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٤٣١-٤٣٢.

وحُرمة وافرة، سكرانة من خمر التيه والعجب...». وقد وجهت اهتمامها الأول للتخلص من بقليا الحملة الصليبية السابعة، فقد كانت الملكة الفرنسية مرجريت تقيم بدمياط مع الحامية، على حين كان زوجها وكبار أمرائه رهن الأسر في دار ابن لقمان بالمنصورة ومعهم اثني عشر ألفا ومائة وعشرة من الأسرى الفرنج، ودارت المفاوضات التي انتهت بالاتفاق على فدية قدرها ثمانمائة ألف دينار، يدفع الملك الأسير نصفها قبل رحيله، والباقي بعد وصوله إلى عكا.

وجمعت الملكة الفرنسية مبلغ الفدية، ثم رحلت إلى عكا ومعها ابنها الذي ولدته بدمياط، وأطلقت عليه اسم جان تريستان (وليد الأحزان) بسبب ما جرى على أبيه وحملته الخائبة، وتم تسليم دمياط للمصريين في السادس من يونيو ١٢٥٠م/ ٦٤٨هـ وفي اليوم التالي أبحر لويس التاسع إلى عكا.

ومن رحم هذه النهاية التعسة للحملة الصليبية السابعة ولدت دولة سلاطين المماليك[١].

ولكن لم يكن منتظراً من أمراء الأيوبيين أن يرتضوا الخضوع لمماليكهم، واشتعلت نار الثورة في الشام ضد سلطنة المماليك الوليدة في مصر، ولم يلبث أن أخذ ملوك بني أيوب يتكتلون بالشام للوقوف في وجه المماليك وغزو مصر ذاتها واسترداد ملكها للأيوبيين، فأدرك المماليك أن الأمر ليس بالسهولة التي كانوا يتوقعونها، وأن موقف الأيوبيين في الشام يهدد بالقضاء على سلطانهم في مصر، وكان في ذلك الوقت الخليفة العباسي المستعصم بالله يعيب على أهل مصر أنهم

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ١٢٩.

اختاروا امرأة لتحكمهم فأرسل إليهم يقول: «إن كانت الرجال قد عدمت عندكم فأعلمونا حتى نُسيِّر إليكم رجلاً»[١].

وهكذا أدرك المماليك والسلطانة أنهم يسبحون ضد تيار عارم لا بد وأن يغرقهم في طياته، وبعد ثمانين يوماً تنازلت شجر الدر عن الحكم لواحد من أمراء المماليك كانت قد اختارته زوجاً لها هو عز الدين أيبك التركماني الصالحي الذي تولى العرش تحت اسم «الملك المعز».

السلطان عز الدين أيبك (٦٤٨- ٦٥٥هـ/ ١٢٥٠-١٢٥٧م):

تولى عز الدين أيبك السلطنة آخر جمادى الآخرة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م باسم «الملك المعز»، وقد لجأ المماليك إلى ألعوبة يتحايلون بها على بني أيوب، فأتوا بطفل صغير من أبناء البيت الأيوبي اسمه الأشرف موسى، وعمره ست سنوات، وأقاموه سلطاناً ليكون شريكاً للمعز أيبك[٢].

غير أن هذه الخديعة لم تجز على الأيوبيين في الشام، فتجمعت قواهم بزعامة الناصر يوسف الأيوبي، وزحفوا على مصر للقضاء على المماليك، وكانت القوة الرئيسة من المماليك التي خرجت للقاء الجيش الأيوبي تتألف من المماليك البحرية، وفي سنة ٦٤٨هـ/ ١٢٥٠م دارت معركة فاصلة بين الجانبين قرب العباسية بالشرقية انهزم فيها الأيوبيون[٣]، ولا شك في أن هذه الموقعة كان لها أثر في تثبيت حكم المماليك في مصر.

---

(١) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/ ٣٧٣.

(٢) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: مرجع سابق ١٢٩.

(٣) ابن واصل: مفرج الكروب ٢/ ٣٧٢.

نجح المعز في القضاء على مناوئيه من أمراء المماليك البحرية وبخاصة أقطاي (سنة ٦٥٢هـ/ ١٢٥٤م)، وقام بخلع الملك الأشرف موسى الأيوبي، واستقل بالملك استقلالاً تاماً، وكان الأشرف موسى آخر حكام الأيوبيين في مصر[١].

ولم يزل المعز في سلطته بعد أن تخلص من مناوئيه إلى أن كانت نهايته على يد زوجته شجر الدر في ٢٣ربيع الأول ٦٥٥هـ/ ١٢٥٧م بعد حكم دام سبع سنين، وكان سبب قتله أنه أراد أن يتزوج من ابنة الملك الرحيم صاحب الموصل، وكانت شجر الدر شديدة الغيرة فعملت على قتله، فقتلته وهو في الحمام، وأعانها على ذلك جماعة من الخدام[٢].

وحين ذاع الخبر أسرع المماليك المعزية إلى القصر رغبة في الانتقام من شجر الدر وبالفعل تم القبض عليها وحملها المماليك إلى ضرتها- زوجة المعز الأولى وأم ولده علي- فأمرت جواريها فضربها الجواري بالقباقيب إلى أن ماتت وألقوا بها من سور القلعة إلى الخندق، فبقيت في الخندق أياماً ثم دفنت...[٣].

وهكذا كان العنف والدم هو الطريق إلى العرش منذ بداية عصر سلاطين المماليك، اعتقدوا منذ البداية أن عرش البلاد حق لهم جميعاً يفوز به أقواهم وأقدرهم على الإيقاع بالآخرين، وهو الأمر الذي تأكد منذ بداية الدولة سواء بمصرع أيبك وشجر الدر، على نحو ما رأينا، أم في سلسلة الأحداث التالية كما

---

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى ص ٤٣٧.

(٢) المقريزي: السلوك ١/ ٤٠٣- ٤٠٤.

(٣) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٦/ ٣٧٦- ٣٧٧.

سنرى، وهكذا تقرر منذ البداية مبدأ «الحكم لمن غلب» أساساً للبناء السياسي للدولة.

السلطان الملك المنصور نور الدين علي (٦٥٥- ٦٥٧هـ/١٢٥٧-١٢٥٨م):

صمم المماليك المعزية على أن يقيموا على العرش الشاغر سلطاناً صبياً هو نور الدين علي ابن سيدهم المعز أيبك، وتم ذلك في ربيع الأول سنة ٦٥٥ هـ/ ١٢٥٧م ولقبوه بالملك المنصور، وكان عمره آنذاك خمسة عشر عاماً.

وقد رفض المماليك البحرية الاعتراف بالسلطان الصبي، وتجسد رفضهم في عدة اضطرابات عاصفة، واستنجدت بعض الفئات المتنازعة بملوك بني أيوب في بلاد الشام، وحاول المغيث عمر صاحب إمارة الكرك (الأردن حالياً) غزو مصر مرتين ولكن الهزيمة كانت من نصيبه[1].

وبينما كان النزاع حول السلطان الصغير قائماً، كان صدى طبول الحرب التي شنها المغول على شرق العالم الإسلامي يتردد على حدود السلطنة المملوكية، ولم يكن بوسع السلطان الصبي أن يفعل شيئاً إزاء هذا الخطر الداهم، واقترب الخطر عندما كانت الجحافل المغولية قد اقتحمت بغداد عاصمة الخلافة العباسية، وأخذ الزحف المغولي يطوي البلاد حتى وصل إلى بلاد الشام[2].

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٤٠٥.

(٢) المصدر السابق ٧/ ٥٠.

الملك المظفر سيف الدين قطز (٦٥٧- ٦٥٨هـ/١٢٥٨-١٢٥٩م):

استغل قطز الفرصة وخلع السلطان الصبي، وتولى عرش البلاد منفرداً تحت اسم «السلطان سيف الدين قطز». كان قطز هذا من الخوارزمية، وقد ساعده على خلع السلطان الصبي أن المماليك كانوا قد يئسوا من السلطان الطفل «... لكثرة لعبه بالحمام، ومناقرته للديوك، ومعالجته بالحجارة، وركوبه الحمير الفُرة بالقلعة ومناقرته بالكباش...»[1].

وقد وصف المؤرخون السلطان سيف الدين قطز بأنه كان «... بطلاً شجاعاً مقداماً حازماً، حسن التدبير»، والحقيقة أن هذا السلطان تولى حكم البلاد في ظروف غاية في الحرج والدقة، وما كادت مراسم تنصيبه على العرش تنتهي حتى كانت رسل هولاكو قد وصلت إلى القاهرة ومعهم رسالة تفيض وقاحة واستعلاء وتهديداً من هولاكو.

وعرض قطز الأمر على الشعب والأمراء وعلى رأسهم ركن الدين بيبرس والعلماء وعلى رأسهم العز بن عبد السلام صاحب الدور الكبير في حث الناس على الجهاد والتضحية بالنفس والمال.

وبناء على هذه الروح الإيمانية العالية رفض قطز تهديدات هولاكو وقتل رسله الأربعة وعلق رؤسهم جميعاً على باب زويلة- وهو من أبواب القاهرة- وقرر الاستعداد لقتال المغول، وقام بإعداد جيش قوي لمهجامتهم، واتحدت جميع طوائف المماليك وانضمت إليهم أعداد كبيرة من المصريين المتطوعين، وخرج قطز على رأس هذا الجيش لملاقاة المغول في ٦٥٨هـ/ يوليو ١٢٥٩م،

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/ ٥٠.

ووصل الجيش المصري المملوكي إلى عين جالوت على أرض فلسطين، وفي صباح يوم الجمعة السادس والعشرين من شهر رمضان سنة ٦٥٨هـ/ ٣ سبتمبر ١٢٥٩م دارات المعركة التي أسفرت عن هزيمة المغول ومصرع قائدهم كتبغا نوين[١].

وبينما كان قطز يستعد للعودة إلى مصر التي استعدت لاستقباله بما يليق، وما حققته جيوشه من انتصارات عظيمة، فضلاً عن ضم بلاد الشام إلى مصر، تطورت الحوادث بالشكل الذي جعل السلطان المنتصر يلقى حتفه قبل أن ترى عيناه الزينات التي أعدها رعاياه لاستقباله، إذ أن الأمير ركن الدين بيبرس البندقداري الذي لعب دوراً في انتصار عين جالوت لا يقل عن الدور الذي لعبه السلطان نفسه، كان يأمل في الحصول على نيابة حلب، ولكن السلطان الذي كان قد وعده بهذه النيابة من قبل منحها إلى أمير آخر هو الملك السعيد علاء الدين بن بدر الدين لؤلؤ؛ لكي يكون حليفاً له يراقب حركات المغول، ولم يكن بيبرس في حاجة لأسباب جديدة في الحقد على قطز فقد عاش هو ورفاقه من أمراء المماليك البحرية عدة سنوات في منفاهم بعد أن اغتال قطز وزملاؤه فارس الدين أقطاي زعيم البحرية لحساب عز الدين أيبك، وهكذا تذكر أمراء المماليك البحرية ثأرهم القديم في عنق قطز، وبالقرب من الصالحية خرج قطز للصيد فقتله بيبرس. وبذلك خلا الجيش للمماليك البحرية وزعيمهم القوي

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٧/ ٨١- ٨٢، وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص٤٤١- ٤٤٤.

بحكم مصر والشام[1].

وتطبيقاً للمبدأ السياسي الذي سارت عليه دولة سلاطين المماليك "الحكم لمن غلب" كان طبيعياً أن يعتلي القاتل عرش الضحية، وقبل أن تجف دماء السلطان القتيل كان جنود الجيش يحلفون يمين الولاء لبيبرس سلطاناً جديداً على مصر، متخذاً لنفسه لقب "القاهر"، بيد أنه لم يلبث أن غيره وأخذ لقب "الظاهر"، وبعد أن تمت إجراءات السلطنة بشكل مبدئي في الصالحية أسرع بيبرس ورفاقه إلى القاهرة لإتمام إجراءات السلطنة بدخول قلعة الجبل[2].

الملك الظاهر ركن الدين بيبرس البندقداري (٦٥٨- ٦٧٦هـ/١٢٥٩-١٢٧٧م):

وتولى السلطنة الملك الظاهر بيبرس البندقداري الذي حكم مصر ١٧ سنة وتوفي في دمشق سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م، وكان من أعظم سلاطين المماليك، ويعتبر المؤسس الحقيقي لدولتهم لما قام به من تنظيم للإدارة الحكومية، واستحداث الكثير من الوظائف الهامة، فضلاً عن إعداد جيش قوي وأسطول كبير ليحارب به أعداء الدولة من صليبيين ومغول.

ومن أهم أعمال بيبرس إحياء الخلافة العباسية ومبايعة المستنصر بالله بها، ونقل مقرها إلى القاهرة سنة ٦٥٨هـ/ ١٢٥٩م وذلك لإكساب حكم المماليك الشرعية في حكم مصر، كذلك استحدث نظام ولاية العهد في دولة المماليك، فورث العرش- بناء على ذلك- اثنان من أبنائه من بعده: السعيد بركة خان، ثم

---

(١) أبو الفدا: المختصر ٣/ ٢٠٧.

(٢) أبو الفدا: المختصر ٣/ ٢٠٨، قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك ص ١٤١.

العادل بدر الدين سلامش[١].

بيبرس والصليبيون:

وعن حرب بيبرس مع الصليبيين، فقد بدأ حملاته ضدهم سنة ٦٦٤هـ/ ١٢٦٥م فاستولى منهم على قيسارية وحيفا وأرسوف، وفي العام التالي استولى على صفد وهاجم أرمينيا الصغرى، واستولى على يافا، وحاصر أنطاكية أقوى الإمارات الصليبية الباقية بالشام واستولى عليها.

وكان لاستيلاء بيبرس على إنطاكية أثر هام في كسر شوكة الصليبيين، كذلك قام بيبرس سنة ٦٦٩هـ/ ١٢٧٠م بمهاجمة جزيرة قبرص بسبب مساعدة ملكها للصليبيين[٢].

بيبرس والمغول:

أما بشأن المغول فإنهم بعد وفاة جنكيز خان انقسموا إلى معسكرين: مغول فارس، ومغول القبجاق (القبيلة الذهبية) شمالي بحر قزوين والبحر الأسود، هذا ولم ينس المغول ما حل بهم في عين جالوت فارتدوا مؤقتاً إلى ما وراء الفرات على أمل تجميع صفوفهم وإعادة هجومهم على بلاد الإسلام.

وقد حاول المغول إقامة جبهة موحدة مع الصليبيين ضد المسلمين، لكن الظاهر بيبرس نجح في إفشال هذا المشروع المغولي الصليبي بعقده تحالفاً مضاداً مع ملوك القبجاق، وساعد على إتمام هذا التحالف بينهما اعتناق الملك بركة خان

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٤٤٠.

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٤٥-٤٨.

للدين الإسلامي.

وتأكدت أواصر التحالف بين الجانبين بزواج الظاهر بيبرس من ابنة بركة خان وأصبح التحالف بين مصر ومغول القبجاق منذ ذلك الوقت ركناً تقليدياً من أركان سياسة دولة المماليك بمصر والشام، وساعد هذا التحالف في وقوف سلاطين المماليك موقفاً حازماً من مغول فارس.

وفي سنة ٦٦٣هـ/ ١٢٦٤م هاجم المغول بلدة ألبيرة وحاصروها، فسارع بيبرس بقواته ليفك الحصار عنها فهرب المغول وفكوا الحصار عنها بعد أن أحسوا بمقدمه.

وقام المغول بعدة غارات على حلب، قام بيبرس على أثرها بإرسال قواته لإبعادهم عنها، واستمرت هذه المناوشات بين الطرفين الإسلامي والمغولي حتى وفاة بيبرس سنة ٦٧٦هـ/ ١٢٧٧م[1].

تولي قلاوون الحكم (٦٧٨هـ/١٢٧٩م):

حدثت فترة اضطرابات في الدولة المملوكية عقب وفاة بيبرس حتى تولى السلطان المنصور سيف الدين قلاوون الحكم سنة ٦٧٨هـ/ ١٢٧٩م وتولى الحكم فيها اثنان من أبنائه الصغار هما: محمد بركة، وبدر الدين سلامش حاول المغول خلالها مهاجمة دولة المماليك والاستفادة من هذا الاضطراب[2]، إلا أن تولي قلاوون الحكم أوقف أطماعهم في مدينة حلب.

وقد أرسل قلاوون جيشه للتصدي لقواتهم عند حلب، ولكنهم ارتدوا

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ٣٥، وما بعدها.

(٢) المرجع السابق، ص ٤١-٤٤.

عنها حينما علموا بمقدم قواته سنة ٦٧٩هـ/ ١٢٨٠م وعاود المغول هجومهم في العام التالي على مدينة حماة، لكن جيوش قلاوون هزمتهم قرب حمص مما اضطر ملك المغول أبغاخان إلى الهرب بفلول جيشه إلى بغداد ووفاته هناك بعد ذلك بعامين.

تولى حكم المغول بعده ابنه «تكودار» الذي اعتنق الإسلام وتسمى بأحمد وحاول أحمد تكودار التصالح مع دولة المماليك، لكن قواد المغول اعترضوا على محاولة الصلح، وقاموا بقتله وتعيين ابن أخيه «أرجون» في حكم مغول فارس ٦٨٣هـ/ ١٢٨٤م.

وكان أرجون يكره المسلمين، فقام بقتل أعداد كبيرة منهم في البلاد التي حكمها، الأمر الذي أدى إلى معاداة دولة المماليك له، ويعتبر أرجون مؤسس دولة المغول الإيلخانية المعادية لدولة المماليك، وظلت هذه الدولة على حرب مع عدد كبير من سلاطين دولة المماليك البحرية[1].

الأشرف خليل بن قلاوون:

وَرَّث السلطان قلاوون أبناءه حكم مصر من بعده، وظلت في بيته حتى نهاية دولة المماليك البحرية سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م، وقد تولى السلطة «السلطان الأشرف صلاح الدين خليل بن قلاوون» سنة ٦٨٩هـ/ ١٢٩٠م.

وبعد وفاة أبيه لم تحدث الاضطرابات المعتادة التي كانت تحدث بين ولاية سلطان راحل وولاية سلطان جديد، ومن ثم تفرغ السلطان الجديد لاستكمال

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٦٧٦ وما بعدها.

المهمة التي كان أبوه قد عزم على تنفيذها وهي القضاء على الصليبيين في عكا، وبعد تجهيزات دقيقة تقدم نحوها وحاصرها وقام بالإغارة على بلادهم وحاصر قلعة الروم معقل نشاطهم واستولى عليها، وتم ذلك في عهد حكم «غازان» حاكم المغول بعد موت «أرجون».

ولم تتوقف حروب خليل بن قلاوون مع المغول ولكنه اقتلع آخر قلاع الصليبيين من بلاد الشام حين استولى على عكا بعد أن حاصرها عشرة أيام ونصب عليها اثنين وتسعين منجنيقاً، وسقطت في يد المسلمين سنة ٦٩٠هـ/ ١٢٩١م.

وبعد سقوط عكا سارت قواته في الأشهر التالية للفتح لإجلاء القوات الصليبية من بقايا مدن الساحل السوري التي كانت لا تزال في أيديهم، فاستولت هذه القوات على صور وحيفا وصيدا، وبذلك قطع دابرهم عن الشام، وزالت دولتهم، وأزيل الدنس الصليبي من أرض الشام(١).

الناصر محمد بن قلاوون:

يعتبر عصر الناصر محمد بن قلاوون أزهى عصور المماليك البحرية، فقد استقرت فيها دعائم الدولة، وبرغم أن الناصر تولى الحكم ثلاث مرات إلا أنه في المرتين الأولتين كان طفلاً صغيراً، لكنه في المرة الثالثة (٧٠٩- ٧٤١هـ/ ١٣٠٩- ١٣٤٠م) كان قد صلب عوده واشتد، ونجح في دعم حكمه والتخلص من أعدائه وإقامة الحكم المستقر الآمن الذي لم تعرفه مصر في عهد سابقيه، ولقد أدى

---

(١) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ٨/ ٦- ٨، وسعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى ص٤٧٣- ٤٧٧.

الاستقرار في البلاد إلى رخاء الحال وإصلاح مسار الاقتصاد وتقدم العلوم وازدهار الفنون، حتى أن المؤرخين يعتبرون عصره أزهى عصور الفن في تاريخ مصر الإسلامية عامة، ويشهد على ذلك مقدار ما خلفه من مبان وعمائر ومساجد وآثار قيمة لا زالت قائمة تقاوم عوامل الفناء حتى الآن(١).

وفي عهد الناصر وقعت الهزيمة الثانية الساحقة للمغول في معركة «مرج الصفر» بالقرب من دمشق ٧٠٢هـ/ ١٣٠٢م، وقتل في هذه المعركة أعداد هائلة من المغول، حتى إنهم بعدها جنحوا إلى السلم ولم يفكروا ثانية في محاربة العالم الإسلامي.

وما لبث غازان ملك مغول فارس أن مات حزناً وكمداً بعد ثلاث سنوات من المعركة، وبادر خلفه «أولجاتيو» إلى طلب ود السلطان الناصر وإقامة العلاقات الطيبة بين دولته ودولة المماليك(٢).

وفي نفس الوقت استمرت علاقة دولة الناصر محمد الطيبة مع مغول القبجاق (القبيلة الذهبية) استمراراً للعلاقة الطيبة التقليدية بين هذه الدولة ودولة المماليك واستمر تبادل الهدايا والمصاهرة بينهما، فكما تزوج الظاهر بيبرس من ابنة الملك بركة خان، تزوج السلطان الناصر محمد من أميرة مغولية قريبة للملك أزبك خان(٣).

خلفاء الناصر محمد بن قلاوون:

إن فترة حكم أولاد الناصر محمد وأحفاده تقوم دليلاً على أن المماليك لم

---

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى ص ٤٧٧- ٤٩٢.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ١٥٣- ١٥٤.

(٣) المقريزي: السلوك ٢/ ١٧٣- ١٧٧.

يؤمنوا بمبدأ الوراثة في تداول السلطة، فقد تعاقب على عرش سلطنة المماليك ثمانية من أبنائه على مدى إحدى وعشرين سنة (٧٤١ -٧٦٣ هـ/ ١٣٤٠- ١٣٦١م)، مما يكشف عن مدى الاضطراب وعدم الاستقرار السياسي، كما أن حكم الكثيرين منهم انتهى بالقتل أو السجن على أيدي الأمراء الذين كانوا أصحاب السلطة الفعلية في البلاد آنذاك.

وكان أشهرهم السلطان الناصر حسن بن محمد بن قلاوون الذي تولى العرش مرتين، وانتهت سلطنته الثانية بالقتل، فقد تولى الحكم بعد عزل أخيه المظفر حاجي الذي حكم سنة واحدة وثلاثة أشهر واثني عشر يوماً، وحكم هو من شهر رمضان ٧٤٨هـ/ ١٣٤٧م لمدة ثلاث سنوات وتسعة أشهر وأربعة عشر يوماً... منها مدة الحجر عليه ثلاث سنوات، ومدة استبعاده تسعة أشهر....

وتولى بعده أخوه الملك الصالح صلاح الدين صالح بن الناصر محمد بن قلاوون الذي حكم ثلاث سنوات وثلاثة أشهر وثلاثة أيام، ثم خلع من السلطنة ليعود الناصر حسن إلى العرش مرة ثانية بعد أن كان محبوساً طوال هذه المدة.

واستمرت سلطنته الثانية ست سنوات وسبعة أشهر وسبعة أيام، انتهت على نحو مأساوي مروع، إذ قبض عليه الأمير يلبغا واختفى دون أن يعثر له على أثر ولم يعرف قبره، وكانت نهايته في شهر جمادى الأولى سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م[١].

بعدها بدأ عصر أحفاد الناصر محمد بن قلاوون الذي شهد مزيداً من

---

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي في مصر والشام ص ١٢١ وما بعدها.

سيطرة أمراء المماليك على السلاطين الذين باتوا مجموعة من الدمى التي يحركها الأمراء، وقد استمر حكمهم منذ سنة ٧٦٢هـ/ ١٣٦٠م حتى سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م، وكان آخرهم الملك الصالح حاجي الذي كان طفلاً خلعه الأمير الكبير برقوق وأدخله إلى دور الحريم لكي ينتهي بذلك حكم أسرة قلاوون الذي كان في غالبه بيد كبار أمراء المماليك ولم يكن لهم سوى لقب السلطنة ولا شيء سواه[١].

وهنا يمكن القول بأن استمرار وجود لقب السلطنة في ذرية السلطان المنصور قلاوون كان يعني القبول بمبدأ الحق الوراثي في الحكم لأبناء هذه الأسرة ولكن الصحيح- في تصورنا- هو أن الأمراء الكبار الذين كان بينهم نوع من توازن القوى السياسية والعسكرية رأوا في أولئك السلاطين الأطفال ستاراً مناسباً يمكنهم من تنفيذ كل رغباتهم حتى الدنيئة منها، وكان أكبر أولئك السلاطين من أحفاد الناصر محمد سناً هو السلطان المنصور صلاح الدين محمد (٧٦٣ – ٧٦٥ هـ/ ١٣٦١ – ١٣٦٣م) الذي كان يبلغ من العمر أربعة عشر عاماً فقط، أما الثلاثة الآخرون فكانت أعمارهم تتراوح بين ست سنوات وإحدى عشرة سنة، وقد كان من السهل أن يتلاعب بهم الأمراء الذين زاد نفوذهم وتحكمهم بمصالح البلاد والعباد[٢].

بيد أن أهم نتائج حكم السلاطين الأطفال هي عدم استقرار البلاد واحتدام الصراع بين طوائف المماليك المختلفة، ذلك أن عدم وجود سلطان

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى ص ٤٩٣- ٤٩٥.

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٦٣-٦٤.

قوي على عرش السلطنة جعل مقدراتها نهباً لأطماع أمراء المماليك المتصارعين على السلطة والنفوذ، ولما كان كل أمير من هؤلاء يمتلك جيشه الخاص، أي: أنه كان «سلطاناً مختصراً» فقد كان طبيعياً أن تصطدم مصالح الأمراء وطموحاتهم.

وكانت الترجمة العملية لهذا الصراع هي حروب الشوارع وحوادث العنف الدامية بين طوائف المماليك، بحيث باتت بمثابة النغمة الدالة على اضطراب الحياة القاهرية خاصة وفي شتى أرجاء مصر بشكل عام، وظل الحال كذلك إلى أن ظهر الأمير «برقوق» واستطاع في سنة ٧٨٤هـ/ ١٣٨٢م أن يخلع زين الدين حاجي بن شعبان آخر سلاطين بني قلاوون والمماليك البحرية، ليؤسس دولة مملوكية جديدة عرفت بدولة المماليك البرجية أو المماليك الجراكسة، لتحكم مصر حتى الفتح العثماني لها سنة ٩٢٣هـ/ ١٥١٧م[١].

ثانياً: دولة المماليك البرجية (الجراكسة) (٧٨٤-٩٢٣هـ/١٣٨٢-١٥١٧م):

المماليك الجراكسة وظهورهم على مسرح السياسة:

اختار قلاوون أن ينشئ فرقة مملوكية من الجراكسة الذين كانوا يستوطنون المناطق الواقعة إلى الشمال من بحر قزوين وشرق البحر الأسود، وفي تلك الفترة كانت أعداد كبيرة من المماليك الجراكسة متوفرة في أسواق الرقيق بحيث كان سعرهم هو الأرخص على الرغم من شهرتهم الفائقة في الشجاعة والقوة.

أسكن السلطان المنصور قلاوون مماليكه الجراكسة في أبراج القلعة مما جعل البعض يطلقون عليهم اسم «المماليك البرجية»، وقد وصل عددهم إلى

(١) المرجع السابق ص ٦٨-٦٩.

نحو ثلاثة آلاف مملوك في السنوات الأخيرة من عصر قلاوون الذي حرص على عزلهم عن غيرهم من طوائف المماليك، كما اهتم بتدريبهم العسكري وحباهم بعطفه وأغدق عليهم من هباته وأمواله الكثير..."[١].

وقد سار أبناء قلاوون على سياسته في الاهتمام بطائفة المماليك الجراكسة، فقد اشترى الأشرف خليل- على الرغم من قصر مدة حكمه- حوالي ألفين من المماليك الجراكسة، وكان طبيعياً أن تزداد مكانة المماليك الجراكسة بازدياد اعتماد السلاطين من ذرية قلاوون عليهم، وقد ظهر دورهم السياسي واضحاً عندما قتلوا الأمير بيدرا الذي دبر مؤامرة لقتل أستاذهم الأشرف خليل بن قلاوون، وكانوا هم الذين اختاروا الناصر محمد سلطاناً على البلاد في سلطنته الأولى سنة ٦٩٣هـ/ ١٢٩٣م على الرغم من أنه كان ما يزال طفلاً صغيراً، وفي خضم الصراع الذي احتدم بين كتبغا وسنجر الشجاعي اللذين حكما باسم السلطان الطفل، ظهرت أهمية البرجية الذين ساندوا سنجر الشجاعي وهزموا كتبغا وأنصاره من المماليك البحرية.

وكان لانفضاض الجراكسة عن سنجر فيما بعد أكبر الأثر في هزيمته ومصرعه على يد كتبغا الذي اتخذ عدة إجراءات لتشتيت شمل الجراكسة، فأنزلهم من ثكناتهم في القلعة وشتتهم في أحياء القاهرة، فثاروا وتسببوا في سلسلة من الاضطرابات العنيفة لأن المسألة بالنسبة لهم كانت مسألة حياة أو موت[٢].

(١) سعيد عاشور: العصر المماليكي ص ١١١ وما بعدها.

(٢) المقريزي: المواعظ ٢/ ٢١٤- ٢١٦.

وساءت أحوال المماليك الجراكسة في عهد كل من السلطان كتبغا (٦٩٤ – ٦٩٦هـ/ ١٢٩٤-١٢٩٦م) وخلفه السلطان لاجين (٦٩٦ – ٦٩٨ هـ/ ١٢٩٦ – ١٢٩٨م) اللذان اغتصبا السلطنة من الناصر محمد، ثم نجح الجراكسة بزعامة الأمير سيف الدين كرجي في قتل السلطان لاجين، وعاد السلطان الناصر محمد مرة ثانية إلى عرش السلطنة، وبعدها بدأ نفوذ المماليك الجراكسة يتصاعد، وربما كانت شجاعة البرجية في القتال ضد المغول في بلاد الشام سنة ٧٠٢ هـ/ ١٣٠٢م من أسباب زيادة نفوذهم السياسي، فقد كانت لهم اليد الطولى في تحقيق النصر على قوات المغول في معركة «شقجب» بالقرب من دمشق في سنة ٧٠٠هـ/ ١٣٠٠م[1].

ازدياد نفوذ المماليك الجراكسة:

وفي سلطنة الناصر محمد الثانية زاد نفوذ المماليك الجراكسة وتبلورت زعامتهم في الأمير بيبرس الجاشنكير الذي جعل عددا كبيراً منهم يرتقون إلى مرتبة الإمارة، ولما كان الناصر محمد في سلطنته الثانية ما يزال ضعيفاً وغير قادر على التحكم في أمرائه فإن بيبرس الجاشنكير وزملاءه من الجراكسة بدأوا يفكرون في مصالحهم على حساب السلطان الناصر محمد بن قلاوون، ولكن الجراكسة لم يكونوا قد وصلوا بعد إلى المرحلة التي تمكنهم من الانفراد بالسلطة، فقد كان المماليك البحرية وغيرهم من الأتراك ما يزالون يتمتعون بقدر كبير من النفوذ في مواجهة نفوذ الجراكسة المتصاعد، وكان على رأسهم الأمير سلار.

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور، ١/ ١٢٥. وقاسم عبده قاسم، وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك، ص٢٠١.

وعبثاً حاول السلطان الناصر محمد أن يتخلص من نفوذهم، وحين فشل تنازل عن العرش وآثر أن يهرب إلى حصن الكرك[1].

وكانت فرصة للأمراء الجراكسة حين اعتلى كبيرهم بيبرس الجاشنكير عرش السلطنة؛ ليكون بذلك أول سلاطين الجراكسة، ولكن المماليك الأتراك رفضوا قبول الأمر الواقع وأبدوا معارضة عنيفة لحكم الجراكسة، وهرب المظفر بيبرس الجاشنكير من سلطنته التي مكث فيها عامين أو أقل (٧٠٨-٧٠٩هـ/ ١٣٠٨- ١٣٠٩م) واسترد السلطان محمد عرشه في سلطنته الثالثة، وقد علمته خبرته ومعاناته الطويلة أن الإسراف في الاعتماد على البرجية خطر يجب تحاشيه، فأخذ يلجأ إلى انتزاع بعض إقطاعاتهم، وأغرق من يخشى خطره منهم في نهر النيل.

وإذا كان السلطان الناصر محمد قد حكم البلاد بيد من حديد في سلطنته الثالثة فإن أبناءه وأحفاده كانوا في الغالب حفنة من الأطفال بحيث صار كبار الأمراء الجراكسة يحركونهم وفق هواهم، ومرة أخرى عادت قوة الجراكسة للظهور على مسرح الأحداث السياسية[2].

وفي عصر السلاطين الصغار- من أحفاد الناصر محمد بن قلاوون- برز اسم الأمير برقوق، الذي استطاع بفضل طموحه وقوته أن يصل إلى منصب أتابك العسكر سنة ٧٨٠هـ/ ١٣٧٨م، وبذلك أصبح برقوق على جانب كبير من القوة في عهد السلطان علاء الدين علي (٧٧٨- ٧٨٣هـ/ ١٣٧٦- ١٣٨١م) الذي لم

(١) المقريزي: السلوك ١/ ٨٧٥- ٨٧٦.

(٢) قاسم عبده قاسم، وعلي السيد علي: مرجع سابق، الأيوبيون والمماليك، ص ص٢٠١- ٢٠٢.

يتجاوز سنه ست سنوات(١).

السلطان الظاهر برقوق وبداية حكم المماليك البرجية (الجراكسة):

في خضم الحوادث التي انتهت بمصرع السلطان الأشرف شعبان سنة ٧٧٣هـ/ ١٣٧٦م ظهر الأمير برقوق كواحد من الجراكسة الكبار، وقد أسهم بقدر كبير في المؤامرة التي انتهت بمصرع السلطان الأشرف شعبان.

ولكن برقوقاً لم يستولِ على العرش بسرعة، وأقام على العرش صبياً آخر بدلاً من الطفل «المنصور علي» الذي توفي سنة ٧٨٣ هـ/ ١٣٨١م، ولأن السلطان الجديد كان في الحادية عشرة من عمره، فقد شاركه برقوق في العرش وساعده هذا على التمهيد لحكم الجراكسة، فعين رفاقه في المناصب الكبرى، وبدأ سياسة عامة للتقرب من الناس لكسب رضاهم، فأخذ يلغي الضرائب والمكوس، وسك عملة جديدة قوية، وخالية من الغش والتزوير، مما أدى إلى انتعاش اقتصادي محدود.

وعلى صعيد السياسة الخارجية استطاعت قواته صد الهجوم الذي قام به التركمان على حلب سنة ٧٨٣ هـ/ ١٣٨١م، فأعطاه النصر مزيداً من التأييد من جانب الناس(٢).

وفي سنة ٧٨٤ هـ/ ١٣٨٢م صعد اثنان من الأمراء الجراكسة من أعوان برقوق إلى القلعة حيث اقتادا السلطان الطفل ليسلماه إلى أهله، وارتقى برقوق عرش السلطنة تحت اسم السلطان الظاهر برقوق، وقد ظل الجراكسة في حكم

---

(١) سعيد عاشور: الأيوبيون والمماليك في مصر والشام، ص٢٩٣.

(٢) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى ص ٥٠١ - ٥٠٢.

البلاد حتى سقوطها تحت السيطرة العثمانية سنة ٩٢٣ هـ/ ١٥١٧م.

وبصعود برقوق على عرش السلطنة بدأ تاريخ سلطنة المماليك الجراكسة[١]. بدأت سلطنة برقوق بمعارضة سياسية وعسكرية من جانب حاكم أبلستين بالشام الأمير الطنبغا السلطاني، ولكن ثورة هذا الأمير الذي رفض الخضوع لحكم الجراكسة انتهت بالفشل بفراره إلى بلاد التتار.

وفي القاهرة حاك المماليك الأتراك مؤامرة لتولية الخليفة العباسي بالقاهرة عرش السلطنة، وانتهت هذه المحاولة أيضا بالفشل وعزل الخليفة وتم تولية غيره.

ثم اتحدت طوائف المماليك ضد برقوق، وتزعمهم منطاش نائب ملطية في الشام وهو زعيم المماليك الأشرفية (نسبة إلى الأشرف خليل بن قلاوون) ويلبغا الناصري نائب حلب بالشام أيضا، وهو زعيم المماليك اليلبغاوية (نسبة إلى يلبغا الخاصكي) واستطاع الثوار هزيمة جيش السلطان في دمشق وساروا في طريقهم إلى القاهرة[٢].

وعبثاً حاول برقوق أن يستميل الرأي العام معه بإلغاء الضرائب والمكوس وإعادة الخليفة العباسي المخلوع، ولكن أمراء المماليك تسللوا للانضمام إلى جيش الثوار القادمين من الشام، وفي ذلك الوقت كان الطاعون قد انتشر في القاهرة ليزيد الأحوال سوءاً، ولم يجد برقوق مفراً من الهرب والاختفاء في أحد منازل الخياطين في القاهرة ودخل جيش يلبغا القاهرة وصار بذلك سيد الموقف

---

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ١/ ٤٠٥.

(٢) المقريزى: السلوك ٣/ ٤٠٥.

وتم القبض على برقوق ونفي إلى الكرك.

أما عرش السلطنة فقد أجلس الثوار عليه طفلاً كان قد اعتلاه من قبل، وهو الصالح أمير حاج بن الأشرف شعبان، ولكن الصراع لم يلبث أن دب بين يلبغا ومنطاش حول السلطة، وهنا حانت الفرصة لبرقوق لكي يسترد عرشه، فكون جيشاً من الجراكسة في الشام وزحف به على دمشق حيث استولى عليها، وبعد عدة تطورات تمكن برقوق من استرداد عرشه؛ ليستمر في سلطنته الثانية تسع سنوات قضاها في مطاردة المماليك الأتراك ومصادرة كل ممتلكاتهم وإقطاعاتهم وتوزيعها على الجراكسة.

وعندما حاولت قبائل العربان التمرد على سلطة برقوق والاستيلاء على السلطنة والخلافة، كشف برقوق المؤامرة وسجن زعماءها[1].

الأحداث الداخلية في عهد المماليك الجراكسة:

كانت أهم خصائص هذه الدولة هي تلك الخاصية التي استمدت منها اسمها، ذلك أن معظم سلاطينها كانوا من الجراكسة، ولم يشذ عن هذه القاعدة سوى اثنين من السلاطين هما خشقدم وتمربغا اللذان كانا من أصل يوناني.

هذه الدولة التي استمرت في حكم البلاد مائة وأربعة وثلاثين عاماً توالى فيها على عرش البلاد خمسة وعشرون سلطاناً، منهم ستة عشر سلطاناً تولوا العرش في تعاقب سريع بحيث اهتزت مكانة السلطان ولم يعد أكثر من «الأول بين أقرانه»، فقد كان الأمراء هم الذين يولون السلاطين ويعزلونهم أو يقتلونهم

(١) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى، ص ٥٠١ - ٥٠٢.

في غالب الأحوال.

لقد تجلى في عصر الجراكسة فساد النظام السياسي الذي حكمه تماماً مبدأ «الحكم لمن غلب».

ذلك أن تطوراً حدث في نظام تربية المماليك في عصر الجراكسة أدى إلى ضعف الأسس التي قام عليها النظام السياسي المملوكي، فقد استعاض السلاطين والأمراء عن المماليك الأطفال الذين كانوا يخضعون لنظام صارم من التربية والتدريب بالمماليك من الشباب اليافع الذين تخطوا سن البلوغ، وقد عرف هؤلاء باسم «الجلبان» أو «الأجلاب»، وكانت النتيجة الطبيعية لهذا التطور أن ضعفت رابطة «الأستاذية» التي كانت تربط بين المماليك وسيدهم الذي كان له الفضل في تربيتهم وتدريبهم منذ نعومة أظافرهم، كما تخلخلت أواصر رابطة «الخشداشية» التي تجمع بين المماليك في إطار زمالتهم في طائفة بعينها من طوائف المماليك.

ومن ناحية أخرى ضعفت سيطرة الأمراء والسلاطين على أولئك المماليك الجلبان مما أدى إلى كثير من حوادث الشغب والاضطراب وحروب الشوارع التي كانت طرقات القاهرة وأزقتها مسرحاً لها.

ففي سنة ٨٧٧هـ/ ١٤٧٢م هاجموا أحد كبار موظفي الدولة وأهانوه، ولما وجدوا أن الحادث مر دون عقاب تعددت حوادثهم وكثرت اعتداءاتهم على الأمراء وكبار موظفي الدولة دون أن يجدوا قوة تردعهم أو تقف في طريقهم، بل إن واحداً من كبار سلاطين ذلك العصر هو السلطان «قايتباي» لم يستطع أن يفعل شيئاً سوى أن يحتجب بالقلعة احتجاجاً على تصرفات المماليك الذين

أشاعوا الذعر بين الأمراء بحيث امتنعوا عن الصعود إلى القلعة لمباشرة مهام الحكم فترة من الزمان، وفي العام التالي أراد المماليك قتل الأمير «يشبك الداوادار»، فأمر السلطان جيشه بالاستعداد لقتال الجلبان وماجت القاهرة بالفزع والفوضى وأغلقت الأسواق[1].

وفي الشطر الأخير من ذلك العصر زاد معدل الحوادث العنيفة التي كان مصدرها المماليك الجلبان، وعلى الرغم من أن الأوامر كانت تصدر من حين لآخر بعدم تعرض المماليك للناس والباعة والتجار، فإنه يبدو أن عجز السلاطين وتدهور سلطة الدولة جعل تلك الأوامر تبدو «... كضرب رباب، أو كطن ذباب...» على حد تعبير المؤرخ ابن تغري بردي، وقد أدى هذا إلى التدهور الاقتصادي بشكل واضح.

ويبدو أن عجز الحكام عن منع الجلبان من الاعتداء على الأسواق والناس جعل المصريين يعتمدون على أنفسهم في التصدي لأولئك المماليك، وقد ألحق الناس كثيراً من الأذى والضرر بالمماليك.

فقد نودي بالقاهرة سنة ٩٢١هـ/ ١٥١٥م بعدم تعرض الناس لمماليك السلطان والإضرار بهم وإلا كان جزاء من يفعل ذلك قطع يده، وقد أدت هذه الحوادث إلى مزيد من الفشل السياسي للدولة[2].

كذلك فإن قبائل العربان بدأت تهاجم ضواحي المدن في وضح النهار، وينهبون الناس، وقد يقتلون البعض، أو يطلقون سراح بعض المسجونين دون

(١) قاسم عبده قاسم وعلي السيد علي: الأيوبيون والمماليك ص ١٥٨- ١٦٢.

(٢) ابن تغري بردي: النجوم الزاهرة ١١/ ٢٧٧- ٢٨٩.

أن يجدوا من يطاردهم أو يقف في طريقهم، كما تعددت حوادث العثور على قتلى من المماليك دون معرفة القاتل.

الأحداث الخارجية في عهد المماليك الجراكسة:

وعلى المستوى الخارجي كان هناك خطراً جديداً بدأ يهدد حدود سلطنة مماليك الجراكسة، ذلك هو خطر «تيمورلنك» الذي كان ينتمي إلى بيت من أشراف التتار.

ولد في مدينة سمرقند التي كانت قاعدة لعملياته العسكرية التي تمكن بواسطتها من فرض نفوذه على بلاد ما وراء النهر وخراسان وطبرستان حتى استولى على مدينة تبريز في إيران الحالية سنة ٧٧٠ هـ/ ١٣٦٨م، ثم استولى على بغداد سنة ٧٩٦ هـ/ ١٣٩٣م، وبذلك بات على وشك الصدام مع دولة المماليك التي اقترب كثيراً من حدودها، وأرسل تيمورلنك رسالة تفيض بالتهديد إلى برقوق الذي بادر بقتل الرسل واستعد للقتال.

ولكن تيمورلنك كان مشغولاً بالقتال في الهند، فآثر أن يؤجل الصدام إلى حين.

وفي الوقت نفسه ساعد برقوق على طرد الحامية التي تركها تيمورلنك في بغداد وأعلن حاكم بغداد تبعيته للسلطان في مصر.

ولكن تيمورلنك استعاد بغداد مرة أخرى سنة ٨٠٢ هـ/ ١٣٩٩م، وجاءت تلك الخطوة في الوقت الذي توفي فيه السلطان برقوق وتولى الحكم بعده ابنه السلطان «الناصر فرج» الذي كان في العاشرة من عمره، وفي أثناء حكمه لقي الجيش المملوكي هزيمتين كبيرتين ضد قوات تيمورلنك في حلب

ودمشق سنة ٨٠٣ هـ/ ١٤٠٠م، وقد أقنعت الهزيمة سلطان المماليك بعقد معاهدة مع تيمورلنك الذي توفي بعد ذلك في سمرقند سنة ٨٠٨هـ/ ١٤٠٥م[1].

أما الحادث الهام الثاني على المستوى الخارجي فهو ما حدث إبان حكم السلطان الأشرف برسباي (٨٢٦ – ٨٤٢ هـ/ ١٤٢٢ – ١٤٣٨م)، ذلك أن طول مدة حكم هذا السلطان مكنته من القيام بمشروع عسكري كبير هو غزو جزيرة "قبرص" وتحويلها إلى ولاية تابعة للدولة المملوكية المصرية.

وقد اتخذ الصليبيون جزيرة قبرص قاعدة للعمليات العسكرية والبحرية ضد المسلمين، وقد ملكها «بطرس لوزينان» الذي هاجم الإسكندرية وخربها سنة ٧٦٧ هـ/ ١٣٦٥م، وقد حاول المماليك غزو قبرص زمن الظاهر بيبرس، كذلك السلطان الأشرف شعبان شن بعض الغارات ضد جزيرة قبرص ولكنه لم يحاول الاستيلاء عليها، وعندما تولى برسباي عرش البلاد سنة ٨٢٦ هـ/ ١٤٢٢م رأى أن غزو قبرص يمكن أن يحقق له كثيراً من أهدافه السياسية الداخلية، وفي السنة الثانية من حكم هذا السلطان جاءت الأخبار بأن الفرنج استولوا على مركبين من مراكب المسلمين فيهما حوالي مائة مسلم، وبأن جانوس لوزينان ملك قبرص استولى على مركب للسلطان كانت محملة بالهدايا المرسلة للسلطان مراد العثماني[2].

وكان رد الفعل سريعاً عنيفاً من جانب مصر، فقد شن الأسطول المصري

---

(١) ابن عربشاه: عجائب المقدور في أخبار تيمور ص ٧٠– ٧٦، ١٠٧ وما بعدها.

(٢) سعيد عاشور: قبرص والحروب الصليبية ص ٨٤– ٨٥.

ثلاث حملات لغزو قبرص في سنوات ٨٢٨ هـ/ ١٤٢٤، ٨٢٩ هـ/ ١٤٢٥، ٨٣٠ هـ/ ١٤٢٦م على التوالي، وقد حققت الحملتان الأولى والثانية نتائج مرضية، وعادت بكثير من الأسرى والغنائم، ولكن برسباي أصر على إخضاع الجزيرة لحكمه حتى يتخلص نهائياً من المتاعب التي يسببها بقايا الصليبين في هذه الجزيرة، وقد تمكنت الحملة الثالثة من تدمير ميناء «ليماسول» ميناء الجزيرة الرئيسي، وأسروا الملك القبرصي نفسه، واستولوا على «نيقوسيا» عاصمة الجزيرة ورفعوا الرايات المصرية على مبانيها.

. وعادت الحملة لتسير في موكب حاشد في شوارع القاهرة، وخلفهم الأسرى ومعهم الملك جانوس الذي قبل الأرض تحت قدمي السلطان واستعطفه وأعلن خضوعه للحكم المصري ودفع فدية كبيرة، وهكذا حققت الحملة نجاحاً سياسياً كبيراً للسلطان الأشرف برسباي على المستوى الخارجي يعوضه عن الفشل الكبير في الداخل، حيث كانت أحوال البلاد و العباد في تدهور مستمر كما أوضحنا من قبل[١].

وفي عهد السلطان الظاهر جقمق (٨٤٢ - ٨٥٧هـ/ ١٤٣٨- ١٤٥٣م) تم غزو جزيرة «رودس» التي كانت مركزاً هاماً للصليبيين بعد طردهم من فلسطين، فقد اتخذها فرسان الإسبتارية قاعدة لهم يشنون منها غارتهم على نحو ما كان آل لوزينان يفعلون في قبرص.

وقد أرسل السلطان جقمق هو الآخر ثلاث حملات ضد رودس، وكانت الهزيمة من نصيب الحملة الأولى التي استطاع الإسبتارية أن يلحقوا بها بعض

(١) سعيد عاشور: مصر في عصر المماليك ص ٥١٠ - ٥١٢.

الخسائر وحققت الحملة الثانية بعض النتائج الإيجابية حين حطمت بعض الحصون، ثم عادت إلى مصر بفعل عواصف الشتاء التي أعاقت عملياتها العسكرية.

أما الحملة الثالثة فقد فشلت في تحقيق أهدافها وتم عقد صلح بين الطرفين بعد أن تعهد الإسبتارية بعدم العدوان على السفن التجارية الإسلامية العاملة في البحر المتوسط[١].

وبعد عهد جقمق لم يظهر سلطان هام سوى قايتباي الذي كان حريصاً على تخليد اسمه بالمنشآت الكثيرة على الرغم من ازدياد التدهور في أحوال البلاد بسبب كثرة الضرائب والأوبئة والمجاعات[٢].

السلطان قنصوه الغوري ونهاية الدولة المملوكية:

وبعد قايتباي تولى عدد من السلاطين عرش البلاد في تعاقب سريع يعكس مدى التدهور والاضطراب، وقد انتهت حياة معظم السلاطين الذين تولوا العرش بعد قايتباي بالقتل أو الخنق أو السجن، وبات كرسي السلطنة خطراً يتهرب الجميع من الجلوس عليه، وليس أدل على ذلك مما تحكيه المصادر التاريخية من أن قنصوه الغوري (أقوى أمراء زمانه) رفض العرش حين عرضه الأمراء عليه سنة ٩٠٧ هـ/ ١٥٠١م بل كان يبكي. فقد ذكر ابن إياس أن الأمراء «... سحبوه وأجلسوه وهو يمتنع من ذلك ويبكي، وحين ألحوا عليه

(١) إبراهيم طرخان: مصر في عصر دولة المماليك الجراكسة ص ٣٥- ٣٧، ٩٣- ٩٤.

(٢) زكي محمد حسن: فنون الإسلام ص ٧٧- ٧٨، ٨٢- ٨٤.

اشترط عليهم ألا يقتلوه، وأن يصرفوه بالمعروف لو أرادوا عزله»[١].

وعلى الرغم من قوة شخصية قنصوه الغوري وصلابته وطول مدة حكمه، فإن ذلك كله لم يمنع دولة سلاطين المماليك من أن تمضي إلى مصيرها المحتوم، فقد وصل التدهور الداخلي إلى مداه، ولم يكن ممكناً أن تصمد الدولة المنهارة من الداخل في وجه الأخطار القادمة من الخارج[٢].

فقد كان الخطر البرتغالي يطرق البحر الأحمر بعد أن عرف البرتغاليون طريق رأس الرجاء الصالح سنة ٩٠٣ هـ/ ١٤٩٧م بمساعدة الملاح المسلم أحمد بن ماجد، ثم وجدوا لأنفسهم قاعدة للتوسع في كلكتا بالهند سنة ٩٠٦ هـ/ ١٥٠٠م، وكان هذا خطراً جسيماً يهدد الدور العالمي للتجار المسلمين ولدولة سلاطين المماليك التي كانت تفيد كثيراً من مرور التجارة عبر مصر، وعندما استنجد أمراء المسلمين في الهند بسلاطين المماليك يطلبون إمدادهم بالقوات الإسلامية اللازمة لصد البرتغاليين، حاول الغوري مساعدتهم وأرسل الأسطول المصري الذي انضم إلى قوات مسلمي الهند، ولكن الهزيمة كانت من نصيب القوات الإسلامية في معركة «ديو» البحرية.

وبدأ التغلغل الأوروبي يصل إلى مداه، وهاجم البرتغاليون عدن عند مدخل البحر الأحمر سنة ٩١٩ هـ/ ١٥١٣م وكانت تلك ضربة قاصمة للهيبة المصرية في عالم البحر الأحمر[٣].

(١) ابن إياس: بدائع الزهور ٤/ ٤.

(٢) سعيد عاشور: مصر في العصور الوسطى ص ٥٢٥.

(٣) سعيد عاشور: الحصار الاقتصادي على مصر زمن الحروب الصليبية، ص١١٠، مجلة المصرية للعلوم السياسية، أكتوبر ١٩٦٢.

وفي الشمال في آسيا الصغرى كان هناك خطر آخر يتمثل في العثمانيين عندما بدأ التنافس بين الدولتين بسبب حدودهما المشتركة، وتصاعدت التوترات بين الدولتين حتى انتهت بمعركة بين الجيشين المملوكي بقيادة قنصوه الغوري، والعثماني بقيادة سليم الأول بمرج دابق في أغسطس سنة ٩٢٢ هـ/ ١٥١٦م، واتضحت حالة الدولة المملوكية المنهارة في صفوف جيش قنصوه الغوري الذي كان الخلاف فيه شديداً بين طوائف المماليك، ولعبت الخيانة دورها إلى جانب التفكك حتى خر الغوري صريعاً تحت سنابك الخيول العثمانية[١]..

وتوغل العثمانيون جنوباً واستولوا على مدن الشام كلها، حتى دخل السلطان سليم دمشق وصلى بها الجمعة، وكان طومانباي يتولى في ذلك الحين وظيفة نائب الغيبة في مصر، وأرسل اليه سليم للدخول في طاعته فرفض وقرر المقاومة أمام جيش السلطان سليم العثماني الذي أخذ يتجه جنوباً لغزو مصر، وبذل طومانباي خلال سلطنته القصيرة التي استمرت ثلاثة أشهر جهوداً مضنية للدفاع عن مصر، لكن الدولة المملوكية كانت قد سقطت بالفعل، ولم تُجدِ محاولات طومانباي شيئاً في إحياء جسد الدولة الذي كان قد مات وحانت ساعته الأخيرة[٢].

كان السلطان طومانباي يحاول أن يلم شعث القوات المملوكية التي ركنت إلى الدعة وهربت من القتال دفاعاً عن البلاد، مكتفية بحروب الشوارع

---

(١) زيادة: نهاية السلاطين المماليك ص ٢٠٠- ٢١٧.

(٢) ابن إياس: بدائع الزهور ٥/ ١٠٣.

والهجوم على الأسواق وغير ذلك من مظاهر التفسخ والانهيار التي حلت بالطبقة الحاكمة في مصر آنذاك، وعلى الرغم من تواتر الأنباء يوماً بعد يوم باقتراب قوات العثمانيين من القاهرة ظل المماليك سادرين في لهوهم وعبثهم.

وحين حاول طومانباي أن يستعد لملاقاة الغزاة صدمته الحقائق القاسية من خزانة خاوية، وموارد مستهلكة، وجيش متشرذم، وكانت النتيجة أن انهار المماليك أمام العثمانيين[1].

وحين اهتز جسد طومانباي في مشنقته على باب زويلة كان ذلك فصل الختام بالنسبة للدولة المملوكية التي تحملت عبء التصدي للمغول والصليبيين، ثم تخلت- مرغمة- عن دورها لقوة إسلامية صاعدة جديدة هي الدولة العثمانية التي كان عليها أن تصون العالم العربي من أطماع الاستعمار الغربي على مدى فترة طويلة حتى أواخر القرن التاسع عشر.

عوامل سقوط الدول الإسلامية المستقلة:

والآن بعد هذا الاستعراض السريع لمسيرة الكيانات الإسلامية المستقلة عبر التاريخ هل نستطيع أن نضع أيدينا بقدر من التجرد على العوامل التي ساقت الدول الإسلامية المستقلة إلى مصائرها؟ فضلاً عن الأسباب التي كانت ترتبط بكل دولة فتقودها إلى السقوط؟

ويجيب عن هذين السؤالين الدكتور عماد الدين خليل في كتلبه «في التأصيل الإسلامي للتاريخ» فيقول:

(١) زيادة: نهاية السلاطين المماليك ص ٢٢٥-٢٢٧.

أولاً: الدافع العقدي:

إن غياب الدافع العقدي عند المسلمين أصاب إرادتهم بالخمول والعجز والكسل وصدها عن المبادرة الدائمة لاستغلال عناصر الزمن والمكان وتحقيق مزيداً من التقدم والإبداع.

وترتبط بهذا العامل مسألة أخرى لا تقل أهمية في تأثيرها عن سقوط الدول الإسلامية وهي: إنها فقدان حركة الجهاد ديمومتها وحيويتها، وقد بينا في أكثر من مكان من هذا الكتاب الأهمية البالغة لهذه الحركة، وارتباطها الصميم بصيرورة الدول الإسلامية وفاعلية قيادتها قوة أو ضعفًا.

ثانياً: التكاثر المادي وندرته:

هنالك طبيعة النظام بالنسبة لدرجة المرونة التي يتمتع بها، فحيثما انخفضت النسبة مال النظام إلى الصلابة وتجاوز حده المعقول في ذلك، فآل به الأمر إلى التيبس والتكسر والسقوط، وحيثما ارتفعت النسبة فجاوزت حدها المعقول كذلك مال النظام إلى التسيب والتفكك، وانتهى به الأمر إلى الفوضى التي تسوقه إلى الدمار.

ثالثاً: غياب المقدرة القيادية:

هنالك مدى قدرة الجماعة التاريخية- قيادة وقواعد- على الاستجابة للتحديات المتجددة، طبيعية وبشرية واجتياز الامتحان بنجاح يمنحها مزيدا من الخبرات والقدرة على التجدد ومواصلة المسير، فإذا عجزت عن الاستجابة واستسلمت للتحديات وجدت نفسها مضطرة إلى الابتعاد عن المسرح

والانزواء بعيداً تاركة الساحة لمن يقدر على الثبات بوجه الأعاصير مستمداً منها طاقة أكبر على التقدم والاندفاع[(١)].

رابعاً: الصراع على السلطة:

إن الازدواج الذي تعانيه السلطة السياسية في الدول المستقلة في مناصبها القيادية العليا بسبب وجود أكثر من مركز للقوة يسعى إلى التفرد بالسلطان، يتمثل حيناً بتزامن وليين للعهد مرة واحدة، ويتمثل حيناً آخر بالتنافس بين الإدارة المدنية والمركز العسكري، ويتمثل حيناً ثالثاً بعمليات الشد والجذب بين مسئولين كبيرين كخليفة وسلطان، أو أمير ووزير... وهكذا.

بالإضافة إلى التناحر الحزبي أو القبلي أو المذهبي أو السياسي إلى آخره، ووقوع السلطة في خطيئة التزام هذا الجانب أو ذاك ودفع القوى الأخرى بالتالي إلى اتخاذ موقف المعارضة والعداء، وربما السعي للتعويض عن طريق تحقيق ذاتها في أطراف الدولة في حالة عجزها عن الأمر في المركز نفسه يؤدي إلى ضعف الدول المستقلة وسقوطها.

خامساً: غياب العدالة في توزيع العمل:

هنالك انعدام مبدأ تكافؤ الفرص أو انحساره، حيث تعطى المناصب الحساسة والمراكز الحيوية ليس للمتفوقين الذين يمتلكون القدرة على التجدد والعطاء والإبداع ورَفْد التجربة بخبراتهم العميقة ونظراتهم الصائبة، وإنما

---

(١) عماد الدين خليل: في التأصيل الإسلامي للتاريخ، ص ٧١، الطبعة الأولى، دار الوفاء، المنصورة ١٩٩٨م.

لذوي الكفاءات المحدودة، أو أولئك الذين لا يملكون أية كفاءة لهذا السبب أو ذاك.

وحيث يعجز القلب عن ضخ الدماء الجديدة إلى سائر الجهات وتوصيل الحيوية والانتعاش إلى سائر الأطراف، تتفكك وتستسلم للتجزؤ والتفتت والانهيار.

سادساً: ظلم القيادات لرعاياهم:

وهنالك النقمة الشعبية التي تسري كالنار في صفوف الجماعات، والتي تتمخض بالضرورة عما تمارسه بعض السلطات من كبت واستئثار وطغيان، إن لكل فعل رد فعل يساويه في القوة ويخالفه في الاتجاه، وها هنا سيكون الرد عنيفاً بالقدر الذي يمارسه الطغيان، وهو أحياناً بسبب عنفه، واندفاعه الذي لا يقف عند حدوده الثورية التي تهدم وتبني، وكأنه يتجاوزها إلى الفوضى والتخريب، فيقود التجربة إلى الانحلال والدمار.

سابعاً: التدهور الاقتصادي:

لعبت الفوضى الاقتصادية دوراً خطيراً في ضعف للدول الإسلامية وانجرافها للسقوط؛ لأن الاقتصاد هو الأساس المتين الذي تبنى عليه قدراتها المادية في كافة الميادين بما فيها الميدان العسكري بطبيعة الحال، بالإضافة إلى تعثر النشاط والإدارة السيئة للمنظومة الاقتصادية، والاضطراب في تنظيم مالية الدولة، والظلم في فرض الضرائب، والقلق والتخلف في الإنتاج، وسوء التوزيع وغيرها... كل ذلك لعب دوراً خطيراً في تدمير الإمكانيات الاقتصادية

للدول الإسلامية وشل- بالتالي- قدرتها على الامتداد والضبط والرد على التحديات، وأدى إلى مزيد من الصراع ودفع الجماعات المسحوقة للحركة، والثورة ضد مستلبي حقوقها أولئك الذين يتربعون في القمة ويحتكرون المال والسلطة معاً[١].

في تاريخ الدول الإسلامية المستقلة:

١- إن التمزق الذي أصاب جسد الدولة الإسلامية بعد مرور عقد فحسب على نجاح العباسيين في تأسيس دولتهم وظهور عدد من الإمارات والمدن المستقلة في أنحاء شتى من العالم الإسلامي، ورغم أنه يعد بحد ذاته ظاهرة سلبية وعرضاً مرضياً خطيراً يدعوا للتأمل والنقد، إلا أن أمة متحضرة كالأمة الإسلامية في ذلك العصر كان بإمكانها أن تحول هذه الظاهرة إلى حركة إيجابية مستمرة في مجالي السياسة والحضارة، حيث صرنا نجد عدداً من الدويلات تنشأ حيوية قوية؛ لكي ترد على العدوان الذي كان يتهدد حدود الإسلام باستمرار في الغرب والشرق والشمال، في وقت كان مركز الدولة الإسلامية فيه يعاني مرضاً وشيخوخة مزمنة وإرهاقاً وغياباً مكانياً لم يتح له أن يقوم بالتصدي الفعلي لهذه الأخطار.

٢- كما صرنا نجد عدداً من الدويلات تنشأ لكي تزيد من حدة التنافس الحضاري بين إمارات المسلمين، ولكي تعمق مجرى الحضارة الإسلامية وتغنيها بمزيد من المعطيات، الأمر الذي دفع تلك الحضارة خطوات

(١) عماد الدين خليل: في التأصيل الإسلامي للتاريخ، ص٧٢- ٧٤.

واسعة عريضة إلى الأمام.

٣- ثم إننا صرنا نجد عددا من هذه الدويلات يعيد بعث روح الجهاد في نفوس المسلمين، ويصوغ تنظيمات عسكرية وعقائدية وسياسية تحقق هذا الهدف العظيم الذي لولاه لما قامت للإسلام قائمة(١).

هكذا لعب الأدارسة دورهم في المغرب في مد الإسلام إلى قلب قارة أفريقيا عبر مسالكها الشمالية الغربية، وكانوا أول من مهد الطريق للنشاط الواسع الذي مارسه الدعاة إلى الإسلام في تلك القارة.

وهكذا لعب الأغالبة في تونس دورهم في صد خطر البيزنطيين تجاه السواحل الإفريقية، وفي تحويل موقف الدفاع الذي اتخذته هذه المنطقة إلى هجوم استمر عقوداً طويلة من الزمن، واستطاعوا أن يجلوا قوات البيزنطيين إلى داخل القارة الأوربية، وأن يكتسحوا جزرهم في البحر المتوسط حتى أحالوا هذا البحر الكبير إلى بحيرة إسلامية وأنشأوا في جزرها ومرافئها حضارة غنية كانت إحدى الجسور التي انتقلت عليها حضارة المسلمين إلى الغرب.

وهكذا لعب الطولونيون في مصر والشام دورهم في إيقاف محاولات البيزنطيين الارتدادية صوب بلاد الشام.

وهكذا لعب الحمدانيون في حلب دورهم المشهور في صد تلك المحاولات نفسها- وهي على أعنف ما تكون- وتمكنوا من كسر حدتها.

وهكذا لعب السامانيون فيما وراء النهر دورهم في نشر الإسلام والثقافة الإسلامية في أقاليم التركمان الوثنية الشاسعة الممتدة حتى أطراف الصين، وفي

(١) عماد الدين خليل: في التأصيل الإسلامي للتاريخ، ص٦٦- ٦٧.

تحويل هذه القوى البدوية التي لا تعرف السلم والاستقرار، إلى قوة حبشية مسلمة مثقفة مستقرة مارست دورها- فيما بعد- على طريق الإسلام[1].

وهكذا لعب الغزنويون والغوريون من بعدهم في شمال الهند إزاء الهنود الوثنيين نفس الدور الذي لعبه رفاقهم السامانيون من قبل إزاء الأتراك.

وهكذا أيضا ظهرت دولتا المرابطين والموحدين في المغرب؛ لكي تعيد للجهاد الإسلامي مفهومه الثائر العميق.

وإذا ما التفتنا إلى الدويلات التي قامت في ظل العصر السلجوقي في الجزيرة الفراتية والشام والأناضول وجدناها تسهم هي الأخرى إسهاماً قيادياً مباشراً وخطيراً ضد الغزو الصليبي في حملته الأولى على الجناح الشرقي لعالم الإسلام.

إن حضارة الإسلام هي حضارة الوحدة والتنوع، وقد انعكست هذه السمة الأصلية على ظاهرة نشوء الدويلات في عالم الإسلام، فصرنا نجد تنوعاً في التشكيلات السياسية التي انشقت عن جسد الدولة، وصرنا نجد في الوقت نفسه وحدة وتجانساً وتعاطفاً في العطاء الحضاري وفي الأساليب والأهداف الكبرى، وفيما عدا حالات محدودة لهذه القاعدة الشاملة... حالات ظهر فيها عدد من الدويلات تبنت مبادئ وعقائديات باطنية إباحية هدامة ذات جذور فارسية ويهودية غريبة عن عقيدة الإسلام دويلات لمت شعث مبادئها الغريبة هذه من نظريات رجعية موغلة في البعد عن جوهر التوحيد وسماحة الإسلام، دويلات مارست قواها الذاتية لا في الدفاع عن أرض الإسلام وعقيدته ووجوده وإنما

---

(١) عماد الدين خليل: في التأصيل الإسلامي للتاريخ، ص٦٨

ضد أرض الإسلام وعقيدته ووجوده- كما فعلت دولة قرامطة البحرين على سبيل المثال- بل إن بعضها كالدولة البابكية في أذربيجان، سعى إلى عقد محالفات ومواثيق مع الأعداء الخارجين المتربصين على الحدود والثغور[1].

فيما عدا هذه الحالات فإن معظم التشكيلات السياسية التي شهدها عالم الإسلام أسهمت- حسب قدراتها وطاقاتها- في خدمة هذا العالم سياسياً وحضارياً، ولن تغني الأمثلة الموجزة هنا عن واقع تاريخنا نفسه.

(١) عماد الدين خليل: في التأصيل الإسلامي للتاريخ، ص٦٩.

خلاصة الوحدة

نخلص من دراسة هذه الوحدة إلى ما يلي:

- المماليك هم الرقيق الأبيض الذين اعتمد عليهم حكام الشرق الإسلامي بعد صلاح الدين، حيث لقنوهم مبادئ الدين الإسلامي ودربوهم على الحياة العسكرية، وكان معظمهم من الأتراك والمغول والجراكسة وغيرهم.
- كانت أقوى الروابط التي تجمع المماليك هي رابطة الأستاذية التي تربطهم بالسيد أو الأمير.
- كانت المنافسة الدموية هي الطريق الذي يعترف به الجميع للوصول إلى العرش.
- انقسمت دولة المماليك إلى:

١- المماليك البحرية:

كانت شجر الدر أول سلاطينها حيث وجهت اهتمامها الأول للتخلص من بقايا الحملة الصليبية السابعة، لكنها تنازلت عن الحكم لزوجها عز الدين أيبك بعد اعتراض الخلافة العباسية على تولي امرأة للحكم.

- تولى عز الدين أيبك محاربة الأيوبيين وهزمهم وعندما أراد الزواج من ابنة صاحب الموصل قتلته زوجته شجر الدر.
- تولى ابنه نور الدين علي لكنه كان صبياً وكان خطر المغول قادماً مما دعا إلى خلعه.

- تولى الملك سيف الدين قطز الذي تحدى المغول وحشد الجيوش لهزيمتهم في عين جالوت هزيمة نكراء، وبينما كان يستعد للعودة إلى بلاده قتله بيبرس؛ لأنه لم يوله إمارة حلب.
- حكم بعده الظاهر بيبرس الذي يعتبر المؤسس الحقيقي لهذه الدولة، فقام ببناء أسطول قوي وجيش، وقام بتنظيم الإدارة الحكومية، وبعض الاصلاحات الداخلية.
- وحارب الصليبيين واستولى على يافا وأنطاكية وغيرها.
- كذلك تحالف بيبرس مع مغول القبجاق وحارب مغول فارس حتى وفاته.
- تولى بعده قلاوون الذي هزم المغول قرب حمص.
- ثم ورثه الأشرف خليل الذي قضى على الصليبيين في أرض الشام، وفتح عكا، وزالت دولتهم تماماًمن أرض الشام.
- في عهد الناصر محمد بن قلاوون استقرت دعائم الدولة والبلاد وازدهرت الفنون وبنيت المساجد والعمائر التي ما زالت قائمة إلى الآن.
- بعد ذلك تعاقب على الحكم عدة مماليك وساد عدم الاستقرار السياسي وانتهى معظم حكامهم بالقتل أو السجن حتى قامت دولة المماليك الجراكسة.

٢- دولة المماليك الجراكسة:

هم فرقة من شمال بحر قزوين وشرق البحر الأسود كانوا يتميزون بالشجاعة والقوة.

تولى الأمير برقوق الحكم الذي بدأ سياسته بالتقرب إلى الناس، وألغى الضرائب وسك عملات قوية، كما قام بهزيمة التركمان، ثم سادت الفتن بين طوائف المماليك وظهر الطاعون مما دعاهم إلى القبض عليه وسجنه، لكنه تمكن من استرداد عرشه.

اتسمت الأحداث الداخلية في عهد المماليك الجراكسة بالاضطراب والفوضى والحوادث العنيفة والثورة على الأمراء والسلاطين وظهور قتلى دون معرفة القاتل.

وعلى صعيد الأحداث الخارجية واجه المماليك هزيمتين على يد تيمورلنك من التتار، ثم عقدت معاهدة بينهما.

حارب قنصوه الغوري الصليبيين في قبرص، وانتصر عليهم وأسر الكثير منهم، ولكنه انهزم أمام البرتغاليين في موقعة ديو البحرية.

حارب المماليك العثمانيين وانهزموا في موقعة مرج دابق، ثم انهارت دولة المماليك وسقطت أمام العثمانيين بقيادة سليم الأول.

- عوامل سقوط الدول الإسلامية المستقلة:

١- الدفع العقدي.

٢- التكاثر المادي وندرته.

٣- غياب المقدرة القيادية.

٤- الصراع على السلطة.

٥- غياب العدالة في توزيع العمل.

٦- ظلم القيادات للرعايا.

٧- التدهور الاقتصادي.

أسئلة التقويم الذاتي

أولاً: أسئلة المقال:

أجب عما يأتي:

س١: كيف ظهر المماليك في العالم الإسلامي وما هي أصولهم؟ وضح ذلك.

س٢: كيف استولى المماليك على الحكم بعد الدولة الأيوبية؟ اشرح ذلك.

س٣: ما هي الأسباب التي دفعت شجر الدر إلى التنازل عن الحكم؟ فصل القول.

س٤: كيف قضى عز الدين أيبك على الأيوبيين؟ مع التوضيح.

س٥: ما هي الجهود التي بذلها القائد قطز في محاربة المغول؟ وضح ذلك تفصيلاً.

س٦: كيف تولى الملك بيبرس الحكم؟ ولماذا يعتبر المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية؟

س٧: ما هي أهم انتصارات بيبرس على الصليبيين والمغول؟ وضح ذلك.

س٨: اشرح كيف تم قطع دابر الصليبيين من أرض الشام.

س٩: كيف انتهت دولة المماليك البحرية؟ فصل القول.

س١٠: كيف ظهر المماليك الجراكسة في العالم الإسلامي حتى توليهم الحكم؟

س١١: ما هي أهم سلاطين المماليك الجراكسة؟ فصل القول.

س١٢: كيف انتهت دولة المماليك وما هي أهم عوامل سقوط الدول المستقلة في مصر والشام؟

ثانياً: أسئلة الصواب والخطأ:

ضع علامة (✓) أمام العبارة الصحيحة أو علامة (✗) أمام العبارة الخاطئة مع تصويب الخطأ:

١- السلطان عز الدين أيبك هو أول سلاطين المماليك. ( )

٢- قتلت شجر الدر عز الدين أيبك عندما أراد الزواج من غيرها. ( )

٣- يعتبر الملك قطز هو المؤسس الحقيقي لدولة المماليك. ( )

٤- انتصر المماليك في موقعة عين جالوت. ( )

٥- قضى الملك بيبرس على الصليبيين وقطع دابرهم من الشام. ( )

٦- تزوج الناصر قلاوون من ابنة الملك بركة خان المغولي. ( )

٧- يعتبر عصر الناصر قلاوون من أزهى عصور المماليك البحرية. ( )

٨- كان بيبرس على علاقة سيئة بالخلافة العباسية. ( )

٩- قام بيبرس بقتل قطز قبل أن يعود إلى بلاده. ( )

١٠- يعتبر الأمير قايتباي هو أول حكام المماليك الجراكسة. ( )

١١- كان الأمير برقوق يتقرب إلى الناس بإلغاء الضرائب. ( )

١٢- ظهر الطاعون في القاهرة في عهد السلطان قايتباي. ( )

١٣- أشاع المماليك الذعر بين الناس ولم يستطع الحكام منعهم من ذلك. ( )

١٤- انتصر السلطان برقوق على تيمورلنك المغولي. ( )

١٥- انتصر المماليك في موقعة مرج دابق. ( )

١٦- انهارت دولة المماليك على يد العثمانيين. ( )

١٧- انتصر البرتغاليون في موقعة ديو البحرية. ( )

ثالثاً: أسئلة الاختيار من متعدد:

اخترِ الإجابة الصحيحة من بين الأقواس:

١- تولى المماليك البحرية في الفترة من [(٦٤٨- ٧٨٤)- (٦٤٩- ٧٨٥)- (٦٤٩- ٧٨٦)].

٢- أول سلاطين المماليك البحرية [عز الدين أيبك- شجر الدر- توران شاه].

٣- المؤسس الحقيقي لدولة المماليك البحرية هو [قطز- بيبرس- عز الدين أيبك].

٤- انتصر في عين جالوت وهزم التتار وهو [قطز- بيبرس- الناصر قلاوون].

٥- قطع دابر الصليبيين من أرض الشام وهو [السلطان قلاوون- الأشرف خليل- الناصر محمد].

٦- يعتبر عصره أزهى عصور المماليك البحرية وهو [السلطان قلاوون- الأشرف خليل- بيبرس- الناصر محمد].

٧- حكمت دولة المماليك الجراكسة في الفترة [(٧٨٤- ٩٢٤)- (٧٨٤- ٩٢٣)- (٧٨٥- ٩٢٣)].

٨- فتح المسلمون قبرص في عهد السلطان [بيبرس- الناصر محمد-

الأشرف برسباي].

٩- سقطت دولة المماليك نهائياً في عهد [قايتباي- قنصوه الغوري- برسباي].

١٠- انهزم المماليك أمام البرتغاليين في موقعة [مرج دابق- ديو البحرية- عين جالوت].

١١- انهزم المماليك أمام العثمانيين في موقعة [مرج دابق- ديو البحرية- الصفورية].

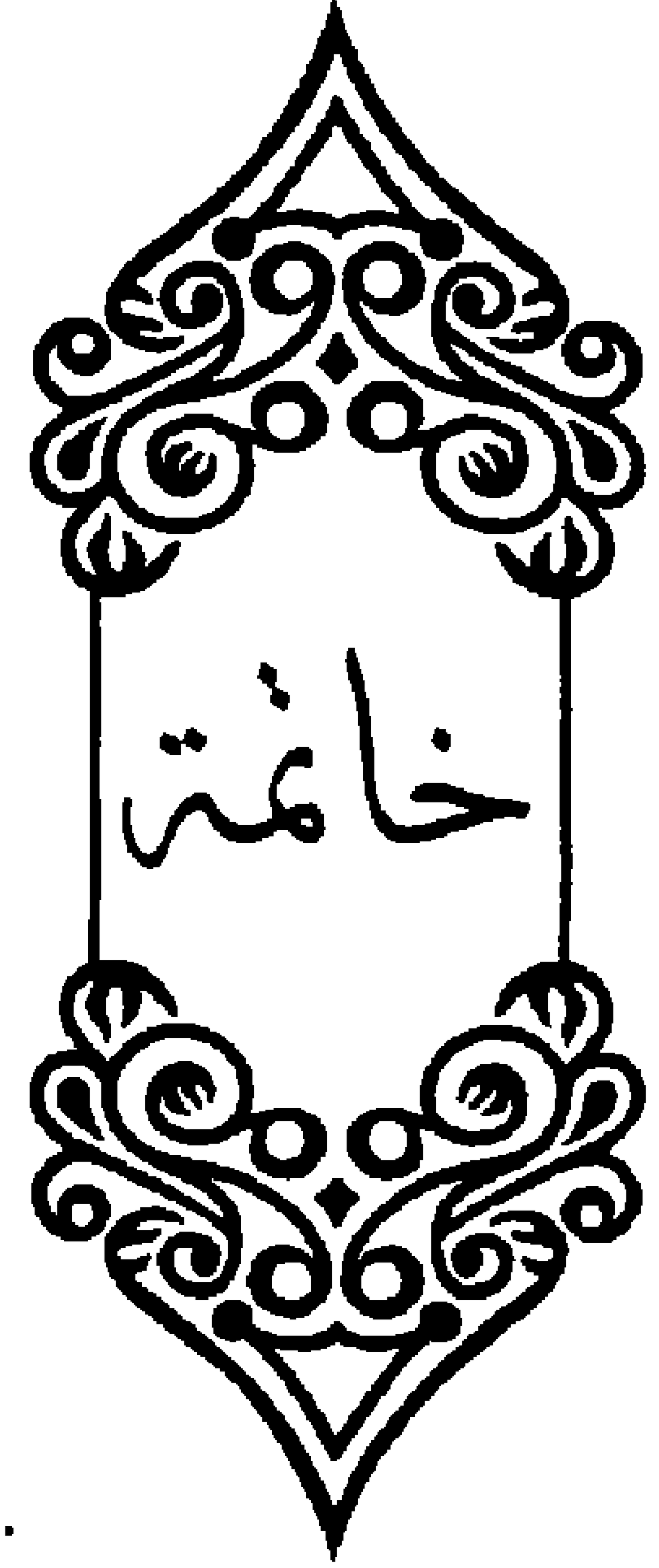
١٢- سقطت دولة المماليك على يد [المغول- البرتغاليين- العثمانيين].

النشاط التعليمي للوحدة الثانية عشرة

عزيزي الدارس:

حتى تكتسب المزيد من المعلومات المتعلقة بموضوع هذه الوحدة نقترح عليك إنجاز النشاط التعليمي التالي:

- اكتب مذكرات تاريخية عن كل من:
  ١- دولة المماليك البحرية.
  ٢- دولة المماليك الجراكسة.
  ٣- موقعة عين جالوت.



تم بفضل الله تعالى وتوفيقه الانتهاء من دراسة تاريخ الدولة الإسلامية في عصر من عصورها الزاهرة، تناولنا فيها دولة الخلافة الإسلامية في العصر الأموي السفياني والمرواني، ثم تناولنا دراسة الدولة العباسية في عصرها الأول والثاني، ومدى الإنجازات التي تمت في عهد هذه الدولة، ثم تناولنا الحكم الإسلامي في الأندلس وفي شمال إفريقيا، والدول الإسلامية المستقلة في المشرق الإسلامي، ومحاولة إنقاذ الأندلس من الانهيار، وتحليل أسباب هذا الانهيار والسقوط.

وقد تناولنا أيضا دراسة الدولة الحمدانية ودورهم في جهاد الروم، والنهضة الحضارية في عهدهم، ثم تناولنا تاريخ الدولة الطولونية والأخشيدية، وجهود محمد بن طغج الأخشيد في قيام دولة الأخشيد ثم تناولنا دراسة الدولة الفاطمية وأثرها في الحضارة الإسلامية، وبينا كيف انتشر مذهبهم ثم تناولت الدراسة تاريخ الدولة الأيوبية، وكيف كانت هذه الدولة مصدر خير وانتصار للإسلام، وفتحا لبيت المقدس على يد صلاح الدين الأيوبي. وأخيراً كانت دراستنا للدولة المملوكية التي كان لها أثرها في الحضارة الإسلامية، وكيف كان لها دورها في إنهاء الوجود الصليبي، والخطر المغولي، ثم انتهينا إلى فضل دولة المماليك في المجال العسكري والعمراني والاقتصادي. وقد أبرزنا هذه الحقبة من التاريخ بما لها وما عليها وأظهرناها للدارسين في ثوبها اللائق بها لتكون عبرة لأولى الباب. يستفيد منها الدارسون، وينتفع بها طلاب العلم أجمعون مساهمة من الجامعة الدولية في نشر العلم والمعرفة.

الفهــــرس

البرامج

تقدم الجامعة مجموعة من البرامج الدراسية المتميزة فى التخصصات الآتية

شعبة الدراسات الإسلامية والعربية

دبلومة الدراسات الإسلامية والعربية:
٤ دبلومات عامة تعادل فى مجموعها شهادة البكالوريوس
بكالوريوس شعبة عامة
دراسات عليا (ماجستير ودكتوراة)
تخصصات : شريعة - أصول دين - لغة عربية
كما تنفرد الجامعة بتقديم برنامج الدراسات الحرة دون اشتراط المؤهل الدراسي

شعبة الإعلام

دبلوم - ماجستير - دكتوراه
تخصصات : الصحافة والنشر - إذاعة وتليفزيون - علاقات عامة وإعلام

شعبة الاقتصاد

دبلوم - ماجستير - دكتوراه
تخصصات : اقتصاد إسلامي - المصارف و الأسواق المالية - اقتصاد دولي - اقتصاديات بيئة - تنمية وتخطيط

شعبة إدارة الأعمال

دبلوم - ماجستير - دكتوراه
تخصصات : تسويق - تمويل - إدارة موارد بشرية

مزايا

يمكنك الالتحاق بالدراسات العليا عند اجتيازك ٧٥% من مقررات البكالوريوس.

لا يعد الطالب منقطعا عن الدراسة في المدة التي يقضيها زائراً في جامعة أخرى معترف بها من قبل الجامعة الدولية وتعادل له المواد وفقاً لضوابط المعادلات بالجامعة.

يمكنك الإلتحاق ببرامج متوافقة مع جامعة الأزهر عن طريق اجتياز عدد من المقررات التأهيلية في العلوم الإسلامية والعربية.



التسجيل

مباشراً : من خلال إدارة شئون الطلاب
عبر الانترنت : من خلال الموقع الإلكتروني للجامعة

راسلنا

البريد الإلكتروني : webmaster@uial.org
الموقع الإلكتروني : www.uial.org
مكتب القاهرة : هاتف : ٢٤٠١٢٠٦٩ (٢٠٢+) فاكس : ٢٤٠٤٦٣٤٠ (٢٠٢+)

